سراب
في كأس التفاؤل

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٣/١٠١٢)

٣٠٦
قاسم، موسى يعقوب
سراب في كأس التفاؤل / موسى يعقوب قاسم._عمان:
دار المأمون ، ٢٠٠٩.

(٢٣٢) ص.
ر.أ. : ((٢٠٠٩/٣/١٠١٢)).
الواصفات:/الثقافة الجماهيرية//الثقافة// المنوعات الأدبية/

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي :
مكتوب للتصميم والخدمات المطبعية
عمان – العبدلي – هاتف : ٤٦١٤٨٨٤



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E- mail: daralmamoun@maktoob.com



موسى يعقوب قاسم

قائمة المحتويات

مقدّمةٌ

إذا ما انتشرت ثقافةُ الكذبِ وعمّتْ في مجتمعٍ فهي المقدّمةُ الأكيدةُ لبدءِ زوالِ حضارةِ المجتمعِ عن مسرحِ الوجودِ الفكريِّ الفاعلِ المؤثّرِ للبشريّةِ. للأسفِ الشديدِ يعيشُ العالَمُ حاليّاً عصراً فيهِ يفلَحُ أهلُ الكذبِ أكثرَ بكثيرٍ مما لوَ كانوا صادقينَ مع أنفسِهم ومعَ الغيرِ. الكذبُ رذيلةٌ يجبُ العملُ على الحدِّ من تفاقُمِها، بل والتخلّصِ منها ما أمكنَ. حاليّاً تجري الأعمالُ المتصلةُ برذيلةِ الكذبِ تحتَ أسماءَ وعناوينٍ برّاقةٍ في مجالِ الإعلامِ والتّسويقِ والتّنافسِ وبدافعِ الإمساكِ بزمامِ الأمورِ والمبادراتِ.

الطبيعةُ والحياةُ والزّمنُ جميعاً لا ينطلي عليها الكذبُ. لا بل إنَّ الطبيعةَ هي ألدُّ أعداءِ الكذبِ وهي الكاشفةُ الحقيقيّةُ لزيفِ الأمورِ وخداعِها. يبدأُ الكذبُ بأنْ يكونَ على النّفسِ وهذا أكثرُ أنواعِ الأعمالِ غباءَ، ثم ينتقلُ ليكونَ على الآخرينَ وذلكَ أكثرُ أنواعِ الأفعالِ جسارةً وعدوانيّةً وقبحاً. في النهايةِ تجتمعُ حصيلةُ الكذبِ على النّفسِ والآخرينَ لتودي بالأفرادِ والمجتمعاتِ والأممِ والحضاراتِ. بأيديها وأعمالِها وأفعالِها تذهبُ هذهِ الفئاتُ البشريّةُ إلى هاويةِ الاضمحلالِ والانقراضِ، غيرَ مأسوفٍ عليها وتُذكَرُ في كتبِ التّاريخِ والسّيرةِ على أنّها حلّتْ بها لعناتٌ مستحَقّةٌ.

كذبُ الجاهلِ قد يبرّرُهُ جهلُهُ، وكذبُ الفقيرِ قد يبرّرُهُ فقرُهُ وحاجتُهُ، وكذبُ الضعيفِ قد يبرّرُهُ ضعفُهُ وعوَزُهُ، وكذبُ المتخلّفِ عقليّاً وجسديّاً قد يبرّرُهُ تخلّفُهُ. في الطرفِ النقيضِ ما الذي يبرّرُ كذبَ المتعلّمِ والغنيِّ والقويِّ والقادرِ المتحكّمِ عقليّاً وجسديّاً؟!. من المفارقاتِ العصريّةِ أنَّ المتعلّمَ والغنيَّ والقويَّ والكاملَ عقليّاً يمارسونَ الكذبَ والتزويرَ والتلفيقَ والنّفاقَ أكثرَ من أضدادِهم من الجهلاءِ والفقراءِ والضعفاءِ والقاصرينَ عقليّاً وجسديّاً. اللهمَّ إلا من ثلّةٍ من البشرِ الصّالحينَ والأولياءِ والمرسَلينَ والمصلِحينَ والزّاهدينَ والقانعينَ هنا أو هناكَ عبرَ التاريخِ إلا أنَّ جلَّ أفرادِ طبقاتِ المجتمعِ المختلفةِ يمارسونَ الكذبَ بحدّةٍ متفاوتةٍ وحسبَ الضّرورةِ وبناءاً على ما تقتضيهِ الحاجةُ.

الحالُ مع أعمالِ التّأليفِ والطّباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ والتسويقِ خاصّةً في البلدانِ النّاميةِ، وربّما النّاميةِ حصراً، هي امتدادٌ لدوّامةِ ثَقافةِ الكذبِ التي تغرقُ فيها المجتمعاتُ المتخلّفةُ اجتماعيّاً واقتصاديّاً وتربويّاً وتعليميّاً وإداريّاً وتنظيميّاً. في ذلكَ يجبُ على المرءِ أنْ لا يغترَّ بأشكالِ وأقوالِ وتصرّفاتِ ووعودِ النّاشرينَ، التي في معظمِها جوفاءُ خرقاءُ وتعجُّ بالصّفاقةِ ونقصِ احترامِ ذكاءِ وحفظِ حقوقِ الغيرِ. على المرءِ الذي يتمتّعُ بالحدِّ الأدنى

من الحكمةِ والعقلانيّةِ ومحاولةِ الحفاظِ على حقوقهِ وماءِ وجههِ أنْ يذهبَ إلى أبعدَ من ذلكَ، وبكثيرٍ على الأرجحِ! على السلطةِ الرسميّةِ الرّشيدةِ أنْ تتدخّلَ بحزمٍ كافٍ في أمورِ الكتابةِ والطّباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ والتسويقِ بشكلٍ يقلّلُ الآثارَ المشينةَ لثقافةِ الكذبِ المستشريةِ. بمعنىً آخرَ يجبُ على الحكومةِ فرضُ أمرٍ واقعٍ يستلزمُ وضعَ عقدِ اتفاقٍ بينَ الكاتبِ والنّاشرِ يخوضُ في كافّةِ التفاصيلِ الأساسيَّةِ والفرعيّةِ العامّةِ والدّقيقةِ. عقدٌ "اجتماعيٌّ" يحفظُ حقوقَ كافّةِ الأطرافِ ويرحمُهم من أنفسِهم لأجلِ أنفسِهم، ولا يسمحُ

لشياطينِ التفاصيلِ من السيطرةِ والتحكّمِ بالأوضاعِ؛ يكونُ ذلكَ منذُ الدّقيقةِ الأولى لتسليمِ المخطوطةِ للنّشرِ وحتى بيعِ آخرِ نسخةٍ من الإصداراتِ. ذلكَ أسوةً أو تأسّياً بما وصلتْ إليهِ الحالُ في دورِ النّشرِ في العالَمِ المتحضّرِ شمالاً وغرباً، لكنْ ليسَ شرقاً وجنوباً.

ككاتبٍ ومؤلِّفٍ حديثٍ في مجالِ الكتابةِ باللغةِ العربيّةِ عانيتُ الأمرّيْنِ على مدى أكثرَ من نصفِ عقدٍ من السّنينِ. لا يزالُ هذا الأمرُ يسيراً! مقارنةً مع غيرِيَ ممّن نموا وترعرعوا وقضوْا نحبَهم في الكتابةِ، إمّا فيها أو من الجوعِ والمرضِ لضعفِ المردودِ الماديِّ وتفاقمِ سوءِ الطّالعِ فيها. في هذهِ الأطروحةِ ودَدْتُ لو يستفيدُ الكتّابُ والنّاشرونَ والقرّاءُ والمسئولونَ وعامّةُ النّاسِ من هذهِ التجربةِ التي وإنْ وُضِعتْ على شكلِ روايةٍ قصصيّةٍ تجنّباً لإحراجِ البعضِ، أو الإحراجِ من البعضِ، إلا أنّها حقيقيّةٌ حتّى نخاعِ العظمِ. من المعروفِ أنّهُ في المجتمعاتِ العربيّةِ الحاليّةِ لا يرغبُ المسئولونَ برؤيةِ نصٍّ أدبيٍّ تحليليٍّ واقعيٍّ يضعُ النّقاطَ على الحروفِ ويسمّي الأمورَ والأسماءَ بمسمّياتِها. لذلكَ ينامُ اللصُّ أو الكذّابُ أو السّارقُ أو النصّابُ أو الملعونُ، كلٌّ قريرَ العينِ حينَ يرى أنَّ اسمَهُ وسمعتَهُ وشرفَهُ يحميها جميعاً جمعٌ عرمرمٌ من الجيشِ والشّرطةِ والأمنِ السريِّ والعلنيِّ، والدّستورِ والقانونِ والعُرفِ الاجتماعيِّ فوقَ كلِّ هذا وذاكَ.

بتاتاً وأبداً وقَطعاً وعلى الإطلاقِ، لا أتمنّى لغيريَ الولوجَ في هكذا مصاعبَ ومتاعبَ وأهوالٍ وكوارثَ على الصحّةِ والأعصابِ والحياةِ الحسنةِ والمصيرِ في الدّنيا والآخرةِ. آملُ أنْ يتّسعَ صدرُ من تنطبقُ عليهِ هذهِ الأوصافُ المسرودةُ وأنْ يعملَ على إصلاحِ الأمورِ، من أجلِ نفسهِ أوّلاً وثانياً وثالثاً ... إلى ما قبلَ أخيراً. اللغةُ والثّقافةُ والحضارةُ العربيّةُ والإسلاميّةُ بحاجةٍ ماسّةٍ من الجميعِ إلى وقفةٍ صادقةٍ مع النّفسِ والآخرينَ قبلَ أنْ يضيعَ زمامُ الأمورِ ويصبحَ غيرَ قابلٍ للاستردادِ، وعلى الإطلاقِ.

المؤلِّفُ

تجارةُ الخزعبلاتِ

توجدُ في العالَمِ العربيِّ المعاصرِ العشراتُ من دورِ الطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ وتتركّزُ في جلِّها في العواصمِ السياسيةِ والتجاريةِ. تتخصّصُ دورُ النشرِ العربيةُ في نشرِ وتوزيعِ مختلفِ منشوراتِ الموادِ من علميةٍ وأدبيةٍ وفنيةٍ وتجاريةٍ وزراعيةٍ وصناعيةٍ وتقنيةٍ وحاسوبٍ .... لكنَّ الموادَ الفكريةَ الأكثرَ تركيزاً عليها وبشكلٍ شبهِ مطلقٍ هي تلكَ الأدبيةُ. يعودُ ذلكَ إلى التخلّفِ المزمنِ الذي يصيبُ القدراتِ العلميةَ والصناعيةَ والتقنيةَ العربيةَ. حتى في المجالاتِ الأدبيةِ والفنيةِ هنالكَ جنوحٌ واضحٌ نحوَ الترجمةِ شبهِ الحرفيةِ عن مختلفِ اللغاتِ والثقافاتِ الأخرى، وإيلاجِها بطريقةٍ أو بأخرى في جسدِ اللغةِ والثقافةِ العربيةِ ومجتمعاتِها. بسببِ المعيقاتِ والقيودِ والمحدِّداتِ والحواجزِ والأسوارِ والموانعِ الموضوعةِ في دروبِ الكتّابِ والمؤلفينَ والناشرينَ العربِ أصبحَ منَ الأسهلِ والأسرعِ والأضمنِ والأكثرِ أمناً وأماناً اللجوءُ إلى مؤلَّفٍ أجنبيٍّ وترجمتُهُ حرفياً، مع بعضِ التصرفِ بما يناسبُ ظروفَ البلدِ والمجتمعِ العربيّيْنِ.

يضيفُ القرّاءُ العربُ عبئاً على كاهلِ المؤلِّفينَ والناشرينَ العربِ لقلةِ وتناقصِ أعدادِهم وضعفِهم في القراءةِ، وتبعاً لذلكَ في قوّتِهم الشرائيةِ. ذلكَ ما يجعلُ سوقَ الكتابِ العربيِّ يهبطُ أكثرَ باتجاهِ الحضيضِ ويجعلُ الناشرَ والمؤلّفَ العربيينِ لا ينفكّانِ يندبانِ حظيْهما في اختيارِ كلٍّ منهما مهنتَهُ وحياتَهُ معتمدتينِ على سوقِ الكتابِ العربيِّ. من جانبهِ القارئُ باللغةِ العربيةِ اليومَ يواجهُ معضلةً قديمةً جديدةً مؤسفةً ألا وهيَ فقدانُ الكتابِ العربيِّ المادةَ المفيدةَ أو الدسمةَ التي يودُّ القارئُ أو المتعلمُ الحصولَ عليها بأسرعِ الطرقِ وأقلِّها تكلفةً. يعودُ السببُ في تدني مستوى الكتابِ العربيِّ إلى توجّهِ أجهزةِ التربيةِ والتعليمِ في مؤسّساتِ العالمِ العربيِّ الأكاديميةِ والفنيةِ والتطبيقيةِ إلى اعتمادِ التدريسِ باللغاتِ الأخرى وتركِ اللغةِ العربيةِ تواجهُ مصيراً مجهولاً بل قاتماً وقاتلاً. الكاتبُ أو المؤلِّفُ العربيُّ كثيراً ما يلجأُ إلى التكرارِ المملِّ للأفكارِ واقتباسِ الأفكارِ الجديدةِ والاستحواذِ عليها كما لو كانَ هو السبّاقَ إليها؛ ذلكَ ما يمكنُ أنْ يُعرفَ بالسرقاتِ العلميةِ والفكريةِ والذهنيةِ التي تحصلُ بشكلٍ روتينيٍّ حتى باتت تبدو عاديّةَ الحدوثِ. باتَ السوقُ الفكريُّ العربيُّ في وضعٍ لا يحسدُ عليهِ داخلياً وخارجياً وأوجبَ ذلكَ القيامَ بحركةٍ أو عمليةٍ ثوريةٍ طويلةٍ مضنيةٍ لإنقاذِ الموقفِ قبلَ فواتِ كلِّ أوانٍ على اللغةِ والثقافةِ العربيتيْنِ وأنصارَيْهما. من الواجبِ أنْ تهدفَ العمليةُ الثوريةُ المتكاملةُ هذهِ إلى تحسينِ وضعِ الكاتبِ والكتابِ والناشرِ والقارئِ، كلُّها في النهايةِ تؤدّي إلى

استرجاعِ الاعتبارِ للمادةِ الفكريّةِ والثقافيّةِ العربيّةِ المكتوبةِ أو المقروءةِ. يبدو الأمرُ من قبيلِ شبهِ المستحيلِ، بل المستحيلِ بعينهِ، في ظلِّ سيادةِ التخبّطِ والفوضى والتخلّفِ

والفسادِ الإداريِّ والتعليميِّ والتنظيميِّ. هذا إضافةً إلى الهجمةِ الثقافيّةِ الخارجيّةِ الشرسةِ والغزوِ الفكريِّ الخارجيِّ المحدقِ الذي من الصعبِ أنْ ينجوَ منهما أحدٌ.

هنا نودُّ التركيزَ على أمرٍ أقلَّ اتساعاً وتفرعاً ألا وهي الحالةُ العامةُ السائدةُ لدى دورِ النشرِ العربيةِ وعن مساهمتِها في بثِّ الروحِ الأصيلةِ في الفكرِ والوعيِ والإبداعِ والعلمِ والفلسفةِ، وحتى التقنيةِ الحديثةِ، العربيِّ والعربيةِ لكلٍّ منها. كغيرها من معضلاتِ الحياةِ العامةِ المزمنةِ في العالَمِ العربيِّ يبدو الأمرُ أقربَ إلى المهزلةِ أو العبثيةِ منهُ إلى النجاحِ في إنتاجِ ونشرِ فكرٍ خلاقٍ أو إبداعيٍّ أصيلٍ. يمكنُ تصويرُ الوضعِ العامِّ بالحرجِ جداً لما يجري في بيئاتِ دورِ نشرِ الكتبِ الناطقةِ باللغةِ العربيةِ. في هذا الاتجاهِ يمكنُ ربطُ الأمورِ على شكلِ نقاطٍ بمجموعةٍ من الظروفِ والوقائعِ والحيثيّاتِ والشروطِ الميدانيةِ التي يجبُ على الكاتبِ أو المؤلِّفِ العربيِّ توخّيها أو حتى المرورُ بها قبلَ ولوجهِ في مسيرةِ التأليفِ الشاقةِ، والتي بدت للكثيرينَ ممن دخلوا فيها غايةً في الفشلِ والعبثيةِ العميقةِ. هذهِ الشروطُ والظروفُ الموضوعيةُ تحدثُ في جلِّها في سياقِ عمليةِ التأليفِ والكتابةِ والطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ. في النهايةِ تهدفُ الرؤيةُ هذهِ إلى محاولةِ خلقِ بيئةٍ حيويةٍ مثمرةٍ ومريحةٍ لمكوناتِ السوقِ الفكريةِ الإنتاجيةِ ألا وهيَ الكاتبُ والناشرُ والقارئُ. هذهِ الشروطُ والظروفُ يمكنُ تلخيصُ قسمٍ منها على النحوِ التالي :

• يُفضَّلُ أنْ يكونَ المؤلِّفُ صغيرَ السنِّ مقبلاً على الحياةِ والمستقبَلِ لإفساحِ المجالِ أمامَهُ أو أمامَها لاستيعابِ التجاربِ مع السوقِ أولاً بأولٍ والتغلبِ عليها بما تحتاجُ إليهِ من وقتٍ لا مفرَّ أنْ يكونَ طويلاً. ذلكَ شأنٌ عالَميٌّ لكنّهُ يأخذُ منحىً أكثرَ عمقاً وحساسيّةً في حالِ الدّولِ الناميةِ.

• أنْ يكونَ المؤلِّفُ، من ذكرٍ أو أنثىً، سليمَ القلبِ والجهازِ العصبيِّ قويَّ جهازِ المناعةِ ومستعداً للتضحيةِ بالكثيرِ مادياً ومعنوياً ونفسياً مقابلَ القليلِ من الريعِ والمردودِ الماديِّ والمعنويِّ. تلكَ مواصفاتٌ عادةً أو غالباً ما يتمتّعُ بها من هم في سنِّ الشبابِ أو في سنٍّ أقلَّ كثيراً من سنِّ اليأسِ في الإنتاجِ الفكريِّ والعقليِّ الإبداعيِّ. في هذا السياقِ الصحيِّ والطبيِّ يمكنُ اللجوءُ حتى إلى إجراءِ فحوصٍ وتجاربَ باستخدامِ جهازِ الطردِ المركزيِّ على الكتّابِ والمؤلّفينَ، المخصّصِ للطيارينَ الحربيينَ وروّادِ الفضاءِ، يوضعُ فيهِ الكاتبُ أو المؤلِّفُ المرشّحُ لقياسِ قدرتهِ على البقاءِ طويلاً في ظروفٍ نفسيةٍ ومعنويةٍ قاسيةٍ.

• بعدَ ولوجهِ في عمليةِ التأليفِ والإنتاجِ والتعاملِ مع سوقِ الكِتابِ من المستحسنِ أنْ يُجريَ الكاتبُ فحوصاً دوريةً لأجهزةِ البنكرياسِ المتحكِّم بإنتاجِ هرمونِ الأنسولينِ المسئولِ عن تنظيمِ مستوى السكّرِ في الدّمِ. إذا ما توفّرت لَديهِ بعضُ الإيراداتِ الماليةِ! على الكاتبِ أنْ يفحَصَ وبشكلٍ دوريٍّ مستوى الكولسترولِ وضغطِ الدمِ وهشاشةِ العظامِ ... إلخُ إلخُ إلخُ. على الكاتبِ أنْ يتأكّدَ أنْ لا يأتيَ من جهةِ أيٍّ مما ذُكرَ أعلاهُ ما يمكنُ أنْ يتطوّرَ نحوَ الأسوأِ، ويحوّلَ حياتَهُ أو حياتَها إلى شبهِ جحيمٍ نفسيٍّ ومعنويٍّ وبدنيٍّ، بفعلِ الدخولِ في عمليةِ التأليفِ والإنتاجِ الفكريِّ التي تمتازُ برفعِ جلِّ مستوياتِ الأعراضِ والأمراضِ المذكورةِ أعلاهُ وغيرِها في جسدهِ.

• أن يكونَ الكاتبُ أو المؤلِّفُ ذا باعٍ طويلٍ في الصبرِ وطولِ البالِ والمكابدةِ والمعاناةِ، بشكلٍ خَلقيٍّ وراثيٍّ أو مكتسَبٍ إنْ أمكَنَ لهُ ذلكَ. في ذلكَ يمكنُ لذلكَ الشخصِ أنْ يلجأَ إلى قراءةِ كتبِ سيرةِ الأنبياءِ والصالحينَ والمناضلينَ العنيدينَ، ومن الأنبياءِ مثلاً أيّوبُ ولوطُ نفسيهما عليهما السلامُ، ويحاولَ الاستفادةَ من منهاجِ حياتِهم كما وردَ في كتبِ السّيرةِ.

• أنْ يكونَ لدى الكاتبِ أو المؤلِّفِ مصدرٌ ماديٌّ أو ماليٌّ آخرَ وفيراً وشديدَ الاستقلاليةِ عن الفكرِ والكتابةِ والتأليفِ والتعاملِ مع دورِ النشرِ العربيةِ. معظمُ دورِ النشرِ العربيةِ تعاني ماليّاً إلى درجةِ الإفلاسِ غيرِ المعلَنِ وتشترطُ على المؤلِّفِ دفعَ مبلغٍ عالٍ عدّاً ونقداً مقابلَ الشروعِ في التعاملِ مع المخطوطاتِ المقدَّمةِ والمرشّحةِ للنّشرِ. وفرةُ المالِ لدى الكاتبِ تحفظُ لهُ كرامتَهُ وتقيهِ من شرِّ الوقوعِ في متاهاتِ انتظارِ الرزقِ من السوقِ الفكريِّ إذا ما يضطرُّ للبحثِ عن بديلٍ مشرِّفٍ لهُ ولأسرتهِ وعائلتهِ الكبيرةِ!، قد لا يجدُهُ بسهولةٍ. في العقدِ الأولِ من بدءِ كتابتهِ وقبولهِ في دورِ النشرِ على الكاتبِ أنْ لا يأملَ كثيراً حتى في لعقِ إصبعهِ الصغيرِ من ريعِ بيعِ مؤلّفاتهِ، هذا مع التفاؤلِ المفرطِ. على المؤلِّفِ المتحمِّسِ أنْ يعيَ أنَّ هنالَكَ كثيرينَ منَ الكتّابِ والمؤلِّفينَ ممن ماتوا جوعاً أو برداً أو حرّاً أو من الابتلاءِ بمرضٍ عُضالٍ بالقربِ من قارعاتِ الطرقِ؛ لم يتمكَّنْ هؤلاءِ من زيارةِ عيادةِ طبيبٍ قد تكونُ مجاورةً لهم في الحيِّ. في ذلكَ يمكنُ وضعُ اللومِ على الكاتبِ نفسهِ والناشرِ والقارئِ والمجتمعِ المحيطِ والمسئولينَ الحكوميينَ، واللهُ تعالى أعلمُ بالنسبةِ المئويةِ للّومِ والمسئوليّةِ المخصّصةِ لكلٍّ منهم. في السّياقِ المادّيِّ والماليِّ نفسهِ هنالكَ من الكتّابِ المحافظينَ عقائديّاً أصلاً من تخلّى عن مواقفهِ المحافِظةِ واضطرَّ للكتابةِ بشكلٍ إيجابيٍّ في شئونِ الدعارةِ مثلاً وجوازِ العملِ فيها والتعاملِ معها، وحتى بطريقةٍ أدبيةٍ جذابةٍ. عادةً ما يجري ذلكَ تحتَ وابلٍ من الضّغوطِ الماليّةِ والمعنويّةِ

والنفسيّةِ طويلةِ الأجلِ وحينَ لا يجدُ هؤلاءِ الكتّابُ بُدّاً حتى من اللجوءِ إلى مجتمعاتٍ أخرى تُعتبرُ فيها الدعارةُ وجهاً مشروعاً للحياةِ وكسبِ الرزقِ.

• على الكاتبِ والناشرِ العربيّيْنِ أنْ يلتزما بالخطوطِ العريضةِ والحمراءِ والقيودِ والحدودِ والمحدِّداتِ وأنْ لا يتعدّيانِها إلى الطرفِ الآخرِ، من الخطِّ المرسومِ، شديدِ الخطورةِ عليهما. ذلكَ يدخلُ في عدادِ الحفاظِ على الكاتبِ والناشرِ من الوقوعِ في قبضاتِ رجالِ الأمنِ الأشاوسِ المختارينَ بعنايةٍ والمؤدّيةِ بعدَ القبضِ عليهما بسهولةٍ إلى السجنِ، أو التعرضِ لمضايقاتِ المجتمعِ والمحيطِ والبيئةِ البشريةِ العامّةِ؛ وربما يؤدي الأمرُ بأيٍّ منهما أو كليهما إلى اللجوءِ إلى بلدٍ آخرَ هرباً بجلدهِ وحياتهِ وماءِ وجههِ.

• أنْ لا يأملَ الكاتبُ كثيراً من دخولهِ سوقَ الكتبِ العربيةِ، وأنْ يضعَ في اعتبارهِ أنَّ ذهابَهُ إلى السوقِ الفكريِّ العربيِّ ليسَ نزهةً. حالُ الكاتبِ في الواقعِ كمن يدخلُ إلى غرفةِ عنايةٍ فائقةٍ لمريضٍ في حالةٍ شديدةِ الحرجِ. ربما يعودُ ذلكَ إلى القيودِ والشروطِ المفروضةِ على حريةِ الفكرِ والإبداعِ والنقدِ وإبداءِ الرأيِ الآخرِ خاصةً إذا ما كانَ معارضاً أو معاكساً. في جانبٍ آخرَ لا يقلُّ أهميّةً يعودُ اضمحلالُ سوقِ الكتابِ العربيِّ إلى تلاهي المسئولينَ وروّادِ المجتمعِ بزخرفةِ حياتِهم وبيوتِهم بالمنتجاتِ المستورَدةِ الماديةِ

والفكريةِ والمعنويةِ. أقلُّ من ٠،١% (عُشر بالمائةِ) من تعدادِ أهلِ المجتمعِ العربيِّ قارئونَ جيدونَ أو حتى مهتمّونَ بقراءةِ الكتبِ العربيةِ في الوقتِ المعاصرِ. في الشارعِ العربيِّ العريضِ من الندرةِ بمكانٍ حتى أنْ تجدَ شخصاً يعرفُ كاتباً أو مؤلِّفاً عريقاً حديثاً أو معاصراً مثل "توفيق الحكيم" و"نجيب محفوظ" وغيرِهم قد قرأَ لهؤلاءِ بعضاً من مؤلَّفاتِهم الكثيرةِ. في أغلبِ الأحيانِ أتتْ معرفةُ المؤلِّفِ أو الكاتبِ عن طريقِ وسيلةٍ إعلاميةٍ أو من معلِّمِ المدرسةِ. ذلكَ ما يفسِّرُ حدوثَ اختراقاتٍ يائسةٍ أو حتى انتحاريةٍ بين الفينةِ والأخرى من بعضِ الكتّابِ للمحدِّداتِ الفكريةِ التقليديةِ والدخولِ في متاهاتِ التعارضِ مع الفكرِ الأيديولوجيِّ (الفكرولوجيِّ) والسياسيِّ، واستفهامِ المعتقداتِ السائدةِ بشكلٍ نشازٍ واستفزازيٍّ للبعضِ. يضطرُّ هؤلاءِ الكتّابُ إلى الاقتداءِ بـ"سلمان رشدي" مثلاً لجلبِ انتباهِ القرّاءِ والجماهيرِ لهم عنوةً وعن سبقِ إصرارٍ.

• بسببِ تعسِ حالةِ المتعلّمينَ والمثقّفينَ والقارئينَ العربِ وتلاهيهم وإهمالِهم للغتِهم وثقافتِهم وتوانيهم عن تنميةِ وتشجيعِ الفكرِ الإبداعيِّ العربيِّ باتَ على الكاتبِ الجديدِ في المجتمعِ العربيِّ أنْ يتوخّى كتابةَ النصوصِ الأدبيةِ بشكلٍ قصيرٍ وبإيجازٍ شديدٍ قدْرَ الاستطاعةِ. لم تعدْ لدى الناشرِ والقارئِ العربيّينِ القدرةُ على التحمّلِ والصبرِ لقراءةِ مادّةٍ

طويلةٍ مكتوبةٍ بلغةِ الضّادِ. تبعاً لذلكَ انجرفتْ جموعُ القارئينَ والمبدعينَ والفنانينَ العربُ بالاتجاهِ في التعاملِ مع أمورِ الحياةِ إلى اللغاتِ وطرقِ الحياةِ الأجنبيةِ لأنَّها في نظرِهم أقربُ إلى الترفِ والاسترخاءِ الفكريِّ والسهولةِ في تلقّي نواتجِ الإبداعِ العلميِّ والأدبيِّ والفنيِّ والتقنيِّ العالميِّ. لم تتطوّرْ كتبُ المكتبةِ العربيةِ في الفكرِ والإبداعِ كثيراً عن مستوى الرازيِّ والخوارزميِّ والفارابيِّ والكِنْديِّ وابنِ المقفعِ والجاحظِ وأبي العلاءِ المعريِّ وغيرِهمِ الذينَ ظهروا ولمعوا قبلَ مئاتِ السنينِ. ذلكَ مقارنةً مع المكتبةِ الأجنبيةِ التي نقلت المؤلَّفاتُ فيها مسرحَ الحياةِ العامّةِ والخيالِ الفكريِّ بسهولةٍ ومنطقيةٍ وحتى واقعيةٍ إلى كواكبَ وأقمارٍ بل ومجرّاتٍ وأبراجٍ فلكيةٍ أخرى.

• على الكاتبِ أنْ يتوقعَ أيَّ شيءٍ سلبيٍّ من جانبِ دورِ النشرِ، مثلاً من جهةِ الردِّ البطيءِ أو التجاهلِ الكاملِ كما لو لم يكنْ هنالكَ كاتبٌ أعطى دارَ النشرِ ثمرةَ جهودِ سنينٍ طويلةٍ من عمرِهِ وعملِهِ وسهرِهِ الليالي. بعدَ شهورٍ بل سنينٍ من الانتظارِ يغدو الأمرُ عاديّاً في أنْ لا يتلقّى الكاتبُ جواباً صريحاً ولو خجولاً بعضَ الشيءِ بشأنِ مخطوطةٍ قدّمَها للناشرِ في سبيلِ نشرِها. من غيرِ المستبعدِ على الإطلاقِ أنْ تكونَ اللجنةُ الموكّلةُ بالبتِّ في أمرِ نشرِ المخطوطةِ المقدَّمةِ، وغالباً ما تتكونُ اللجنةُ من الناشرِ صاحبِ الدارِ نفسهِ، لم تفتحْ غلافَ المخطوطةِ ولم ترَ الصفحةَ الأولى أو حتى المقدّمةَ أو العنوانَ. في العالَمِ العربيِّ الحديثِ كثيرةٌ هي الأمورُ العبثيةُ وما الطباعةُ والنشرُ والتوزيعُ وتقاسمُ الريعِ إلا جزءٌ عاديٌّ منها. في ذلكَ تقعُ جلُّ المسئوليةِ على إدارةِ دارِ النشرِ التي غالباً ما توصفُ بالموقّرةِ الغرّاءِ في المراسلاتِ. لم يتوصلْ الناشرُ العربيُّ بعدُ إلى فكرةٍ مفادُها أنَّ وقتَ المؤلِّفِ ليسَ مُلكاً لهُ ولا تَحِقُّ لهُ إضاعةُ أو هدرُ أو التصرّفُ بدقيقةٍ إضافيةٍ واحدةٍ منهُ؛ هذا إذا ما أردنا تجنّبَ الحديثِ عن أسابيعَ وشهورٍ وسنينٍ من الانتظارِ اللا-مجدي لردٍّ من دارِ نشرٍ قد تبدو مرموقةً في نظرِ البعضِ أو حتّى الكثيرينَ. هنالكَ من المؤلِّفينَ من

قضوْا نحبَهم وهم في انتظارِ ردٍّ من دارِ نشرٍ عربيةٍ بشأنِ مؤلَّفٍ وقعَ بأيدي "لجانِها" المقرِّرةِ أو الرافضةِ لنشرِ الكتابِ.

• إذا ما نجحَ كاتبٌ عربيٌّ في نشرِ مادّةٍ فكريةٍ في بلدِهِ على شكلِ كتابٍ مطبوعٍ عليهِ أنْ يصنعَ لكتابهِ أجنحةً خفيّةً تكتنفُ الكتابَ وتحملُهُ وتمكّنُهُ من التسلّلِ إلى دورِ بيعِ كتبٍ أو المكتباتِ العامةِ في الدولِ العربيةِ الأخرى. ما يُسمحُ بنشرِهِ وتداولِهِ في دولةٍ عربيةٍ على الأرجحِ أنْ لا يكونَ الأمرَ ذاتَهُ في دولةٍ عربيةٍ أخرى مهما تكنْ الأخيرةُ قريبةً جغرافيّاً وفكريّاً وتاريخيّاً وحتى في نمطِ نظامِ حكمِها السياسيِّ. جلُّ الأنظمةِ السياسيةِ والمجتمعاتِ العربيةِ، لكن ليس على حدٍّ سواءَ، لا تزالُ تخشى ما قد يكونُ وُضِعَ بينَ

جلدتيْنِ على شكلِ كتابٍ مطبوعٍ يمكنُ اقتناؤُهُ أو تداولُهُ بسهولةٍ. قد يكونُ ما في ذلكَ الكتابِ شرارةً تودي بالنظامِ السياسيِّ أو ببعضِ معتقداتِ وأركانِ كينونةِ ذلكَ المجتمع. بسببِ ذلكَ تكثرُ في المكتباتِ والمعارضِ الدوريةِ العربيةِ للكتابِ نفسُ الكتبِ المتداولةِ أو المؤلَّفةِ منذُ عشراتِ ومئاتِ السنينِ. تلكَ الكتبُ قد تمَّ التأكّدُ بأنَّ مفعولَها باتَ مثلَ مفعولِ الغازِ الخاملِ، لا تضرُّ ولا تنفعُ!.

• أنْ لا يفاجَأَ كاتبٌ في دارِ نشرٍ إذا ما رأى مديرَ الدّارِ أو صاحبَها يطلُّ على الجماهيرِ عبرَ وسيلةٍ إعلاميةٍ مرموقةٍ أو في مدوَّنةٍ في شبكةِ الإنترنتْ يخبرُ المشاهدينَ والسامعينَ لتلكَ الوسيلةِ الإعلاميّةِ أنَّ دارَ نشرهِ بلغتْ مرحلةً متقدمةً. يزعمُ ذلكَ الناشرُ أنهُ قد تمَّ لهُ ذلكَ بفضلِ جهودهِ ومثابرتهِ وحنكتهِ وصبرهِ وتعبِ أفرادِ أسرتهِ وسهرهم على سيرِ الأمورِ وتقدّمِها، وليسَ بسببِ ضحكهِ المتواصلِ على لحى وذقونِ من لجأَ للنشرِ في دارهِ للنشرِ طوعاً أو كرهاً. لا يتردّدُ ذلكَ الناشرُ من تقديم نفسهِ كعرّابٍ أو أبٍ إلهيٍّ نزيهٍ في علاقتهِ مع الكاتبِ والقارئِ والمجتمعِ عموماً. ينسى أو يتناسى الناشرُ أنهُ قدْ تمَّ لهُ ذلكَ التقدّمُ المزعومُ أو الحقيقيُّ بفضلِ جهودِ وعرقِ ودماءِ وآهاتِ وويلاتِ عشراتِ الكتّابِ والمؤلِّفينَ الذين أضاعوا حياتَهم في سبيلِ الوصولِ إلى مجتمعِ القرّاءِ عن طريقِ دارِ نشرهِ ولو في آخرِ يومٍ من أعمارِهم.

• في السياقِ ذاتهِ المذكورِ في البندِ السابقِ أو الأخيرِ على المؤلِّفِ أو الكاتبِ الذي يعاني الأمرّينِ في إبداعهِ أنْ لا يفاجأَ عندَما يرى صورةً لناشرٍ فيها يطلُّ على البشرِ بملابسِ النومِ من خلالِ إحدى النوافذِ أو الشرفاتِ من شبهِ قصرٍ أو **"فيللا"** كبيرةٍ يأوي إليها. غالباً ما يحتسي الناشرُ فنجانَ قهوةٍ أو قدَحاً من الشايِ أو الشوكولاته الساخنةِ من يدِ خادمةٍ لديهِ أو حتى من يدِ زوجتهِ مذكّراً بعهودِ البرجوازيةِ الكلاسيكيةِ القديمةِ البائدةِ. على الكاتبِ صاحبِ الأمعاءِ الخاليةِ والخاويةِ أنْ لا يُفاجأَ حينَ يعلمُ أنَّ لدى أولادِ الناشرِ وبناتهِ أسطولاً أو رتلاً معتبَراً من سياراتِ المرسيدسِ واللاند-كروزرِ والبي إم دبليو تنطلقُ من مرآبِ سياراتهِ الكبيرِ الخاصِّ. تقومُ على العنايةِ برتلِ السياراتِ أعلاهُ مجموعةٌ من الخدمِ والحشمِ وملحقاتِ هذا وذاكَ. هذا في الوقتِ الذي لا ينفكُّ الناشرُ يندبُ حظَّهُ مع الكتّابِ والقرّاءِ والسوقِ الضعيفِ والمسئولينَ الذينَ لم يقدّروهُ حقَّ قدرهِ؛ حتى لو كانَ ذلكَ الناشرُ للتوِّ حاصلاً على جائزةٍ ترضيةٍ أو مكافأةٍ تشجيعيّةٍ سخيّةٍ من

أحدِ المسئولينَ الباحثينَ عن الأضواءِ الرخيصةِ المسلّطةِ عليهِ أثناءَ تسليمهِ لتلكَ الجائزةِ.

• بسببِ طبيعةِ المجتمعِ العربيِّ المحافظةِ وذاتِ العقليةِ التي تميلُ إلى التقوقعِ القبليِّ والحزبيِّ والاجتماعيِّ وتكوينِ المافياتِ والعصاباتِ ومراكزِ القوى النفعيّةِ المصلحيّةِ الضيّقةِ فإنَّ كثيراً مِن دورِ النشرِ واتحاداتِ الكتّابِ والأدباءِ العربيةِ أصبحتْ مثل شركاتٍ محدودةٍ تخصُّ فئةً معينّةً من البشرِ. أصبحتْ تلكَ المؤسساتُ محدودةً بعددِ أفرادِها والصبغةِ التي تسيطرُ عليها وطبيعةِ وعددِ الكاتبينَ والمؤلّفينَ الذينَ يمكنُ قبولُهم فيها. هنالكَ الكثيرةُ من دورِ النشرِ العربيةِ من باتتْ رهينةً مرهونةً بأيدي حفنةٍ من المنتفعينَ بها ويأتيهم رزقُهم عن طريقِ مؤسّسةٍ ملتزمةٍ أو شخصيةٍ سياسيةٍ أو إداريةٍ أو ماليةٍ أو اجتماعيةٍ أو قبليةٍ مرموقةٍ. شأنُ هؤلاءِ في ذلك شأنُ عبدٍ، أو قابلٍ للاستعبادِ، أو مستجيرٍ دخلَ بيتَ سيدٍ حرٍّ كبيرٍ كريمٍ فهو أيْ الدّاخلُ المستجيرُ يشعرُ بالأمنِ الماليِّ والغذائيِّ والوظيفيِّ والمعنويِّ والنفسيِّ طالَما بقيَ في كنفِ تلكَ الشخصيةِ الحرةِ المرموقةِ الكريمةِ. على مثلِ تلكَ المؤسّساتِ تمكنُ قراءةُ الفاتحةِ أو يجوزُ إسداءُ السلامِ النهائيِّ الأخيرِ.

• في العالَمِ العربيِّ الآنَ وربّما بدأتْ منذُ وقتٍ لا بأسَ بقِدَمهِ هنالكَ دورُ النّشرِ المسيَّسةُ أو الملتزمةُ باتجاهاتٍ فكرولوجيّةٍ وسياسيّةٍ معيّنةٍ. الالتزامُ هنا يميلُ إلى أو يعتمدُ على الدينِ والطائفةِ والمذهبِ والعرقِ والشوفينيّةِ (التعصّبُ الإقليميُّ الوطنيُّ) وبدرجةٍ أقلَّ القبليّةِ!. على الكاتبِ المغفّلِ أو الغافلِ أو المستغفَلِ أنْ لا يفاجأَ بدارِ نشرٍ تعاملُهُ بشكلٍ يثيرُ الشّعورَ بالغرابةِ والاستغرابِ دونَ أسبابٍ أو حتّى مبرّراتٍ وجيهةٍ واضحةٍ. على ذلكَ الكاتبِ أنْ لا يُفاجأَ برائحةِ "سمكةٍ عفنةٍ!" تطلُّ عليهِ من جوانبِ وزوايا بعضِ دورِ النّشرِ القديمةِ والحديثةِ هذهِ. هنالكَ دافعٌ أو حافزٌ غيرُ مُعلَنٍ في نفوسِ مالكي وأصحابِ دورِ النّشرِ والأطقمِ العاملةِ الملحقَةِ بهم. لا غرابةَ في سكرتيرِ أو سكرتيرةِ دارِ نشرٍ أو مبيعاتٍ إذا ما تصرَّفا بشكلٍ لا يليقُ بالأدبِ الاجتماعيِّ الرفيعِ والذّوقِ الشخصيِّ العالي. أغلبُ الظنِّ أنَّ هؤلاءِ يريدونَ إخبارَ الكاتبِ بالاختفاءِ عن ناظرِ دارِ النّشرِ أو كما يقولُ التعبيرُ العامّيُّ البائسُ "يريدونَ أنْ يحلئولو (يحلقوا لهُ) على النّاشفِ".

لضيقِ الوقتِ والمكانِ وضعفِ القدراتِ لا يمكنُ الدخولُ في شياطينِ تفاصيلِ شئونِ دورِ الطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ العربيةِ؛ لكلِّ أمرٍ أو قضيّةٍ أو حتى دوّامةٍ في هذا الشأنِ تفاصيلُهُ أو تفاصيلُها الخاصةُ واللهُ تعالى أعلَمُ بالخفايا والأسرارِ الجيّدةِ الطيّبةِ والخبيثةِ. لكنّنا نقولُ أخيراً في هذهِ الأطروحةِ الناقدةِ الناقمةِ أنَّ حالةً بائسةً كالموصوفةِ هنا حولَ الكتابةِ والتأليفِ والطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ لم تحرّكْ ساكناً واحداً لدى المسئولينَ الموكّلينَ القيّمينَ والقوّامينَ لفعلِ أيِّ شيءٍ بالخيرِ يُذكَرُ لترتيبِ وتنظيمِ الأمورِ وتصحيحِ

المواقفِ. حتى التسعيرةُ الثابتةُ الواضحةُ على الكتبِ والمطبوعاتِ والتي من شأنِها أنْ تعطيَ الكتابَ بعضَ قَدْرِهِ على الأقلِّ وتحافظَ على "كرامتِهِ ومؤلِّفِهِ" لم تجدْ طريقَها بعدُ إلى سوقِ بيعِ وتداولِ الكتابِ العربيِّ، أسوةً بنظيرِهِ الغربيِّ أو حتى الشرقيِّ الحديثِ. لا يزالُ الكتابُ العربيُّ يتلوّى ويتمرّغُ بغلافٍ ممسوخٍ بلا ثمنٍ محدّدٍ في ترابِ ورمالِ

وأوحالِ شوارعِ المدنِ العربيةِ في مواجهةٍ يوميةٍ مع أشعةِ الشمسِ وحرارةِ ورطوبةِ الأجواءِ؛ من شأنِ الأخيرةِ أيْ العواملِ الجويةِ والبيئيةِ أنْ تفقدَهُ بريقَهُ ولمعانَهُ وقوّةَ جاذبيتِهِ خلالَ بضعِ ساعاتٍ من ظهورِهِ عليها.

المسئولونَ عن تطويرِ الثقافةِ والمطبوعاتِ والكتبِ واللغةِ العربيّةِ لا يستطيعونَ أنْ يخصّصوا جزءاً يسيراً من وقتِهم لتنظيمِ أمورِ الطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ وحفظِ حقوقِ وماءِ وجهِ وكرامةِ وسلاسةِ حياةِ جميعِ أطرافِ الكتابةِ والنشرِ في العالَمِ العربيِّ. على الحريصينَ على تلكَ الحقوقِ أنْ يدرسوا الموضوعَ من الألفِ إلى الياءِ وأنْ يستفيدوا من القوانينِ السائدةِ في الدولِ والمجتمعاتِ المتقدّمةِ عليهم، في الغربِ وبعضِ الشرقِ. ذلكَ ما يحفظُ القارئَ من نزواتِ الكتّابِ والناشرينَ ويحفظُ حقوقَ الكاتبِ عندَ الناشرِ وحقوقَ الناشرِ عندَ الكاتبِ، وأخيراً حقوقَ الناشرِ والكاتبِ عندَ القارئِ المستهلِكِ. ذلكَ بدلَ الاستمرارِ في حالةِ الفوضى والعبثيةِ والاعتمادِ على ما يُعرفُ بالضميرِ وحلفِ الأيْمانِ التي تصبحُ جميعاً رخيصةً عندَ أوّلِ بريقٍ للعملةِ النقديةِ المستعمَلةِ.

ما سبقَ أعلاهُ أربعةَ عشرةَ نقطةً وحيثيّةً وشرطاً من شروطٍ أخرى قد تكونُ الأخيرةُ غيرُ المذكورةِ أكثرَ شؤماً وفداحةً في شئونِ التفكيرِ والطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ العربيةِ. تلكَ النقاطُ وغيرُها قد تؤدّي بالكاتبِ والمفكّرِ والقارئِ وأخيراً وليس آخراً بالناشرِ العربيِّ أنْ يعضّوا بنواجذِهم بشدّةٍ على أصابعِهم عشراتِ المرّاتِ يومياً. العضُّ الشديدُ بالنواجذِ على الأطرافِ هنا يكونُ على ذلكَ الحظِّ العاثرِ الذي أدّى بهم إلى الوقوعِ في براثنِ الفكرِ المنتجِ والطباعةِ ومحاولةِ التوزيعِ والنشرِ والتسويقِ!، إذا ما يصحُّ التعبيرُ بعدَ أنْ أضحى ذلكَ الوضعُ المأساويُّ واقعاً. في الوقتِ ذاتِهِ هذهِ "وصفةٌ قويّةٌ" تصلحُ لاستمرارِ اضمحلالِ الإبداعِ والثقافةِ والفكرِ والإنتاجِ العلميِّ والتقنيِّ، العربيِّ لكلٍّ منها. المسئولونَ الأكاديميونَ والإداريّونَ والسياسيونَ العربُ، بتوافقٍ مكمِّلٍ! مع مكوّناتِ سوقِ الطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ، مُلامونَ على تحويلِ السوقِ العربيِّ للكتابِ والفكرِ إلى سوقِ فوضىً وعبثيّةٍ وخزعبلاتٍ بألوانٍ وأشكالٍ مختلفةٍ لكنْ محدودةٍ. يحدثُ هذا بعدَ اقترافِ جريمةِ الإقصاءِ الفاضحِ للّغةِ العربيةِ للولوجِ في ميادينِ الصناعةِ والزراعةِ والتجارةِ والإدارةِ والعلومِ المختلفةِ والتقنيةِ القديمةِ والحديثةِ. الآنَ وعلى أيدي الشّركاتِ "التعليميّةِ

الثقافيّةِ" تتعرّضُ اللغةُ العربيّةُ إلى جريمةِ الإقصاءِ عن مسارحِ الموادِّ الأدبيةِ واللغويّةِ والدينيّةِ، وحتّى الإسلاميّةِ. ماذا بقيَ للّغةِ العربيّةِ من شيءٍ حديثٍ أو حتّى قديمٍ كلاسيكيٍّ تزدهرُ بهِ؟!. ذلكَ حقيقةٌ ما يجعلُ كيانَ الأمّةِ الذاتيِّ الداخليِّ، أو ما يُعرفُ بالجبهةِ الداخليةِ الأساسيّةِ الفكريّةِ والثقافيّةِ، في حالةٍ من الاهتزازِ والقابليّةِ للهزيمةِ وحتى الاجتثاثِ من قِبلِ أيّةِ قوّةٍ غازيَةٍ معاديَةٍ عادةً ما توصفُ الأخيرةُ بأنّها غاشمةٌ طاغيةٌ عابثةٌ طامعةٌ.

قصّةُ دارِ "الفخامةُ للنّشرِ"

بلغَ الكتابُ العربيُّ في السوقِ مرحلةَ الإشباعِ "السّلبيِّ" المحليِّ في فرعٍ واحدٍ من فروعِ الكتابةِ، الكتابُ الأدبيُّ باللغةِ العربيّةِ المحكيّةِ والفُصحى "الصمّاءِ". المقصودُ بالصمّاءِ هنا هيَ غيرُ المُشَكّلةِ وخاصّةً على الحروفِ الأخيرةِ من الكلماتِ أو المفرداتِ، القادرةِ على إظهارِ اللباقةِ والجمالِ والخواصِّ والمميّزاتِ المتميّزةِ الفريدةِ للّغةِ العربيّةِ الفصحى. تشكيلُ الأحرفِ وخاصّةً أواخرِ الكلماتِ في اللغةِ العربيّةِ ينقلُها من الصّيغةِ المحليّةِ الضيّقةِ إلى الشّكلِ العالَميِّ المفتوحِ لها والقابلِ للتّطويرِ واستيعابِ المعاني الجديدةِ. مثلاً لا حصراً فالكتابُ العربيُّ في كافّةِ فروعِ الطبِّ مفقودٌ. كيفَ لا يكونُ الأمرُ إلا كذلكَ والطبيبُ والباحثُ في الطبِّ العربيّانِ قد تخلّيا عن لغتهما حتّى أمامَ المريضِ والزّائرِ للأخيرِ في سريرهِ بشكل هزليٍّ ومأساويٍّ خطيرٍ، في آنٍ معاً!؟. يتغنّى الطبيبُ العربيُّ أمامَ نفسهِ وأولادهِ وأهلِ عائلتهِ الكبيرةِ وعشيرتهِ وقبيلتهِ بركوبِ موجةِ الخواجاتِ في التعبيرِ اللغويِّ في الشئونِ والأمورِ الطبيّةِ تاركاً اللغةَ العربيّةَ تذوي وتخيبُ وتخوي أمامَ رياحِ الزّمنِ العاتيةِ والثّقافاتِ الغازيَةِ. ومِن الأطبّاءِ مَنْ إذا ما ووجهَ بتلكَ الحقيقةِ المؤلمةِ، بلَ المخزيةِ، حتّى "يتمنطقَ" بمبرّرٍ مفادُهُ أنْ لا ضيرَ أنْ يتعلّمَ الإنسانُ من بحرِ اللغاتِ الأخرى ما يريدُهُ. يتعامى هؤلاءِ عن حقيقةِ كارثةٍ واقعةٍ لا محالةَ باللغةِ العربيّةِ تؤدّي

إلى استثنائِها بشكلٍ تامٍّ من كافّةِ المراجعِ المختصّةِ بالعلومِ الطبيّةِ والإنتاجِ الطبيِّ الأصليِّ الأصيلِ باللغةِ العربيّةِ.

الأمرُ ينسحبُ على علومِ الصّيدلةِ وكافّةِ فروعِ الهندسةِ والعلومِ الطبيعيّةِ الأخرى. حتّى علمُ الرياضيّاتِ والجبرِ بالذّاتِ الذي بذلَ قدامى المسلمينَ جهوداً معتبَرةً من أجلِ ابتكارهِ وتطويرهِ يخلو من أيِّ رمزٍ يدلُّ على أنّ العربَ كانوا فيهِ هناكَ يوماً ما. فروعُ القانونِ

والإدارةِ العامّةِ والخاصّةِ باللغةِ العربيّةِ أصابَها القحطُ والمَحْلُ وأصبحتْ رفوفُ الكتبِ العربيّةِ في المكتباتِ ومحلاتِ بيعِ الكتبِ مثلَ قاعِ صفصفٍ تذروهُ رياحُ العولمةِ والغزوِ الثقافيِّ العاتيةِ. كتبُ التاريخِ والجغرافيا باللغةِ العربيةِ أصبحتْ بقدرةٍ قادرٍ لا تنطقُ بمادّةٍ فيها الحدُّ الأدنى من الدّسمِ الفكريِّ المُغذّي والممتعِ للقارئِ والباحثِ والدارسِ. نتيجةَ عقودٍ من الهجومِ الاستعماريِّ الثّقافيِّ الشّرسِ أصيبتْ العقليّةُ العربيّةُ المبدِعةُ باللغةِ العربيّةِ بـ"الخَصْيِ الذهنيِّ والعُقم" المزمنيْنِ. شعبيّاً حدثَ انجرافٌ هائلٌ باتجاهِ تعلّمِ اللغاتِ الأجنبيّةِ فيهِ استُنْفِدَتْ بل استُنزفتْ جهودٌ وطنيّةٌ وأموالٌ وممتلكاتٌ ضخمةٌ في سبيلِ نشرِ اللغاتِ والثّقافاتِ الأجنبيّةِ وتعزيزِها. عمليّاً تمَّ قطعُ رأسِ العالَمِ العربيِّ المُبدعِ والمُبتكرِ والمُنتجِ والمفكِّرِ بالعربيّةِ من مستوى المرحلةِ الثّانويّةِ العامّةِ فما فوقَ. اليومَ يحلو لزعيمٍ أو مسئولٍ عربيٍّ رفيعِ المستوى الإداريِّ، لكنْ شبهِ أمّيٍّ لغويّاً وسياسيّاً، ويُشرِّفُهُ أنْ يقصَّ شريطاً فيهِ يَفتتحُ مؤسّسةً ثقافيّةً أو تعليميّةً تحملُ اسماً وعنواناً جدُّ عدائيّيْنِ لوجودِ وكيانِ وكينونةِ اللغةِ والثّقافةِ العربيّتيْنِ؛ يحدثُ ذلكَ بتباهٍ وتفاخرٍ علناً

وعلى رؤوسِ الأشهادِ من وسائلِ الإعلامِ المحليّةِ والعالميّةِ. في تلكَ المؤسّساتِ "الموجّهةِ ثقافيّاً" يعملُ الغرباءُ والمحليّونَ يداً بيدٍ على اقتلاعِ اللغةِ العربيّةِ المجيدةِ من العقولِ الباطنيّةِ للنّاطقينَ الأصليّينَ بها.

أدّى حرمانُ العربيِّ من التفكيرِ والإنتاجِ والإبداعِ والابتكارِ بلغتهِ الأصلِ، العربيّةِ، إلى الحيلولةِ بينَ العربِ ومقوّماتِ التقنيةِ الحديثةِ وتَبعاً لذلكَ مقوّماتِ الاستقلالِ والحريّةِ. البنيةُ الأساسيّةُ أو التحتيّةُ للصناعةِ والتقنيةِ العربيّةِ واهيةٌ، عدا عن كونِها معدومةً؛ لا باللغةِ العربيّةِ ولا بالمستوردَةِ أو المفروضةِ من الخارجِ بالأحرى. المهندسونَ والتقنيّونَ العربُ لا يقدرونَ على صناعةِ أعوادِ ثقابٍ لإيقادِ المواقدِ أو أفرانِ الغازِ، ولا يقدرونَ على إنتاجِ حتّى لُفافاتِ قطنٍ صغيرةٍ معقّمةٍ طبيّاً يمسحُ العربيُّ بها تجويفَ أذنهِ الوسطى بعدَ استحمامهِ. العربيُّ الحديثُ في وادٍ وكلُّ طرقِ ووسائلِ إنتاجِ أدواتِ وآلاتِ وموادِّ التقنيةِ القديمةِ والحديثةِ والمتجدّدةِ في وادٍ آخرَ بعيدٍ. هذا في الوقتِ الذي فيهِ العربيُّ

قادرٌ على شراءِ أو استيرادِ سيّارةٍ فخمةٍ أو طائرةٍ حربيّةٍ أو مدنيّةٍ متقدّمةٍ مجهّزةٍ بآخرِ ما توصّلتْ إليهِ التقنيةُ الحديثةُ. في استوديوهاتِ وسائلِ الإعلامِ العربيّةِ المرئيّةِ لا يخجلُ المذيعُ (أو المذيعةُ) العربيُّ (أو العربيّةُ) على ذقنهِ (أو ذقنِها) من الظّهورِ أمامَ المشاهدينَ العربِ وفوقَ رأسهِ (أو رأسِها) وحولَهُ (أو حولَها) معدّاتُ تصويرٍ وبثٍّ ومراقبةٍ وضبطٍ ليسَ للعربِ فيها حتّى ولو بمثقالِ ذرّةٍ خيراً. أكبرُ ضحيّةٍ لظهورِ الدّولِ الصناعيّةِ الأربعِ، أو الخمسِ أو الستِّ أو السّبعِ، العملاقةِ هو العالَمُ العربيُّ الذي باتت كلُّ مواردهِ الطبيعيّةِ والبشريّةِ الفكريّةِ والإستراتيجيّةِ الضخمةِ تُباعُ في سوقِ النّخاسةِ الدوليّةِ. قادَ الزّعماءُ العربُ شعوبَهم بشكلٍ شديدِ التخلّفِ نحوَ بيتِ طاعةِ التبعيّةِ المقيتةِ للخواجاتِ. حتّى تحافظَ تلكَ الزّعاماتُ على مقاعدِها والشّعوبُ على قوتِ يومِها تضطرُّ الآنَ لبيعِ المقدّراتِ والأوطانِ والمؤسّساتِ والتخلّي عن المقدّساتِ والمبادئِ والثّوابتِ بشكلٍ لا يقبلُهُ أيُّ ذي حِجرٍ.

وحدَها وقفتْ اللغةُ العربيةُ المجيدةُ في معارضِ الكتابِ العربيّةِ المحليّةِ والدوليّةِ مثلَ تمثالٍ قديمٍ. أصابَ الصدأُ والتآكلُ والعفنُ ذلكَ التّمثالَ وباتت تحيطُ بهِ مجموعةٌ من الكتبِ من نوعِ ألنادبةِ للحظِّ والناطقةِ بالخزعبلاتِ. تظهرُ أغلفةُ تلكَ الكتبِ بديكوراتٍ وزخارفَ لجلبِ انتباهِ المغفّلينَ، أو ما تبقّى من المهتمّينَ بشأنِ اللغةِ العربيّةِ الذينَ باتوا يعدّونَ على الأصابعِ في كافّةِ أرجاءِ الوطنِ والعالَمِ العربيّيْنِ. لم يستحِ المتعلّمُ العربيُّ من نفسهِ ولم يعدْ في خلوتهِ إلى ضميرهِ الوطنيِّ والقوميِّ والإنسانيِّ محاولاً فعلَ شيءٍ لإعادةِ ما يمكنُ من اعتبارٍ للّغةِ العربيّةِ المجيدةِ. مَعارضُ ومحلاتُ بيعِ الكتبِ العربيّةِ الدوليّةِ والمحليّةِ باللغةِ العربيّةِ خلتْ بشكلٍ شبهِ تامٍّ مطلَقٍ من زوّارِها القارئينَ من الأطبّاءِ والمهندسينَ والعلماءِ والكتّابِ والمفكّرينَ العربِ. في ذلكَ لا يسعُنا إلا أنْ نقولَ هنيئاً لدورِ النشرِ الأجنبيةِ عبرَ العالَمِ مثلَ دورِ نشرِ "Penguin، McGraw Hill، Oxford، John Wiley، Addison Wisely، Prentice Hall **...."؛ ملأتْ إصداراتُ دورِ النشرِ هذهِ أمخاخَ ورفوفَ مكتباتِ الطبقةِ المتعلّمةِ والمثقّفةِ والمفكِّرةِ العربيّةِ.**

في ديسمبر كانونِ أوّلِ عامَ ٢٠٠٦، وبعدَ سنينٍ من العملِ شبهِ اليوميِّ خاصّةً في الصّباحِ الباكرِ بينَ السّاعةِ الثّالثةِ أو الرابعةِ والثّامنةِ صباحاً، كنتُ قد انتهيتُ من كتابةِ ثلاثةِ مخطوطاتٍ على أشكالِ رواياتٍ مبنيّةٍ على قصصٍ وتجاربَ جدُّ حقيقيّةٍ. تكادُ الرّواياتُ تصبحُ وثائقيّةً بامتيازٍ بالرّغمِ من تحويلِها إلى قصصيّةٍ عن طريقِ استعمالِ الحيواناتِ فيها كشخصيّاتٍ رئيسيّةٍ أو شبهِ رئيسيّةٍ مساعِدةٍ. بسببِ حالةِ التقصيرِ حيالَ الإبداعِ والإنتاجِ والابتكارِ الفكريِّ والتقنيِّ باللغةِ العربيّةِ باتتْ هنالكَ فجوةٌ فكريّةٌ واسعةٌ

عميقةٌ فارغةٌ تؤدّي بالكاتبِ إلى الرجوعِ إلى البيئةِ الأصلِ لتقديمِ عملٍ ما، أصيلٍ متأصّلٍ معبِّرٍ عن الحالِ. في هذا الاتجاهِ لم يبقَ للعربيِّ من شيءٍ يستعملُهُ لخوضِ غمارِ حروبِ التحدِّي والتّنافسِ مع الآخرينَ سوى الحمارِ والبغلِ والجملِ والحصانِ، وبدرجةٍ أقلَّ الكلابِ والحيواناتِ الأخرى. المثيرُ في الأمرِ أنَّ تلكَ المنهجيّاتِ والأفكارَ المستفيدةَ من بيئةِ الحيواناتِ تنجحُ إلى حدٍّ بعيدٍ في وضعِ توصيفٍ وتشخيصٍ لما يجري من مشاكلَ في حالِ الدّولِ النّاميةِ عموماً والعربيّةِ خصوصاً. شخصيّاً فالاستعانةُ بالحيواناتِ في التأليفِ يضيفُ راحةً نفسيّةً لديَّ ككاتبٍ ويعطيني قدْراً من الحريّةِ في التعبيرِ ووصفِ الأمورِ، وربّما وضعِ النقاطِ على الحروفِ وتسميةِ الأشياءِ بمسمّياتِها. ينتجُ عن تلكَ المنهجيّةِ التقليديّةِ القديمةِ في عرضِ القضايا المطروحةِ استقراءٌ لأفكارِ وخواطرِ تلكَ الحيواناتِ وإيماءاتِها واستنباطٌ لعقولِها واستنطاقٌ لألسنتِها، بالطّريقةِ التي يراها الكاتبُ مناسِبةً!. بالإضافةِ إلى استعمالِ الحيواناتِ للحومِها وجهودِها ومزايا التسليةِ والترفيهِ فيها يمكنُ استعمالُها بنجاحٍ! في التفكيرِ وحتّى الإبداعِ الفكريِّ الهادفِ.

في غمرةِ البحثِ عن ناشرٍ يتمتّعُ بالحدِّ الأدنى على الأقلِّ من الاعتبارِ والصّدقِ والأمانةِ، والشّجاعةِ الفكريّةِ إذا ما جازَ التعبيرُ، كان لا بدَّ من عملِ أيِّ شيءٍ. ها قد مضى على بعضِ مؤلّفاتِيَ تنتظرُ النّشرَ حواليْ السّنةَ ونيّفٍ ولم يطرقْ بابِيَ صديقٌ أو مندوبٌ لدارِ نشرٍ أو كاتبٌ مخضرمٌ ذو خبرةٍ في مجالِ التعاملِ مع النّاشرينَ أو مراسلٌ لصحيفةٍ أوَ مجلّةٍ. عليَّ أنْ أقومَ بخطوةٍ ما مهما تكنْ خبطَ عشواءَ. ذاتَ يوم علمتُ من وسائلِ الإعلامِ المحليِّ أنَّ هنالكَ معرضاً للكتابِ سيُقامُ في مكانٍ قريبٍ نسبيّاً من مكانِ إقامتِيَ الدّائمةِ في غربتِيَ عن مسقطِ رأسِيَ. انتظرتُ بفارغِ الصّبرِ حدوثَ ذلكَ المعرضِ حيثُ هنالكَ حظوظٌ وفُرصٌ كثيرةٌ وفيرةٌ للّقاءِ بأكبرِ عددٍ ممكنٍ من النّاشرينَ عن كثبٍ ووجهاً لوجهٍ.

شددتُ الرّحالَ إلى ذلكَ المكانِ وعزمتُ البحثَ في معرضِ الكتابِ المُقامِ عن دارِ نشرٍ لا مانعَ أنْ أضعَ فيها كلَّ "بيضاتِيَ" الفكريّةِ. بعدَ عدّةِ أيّامٍ من البحثِ المضني وبالذّاتِ في آخرِ يومٍ من أيّامِ المعرضِ، والعارضونَ يجمّعونَ أمتعتَهم للرّحيلِ، قابلتُ شابّاً لطيفاً كانَ يجلسُ على طاولةٍ بدا فيها مثلَ موظّفِ استعلاماتٍ. جلسَ ذلكَ الشّابُّ خلفَ طاولةٍ صغيرةٍ أقربَ للاستعمالِ في مقهىً على استعمالِها لأمورٍ أكاديميّةٍ. ما أنْ عرفَ ذلكَ الشّابُّ بوضعِيَ الميئوسِ منهُ حتّى اقترحَ عليَّ على الفورِ عنواناً لدارِ نشرٍ اعتقدَ أنّها قد تكونُ الحلَّ الكافيَ الشّافيَ للمعضلةِ، وتقريباً لا غيرَ تلكَ الدّارِ!. اشتملَ العنوانُ الذي حصلتُ عليهِ، وعلى عجالةٍ، على رقمِ هاتفٍ أرضيٍّ واسمِ شخصٍ موكّلٍ جيّداً للتعاملِ مع هكذا

قضايا، حسبَ اعتقادِ وإصرارِ وتأكيدِ ذلكَ الشّابِ. وَصَفَ الشابُّ اللطيفُ القضيّةَ بالسهلةِ وأنّه لا داعيَ للقلقِ بأيِّ شيءٍ يختصُّ بشئونِ النشرِ ومعرفةِ واحترامِ القانونِ والتفنّنِ في تطبيقِ الذّوقِ العامِّ في التعاملِ مع الآخرينَ. ملخّصُ القولِ السّريعِ، وحسبَ رأيِ ذلكَ الشّابِّ اللطيفِ فإنّهُ "لا تسألْ إلا من كانَ بالأمرِ خبيراً" وأنَّ فرصةَ اللحظةِ الأخيرةِ في البحثِ عن حلٍّ لنشرِ مخطوطاتِيَ ستنجحُ!.

في الأسبوعِ التالي من حينهِ أجريتُ مكالمةً هاتفيّةً مع دارِ النشرِ المقترَحةِ، دارُ "الفخامةُ للنّشرِ". صادفتُ هنالكَ موظّفاً أخبرني بدورهِ على الهاتفِ أنَّ ما عليَّ إلا أنْ أرسلَ مخطوطاتِيَ بالبريدِ العاديِّ أو مع شخصٍ صديقٍ مؤتَمَنٍ قادمٍ إلى تلكَ المدينةِ، متوسّطةِ البعدِ عن مكانِ إقامتِيَ. سُررتُ كثيراً بما سمعتُهُ علَى الهاتفِ وعلى الفورِ أرسلتُ تلكَ المخطوطاتِ في ظرْفٍ بريديٍّ كبيرٍ إلى ذلك العنوانِ، عن طريقِ صديقٍ جدِّ مؤتَمَنٍ على أيِّ شيءٍ مهما غلا سعرُهُ وعظُمتْ قيمتُهُ المعنويّةُ والماديّةُ. بدورهِ قامَ صديقِيَ بتوصيلِ المخطوطاتِ إلى مكتبِ المسئولِ في دارِ "الفخامةُ للنّشرِ"، وبشكلٍ لا يدعُ اعتباراً لأيِّ شكٍّ لديَّ. مضتْ حواليْ العشرةِ أيّامٍ لم أتَلقَّ فيها إشعاراً رسميّاً من دارِ النّشرِ بأنَّ تلكَ المخطوطاتِ قد وصلت وعن ماذا يدورُ في دارِ النشرِ بشأنِها!؟؛ الإشعارُ هنا عن طريقِ الهاتفِ الأرضيِّ أو المحمولِ أو الفاكسِ أو بالبريدِ العاديِّ أو الإلكترونيِّ. قلتُ في نفسِي أنّها مجرّد صفةٍ أساسيّةٍ لمؤسّسةٍ عربيّةٍ أو في دولِ العالَمِ الثالثِ أو النّامي بشكلٍ عامٍّ. ذلكَ الروتينُ والبطءُ في الردِّ وتلكَ اللامبالاةُ جزءٌ لا يتجزّأُ من تصرّفاتِ مؤسّساتِ العالَمِ الثّالثِ. هذهِ المنهجيّةُ البائسةُ تُبقي الأوطانَ والشّعوبَ بحاجةٍ ماسّةٍ لكنْ مشروعةٍ! لمساعداتٍ خارجيّةٍ مشروطةٍ مكلِفةٍ على الخزينةِ العامّةِ والهويّةِ والشخصيّةِ والثّقافةِ والمبادئِ والثوابتِ والعقائدِ والمعتقداتِ.

بدأتُ بإجراءِ مكالماتٍ هاتفيّةٍ دوريّةٍ مع دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" أستعلمُ فيها عن الأحوالِ هناكَ وعن أيِّ عملٍ مقترَحٍ أو ضروريٍّ يجبُ عليَّ القيامُ بهِ. الموظّفُ ويدعى "عَلْمان الكاسي" على الطرفِ الآخرَ من الخطِّ الهاتفيِّ تولّى أمرَ التعاملِ معِيَ، على الهاتفِ حتّى الآنَ. في المكالمةِ الأولى سألني السيّدُ "الكاسي" عن اسمِيَ والمخطوطاتِ التي أتحدّثُ عنها!؟. أعطيتُهُ اسمِيَ الكاملَ وعنوانِيَ وسردتُ لهُ أسماءَ المخطوطاتِ المرسلةِ مسجّلةً على قرصٍ مدمَجٍ، وهي نفسُها على ورقِ طباعةٍ. أخبرني السيّدُ "الكاسي" أنّهُ سيبتُّ في الأمرِ مع الموظّفينَ في الدّارِ وأنّهُ سيردُّ لِيَ الجوابَ لاحقاً. في ذلكَ نِمْتُ على وعدٍ من صوتِ رَجُلٍ، أو ذَكَرٍ!، على الطّرفِ الآخرِ من خطِّ الهاتفِ. لم يفِ السيّدُ "الكاسي" بوعدهِ بعدَ انتظارِ أكثرَ من أسبوعٍ من جانبِيَ.

قَلِقاً على حالِ ومصيرِ المخطوطاتِ أعدتُ الاتصالَ بعدَ أسبوعٍ تقريباً من آخرِ اتصالٍ. في المكالمةِ سألني السيّدُ "الكاسي" عن اسمِيَ والكتبِ والمخطوطاتِ التي يعنيني أمرُها!؟ حينَ أعدتُ الكرّةَ كما حصلَ قبلَ ذلكَ أيْ في المرّةِ الأولى. أخبرني السيّدُ "الكاسي" أنَّ الموظّفَ المناطَ بهِ التعاملَ مع هكذا قضايا غيرُ موجودٍ في حينهِ. عاودتُ الاتصالَ بعدَ حواليْ العشرةِ أيّامٍ وكرّرتُ للسيّدِ "الكاسي" اسمِيَ وعنوانِيَ وأسماءَ مخطوطاتِيَ المرسَلةَ. أخيراً أخبرَني السيّدُ "الكاسي" أنَّ تلكَ المخطوطاتِ قد وصلت! لدارِ "الفخامةِ للنّشر". كانَ ذلكَ الإخبارُ الأكيدُ أو التأكيدُ عن تسلّمِ تلكَ المخطوطاتِ بعد حواليَ الشهريْنِ من تسليمِ المخطوطاتِ لدارِ "الفخامةُ للنّشر". في المكالمةِ تمَّ التأكيدُ على أنَّ المخطوطاتِ قد وصلتْ إلى أيادٍ أمينةٍ، ولا داعيَ للقلقِ بشأنِ الخطواتِ التي تلي.

اطمأنَّ قلبيَ على وهنٍ ومضضٍ، لكنَّ شعوراً بعدمِ الراحةِ من تلكَ الجهةِ ظلَّ ينتابُني، فطريّاً لا ذكائيّاً عصريَّاً. اتصلتُ بأصدقاءَ لِيَ كانتْ لَهم معرفةٌ وتجربةٌ وعملٌ في دارِ "الفخامةُ للنّشر"، ومنهم من استجابَ لِيَ وقامَ باتصالاتٍ مع دارِ النّشرِ تخصُّ ذلكَ الشأنَ، وعلى طريقتهِ الخاصّةِ!؟. من الردودِ الصّديقةِ من كانَ من الدفءِ والوعدِ شبهِ الصادقِ لدرجةِ أنّني حصلتُ على رقمِ هاتفٍ نقّالٍ خاصٍّ لإحدى الكاتباتِ المبدعاتِ الملتزماتِ بالكتابةِ والنشرِ دوريّاً في دارِ "الفخامةُ للنّشر". شعرتُ ببعضِ النشوةِ وظننتُ أنَّ في الطريقِ الطويلِ إلَى النشرِ قد أَحصلُ على اختصاراتٍ مهمّةٍ، مما سيوفّرُ بعضَ الوقتِ ويعوّضُ ما ضاعَ. لكنَّ تلكَ الكاتبةَ اللامعةَ وبعدَ وقتٍ قصيرٍ من بدءِ المشوارِ أصبحت تُظهِرُ صعوبةً في التواصلِ معِيَ. كانَ ذلكَ تارةً بعدمِ الردِّ على المكالماتِ وأخرى بتجاهلِ موضوعِ المساعدةِ في سرعةِ البتِّ بإمكانيّةِ النشرِ وحتى تعريفِيَ بالإداريينَ ذوي الشأنِ والفاعليّةِ في دارِ "الفخامةُ للنّشر". قلتُ في نفسِيَ "يا ولداً! أنتَ صغيرٌ في الكتابةِ مبتدِئٌ وعليكَ أنْ تكفَّ عن التسلّقِ على أكتافِ المشاهيرِ، مهما كانوا يصغرونَكَ أو يكبرونَكَ سنّاً". أضفتُ لنفسِيَ أنَّ "هؤلاءِ تعبوا كثيراً وصبروا طويلاً حتى وصلوا إلى تلكَ المراتبِ لتأتِيَ أنت وتلتهمَ تلكَ الإنجازاتِ مثلَ الجرذِ الجشعِ أو الكلبِ الضائعِ الجائعِ!". الحياةُ بحاجةٍ إلى قليلٍ من الذوقِ، أضفتُ لنفسِيَ قائلاً أحياناً وهامساً مناجياً أحياناً أخرى.

مضت أربعةُ أشهرٍ منذُ إرسالِ المخطوطاتِ ولم يأتِني ردٌّ يشرحُ لِيَ ويطلبُ منّيَ ماذا أفعلُ؛ أأُصحّحُ في النّصوصِ المكتوبةِ، أأُضيفُ شيئاً إليها، أأحذفُ عباراتٍ منها، أو أيعتذرونَ لِيَ عن النشرِ في دارِ "الفخامةُ للنّشر" الغرّاءِ!؟. بعدَ أربعةِ أشهرٍ من الانتظارِ والترقّبِ والتحسّبِ سألتُهم على الهاتفِ، ولعدّةِ مرّاتٍ، إذا ما كان من الضروريِّ

حضوريَ إلى دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" والتشرّفِ بتناولِ فنجانٍ من القهوةِ أو كأسٍ من الشايِ بمعيّتِهم المَهيبةِ!؟، هذا ليسَ مزاحاً أو تهكّماً أو "تطنّزاً" عليهم!. كانَ الجوابُ بشكلٍ ضمنيٍّ وأحياناً مباشرٍ، لا لا لا. في كلِّ مرّةٍ أعودُ إلى نفسِيَ وأصحابِيَ وزملائِيَ للحصولِ على تفسيرٍ مقنعٍ لما يجري. الأصدقاءُ ينصحونني بالتريّثِ وفي نظرِهم كلّما طالت مدّةُ الانتظارِ كلّما اقتربَ موعدُ الحسمِ النهائيِّ أو ما يُعرَفُ بالفرَجِ. الحسمُ النهائيُّ والحالُ هذهِ باتجاهِ النشرِ إذ أنَّ طولَ الانتظارِ سيشكّلُ عاملَ ضغطٍ نفسيّاً وذوقيّاً وأخلاقيّاً على الطرفِ الآخرِ؛ لكنْ حقيقةً لم يكنْ هنالكَ وجودٌ لكلِّ ما ذُكِرَ أعلاهُ من عواملَ. على العكسِ من ذلكَ كانَ هنالكَ فراغٌ شبهُ مطلقٍ في الحياءِ والأخلاقِ والذوقِ والإحساسِ العامِّ النّبيلِ.

بعدَ محاولاتٍ يائسةٍ عديدةٍ تمَّ تقديمي إلى ركنٍ مهمٍّ من أركانِ النشرِ في الدارِ، مديرٌ عامٌّ وهوِ الذي سيساعدُ! بشكلٍ حاسمٍ في تقريرِ مصيرِ النشرِ. السيدُ "عبدُالصبّارِ النّطعيُّ" لهُ نبرةُ صوتٍ قويّةٌ يَعدُ بدورهِ بالنّظرِ جديّاً في النشرِ، وبأقصى سرعةٍ ممكنةٍ لديه!. كانَ الصوتُ والوعدُ يبدوانِ حقيقيّيْنِ لدرجةِ أنّني في تلكَ الليلةِ لم أستطعْ النّومَ بسببِ حالةِ التهيّجِ العصبيِّ الذي أصابَ فكريَ وأعصابِيَ ودغدغَ خيالِيَ وأحلامِيَ. بعضُ الرواياتِ أو المخطوطاتِ صرفتُ عليها أكثرَ من سنتيْنِ من العمرِ والعملِ خاصّةً في الصّباحِ الباكرِ حيثُ نشاطُ الدّماغِ في باكورةِ الذّروةِ الإبداعيّةِ وذلكَ ما قد يرشّحُها لنيلِ جوائزَ، قلتُ في نفسِيَ. أقسمتُ لنفسِيَ إنْ يتمَّ ذلكَ التّكريمُ الجائزةُ فلن أتردّدَ في تقاسمِ الجائزةِ "الخيالِ!" مع السيّدِ "النّطعيِّ" نفسهِ. في تلكَ الليلةِ والأسابيعِ القليلةِ التي تلَت كانَ شبحُ السيّدِ "النّطعيِّ" مثلَ ملاكٍ يزورني وينبّهُني من نومِيَ أحياناً قائلاً "ها أنا النّطعيُّ فارسُ أحلامِكَ يا هذا في الطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ، كلُّ القضايا باتت محلولةً ولا داعيَ للقلقِ على الإطلاقِ!".

طالَ الزمنُ مرّةً أخرى أسابيعَ طويلةً إضافيّةً وأجريتُ مكالمةً هاتفيّةً إلى هاتفِ السيّدِ "النّطعيِّ" المحمولِ وفوجئتُ بأنّهُ لم يقمْ بعملِ أيِّ شيءٍ على أرضِ الواقعِ باتجاهِ الطباعةِ والنشرِ. زعمَ السيّدُ "النّطعيُّ" ومعهُ الشخصيّةُ الأولى في الاتصالِ السيّدُ "الكاسي" أنَّ المخطوطاتِ بأيدي لجانِ القراءةِ والتحكيمِ والقرارِ النهائيِّ. هؤلاءِ أعضاءُ اللجانِ بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الوقتِ للتأكّدِ من أنَّ ليسَ هنالكَ من كلمةٍ أو جملةٍ أو عبارةٍ أو فكرةٍ قد تنالُ من شخصٍ خاصّةً إذا ما كانَ الأخيرُ في موقعٍ معتبَرٍ في عالَمِ الإدارةِ والفكرِ والسياسةِ والفكرولوجيّةِ العربيةِ والدوليّةِ. السؤالُ المتكرّرُ في بدايةِ كلِّ مرّةٍ في الاتّصالِ هو "ما اسمُكَ وماذا تودُّ عملَهُ!؟". في غضونِ ذلكَ ذهبَ السيّدُ "الكاسي" في

إجازةٍ قصيرةٍ، أو هكذا قيلَ، وبقي التعاملُ فقط مع السيّدِ "النّطعيِّ" ممكناً. اختيرَ السيّدُ "النّطعيُّ" لتلكَ المهمّةِ كما يبدو لأنَّ لديهِ طريقةً دبلوماسيّةً اجتماعيّةً لطيفةً لكنْ مضنيةً للتخلّصِ من الآخرينَ؛ لاحتواءِ ردِّ فعلِ الكاتبِ أو المؤلّفِ خاصّةً إذا ما كانت لدى الأخيرِ قدرةٌ على إبداءِ النقدِ اللاذعِ المؤثّرِ أو الثّورةِ أحياناً. أكثرَ من ذلكَ فإنَّ التمويلَ لاستمرارِ دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" في العملِ والبقاءِ قد يعتمدُ على مقالةٍ ناقدةٍ لتلكَ التصرّفاتِ المقيتةِ قد تصلُ لهذا المسئولِ المموّلِ أو ذاكَ، عن طريقِ وسيلةٍ إعلاميّةٍ محليّةٍ.

في خضمِّ الظنونِ والخيالِ المشئومِ كانَ لا بدَّ من القيامِ بزيارةٍ ميدانيّةٍ لدارِ النشرِ والاطّلاعِ عن كثبٍ عمّا يجري هناكَ. شددتُ الرحالَ مع صديقٍ لِيَ وهممت بالذهابِ إلى تلكَ المدينةِ التي تأوي دارَ "الفخامةُ للنّشرِ". بعدَ بحثٍ في جوانبِ البنايةِ التي تضمُّ مكاتبَ دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" الرئيسيّةَ وصلنا الاثنانِ إلى الشقّةِ التي تُعتبرُ مركزَ الإدارةِ الرئيسيِّ. في المخيّلةِ السّابقةِ لتلكَ الزّيارةِ كانت هنالكَ مكاتبُ وقاعةٌ كبيرةٌ ومكتبةٌ ورفوفٌ تحوي منشوراتِ دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" تلكَ، وصاحباتِها وأصحابِها من دورِ النّشرِ الأخرى. كانَ هنالكَ تخيّلٌ سابقٌ بنشاطٍ فكريٍّ يشابهُ الدخولَ إلى خليّةِ نحلٍ أو نملٍ فيها الكتّابُ والشعراءُ والأدباءُ والعلماءُ والمفكّرونَ يقومونَ بأنشطةٍ تذكّرُ بسوقِ عكاظٍ في الحجازِ أو شارعِ المتنبي في بغدادَ أو "دوّارِ الزمنِ" في نيويوركِ. لكنَّ المكانَ خلا من أيٍّ من هؤلاءِ ولم يكنْ في المكانِ إلا السيّدُ "الكاسي" ومراسلٌ خادمٌ، يعملُ الأخيرُ في المكتبِ لتحضيرِ الشاي والقهوةِ والمشروباتِ الخفيفةِ والماءِ والشطائرِ ومآربَ أخرى. في واقعِ الأمرِ ودونَ مبالغةٍ في القولِ بدا المراسلُ الخادمُ أكثرَ نشاطاً اجتماعيّاً وفكريّاً وثقافيّاً حضوريّاً من السيّدِ "الكاسي" نفسهِ.

السيّدُ "الكاسي" يستقبلُنا من خلفِ مكتبهِ، المزوّدِ بحاسوبٍ، بفتورٍ بل برودٍ ملحوظٍ معزّزٍ بعدمِ عرضِ أيِّ شيءٍ للضيافةِ بالرغمِ من حضورِ المراسلِ الخادمِ إلى المكانِ حالَ دخولِنا دارَ النّشرِ. بكلماتٍ معسولةٍ من هنا وهناكَ من مثلِ "أهلاً وسهلاً، تفضّلا ارتاحا ... وهكذا" من فَمِ السيّدِ "الكاسي" تقبّلتُ الأمورَ كما هي. قلتُ في نفسِيَ "يا ولداً إنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ، وبما أنّهُ كذلكَ يجبُ تجنّبُ كلِّ الظّنونِ والأوهامِ التي قد تؤدّي إلى تلكَ الآثامِ". قبضتُ على الجمرِ حرصاً على العواطفِ والأحاسيسِ والمداركِ الإنسانيّةِ والأكاديميّةِ النبيلةِ التي تربّينا جميعاً عليها. بعدَ قصيرٍ من اللقاءِ والتعريفِ بالنّفسِ وجهاً لوجهٍ زَعمَ السيّدُ "الكاسي" أنَّ أمورَ الطّباعةِ والنّشرِ تسيرُ على خيرِ ما يُرامُ وأنّهُ لم يبقَ إلا قليلٌ من الوقتِ كيْ يتسلّمَ ردوداً من اللّجانِ القارئةِ بشأنِ الطباعةِ والنشرِ وحتّى بدءِ التوزيعِ. إذنْ عن كثبٍ ووجهاً لوجهٍ وبحضورِ شاهدٍ تمَّ الحصولُ على وعدٍ نهائيٍّ

وتأكيدٍ من ممثّلٍ لدارِ "الفخامةُ للنّشر" بأنَّ الأمورَ تسيرُ على خيرِ ما يُرامُ. لكنْ ما سرُّ عدمِ عرضِ أيِّ شيءٍ بشأنِ الضيافةِ؟!، سألتُ السيّدَ "الكاسي" في مكتبهِ. أجابَ السيّدُ "الكاسي" بأنَّ الوقتَ متأخّرٌ وأنَّ المراسلَ قضى جلَّ يومهِ واقفاً منتصباً، "اسمحْ لِيَ بذلكَ" أضافَ مبتسماً بعرَضيّةٍ صفراءَ. أجبتُهُ مغادراً مكتبَهُ أنْ "لا عليكَ يا هذا إنَّ هذا من بابِ المزحِ الهراءِ، لكنّهُ لا يهدفُ إلى خدشِ حياءِ أحدٍ!".

في المكانِ حولَ مكانِ عملِ السيّدِ "الكاسي" نظرتُ ولم أجدْ ما يدعو للتفاؤلِ بشأنِ قدرةِ دارِ "الفخامةُ للنّشر" على التعاملِ مع مخطوطةٍ بحجمٍ يزيدُ عن المنشورِ السريِّ، بعدّةِ صفحاتٍ على الأكثرِ. بانَ ذلكَ من خلالِ رفوفٍ منتَصبةٍ تضمُّ منشوراتٍ كُتبتْ على أغلفتِها بخطٍّ عربيٍّ منمّقٍ يجذبُ انتباهَ المغفّلينَ أو الكتّابِ ذوي الإمكانيّاتِ الضّحلةِ. تحت تلكَ العناوينِ المهيبةِ أسماءُ مؤلّفينَ مبدعينَ مفترَضينَ مثلَ "الكاتبِ فلانٍ والشاعرِ فلانٍ أو فلانةٍ". تمَّ ترتيبُ المنظرِ بشكلٍ يُهيّأُ للناظرِ أنَّ ذلكَ ما يرى حقيقةً على سطحِ دارِ "الفخامةُ للنّشر"، وأنَّ ما خَفِيَ من بقيّةِ المؤلّفاتِ كانَ أعظمَ وبكثيرٍ. سألتُ في المكانِ عن السيّدِ النّطَعيِّ قائلاً "هل من الممكنِ أنْ نتشرّفَ بالتعرّفِ إلى الشيخِ النّطعيِّ؟!". كانت الإجابةُ أنَّ السيّدَ "النطعيَّ" في رحلةٍ أو مهمّةٍ ثقافيّةٍ فكريّةٍ علميّةٍ شخصيّةٍ فرديّةٍ؛ سبيكةٌ من الخيالِ الوصفيِّ تصلحُ للتمويهِ على المغفّلينَ أو المستَغفَلينَ أو الأغبياءِ أو الأذكياءِ. في ظلِّ وضعٍ كهذا من عدمِ وجودِ بديلٍ فإنَّ كلَّ مستوياتِ النشاطِ الذهنيِّ والفكريِّ تنصهرُ في بوتقةِ التعاملِ معَ أمثالِ "الكاسي والنّطعيِّ" بل تتساوى، تقريباً. بمثلِ ما دخلنا خرجنا، بخفّي حُنيْنٍ، إلا من وعودٍ معسولةٍ من السيّدِ "الكاسي". نصحني صديقِيَ ومُرافقِيَ، المعروفُ بالذّكاءِ والإفراطِ في تحليلِ المواقفِ الماكرةِ والذي يعملُ في قسمِ التحقيقاتِ الجنائيّةِ والكشفِ عن المجرمينَ، نصحني بالتريّثِ أكثرَ ولا داعيَ للقلقِ. أضافَ صديقِيَ أنّهُ ليسَ هنالكَ ما يجبرُ هؤلاءِ على الكذبِ والضحكِ المتواصلِ على اللحى والذقونِ، سيّما أنّهم كتّابٌ وأصحابُ فكرٍ وتجربةٍ في الكتابةِ والحياةِ والتعليمِ وتربيةِ الأجيالِ!. بناءاً على ذلكَ وغيرهِ لا بدَّ أنْ يكونَ لديهم ضميرٌ بشريٌّ مكتملٌ، أنهى صديقِيَ استنتاجَهُ الميدانيَّ قائلاً ومبتسماً معاً.

بعدَ تلكَ الزيارةِ وذاكَ اللقاءِ مع السيّدِ "الكاسي" والوعودِ المقطوعةِ شفويّاً تمَّ تخديرُ بل شلُّ عصبِ المحاولاتِ لمعرفةِ ما يجري حقيقةً والمثابرةِ عليها لأسابيعَ قادمةٍ. مضى ما لا يقلُّ عن ستّةِ أشهرٍ عاقرٍ منذُ تسليمِ المخطوطاتِ للنّشرِ لم تأتِ منها أيّةُ نتيجةٍ ولم يكنْ هنالكَ أيُّ خبرٍ يقينٍ. في مجملهِ بدا الوضعُ أشبهَ بالتعاملِ مع عصابةِ مافيا أو شركةِ نصبٍ واحتيالٍ تقتاتُ من مصدرٍ مموّلٍ بناءاً على معلوماتٍ كاذبةٍ بهذا الشكلِ أو ذاكَ. في

ظلّ هكذا وضع مقيتٍ ووعودٍ جوفاءَ خرقاءَ أصابني الهزلُ الجسديُّ وصرتُ أشعرُ ببعضِ الوهَنِ والألمِ في الصدرِ من جهةِ مكانِ القلبِ، وبشكلٍ شبهِ دوريٍّ. ربّما! بدأت هنالكَ جلطةٌ خفيفةٌ أو صغيرةٌ في الدّمِ تتكوّنُ داخلَ أحدِ صمّاماتِ القلبِ وتعيقُ عملَهُ الطبيعيَّ، تأتي وتذهبُ على مزاجِها!.

بعدَ بضعةِ أسابيعَ عاودتُ الاتصالَ مع دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" من جديدٍ. هذهِ المرّةَ ردّت عليَّ فتاةٌ زعمت أنّها سكرتيرةٌ وكاتبةٌ وشاعرةٌ في آنٍ معاً، وتعملُ في دارِ النّشرِ منذُ فترةٍ ليستْ بالقصيرةِ. عادَ إليَّ بعضُ الشعورِ بالأملِ حينَ كرّرت السيّدةُ "سوسيانةُ" أقوالاً مشابهةً لوعودِ السيّديْنِ "الكاسي" و"النّطعيِّ". باتَ هنالكَ بعضُ اليقينِ في الأمرِ عندَ مقارنةِ أقوالٍ سابقةٍ بأخرىً حاليّةٍ ومن مصادرَ مختلفةٍ. أخبرتني السيّدةُ "سوسيانةُ" بصوتٍ دافئٍ ناعمٍ أنَّ المخطوطاتِ موجودةٌ بأيدي لجانِ القراءةِ والتّحكيمِ وأنَّ دارَ النّشرِ لا تقدرُ على التدخّلِ في شئونِ هؤلاءِ القرّاءِ المُحكَّمينَ حفاظاً على صفاءِ أمزجتِهم وحيويّةِ أنشطتِهم، وسريّةِ الأعمالِ الفكريّةِ المكتوبةِ قبلَ وفوقَ كلِّ هذا وذاكَ. لكنَّ شعوراً بازدواجيّةِ التفكيرِ ينتابُني ما بينَ مكذّبٍ بما يجري حقيقةً على أرضِ الواقعِ ومصدّقٍ بما أسمعُ بهِ من وعودٍ وأقوالٍ.

في خضمِّ هذهِ الدوّامةِ الحمقاءِ، التي تحلُّ علي شكلِ بلوىً وابتلاءٍ إمّا لسحقِ القدراتِ العقليّةِ أو لاختبارِ إيمانِ البعضِ، أجريتُ اتصالاً هاتفيّاً على النقّالِ مع شخصٍ كانَ يعملُ سابقاً في دارِ "الفخامةُ للنّشرِ"، وبالذّاتِ في ما يسمّى أو يُعرَفُ بمجلسِ أمناءِ الدارِ. الدكتورُ "بخيت" هادئُ الصوتِ رزينُ النبرةِ أثناءَ الحديثِ. استمعَ الدكتورُ "بخيت" خلالَ الهاتفِ النقّالِ إلى جلِّ ما استطعتُ إيصالَهُ عن الهولِ الناجمِ عن التعاملِ مع مؤسّسةٍ فكريّةٍ بهكذا أسلوبٍ. أجابَ الدكتورُ "بخيت" أنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى صبرٍ أطوَلَ ونصحَني أنْ لا أتسرّعَ في طلباتِيَ. ذلكَ ما جعلني أهدأُ قليلاً!. بدورِهِ وعدَ الدكتورُ "بخيت" بالتحقّقِ من الأمرِ بالرغمِ من أنّهُ ترَكَ العملَ في دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" منذُ مدّةٍ لا بأسَ بطولِها!. لكنَّ ذلكَ الوعدَ بالتحقّقِ لم يحصلْ أبداً. لم تعدْ لديَّ الجرأةُ القلبيّةُ والأدبيّةُ والفنيّةُ في إعادةِ الاتصالِ والتواصلِ مع الدكتورِ "بخيت" الذي بدورِهِ أضافَ شؤماً على شؤمٍ في الموقفِ البائسِ اليائسِ أصلاً، ومنذ البدايةِ. باتَ عليَّ التمرّغُ كثيراً ووحيداً في وحلِ التعاملِ مع مجتمعٍ أو تجمّعٍ فيهِ ثقافةُ الكذبِ تضربُ أطناباً (جذوراً) تاريخيّةً قد تحتاجُ إلى عشراتِ ومئاتِ السنينِ للتخلّصِ منها.

ها نحن الآنَ في الشهرِ الثامنِ وبدءِ التاسعِ منذُ تسليمِ المخطوطاتِ للنّشرِ في دارِ "الفخامةُ للنّشرِ". ضقتُ ذرعاً بالوعودِ والانتظارِ والنشرِ والفكرِ، جملةً وتفصيلاً،

وكوابيسَ متجدّدةٍ على الدّوام؛ عزمتُ على إجراءِ مكالمةٍ حاسمةٍ نهائيّةٍ. في المكالمةِ وددتُ لو أنهي الموضوعَ جملةً وتفصيلاً ودفعةً واحدةً، حرصاً على ما تبقّى من سلامةِ قلبِيَ ومشاعرِيَ الإنسانيّةِ والطبيعيّةِ النّبيلةِ. الشخصُ الموجودُ على الطرفِ الآخرِ من خطِّ الهاتفِ هو السيّدةُ "سوسيانة" نفسُها.

أنا: لم يعدْ بي تحمّلُ صبرٍ أو انتظارٍ. عليكِ أنْ تعطيَني وعداً قاطعاً بموعدٍ محدّدٍ للتعاملِ مع المخطوطاتِ، بالطباعةِ والنشرِ أو الرفضِ والاعتذارِ.

السيّدةُ "سوسيانة": هل تريدُ أنْ تتكلّمَ مع السيّدِ "عبدِالصبّارِ النّطعيِّ"؟!. عسى أنْ يعطيَكَ جواباً أكثرَ توكيداً بصفتهِ المسئولُ الكبيرُ نسبيّاً في الدارِ. حاليّاً هو مشغولٌ في المكتبِ المجاورِ وقد يحتاجُ إلى بعضِ الوقتِ للانتهاءِ من عملهِ.

أنا: لا أريدُ الحديثَ مع السيّدِ "النّطعيِّ"، ولا أطيقُ التفكيرَ بهِ وبأمثالهِ. على دارِ النشرِ إعطائِيَ جواباً رسميّاً محدّداً بالوقتِ وكيفيةِ وماهيّةِ العملِ.

السيّدةُ "سوسيانة": لا عليكَ يا هذا فإنَّ المخطوطاتِ لا تزالُ في أيدي اللجانِ ونحن ننتظرُ الرّدودَ.

أنا: لم أعدْ أُؤمنُ بلجانٍ وأقوالٍ وأفعالٍ مبنيّةٍ على وعودٍ من أيِّ نوعٍ.

السيّدةُ "سوسيانة": سأتحدّثُ بنفسِيَ مع السيّدِ "النّطعيِّ" لأرى بنفسِيَ ما يمكنُنا عملُهُ. سأردُّ عليكَ فيما بعدُ. لا داعيَ للقلقِ!.

مضت عدّةُ أيّامٍ ولم تردَّ السيّدةُ "سوسيانةُ" حينَ كرّرتُ الاتصالَ الهاتفيَّ معها. على التلفونِ زعمت السيّدةُ "سوسيانةُ" أنّهُ في اجتماعٍ ضمَّ أركانَ دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" تقرّرَ التعاملُ مع مخطوطةٍ واحدةٍ فقط من بينِ المخطوطاتِ الثلاثةِ المقدَّمةِ. أضافتْ السيّدةُ "سوسيانةُ" أنَّ لِيَ الحقَّ في اختيارِ تلكَ المخطوطةِ وأنَّ عليَّ الحضورَ شخصيّاً إلى دارِ النّشرِ للتّوقيعِ على عقدِ النّشرِ. بدتْ الأمورُ لديَّ كما لو كنتُ أناطحُ عالَماً خياليّاً أجهلُ أبجديّةَ فهمِ التّعاملِ معهُ بشكلٍ صارخٍ!.

بعدّ عدّةِ أيّامٍ توجّهتُ إلى مقرِّ دارِ النشرِ لمقابلةِ المسئولينَ لتقريرِ أيّةِ مخطوطةٍ أريدُ نشرَها، و"على نيّاتِيَ!". وصلت المكانَ بصحبةِ صديقِيَ المعهودِ المقرّبِ ودخلنا المكانَ الذي بدا قريباً في حالهِ من كهفِ أهلِ الكهفِ. قمتُ بمقابلةِ السيّدةِ "سوسيانةِ" والتي كانت الوحيدةَ المتواجدةَ في دارِ النشرِ ومعها المراسلُ الخِدميُّ السّابقُ المعهودُ. المُراسلُ

الخِدميُّ بدا أكثرَ حرصاً على الاستقبالِ والتّعاملِ معنا مقارنةً مع أصحابِ الشّأنِ والدّارِ، بسببِ معرفةٍ تمّتْ معهُ من زيارةٍ سابقةٍ. هذهِ المرّةَ استمتعتُ وصديقِيَ بتناولِ كوبٍ من القهوةِ سريعةِ التحضيرِ، وبطعمٍ أقربَ إلى ماءِ حلاقةِ الذّقنِ! أثناءَ احتساءِ القهوةِ واستمرارِ اللقاءِ تمَّ اختيارُ مخطوطةٍ واحدةٍ من بينِ المخطوطاتِ لتركيزِ العملِ عليها للطباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ. سرحتُ في الخيالِ قليلاً حينَ توهّمتُ أنّهُ في غضونِ شهرٍ أو يقلُّ سأرى تلكَ المخطوطةَ تتبوّأُ مكاناً في أروقةِ المكتباتِ ودورِ الفكرِ والتعليمِ، وفيما بعدُ تتمرّغُ في الشّوارعِ الفكريّةِ والشعبيّةِ. أحلامُ يقظةٍ تستعرُ في مخيّلةِ الحمقى أو "المستحمقينَ". في دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" وقّعتُ على وثيقةٍ مكتوبةٍ بخطِّ اليدِ تفيدُ باسترجاعِ مخطوطتيْنِ والإبقاءِ على ثالثةٍ بهدفِ النّشرِ.

عندَما تسلّمتُ المخطوطاتِ المرتجعةَ فوجئتُ أنّهُ لم تبدُ عليها، وبشكلٍ قطعيٍّ لا لُبسَ فيهِ، أيّةُ آثارٍ في التعاملِ معها من قِبَلِ أيّةِ لجانٍ مهما تكنْ من نوعِ الجنِّ أو الملائكةِ أو البشرِ. بعبارةٍ أكثرَ دقّةً، فإنّهُ لم تُفتَحْ صفحةٌ أو تُطوى أو تُثنى أو تُلوَّثُ ورقةٌ واحدةٌ منها بلمسةِ إصبعٍ أو بصمةِ بنانٍ من عضوٍ في لجنةٍ أو لجانٍ للقراءةِ أو التحكيمِ. لم تكنْ هنالكَ أيّةُ "جعلكَةٍ" أو "ثنيةِ ورقةٍ" أو "بصمةُ بنانٍ" على غلافِ المخطوطةِ ناصعِ البياضِ أو أيِّ جزءٍ منها. كما وصلتْ المخطوطتانِ المرتجعتانِ إلى المكانِ بقيتا على رفوفٍ، أو رفٍّ، في الخزانةِ الوحيدةِ في المكتبِ ولم تخرجْ من تلكَ الخزانةِ على الإطلاقِ. ذلكَ ما فتحَ ثغرةً واسعةً في دماغِيَ، وهنا يجوزُ التعبيرُ. لكنّنا ومن بابِ الذوقِ والحياءِ والغفلةِ والغباءِ لا يمكننا التفوّهُ بكلمةٍ واحدةٍ من هذا القبيلِ إزاءَ أنثىً أو موظّفةٍ بدتْ متعاطفةً معيَ وبمرارةٍ واضحةٍ. هذا إلى جانبِ وعودٍ مؤكّدةٍ أنَّ العملَ سيبدأُ على قدمٍ وساقٍ للبتِّ في أمورِ المخطوطةِ المتبقّيةِ في الطريقِ إلى نشرِها. المخطوطةُ المتبقّيةُ منَ الحجمِ القصيرِ بالنّسبةِ للمخطوطاتِ الأخرى. حملتُ نفسِيَ ومخطوطتَيَّ المرتَجَعتيْنِ وعدتُ أدراجِيَ إلى البيتِ "مخدَّراً" ببعضِ الوعودِ بالبتِّ في النشرِ في مخطوطةٍ واحدةٍ على الأقلِّ.

المخطوطةُ المتبقّيةُ في دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" هي بحجمِ حوالي ٢٠٠ صفحةً. في المخطوطةِ أحاولُ بشكلٍ روائيٍّ إثباتَ نظريّةِ خلقِ الإنسانِ بطريقةِ الفكرولوجيّةِ الدينيةِ، وترجيحِ الأخيرةِ على النظريّةِ والمنهجيّةِ العلميّةِ الداروينيّةِ والديناصوريّةِ في التطوّرِ الطبيعيِّ للكائناتِ الحيّةِ وبالذّاتِ للإنسانِ. زادتْ كتابةُ الرّوايةِ والتفكيرِ في شئونِ الحياةِ والخلقِ بشكلٍ مستفيضٍ من إيمانِيَ بالخالقِ عزَّ وجلَّ، وفي الوقتِ ذاتِهِ دحضتْ وبشكلٍ ملفتٍ للنّظرِ جلَّ الأفكارِ والطروحاتِ المشكّكةِ بوجودِ خالقٍ واحدٍ أحدٍ فردٍ صمدٍ. باتت

الصلواتُ والأدعيةُ تتركّزُ على أنّهُ عسى اللهَ تعالى أنْ يوفّقَنا لنشرِ شيءٍ أخيراً من جهدٍ استمرَّ سنةً ونيّفٍ لإنجازهِ لوحدهِ. غيرُ معقولٍ، قلتُ في نفسِيَ مخاطباً ضميريَ، أنَّ جهدَ دكتورٍ في العلومِ في سنةٍ ونيّفٍ يضيعُ سدىً في دهاليزِ ثقافةِ الكذبِ المستعرةِ في المجتمعِ.

بعدَ حواليْ الشهرِ من الركونِ إلى وعودِ السيدةِ "سوسيانةِ" المقطوعةِ شفويّاً، والمشفوعةِ بعقدٍ شكليٍّ ارتجاليٍّ بائسٍ، أجريتُ اتصالاً للاطمئنانِ على سيرِ عمليةِ الطباعةِ والنشرِ. فعلاً بدتْ الأمورُ في ذهنِيَ وكأنّها تسيرُ حقيقةً على قدمٍ وساقٍ باتجاهِ النّشرِ. ردّتِ السيّدةُ "سوسيانةُ" مؤكّدةً أنَّ الأمورَ جدُّ طبيعيّةٍ وبدا الأمرُ كما لو لم يكنْ هنالكَ حقيقةً أيُّ داعٍ للقلقِ. نحنُ الآنَ في الشهرِ العاشرِ تقريباً منذُ موعدِ التسليمِ الأوّلِ للمخطوطاتِ ويجبُ أنْ تسلكَ الأمورُ درباً منطقيّاً إيجابيّاً لا محالةَ. في النهايةِ هنالَكَ ربٌّ معبودٌ ومنطقٌ وقانونٌ وذوقٌ عامٌّ وأحاسيسُ ومشاعرُ نبيلةٌ في عالَمِ الإنسانِ. هنالكَ حقوقٌ وعقودٌ إنسانيّةٌ واجتماعيّةٌ مكتوبةٌ أو شفويّةٌ متعارفٌ عليها. ليسَ من السهلِ اختراقُ واحدٍ منها فماذا عن اختراقِها كلِّها في آنٍ معاً؟!. بعبارةٍ أخرى مَنْ لديهِ القلبُ والجوارحُ والضّميرُ لاختراقِ بعضٍ أو كلٍّ من هذا وذاكَ؟!.

مضى شهرٌ آخرُ وقمت بإجراءِ اتصالٍ آخرَ وددتُ فيهِ الحصولَ على جوابٍ فيهِ بعضُ اليقينِ والدقّةِ الأكيدةِ عن شيءٍ ما يجري بشأنِ المخطوطةِ المتبقّيةِ. كلمةُ "اللجنةِ" أصبحتْ مرعبةً مزريةً وتثيرُ في النفسِ الغصّةَ والاشمئزازَ والتقزّزَ، وفي الحلقِ والفمِ التقيّوَ. في هذهِ المكالمةِ زعمت السيّدةُ "سوسيانة" أنّها لا تستطيعُ الاتصالَ باللجنةِ القارئةِ لأنَّ بعضَ أعضائِها سافروا لقضاءِ إجازةٍ أو عطلةٍ أو فترةِ استراحةٍ، قد تطولُ أو تقصرُ!. بذلكَ عدنا إلى المربّعِ الأوّلِ في التعاملِ مع دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" التابعةِ لأرقى طبقةٍ فكريّةٍ في المجتمعِ، أو هكذا من المفترَضِ يجبُ أنْ تكونَ. في ظلِّ تلكَ الظروفِ والمزاجِ والأهوالِ وحرصاً على ما تبقّى من السلامةِ الصحيّةِ والعقليّةِ والحسيّةِ والرّوحيَّةِ طلبتُ من السيّدةِ "سوسيانة" استعادةَ المخطوطةِ المتبقّيةِ، التي كانت قد وُضِعَتْ هناكَ بهدفِ "التشرّفِ" بنشرِها في دارِ "الفخامةُ للنّشرِ"!. زعمتْ السيّدةُ "سوسيانة" أنّها بحاجةٍ إلى بعضِ الوقتِ لإجراءِ بعضِ الروتينِ لاستعادةِ المخطوطةِ من "اللجنةِ القارئةِ"!. أجبتُها؛ وليكنْ ذلكَ.

بعدَ أسبوعيْنِ من حينهِ اتصلتُ بالسيّدةِ "سوسيانة" والتي بدورِها زعمت أنّها استرجعت المخطوطةَ من "اللجنةِ" وما عليَّ إلا استلامُها. أوعزتُ إلى شركةِ "للبريدِ السّريعِ" للإتيانِ بالمخطوطةِ واستلمتُها بعدَ حوالي الأسبوعِ من حينهِ، دافعاً أجرةَ البريدِ عندَ

الاستلامِ. عندَما فتحتُ المغلّفَ البريديَّ الذي يحتوي المخطوطةَ فوجئتُ بأنَّ المخطوطةَ لم تمسَسْها يدُ لجنةٍ فاحصةٍ أو عابثةٍ أو قارئةٍ، لا عن قُربٍ ولا عن بُعدٍ!. من الطرفِ الأيمنِ للمخطوطةِ لم تحدثْ هنالكَ ولو خلخلةٌ بسيطةٌ من جهةِ الشريطِ البلاستيكيِّ، الماسكِ لأوراقِ المخطوطةِ بعضَها ببعضٍ. بتاتاً وقَطْعاً وعلى الإطلاقِ، لم تُفتحْ المخطوطةُ من قِبَلِ أيٍّ من الأشخاصِ بعدَ وصولِها إلى دارِ "الفخامةُ للنّشرِ". كلُّ ما هنالكَ ضاعت أحدَ عشرَ شهراً من أغلى وأثمنِ سنينِ العمرِ، في حمّاماتِ وقيعانِ أحذيةِ السيّدانِ "الكاسي" و"النّطعيِّ" والسيّدةِ "سوسيانة". باتَ عليَّ تحيّنُ فرصةٍ جديدةٍ مع دارِ نشرٍ أخرى، وكانَ اللهُ تعالى غفوراً رحيماً بكلِّ العبادِ. لكنْ وبعدَ هذهِ التجربةِ المريرةِ يمكنُ القَولُ بثباتٍ وثقةٍ كافيينِ أنّهُ "تبّاً للزمنِ الغادرِ على الأغبياءِ والمغفّلينَ في غابةٍ من البشرِ تجمعُ بينَهم ثقافةُ الكَذبِ الأهوجِ بكلِّ صفاقةٍ ورعونةٍ وقلّةِ حياءٍ وجبنٍ عامٍّ".

هذهِ التجربةُ المريرةُ بامتيازٍ على الأعصابِ والفكرِ والحياةِ والحياءِ والذّوقِ العامِّ انعكستْ بشكلٍ واضحٍ على مجملِ التفكيرِ في كيفيّةِ التصرّفِ اتجاهَ دورِ النّشرِ الأخرى، الغثِّ (الهزيلِ) منها والسّمينِ. باتَ لديَّ نوعٌ من البرانويا (paranoia) المطعّمةِ بشيءٍ من النِّقمةِ والكُرْهِ والحذرِ مما يجري عندَ الدّخولِ إلى عالَمِ دورِ النّشرِ الفريدِ من نوعهِ بامتيازٍ. ذلكَ ما يشبهُ من الذاكرةِ "حدّوثةً" مضحكةً بعضَ الشّيءِ. تتلخّصُ القصّةُ الصغيرةُ هذهِ في أنَّ شخصاً أوروبيّاً سائحاً كانَ يجولُ منطقةً بائسةً معيشيّاً مدنيّاً في دولةٍ في شبهِ القارّةِ الهنديّةِ. رأى ذلكَ السّائحُ شخصاً محليّاً يصطحبُ معهُ قرداً أو "سَعْداناً" أحبَّ أنْ يكرمَهُ بإعطائهِ حبّةَ جوزِ هندٍ صغيرةً ليأكلَها أو يلهوَ بها. ما كانَ من "السّعدانِ" إلا أنْ وضعَ حبّةَ جوزِ الهندِ عندَ مؤخّرتهِ ملاصقةً لفتحتهِ الشّرجيّةِ ثمَّ ألقى بها بعيداً، وبشكلٍ قويٍّ عنيفٍ. ذلكَ ما أثارَ استغرابَ بل غيظَ وحنقَ السّائحِ الأوروبيِّ الذي اعتقدَ أنّهُ كانَ على السّعدانِ أنْ يكونَ أكثرَ لياقةً وأنْ يقدِّرَهُ ويحترمَهُ وحتّى يشكرَهُ! على ذلكَ. مستغرباً، سألَ السّائحُ المواطنَ المحليَّ عنِ ذلكَ التصرّفِ الفظِّ الغريبِ؟!. أجابَ صاحبُ السّعدانِ أنّهُ في صغرهِ قَبلَ السّعدانُ حبّةَ بندقٍ متوسّطةِ الحجمِ من أحدِ الأشقياءِ قدّمَها الأخيرُ لهُ. بعدَ يومٍ من تناولهِ أو ابتلاعهِ لحبّةِ البندقِ واجهَ السّعدانُ ظروفاً صعبةً بل حرجةً عندَ محاولتِهِ التبرّزَ. منذُ ذلكَ الحينِ تعلّمَ السّعدانُ طريقةً ليقرّرَ فيها قبولَ الهدايا الصّلبةِ لتناولِها كطعامٍ. في المنهجيّةِ الجديدةِ للسّعدانِ فيما بعدُ يقيسُ حجمَ الهديّةِ المقدّمةِ على فتحتهِ الشرجيّةِ!. إذا ما كانَ هنالكَ تقاربٌ مقبولٌ في الحجمِ بينَ الهديّةِ الصّلبةِ وفتحتهِ الشّرجيّةِ حينَها يقرّرُ السّعدانُ تناولَ الهديّةِ في فمهِ، سوى ذلكَ يتخلّى عنها بطريقةٍ قد لا تخلو من العنفِ وربّما الخطورةِ على الآخرينَ!.

في أمرٍ ذي علاقةٍ بما حصلَ معَ دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" فالسيّدُ "هاني النحّاسُ" صديقٌ متوسّطُ القِدمِ لِيَ كثيراً ما ألتقي بهِ في شبهِ ندواتٍ فكريّةٍ جدليّةٍ عقيمةٍ في أحدِ مقاهي المدينةِ الكثيرةِ. السيّدُ "النحّاسُ" تقيٌّ ورعٌ ولا يطيقُ أو يتحمّلُ أنْ يفوتَهُ موعدٌ للصّلاةِ حالَ ينادي المؤذّنُ بذلكَ. شرحتُ لهُ قصّةَ التّعاملِ مع دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" وكيفَ بعدَ ما يناهزُ الأحدَ عشرَ شهراً حلقوا لِيَ ذقنِيَ، وعلى النّاشفِ وبشكلٍ يندى لهُ أيُّ جبينٍ تقريباً. من عملهِ كموظّفٍ في بلديّةِ المدينةِ في قسمِ النظافةِ والتنظيفِ والتلميع اقترحَ عليَّ القيامَ بعمليّةِ حلقٍ للّحى والذقونِ مناسبةٍ للحالِ. اقترحَ السيّدُ "النحّاسُ" استعمالَ معجونِ (ب ب ب، أو باء باء باء) أو اختصاراً (بٌّ٣، أيْ باءٌ٣ وليس بي٣!) لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ. اقترحَ عليَّ ذلكَ ونصحَني لائماً كيفَ لا أكونُ قد استعملتُها منذُ الشهرِ الأوّلِ أو الثّاني على الأكثرِ من تسليمِ المخطوطاتِ للطباعةِ والنّشرِ.

المعجونُ بٌّ٣ موصوفٌ في ملحقٍ أو تحتَ عنوانٍ خاصٍّ في نهايةِ هذهِ المخطوطةِ أو "المذكّرةِ". يتميّزُ معجونُ بٍ٣ بلزوجةٍ ورائحةٍ فريدةٍ من نوعِها ويمكنُ استعمالُهُ بشكلٍ سريعٍ وميدانيٍّ وهو سهلٌ تحضيرُهُ أو الحصولُ عليهِ، وبأثمانٍ قد لا تخطرُ ببالِ أحدٍ. حينَ أخبرتُهُ أنَّ لديَّ حساسيّةً في الأنفِ من جهةِ الروائحِ الكيماويّةِ والعطريّةِ ولا أستطيعُ استعمالَ هكذا معجونٍ لحلاقةِ الذقونِ أو أيِّ أعضاءَ من الجسدِ، ردَّ السيّدُ "النحّاسُ" بأنَّ معجونَ بٍ٣ يُستخدمُ في ظروفٍ ومواقعَ ومواضعَ خاصّةٍ ومن قِبَلِ الجميعِ على ذقونِ الجميعِ ممّنْ تشملُهم المزايا والأوصافُ. أضفتُ للسيّدِ "النحّاسِ" أنَّ بعضَ المشمولينَ في عمليّةِ حلاقةِ الذّقنِ (ذقنِيَ) هنَّ من جنسِ الإناثِ أو النّساءِ، ردَّ السيّدُ "النحّاسُ" بأنَّ معجونَ بٍ٣ يمكنُ أنْ يستعملَ بشكلٍ ناجعٍ للجنسيْنِ الذكرِ والأنثى على حدٍّ سواءَ. بعبارةٍ أخرى، معجونُ بٍ٣ ليسَ مرتبطاً بجنسٍ أو عمرٍ أو شكلٍ محدّدٍ أو مرتبةٍ عاليةٍ أو متوسّطةٍ أو متواضعةٍ. باختصارٍ شديدٍ فإنَّ معجونَ بٍ٣ لحلاقةِ الذّقونِ فقط يُستعمَلُ في حلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ، أيّاً كانت أعراقُهم وألوانُهم وأجناسُهم ومستوياتُ تعليمِهم وتوظيفِهم وتعظيمِهم ومرتّباتِهم. خلاصةُ القولِ هنا أنَّ البدايةَ مع دورِ النّشرِ لم تكنْ "مِسْكاً" على الإطلاقِ.

دارُ "الأفندمُ للنّشرِ"

مراراً وتكراراً يمكنُ القولُ أنّهُ اشتدَّ الكربُ على اللغةِ العربيةِ والناطقينَ بها حين تحوّلتْ أجيالُ المتعلمينَ العربُ إلى الكتابةِ والتأليفِ و"الإنتاجِ الفكريِّ" بلغاتٍ أخرى. في منطقةِ بلادِ الشّامِ تولّى أنصارُ تعليمِ اللغتيْنِ الإنجليزيّةِ والفرنسيّةِ الأمرَ في حينِ استفردَ أنصارُ اللغةِ الفرنسيّةِ بأجيالِ المغربِ العربيِّ تحتَ الاحتلالِ الفرنسيِّ وفيما بعدَ الاستقلالِ. تراجعَتْ هيبةُ ومكانةُ الحرفِ العربيِّ إلى درجةٍ تدقُّ ناقوسَ الخطرِ منذُ بدايةِ القرنِ العشرينِ مروراً بوسطهِ واشتدّتْ بشكلٍ صاخبٍ مع نهايةِ القرنِ العشرينِ وبدءِ القرنِ الذي يليهِ. أخيراً حوصِرَ الحرفُ العربيُّ في آخرِ مواقعهِ الحصينةِ في مصرَ والسودانِ والجزيرةِ العربيةِ والعراقِ بفعلِ الغزوِ الثقافيِّ وهبوبِ رياحِ العولمةِ والتقنيةِ الحديثةِ العاتيةِ. العربيُّ اليومَ يحاولُ جاهداً لاهثاً أنْ ينطقَ بلغاتٍ أخرى علَّ ذلكَ يعينُهُ على تحسينِ مستواهُ المعيشيِّ والشخصيِّ والمعنويِّ والنفسيِّ والثقافيِّ والتقنيِّ الحرفيِّ. في عمليّةِ الهربِ من حالةِ الغوغائيّةِ وسيطرةِ طبقاتِ الصعاليكِ السياسيّينَ على جلِّ مفاصلِ ومنافسِ حياةِ العربيِّ هجرتْ الجموعُ لغتَها وثقافتَها، وحتى معتقدَها! في سبيلِ دخولِ عصرِ العولمةِ الذي باتَ غربياً أمريكياً بامتيازٍ.

في ظلِّ هكذا معطياتٍ وحيثياتٍ بائسةٍ مزريةٍ كانَ لا بدَّ لِيَ كإنسانٍ عربيٍّ، وعروبيٍّ!، أن يقدّمَ شيئاً للّغةِ العربيّةِ المجيدةِ والثقافةِ العربيةِ النبيلةِ الكريمةِ الساميةِ. الخَطْبُ على العربِ والعروبةِ عامٌّ ولا يمكنُ لشخصٍ واحدٍ أو مجموعةٍ من الأشخاصِ مهما كانتْ كبيرةً وتتمتّعُ بفاعليّةٍ معتبَرَةٍ من رفعِ الضّيمِ عن اللغةِ العربيةِ والناطقينَ بها. الطريقُ إلى إعادةِ الاعتبارِ للّغةِ العربيّةِ قد يتمُّ بتوجيهِ خطابٍ خاصٍّ موجّهٍ إلى عمومِ العربِ بضرورةِ الوقوفِ على أقدامِهم في مختلفِ ميادينِ العلمِ والتقنيةِ والفكرِ والحياةِ. يلي ذلكَ الشروعُ بإحداثِ حركةٍ ثوريّةٍ تصحيحيّةٍ منظّمةٍ تبدأُ من الأساسِ وتنتقلُ إلى الجذوعِ والفروعِ وتنتهي بالأغصانِ والبراعمِ الجديدةِ. حركةٌ تؤدّي إلى لَجْمِ قدرةِ المهزومينَ الذينَ يمتلكونَ ناصيةَ القرارِ الثقافيِّ والتعليميِّ والتربويِّ ومنعِهم من الاستمرارِ في اتخاذِ قراراتٍ من شأنِها أنْ تدمّرَ لغةَ الضّادِ بشكلٍ نهائيٍّ، تارةً بزعمِ محاولةِ اللّحاقِ بركبِ التقدّمِ العلميِّ وتارةً بزعمِ التجديدِ والتخلّصِ من الفكرِ الرجعيِّ السّلفيِّ المتحجّرِ. ثمّةَ هنالكَ جيوشٌ جديدةٌ من ذوي الولاءِ المزدوجِ من أصحابِ الجنسيّاتِ الذينَ بدؤوا يعودونَ إلى الوطنِ والعالَمِ العربيّيْنِ بأعدادٍ متزايدةٍ ويستولونَ على مرافقِ الأنشطةِ التجاريّةِ والثقافيّةِ والتعليميّةِ يزاحمونَ الصّامدينَ التقليديّينَ بدعمٍ من "حكوماتِهم

الجديدةِ". مع الاحترامِ شبهِ الكاملِ لهم ولجهودِهم وكفاحِهم المريرِ في الحياةِ!، إذا ما يجوزُ التعبيرُ، هؤلاءِ ليسوا فقط خطراً على الثقافةِ واللغةِ الأصلِ لكن على الاقتصادِ والمالِ والأعمالِ والثروةِ والجبهةِ الداخليّةِ. قسمٌ منهم لم يمانعْ العملَ في قسمِ الترجمةِ الميدانيّةِ لأفواجِ الاحتلالِ الجديدِ للعالَمِ العربيِّ بمختلفِ مستوياتِ ومراتبِ الاحتلاَلِ.

مرّةً أخرى أقولُ أنّهُ في العامِ ٢٠٠٥ أنجزتُ تأليفَ ثلاثةِ مخطوطاتٍ باللغةِ العربيّةِ الفصحى على شكلِ رواياتٍ تَجمعُ الحقيقةَ بالخيالِ والخرافةِ لتجنّبِ الدخولِ ما أمكنَ، خلالَ الإمعانِ في الخيالِ، في متاهاتٍ مع الرقابةِ ومقصِّ الرقيبِ الحادِّ الموجّهِ رسمياً وشعبياً!. أولَى هذهِ الرواياتِ كانت بعنوانِ "عناقيدُ البؤسِ" وهي محاولةٌ جادّةٌ وجريئةٌ لاستعمالِ "حمارٍ" يمشي على أربعٍ، ويتمتّعُ بصوتٍ موسيقيٍّ لا يُحسَدُ عليهِ، لإصلاحِ الخللِ الفاضحِ في العمليةِ التعليميةِ المحليّةِ والإقليميّةِ وحتى الدوليةِ العامةِ. العمليّةُ التعليميّةُ خاصّةً الموجّهةُ منها إلى الدّولِ الناميةِ من الدّولِ الصناعيّةِ الإمبرياليّةِ عمليّةٌ عاقرٌ لم ينتجْ عنها سوى التبعيّةِ والتخلّفِ والكسادِ والركودِ والاضمحلالِ. ذلكَ المسكينُ الحمارُ الذي غالباً ما يُتّهم بالغباءِ في المجتمعاتِ النّاميةِ ويوسَعُ ضَرْباً وركْلاً وإهمالاً لغبائهِ! وقبحِ صوتهِ يحاولُ بنجعٍ منقطعِ النظيرِ إصلاحَ الخللِ في عمليةِ تعليمِ الأجيالِ في الدولِ الناميةِ بصورةٍ خاصةٍ. في روايةِ "عناقَيدُ البؤسِ" ينجحُ الحمارُ، مرّةً أخرى الذي يمشي على أربعٍ وليسَ على اثنتيْنِ وغيرُ ناطقٍ، ينجحُ إلى حدٍّ بعيدٍ! وبشكلٍ ملفتٍ للنظرِ يبهرُ اللامعينَ من الكتّابِ والشعراءِ والناقدينَ والفلاسفةِ والمصلحينَ التربويّينَ والاجتماعيّينَ. يحدثُ ذلكَ بمساعدةٍ هامشيّةٍ من رفيقِ دربِ الحمارِ، الشخصيةِ الثانيةِ في الروايةِ من جنسِ البشرِ، لترجمةِ أو استقراءِ أفكارِ الأوّلِ من قِبَلِ الثاني لنقلِها إلى المجتمعِ. بعبارةٍ أخرى فالحمارُ الذي لا يقرأُ ولا يكتبُ يحاولُ جهدَهُ إصلاحَ من أوغلَ بدونِ وعيٍ يُذكَرُ في العمليّةِ الأكاديميّةِ المرتكزةِ بشكلٍ شبهِ كاملٍ على القراءةِ والكتابةِ، أو ما يُعرفُ بمحوِ الأميّةِ.

طالت روايةُ "عناقيدُ البؤسِ" لتمتدَّ إلى أكثرَ من ٥٠٠ صفحةً أي ما يعادلُ أكثرَ من ٢٠٠ ألفِ كلمةً باللغةِ العربيةِ مع التّركيزِ على تشكيلِ الأحرفِ خاصّةً في نهايةِ المفرداتِ. استغرقتْ كتابةُ الروايةِ لوضعِها بصورةٍ شبهِ نهائيةٍ مقبولةٍ قدْرَ الاستطاعةِ حواليْ السّنةِ ونصفِ السّنةِ من العملِ الدائبِ الجادِّ المضني. الحمارُ في جلِّ مواقفِ ومشاهدِ الروايةِ يبدو حقيقةً وواقعاً يحاولُ إقناعَ الشخصيّةِ الأخرى، البشريّةِ، بعبثيةِ طرقِ التعليمِ لدى الآخرِ وأنّها تؤدّي بهِ فقط تقريباً إلى "الجوفائيّةِ" المقنّعةِ بزهوِ ثيابِ التعليمِ. بسببِ العُقمِ شبهِ المطلقِ في التعاملِ مع دورِ النشرِ واتحاداتِ المفكّرينَ

والمثقّفينَ المحليّةِ وعبرَ الحدودِ انشغلْتُ وأنهيتُ كتابةَ مخطوطتيْنِ أخريْينِ لكنْ بحجمٍ أقلَّ من نصفِ حجمِ مخطوطةِ "عناقيدُ البؤسِ"، لكلٍّ منهما. حدثَ ذلكَ في انتظارِ التعرّفِ على دارٍ للنشرِ يمكنُ الرّكونُ إليها نفسيّاً ومعنويّاً وماديّاً وأمانةً فكريّةً وماديّةً. في النهايةِ فالكتابُ للكاتبِ مثلَ طفلةٍ ابنةٍ صغيرةٍ حادّةِ الذكاءِ والفصاحةِ والجمالِ يسعى المؤلِّفُ (الأبُ!) لإيداعِها في أكثرِ الأماكنِ أمناً وأماناً وتقديراً واحتراماً.

لدى زيارةِ صديقٍ للعائلةِ إلى المنطقةِ ومكوثِهِ في بيتِنا ضيفاً حواليْ الأسبوعِ من الزمانِ اطّلعَ خلالَها على بعضِ محتوياتِ روايةِ "عناقيدُ البؤسِ". علمَ الدكتورُ "فهيمُ أبوالحُسْنِ" بالعبثيةِ الواقعةِ في طباعةِ ونشرِ وتوزيعِ وتسويقِ الكتابِ العربيِّ واقترحَ عليَّ طرْقَ بابِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ"، واسعةِ الشعبيّةِ حسبَ زعمِهِ. وصفَ الدكتورُ أبوالحُسْنِ دارَ "الأفندمُ للنشرِ" هذهِ بالمركزيّةِ الديموغرافيّةِ في المنطقةِ واللبراليةِ، إلى جانبِ الباعِ الطويلِ في النشرِ والتوزيعِ والعراقةِ في النشاطِ الفكريِّ في مختلفِ الاتجاهاتِ المتاحةِ. كانَ الدكتورُ "أبوالحُسْنِ" قد تخرّجَ من قسمِ اللغةِ العربيّةِ ويدرّسُ حاليّاً مادّةَ اللغةِ العربيّةِ في الجامعاتِ الأوروبيّةِ كلغةٍ لغيرِ النّاطقينَ بها؛ كما لو كانَ وضعُ النّاطقينَ الأصليينَ بها ما يبشّرُ بأيِّ خيرٍ!. لكنْ كيفَ الوصولُ إلى دارِ "الأفندمُ للنشرِ" جغرافيّاً وماديّاً ومعنويّاً ورفعةَ مستوىً؟!. لا سبيلَ إلى كلِّ ذلكَ حتّى إشعارٍ آخرَ. عليَّ أنْ أصبرَ وأتركَ الأمورَ لفرصةٍ سانحةٍ مع الزّمنِ.

المكانُ "معرضٌ للكتابِ" والزّمانُ هو منتصفُ الشهرِ الرابعِ (نيسانَ إبريلَ) تقريباً من العامِ ٢٠٠٧. جناحُ دارِ "الأفندمُ للنشرِ" ينتصبُ بشموخٍ وعراقةٍ في مدخلِ المعرضِ مزداناً بالكتبِ والمطبوعاتِ القديمةِ والجديدةِ في مختلفِ المجالاتِ، في جلِّها في مجالاتِ الأدبِ والسياسةِ والقانونِ إلى جانبِ مواضيعَ أخرى متفرقةٍ لكنْ أقلَّ اهتماماً بلْ تألّقاً. كُتُبٌ معروضةٌ بأغلفتِها البرّاقةِ اللامعةِ بالألوانِ تطرقُ الانتباهَ بشدّةٍ وعنادٍ في جلِّها تجذبُ الأنظارَ، بأثمانٍ مقبولةٍ وقابلةٍ بسرعةٍ للتماشي مع متطلباتِ زوّارِ المعرضِ. قد يبدأُ سعرُ الكتابِ بعشرينَ دولاراً مثلاً ويتهاوى بسرعةٍ إلى ما يقاربُ نصفَ هذا السعرِ، خاصّةً مع اقترابِ نهايةِ المعرضِ.

بجانبِ جناحِ دارِ "الأفندمُ للنشرِ" كانَ يجلسُ رجلٌ تجاوزَ الستينَ سنةً من العمرِ يحتسي قهوةَ "نيسكافيه" سريعةَ التحضيرِ والاستهلاكِ من كوبٍ بلاستيكيٍّ صغيرِ الحجمِ يُستعمَلُ مرّةً واحدةً. كانَ ذلكَ الرجلُ العجوزُ يرتدي لباساً شعبيّاً عريقاً أصيلاً متواضعاً ملفتاً لانتباهِ زوّارِ المعرضِ. معظمُ زوّارِ المعرضِ أخذَ الزيُّ الغربيُّ المتمثّلُ بالبنطلونِ والقميصِ والغيارِ الداخليِّ!، ونوعاً ما ربطاتِ الأعناقِ، أخذَ منهم كلَّ مأخذٍ. في البدايةِ لم

يخطرْ ببالِيَ أنَّ ذلكَ الشخصَ "البلديَّ العريقَ" هو صاحبُ ومالكُ ومحرّكُ ومديرُ دارِ "الأفندمُ للنشر". استبشرتُ خيراً في الموقعِ بأنَّ الشخصيّةَ العربيّةَ المحليّةَ قادرةٌ على تحقيقِ تقدّمٍ نوعيٍّ مرموقٍ في مجالٍ ما رغماً عن الرياحِ الثقافيةِ العاتيةِ المستمرّةِ لعقودٍ طويلةٍ من زمنِ "الضياعِ الثّقافيِّ العربيِّ العامِّ". في الحالِ تعرّفتُ على السيّدِ "الشيخ ترياقٍ" وعلى الطريقةِ العربيّةِ الريفيّةِ الشعبيّةِ التقليديّةِ الجياشةِ، بالأحضانِ والقبلاتِ. لم يمضِ طويلُ وقتٍ على اللقاءِ الحارِّ حتى أخبرتُ "الشيخَ ترياقَ"، صاحبَ الوقارِ والشخصيّةِ المحبوبةِ بحرارةٍ، أنّني أبحثُ وبشكلٍ يائسٍ عن دارٍ للنّشرِ لأضعَ فيها كلَّ "بيضاتِيَ" في الفكرِ المتوفّرةِ في حينهِ، وحتّى فيما بعدُ. أخبرتُ "الشيخَ ترياقَ" أنّني أريدُ أنْ أريحَ نفسِيَ وأعصابِيَ ومشاعرِيَ قليلاً بعدَ طولِ عناءٍ مع دورِ النشرِ واتحاداتِ المفكّرينَ والمثقّفينَ والعلماءِ والشّعراءِ، وأسماءَ وعناوينِ ما أنزلَ اللهُ تعالى بها من سلطانٍ، المحليّةِ وعبرَ الحدودِ القريبةِ. عندَ التعاملِ معَ هؤلاءِ وهؤلاءِ ... وهؤلاءِ يفضّلُ المرءُ لو بقيَ أميّاً لا يقرأُ ولا يكتبُ، وزيادةً على ذلكَ أصمَّ أعمى لا يسمعُ ولا يرى! ولا يشمُّ ربّما. بسرعةٍ تعاطفَ "الشيخُ ترياقُ" مع حالِيَ البائسةِ اليائسةِ واستجابَ مبدئياً لطلباتِيَ وبشكلٍ حماسيٍّ متعاطفٍ ومنعشٍ للآمالِ.

رأى "الشيخُ ترياقُ" ما أحملُهُ من قرصٍ مدمجٍ (CD) يحتوي المخطوطاتِ الثلاثةَ ومع القرصِ ثلاثُ نسخٍ مسحوبةٌ على ورقٍ عاديٍّ. في الحالِ وبشهامةٍ غيرِ عاديّةٍ اقترحَ "الشيخُ ترياقُ" عليَّ إرفاقَ المخطوطاتِ بالقرصِ المُدمَجِ لنقلِها جميعاً في كيسٍ بلاستيكيٍّ واحدٍ إلى مقرِّ دارِ "الأفندمُ للنشرِ" في المقرِّ الرئيسيِّ العامِّ لتوخّي تقليصِ الوقتِ في البتِّ باحتمالِ إصدارِ أو نشرِ ما أمكنَ من تلكِ المخطوطاتِ. للتأكّدِ من ترسيخِ شكلِيَ وشخصيّتِيَ في ذاكرةِ "الشيخِ ترياقٍ"، القويّةِ بامتيازٍ، قمتُ بزيارتهِ خلالَ المعرضِ فيما بعدُ عدّةَ مرّاتٍ وأحياناً برفقةِ زملاءَ لِيَ متناولينَ معَهُ بعضَ المشروباتِ الخفيفةِ من حسابِ جيبهِ الخاصِّ. وعدَ "الشيخُ ترياقُ" أنّهُ خلالَ فترةٍ وجيزةٍ، شهراً أو بعضَ شهرٍ، سيتمُّ الردُّ عليَّ بالطرقِ المتاحةِ بريدياً (إلكترونياً) عن نتيجةِ الاطّلاعِ على محتوياتِ المخطوطاتِ. من جانبهِ اقترحَ "الشيخُ ترياقُ" مبدئياً إعطائِيَ مبلغَ ١٠٠ دولاراً أمريكيّاً عن كلِّ إصدارٍ لمخطوطةٍ تُنشَرُ لِيَ، إضافةً إلى ١٠٠ نسخةٍ من الإصدارِ الأوّلِ البالغِ ١٠٠٠ نسخةً. حالَ نفادِ الإصدارِ الأوّلِ من سوقِ البيعِ يتمُّ التعاقدُ من جديدٍ حسبَ نسبةٍ معيّنةٍ في المبيعاتِ. كانَ هذا العرضُ بالنسبةِ لِيَ غيرَ متوقّعٍ من ناحيةِ السخاءِ مقارنةً بدورِ النّشرِ الأخرى التي تأبى التعاملَ إلا بدفعِ أسعارٍ خياليةٍ مقارنةً بدارِ "الأفندمُ للنّشرِ"، ومن جيبِيَ ككاتبٍ أو مغفّلٍ!. في الحقيقةِ لا مثلبةَ في ذلكَ لأنَّ سوقَ

الكتابِ العربيِّ يلامسُ الحضيضَ دائماً بسببِ عواملِ الغزوِ الثقافيِّ والعولمةِ وانتقالِ العربيِّ المتعلّمِ مباشرةً إلى أحضانِ الإنترنتْ دونَ المرورِ بمرحلةِ قراءةِ الكتبِ.

بعدَ حواليْ الشهرِ من تسليمِ المخطوطاتِ لدارِ "الأفندمُ للنشر"، تقريباً في نهايةِ شهرِ مايو أيّارِ ٢٠٠٧، قمتُ بعملِ اتصالٍ عن طريقِ إرسالِ رسالةٍ من بضعةِ أسطرٍ بالبريدِ الإلكترونيِّ. في تلكَ الرسالةِ وددتُ تذكيرَ طاقمِ إدارةِ دارِ "الأفندمُ للنشرِ" بشكليَ وحاليَ وسعيِيَ الجادِّ لنشرِ أفكاريَ عن طريقِهم. في الحالِ وصلتني رسالةُ ردٍّ في أقلَّ من ثوانٍ معدودةٍ، ومن سطرٍ واحدٍ تقريباً، تفيدُ بأنَّ رسالتِيَ وصلتْ وسوفَ يتمُّ إتْباعُ ذلكَ بردودٍ أخرى بعدَ تفحّصٍ فحوى ومحتوياتِ الرّسالةِ. سُررتُ كثيراً أنَّ هنالكَ مؤسّسةً عربيّةً تتمتّعُ بذلكَ المستوى من السرعةِ والحرصِ والمسئوليّةِ في العملِ واحترامِ أحاسيسِ الآخرينَ وتقديرِ أزمانِ أعمارِهم القيّمةِ لهم. أخبرتُ الأصدقاءَ والملأَ من حولِيَ بأنّني أخيراً وضعتُ إصبعِيَ على الجوابِ الصحيحِ في التعاملِ مع إحدى المؤسّساتِ العربيّةِ المجيدةِ، حظّاً أو صدفةً أو تيسيراً من اللهِ تعالى.

انتظرتُ الردَّ الموعودَ "إلكترونياً" أكثرَ من أسبوعيْنِ حينَ كرّرتُ إرسالَ رسالةٍ أخرى على البريدِ الإلكترونيِّ وخرجَت نفسُ صيغةِ الردِّ السابقةِ والتي تقولُ، بعدَ تقديمِ الشّكرِ، أنَّ الردَّ سيأتيكَ بسرعةٍ. مدّدتُ فترةَ الانتظارِ أسبوعاً آخرَ ولم يأتِني شيءٌ حينَها أدركتُ أنَّ تلكَ الرسالةَ الإلكترونيّةَ الردَّ من جانبِ دارِ "الأفندمُ للنشرِ" ما هي إلا عمليّةٌ روتينيّةٌ مبرمَجةٌ إلكترونياً هكذا. عليَّ أنْ لا أمنّيَ نفسِيَ كثيراً في ذلكَ الاتجاهِ الطّموحِ! في الحصولِ على ردودٍ سريعةٍ. أصبحَ لا بدَّ من اللجوءِ إلى طريقةِ استعمالِ الهاتفِ وتذكيرِ "الشيخ ترياقِ"، أو طاقمِ إدارتهِ وأعمالهِ ممن يمكنُ الاتصالُ بهم والتواصلُ معهم، تذكيرُهم بالأمرِ. عليَّ أن أذكّرَ هؤلاءِ بنفسِيَ وشكلِيَ من جديدٍ سلكياً ولا-سلكياً، ما أمكنَ!، وبسعيِي لطباعةِ ونشرِ إحدى مخطوطاتِيَ المقدَّمةِ على الأقلِّ في دارِ "الأفندمُ للنّشر". في البالِ لا تزالُ تطرقُ ذكرياتٌ وأحداثٌ وهواجسُ جدُّ مؤلمةٍ من تجربةٍ مريرةٍ للتوِّ أو خازوقٍ عميقٍ قاسٍ من جانبِ دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" والتي ستبقى جميعاً معِيَ حتّى إشعارٍ آخرَ من العمرِ قد يمتدُّ إلى آخرِ ثانيةٍ من الحياةِ.

على مدى شهرينِ تقريباً، وبالتحديدِ في آبِ أغسطسِ وأيلولِ سبتمبر، قمتُ بعملِ ثلاثةِ أو أربعةِ مكالماتٍ هاتفيةٍ. في محاولاتِيَ للاستفسارِ بشأنِ المخطوطاتِ في كلِّ مرّةٍ كنتُ أُواجَهُ بسؤالٍ عن اسمِيَ أيْ هويّتِيَ وعناوينِ المخطوطاتِ التي أتحدّثُ عنها. يتبعُ ذلكَ وعدٌ من الطّرفِ الآخرِ على الهاتفِ بأنّهُ سيتمُّ النظرُ في الأمورِ وموافاتِيَ بالتفاصيلِ لاحقاً. بدأَ الريبُ والشّكُّ يدخلُ إلى نفسِيَ ويزدادُ بشأنِ الجديّةِ الموعودةِ في دراسةِ

إمكانيّةِ النشرِ في دارِ "الأفندمُ للنشر". كانَ الوعدُ السابقُ من "الشيخ ترياقٍ" وأركانِ عملهِ أنَّ الأمرَ لن يحتاجَ أكثرَ من شهرٍ لتلقّي ردٍّ نهائيٍّ بشأنِ إمكانيّةِ أو عدمِ إمكانيّةِ النشرِ. إذنْ! لا بدَّ من طلبِ الحديثِ مباشرةً مع "الشيخ ترياقِ" شخصيّاً والاستعلامِ منهُ في الموضوعِ بشكلٍ مباشرٍ ونهائيٍّ ما أمكنَ. كانَ السؤالُ المطروحُ في الذهنِ دائماً هو "ما الذي يمنعُ دارَ نشرٍ مثلَ الأفندمُ للنّشرِ الكبيرةِ العريقةِ من أنْ تبعثَ رسالةً بالبريدِ الإلكترونيِّ فيها تخبرُ المؤلِّفَ عمّا يجري حقيقةً، سلباً أو إيجاباً، بسطرٍ واحدٍ قد يأخذُ ثوانٍ معدوداتٍ من الوقتِ؟!". وبسببِ نقصِ المعرفةِ وشبهِ انعدامِ الخبرةِ لديَّ في شئونِ التعاملِ مع المؤسّساتِ العربيةِ العامّةِ والخاصّةِ اضطررتُ إلى أخذِ الأمورِ كما تُنطَقُ الكلماتُ. أنا شخصيّاً من النوعِ الذي يفضّلُ أنْ يعرفَ الآخرَ من لسانهِ لا من قلبهِ وضميرهِ ونواياهُ وخفاياهُ!، كلُّ هذهِ الأخيرةِ بينِي وبينَها حواجزُ لا يمكنني اختراقُها.

في نهايةِ شهرِ أيلولِ سبتمبرِ عامَ ٢٠٠٧ وبعدَ عدّةِ محاولاتٍ فاشلةٍ تمكّنتُ من التحدّثِ على الهاتفِ مباشرةً مع "الشيخ ترياقٍ" والذي كانَ دافئَ الصوتِ وواعداً، كعادتهِ. سألتُهُ هل ما زالَ يتذكّرني جيداً وعن المخطوطاتِ التي وعدني بنشرِها في خضمِّ سعيهِ وأعمالهِ وهمومهِ واهتماماتهِ؟!؛ أجابَ بالتأكيدِ من النوعِ الذي لا يدعُ مجالاً لأيِّ شكٍّ كما لو كانَ رآني قبلَ دقائقَ من حينهِ. سُررتُ كثيراً وتخلّصتُ نفسيّاً ومعنويّاً من الكثيرِ من ظنونِيَ التي بدتْ جميعاً من نوعِ الآثامِ التي كان من الصفاقةِ الصارخةِ الوقوعُ فيها منذُ البدايةِ. هذا إلى جانبِ نصائحِ بعضِ الزملاءِ، من ذوي الخبرةِ في مجالِ روتينِ النّشرِ في المؤسّساتِ العربيّةِ، بضرورةِ الصبرِ وإعطاءِ الأمرِ وقتَهُ؛ هنالكَ مؤلِّفونَ وأعمالٌ كتابيّةٌ لغيرِيَ في هذا العالَمِ الذي لستُ أنا وحيداً فيهِ!. وفعلاً تخلّيتُ عن فكرةِ الردِّ السهلِ السريعِ باستعمالِ البريدِ الإلكترونيِّ عبرَ شبكةِ الإنترنتْ أو أيّةِ وسيلةٍ حديثةٍ أخرى.

تقريباً في العشرِ الأواخرِ من شهرِ أكتوبرِ تشرينِ الأوّلِ عامَ ٢٠٠٧ قمتُ بمحاولةٍ لإجراءِ مكالمةٍ "وديةٍ"، لزيادةِ طمأنةِ القلبِ، مع أيٍّ من طاقمِ إدارةِ دارِ "الأفندمُ للنّشر". كانَ هنالكَ شخصٌ يواظبُ على الردِّ على المكالمةِ تبيّنَ فيما بعدُ أنّهُ أحدُ المقرّبينَ لِ"الشيخ ترياقٍ"، ويُكنى بِ"راضي" حسبَ اعتقادِيَ وذاكرتِيَ المتواضعةِ في المستوى. من جانبِ السيّدِ "راضي" عادَ السؤالُ الروتينيُّ المعهودُ عن اسمِيَ وعناوينِ مخطوطاتِيَ للتأكّدِ من هويّةِ المؤلِّفِ وما يحاولُ الأخيرُ أنْ ينشرَ!؟. من خلالِ تلكَ المكالماتِ القصيرةِ كانَ يأتيني الصوتُ الواعدُ عبرَ الهاتفِ، مصحوباً بعبارةِ "إن شاء الله يا فندم"، بأنَّ الأمورَ تجري على قدمٍ وساقٍ. المخطوطاتُ، أو جزءٌ منها على الأقلَّ، ستُنشرُ في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ. حتّى أنَّ هنالكَ وعداً بالصوتِ عبرَ الهاتفِ بأنَّ أوّلَ إصدارٍ

سيتمُّ وسيُعرضُ في "معرضٍ دوليٍّ للكتابِ" سيقامُ في شهرِ نوفمبرِ تشرينِ الثاني عامَ ٢٠٠٧ِ!!؟، أيْ بعدَ أقلَّ من شهرٍ من حينهِ.

في محاولةٍ عن قربٍ أكثرَ لمعرفةِ ما يمكنُ أنْ تؤولَ إليهِ الأمورُ بشأنِ النشرِ أوصيتُ أحدَ الأصدقاءِ، السيدَ "سالمَ" الذي كانَ يزورُ المدينةَ التي يقيمُ فيها "الشيخُ ترياقُ" في رحلةٍ سياحيّةٍ، أوصيتُهُ لزيارةِ مقرِّ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ". كانَ ذلكَ بدافعِ التأكّدِ بأنَّ شيئاً ما حقيقةً يجري في ذلكَ الخصوصِ، ولزيادةِ التأكيدِ أَنَّ الذينَ نتحدّثُ معهم عبرَ الهاتفِ هم من استلموا المخطوطاتِ ولا ينكروا الأمرَ علينا لاحقاً!؛ ما الذي يضمنُ الأمورَ؟!. لا توجدُ وثائقُ ولا عقودٌ ولا معارفُ أو وسائطُ أخرى للتأكّدِ من أيِّ شيءٍ بذلكَ الخصوصِ قد وقعَ. قامَ السيّدُ "سالمُ" بالاتصالِ بِيَ من مكتبِ "الشيخِ ترياقٍ" واستمعتُ مرّةً أخرى لذلكَ الصوتِ الدّافئِ الواعدِ الشّهمِ الكريمِ. بدتْ الأمورُ مرّةً أخرى كما لو كانَ القطارُ لا يزالُ يسيرُ بثباتٍ وسرعةٍ على السكّةِ وأنْ لا داعيَ للقلقِ أبداً. من جانبهِ أخبرني صديقِيَ السيّدُ "سالمُ" عندَ لقائِيَ بهِ بعدَ عودتهِ من الرحلةِ أنَّ هنالكَ حالةً من الاكتظاظِ والازدحامِ "الفكريِّ-البيولوجيِّ" غيرِ العاديِّ في المكانِ الصغيرِ في المساحةِ من حولِ "الشيخِ ترياقٍ". أضافَ السيّدُ "سالمُ" أنّهُ عسى اللهَ تعالى أنْ يكونَ في عونِ "الشيخِ ترياقٍ" على النّشرِ والكتبِ والمؤلّفينَ. يأتي الكتّابُ والمؤلّفونَ إلى مكتبِ "الشيخِ ترياقٍ" من كلِّ حدبٍ وصوبٍ من الدّولةِ وبقيّةِ أنحاءِ العالَمِ العربيِّ، وعلى مدارِ الساعةِ، يريدونَ منهُ تلبيةَ طلباتِهم في نشرِ كتبٍ ومؤلّفاتٍ لَهم.

كانتْ تلكَ المعلوماتُ الميدانيّةُ أعلاهُ جديدةً وهامّةً قيّمةً تضافُ إلى تصوّريَ البدائيِّ عن الحالِ في دورِ النشرِ في العالَمِ العربيِّ بشكلٍ عامٍّ. لكنَّ الطريقَ لا يزالُ طويلاً لمعرفةِ الكثيرِ أو ما يكفي لمَن لهُ إرادةٌ ولديهِ متّسعٌ من الوقتِ وقوّةِ العصبِ والقلبِ للاستمرارِ في توخّي الأمورِ والواقعِ الذي يبدو مريراً وضحلاً بامتيازٍ!. بصورةٍ عامّةٍ، الويلُ والثبورُ لمن يضطَرُّ أنْ يغرقَ في التعاملِ ومواجهةِ هذا الواقعِ المريرِ. يزيدُ الأمرُ إلحاحاً وتشاؤماً خاصّةً في روايةٍ كَ"عناقيدُ البؤسِ" فيها حمارٌ ورفيقُهُ (المؤلِّفُ) يحاولانِ كلَّ جهديْهما في فرصةٍ شبهِ أخيرةٍ إصلاحَ الخللِ المتراكمِ في العمليّةِ التعليميّةِ في العالَميْنِ الثالثِ والرابعِ بدءاً من الأساسِ قبلَ الانتقالِ إلى الجذوعِ والانتهاءِ بالفروعِ وأطرافِ الأغصانِ.

أتى معرضُ الكتابِ الدوليُّ متأخّراً بعضَ الشيءِ في سنةِ ٢٠٠٧، في شهرِ كانونِ الأوّلِ ديسمبر بدلاً من تشرينِ الثاني نوفمبر. قمتُ بزيارةِ جناحِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" للاستفسارِ عن الأمورِ ومتوقّعاً بعضَ المفاجآتِ!. السيّدُ "عزيزُ أبوالعزِّ" من طاقمِ إدارةِ

أو مبيعاتِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ"، أو كليهما معاً، يستقبلُني ويعتذرُ بشيءٍ من المرارةِ والتحسّرِ عن عدمِ التمكّنِ من نشرِ جميعِ المخطوطاتِ المقترَحةِ أو المقدَّمةِ للنشرِ. أضافَ السيّدُ "أبوالعزِّ" أنَّ إدارةَ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" أوصتْ بقبولِ مخطوطةٍ واحدةٍ للنّشرِ فيها، وأنَّ لِيَ الحريةَ في اختيارِ تلكَ المخطوطةِ. لا يسمحُ ضغطُ العملِ في دارِ النّشرِ والمسئولياتُ والالتزاماتُ الأخرى من التعاملِ مع كافّةِ المخطوطاتِ المقدَّمةِ من جهتِيَ، أضافَ السيّدُ "أبوالعزِّ". سمعاً وطاعةً! تمَّ اختيارُ روايةِ "عناقيدُ البؤسِ" المحبّذةِ والمفضّلةِ، بلْ ومفخرةِ المؤلِّفِ. في الوقتِ ذاتهِ فإنَّ ذلكَ ما دقَّ ناقوسَ شؤمٍ وسوءِ طالعٍ في ذهنِيَ المطعونِ حديثاً بقوّةٍ وبؤسٍ من دارِ "الفخامةُ للنّشرِ". في البدايةِ هُيّئَ إليَّ أنّها نفسُ الطريقةِ التي تُتّبعُ في المماطلةِ و"حلقِ الذقونِ على النّاشفِ"، حسبَ التعبيرِ العاميِّ شديدِ البؤسِ وخيبةِ الأملِ. هذا مع ما قد يتبعُ ذلكَ من ردِّ فعلٍ معاكسٍ مثلَ استعمالِ معجونِ "ب٣"، سيّئِ الصيتِ، لحلاقةِ ذقونِ أصحابِ الكاذبةِ المخادعةِ. لكنَّ شكلَ وطريقةَ تعاملِ السيّدِ "أبوالعزِّ" مع الموقفِ لم يكنْ يوحي بذلكَ. على العكسِ عندَما رأيتُ حالَ وشكلَ السيّدِ "أبوالعزِّ"، والذي كنيتُهُ بعدَ ذلكَ بالأستاذِ، تذكّرتُ قولاً شعبيّاً جليلاً ينصُّ على أنَّ "كلَّ امرئٍ جبّارٌ إذا ما أمكنَ لهُ أنْ يكونَ". لكنَّ كلمةَ "جبّار" قد تأخذُ في الجبروتِ طريقيْنِ، طريقٌ فيهِ الخيرُ وآخرُ فيهِ الشرُّ. وبما أنّني من النوعِ الذي يبحثُ عن قطرةِ ماءٍ في كأسِ التّفاؤلِ اضطررتُ للمراهنةِ على الاتجاهِ الذي فيهِ الخيرُ.

اقتطعَ السيّدُ "أبوالعزِّ" ورقةً من مفكّرةِ دارِ "الأفندمُ للنشرِ" الداخليّةِ وكتبَ عليها بخطِّ يدِه، في بضعةِ أسطرٍ، عقداً أو تعاقداً فيهِ تَمَّ الاتفاقُ على نشرِ روايةِ "عناقيدُ البؤسِ". حقيقةً فإنَّ طريقةَ كتابةِ العقدِ أو التعاقدِ بهذهِ الصورةِ البدائيّةِ الارتجاليّةِ المهلهلةِ لا يمكنُ أنْ تكونَ ذاتَ قيمةٍ معتبَرةٍ لأيِّ شيءٍ أو هدفٍ، لا قانونيّاً ولا ذوقيّاً ولا أدبيّاً ولا جملةً ولا تفصيلاً. زيادةً على ذلكَ يمكنُ القولُ بكلِّ ثقةٍ وتوكيدٍ بأنّهُ لا ترتفعُ قيمةُ أو مستوى العقدِ أو التعاقدِ عن قيمةِ ورقةِ "كلينكسٍ" مستعملةٍ في حمّامٍ رديءٍ في مستوى النّظافةِ. لكنَّ الواقعَ بدا مثلَ "الأمورُ هي هكذا إمّا أنْ تقبلَها أو لا تقبلَها"، أو ربّما كانتْ رسالةً مبطّنةً من السيّدِ "أبوالعزِّ" يقرؤُها الأذكياءُ فقط. وبما أنّني أحملُ لقبَ دكتورٍ تمَّ الافتراضُ على أنّني من ضمنِ تلكَ النخبةِ! في المجتمعِ. أضافَ السيّدُ "أبوالعزِّ" شفَويّاً كلاميّاً أنَّ عرضَ الإصدارِ الأوّلِ سيكونُ، أو يتوقّعُ أنْ يكونَ! (بإذنِ اللهِ)، في "معرضٍ دوليٍّ للكتابِ" سيقامُ في شهرِ نيسانِ أبريلِ أو مايو أيارِ ٢٠٠٨. قامَ السيّدُ "أبوالعزِّ" بالبحثِ في الجوارِ القريبِ عن جناحٍ لعرضِ الكتبِ فيهِ ماكينةُ تصويرٍ أو استنساخٍ للوثائقِ، وحصلَ على نسخةٍ واحدةٍ أعطاني إياها للاحتفاظِ بها في سجلاتِيَ.

في العقدِ تمَّ الاتفاقُ على طبعِ ١٠٠٠ (ألفِ) نسخةً تُعطى للمؤلّفِ منها ٥٥ (خمسةٌ وخمسونَ) نسخةً فقط والباقي تتكلّفُ دارُ "الأفندمُ للنّشر" بتوزيعِها كلِّها لحسابِ دارِ النّشرِ. قلتُ لنفسِي وقالَ لِيَ أصحابِيَ ونبّهوني! أنّني كاتبٌ جديدٌ على السّوقِ ويجبُ أنْ أشعرَ بشديدِ الامتنانِ لمؤسّسةِ "الشيخِ ترياقٍ" إذا ما ساعدتني على الولوجِ بنجاحٍ في السّوقِ. مبدئيّاً وشبهَ نهائيٍّ مؤكّدٍ فإنَّ نيسانَ أبريلَ أو مايو أيارَ عامَ ٢٠٠٨ (موعد انعقاد معرضٍ دوليٍّ للكتابِ) سيشهدُ الإصدارَ الأوّلَ من روايةِ "عناقيدُ البؤسِ". بعدَ التوقيعِ بقلمهِ على العقدِ قالَ السيّدُ "أبوالعزِّ" أنَّ الانتهاءَ من توزيعِ الإصدارِ الأوّلِ قد يأخذُ من الوقتِ ما بينَ سنتيْنِ وثلاثِ سنواتٍ. أضافَ السيّدُ "أبوالعزِّ" أنَّ سوقَ القراءةِ العربيِّ ضعيفٌ أو شبهُ ميّتٍ. تزيدُ من حالةِ ضعفِ ذلكَ السّوقِ وتنضيبهِ إلى درجةِ الإفراغِ حالةُ الانجرافِ العربيِّ الهائلِ نحوَ توخّي التعليمِ الجامعيِّ والمتوسّطِ باللغاتِ والثقافاتِ الأخرى. ذلكَ ما أضافَ بعضَ الإحباطِ إلى نفسِيَ المثخنةِ بأنواعِ من الإحباطِ من كلِّ جانبٍ تقريباً. لكنْ في خاطرِيَ فإنَّ المبيعاتِ تعتمدُ على التّسويقِ والترتيبِ والتنظيمِ وأنَّ هنالكَ الكثيرينَ من الأصدقاءِ لديَّ ممن ينتظرونَ إصدارَ روايةِ "عناقيدُ البؤسِ" ببالغِ الصبرِ. من الأصدقاءِ الأكاديميينَ لِيَ من يريدُ أنْ يقتبسَ طريقةَ الحمارِ المبتكَرةَ ويطبِّقُها في تحسينِ مستوى الفهمِ والإدراكِ والتحصيلِ والإنتاجِ في التعليمِ لدى طلبتِهم الميئوسِ من حالتِهم بعدَ أكثرَ من عقديْنِ من السنينِ في تعليمِهم العبثيِّ لهم، ومن ثمَّ تعميمُها على غيرِهم.

قبل إقامةِ "معرضٍ دوليٍّ للكتابِ" في أبريلَ نيسانٍ عامَ ٢٠٠٨ بأسبوعيْنِ تقريباً اتصلَ أحدُ الزملاءِ بِيَ وأخبرني أنَّ هنالكَ فضائيةً إعلاميّةً تلفزيونيّةً ستقومُ بعملِ لقاءٍ إعلاميٍّ مع "الشيخِ ترياقٍ". أضافَ الزميلُ أنَّ عليَّ مشاهدتَها للتعرّفِ على شخصيةِ وشعبيّةِ ذلكَ الناشرِ "البلديِّ الأصيلِ" العظيمِ المرموقِ والجاذبِ للانتباهِ والفريدِ من نوعِهِ، كلّها في آنٍ معاً. انتظرتُ موعدَ إجراءِ المقابلةِ وكانت مشوّقةً إلى حدٍّ كبيرٍ. في المقدّمةِ أعلنَ المذيعُ أنَّ المقابلةَ ستكونُ مع ما يمكنُ أنْ يُطلقَ عليهِ بجدارةٍ لقبُ "أحدِ أعمدةِ الحكمةِ" بسببِ خدمتهِ للنشرِ الكبيرةِ الفريدةِ من نوعِها وعلى مدى عدّةِ عقودٍ. قَبِلَ "الشيخُ ترياقُ" التعظيمَ والتبجيلَ هذا على استحياءٍ وخجلٍ واضحيْنِ. قامَ المذيعُ بعدَها بتوجيهِ مجموعةٍ من الأسئلةِ إلى "الشيخِ ترياقٍ" حيثُ كانَ الأخيرُ نجماً، وعلى السليقةِ، بامتيازٍ.

خلالَ المقابلةِ الإعلاميةِ على الهواءِ مباشرةً أبدى "الشيخُ ترياقُ" امتعاضَهُ الشديدَ من حالةِ التأزّمِ والضحالةِ المريرةِ التي يغرقُ فيها سوقُ كتابةِ ونشرِ وتوزيعِ وتسويقِ

الكتابِ في العالَمِ العربيِّ. كذلكَ أعلنَ "الشيخُ ترياقٌ" بكلِّ صراحةٍ أنّهُ يوشكُ على أنْ يوقفَ كلَّ إصداراتِ الكتبِ الجديدةِ في حينهِ وحتّى إشعارٍ آخرَ. كيفَ لا يكونُ الأمرُ غيرَ ذلكَ وسوقُ الكتابِ العربيِّ يعجُّ بالمتسوّلينَ والجِياعِ والظمأى حتى النفَسِ الأخيرِ من الكتّابِ والمؤلّفينَ والروائيينَ والناشرينَ؟!. ذلكَ ما دقَّ جرسَ إنذارٍ في رأسِيَ وقلتُ في نفسِيَ أنّهُ "قد ضاعَ الرّجاءُ والأملُ" في النشرِ في دارِ "الأفندمُ للنشرِ". بدتْ الوعودُ السابقةُ في النشرِ وتوقيعِ عقدِ النشرِ والطمأنةِ من بابِ إلهاءِ طفلٍ مدلَّلٍ أو حتى متخلّفٍ عقلياً من قِبَلِ والدهِ أو والدتهِ بملهاةٍ أو لعبةٍ أو وعدٍ بشراءِ شيءٍ لهُ مستقبلاً. لكنْ لم يزلْ هنالكَ أملٌ بالنشرِ؛ يبقى السؤالُ المنطقيُّ "ما الذي يجعلُ إدارةَ أو مسئولي دارِ الأفندمُ للنشرِ لا تعتذرُ للمتقدّمينَ بطلباتٍ للنّشرِ فيها عن نشرِ مؤلَّفاتِهم بشكلٍ أو بآخرَ؟!"، يبقى هذا السّؤالُ ماثلاً أو مطروحاً. لكنْ، سبحانَ اللهِ تعالى حينَ يضيعُ الزمنُ ووقتُ الحياةِ الثمينُ سدىً وبلا هوادةٍ تُذكرُ.

بينَ الحينِ والآخرِ قبلَ قدومِ منتصفِ شهرِ نيسانَ أبريلَ عامَ ٢٠٠٨، موعدُ "معرضٍ دوليٍّ للكتابِ"، أجريتُ اتصالاتٍ عديدةً مع دارِ "الأفندمُ للنّشرِ". في كلِّ مرّةٍ كانَ الجوابُ، من السيّدِ "راضي"، بأنَّ مخطوطةَ "عناقيدُ البؤسِ" في الحسبانِ وقيدَ الطباعةِ. في الخيالِ الذهنيِّ "البريءِ" بدا الوضعُ المفترَضُ كما لو كانتْ هنالكَ مجموعةٌ من الأزرارِ الكهربائيةِ والأذرعِ الميكانيكيةِ ودواليبِ الدورانِ وأحزمةِ نقلِ الكتبِ وقوالبِ الضغطِ والنَّسخِ والتجليدِ والتعبئةِ في الصناديقِ تسيرُ على قدمٍ وساقٍ؛ لا داعيَ للقلقِ بشأنِ أيِّ شيءٍ. جاءَ "المعرضُ الدوليُّ للكتابِ" في شهرِ أبريلَ نيسانَ ٢٠٠٨ حينَ قمتُ بزيارةٍ للمعرضِ وتوجّهتُ فوراً إلى جناحِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" لرؤيةِ بعضِ إنتاجِيَ الفكريِّ!. لم يتوقّفْ الأمرُ عندَ ذلكَ الحدِّ حينَ وصلَ بيَ "الجهلُ وربما البراءةُ!" وقمتُ بدعوةِ بعضِ أصحابٍ لِيَ في العملِ والجوارِ والحياةِ الخاصّةِ لزيارةِ جناحِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ". قسمٌ من المدعوّينَ لديهم فكرةٌ مبسّطةٌ من المؤلِّفِ شخصياً عن حمارٍ ورفيقهِ يحاولانِ جاهديْنِ لاهثيْنِ إصلاحَ ما آلتْ إليهِ العمليةُ التربويّةُ والتعليميّةُ عبرَ العالَمِ النّامي، وبشغفٍ يحاولُ هؤلاءِ الأصحابُ معرفةَ تفاصيلِ تلكَ المنهجيّةِ التي يبتكرُها وينفّذُها الحمارُ ورفيقُهُ البشريُّ.

في الواقعِ لم تكنْ مفاجأةً كبيرةً لِيَ حينَ تمَّ اللقاءُ بطاقمِ إدارةِ ومبيعاتِ جناحِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" المكوّنِ من اثنيْنِ بَدَوا منهمكيْنِ في ترتيبِ وبيعِ وتسويقِ الكتبِ المعروضةِ. أخبرنَي الاثنانِ اللذانِ لا أزالُ أجهلُ اسميْهما أنَّ لا علمَ لديهما بمخطوطةٍ منشورةٍ تحملُ ذلكَ العنوانَ، "عناقيدُ البؤسِ"، ولا اسمَ المؤلِّفِ طبعاً "موسىً يعقوبٌ قاسمٌ!". سبّبَ

ذلكَ بعضَ الصدمةِ لكنْ بشكلٍ شبهِ متوقّعٍ، فالمعلوماتُ عن روتينٍ متّبعٍ وتأزّمٍ وضغطٍ في العملِ وتلكّؤٍ بهذا الشكلِ أو ذاكَ لا تزالُ جميعاً تطرقُ البالَ وتثيرُ الهواجسَ والشكوكَ بشأنِ إنجازِ أيِّ شيءٍ، في أيِّ وقتٍ محدّدٍ أو حتّى غيرِ محدّدٍ. دوّامةٌ من العبثيةِ تسيطرُ على كافّةِ الأمورِ النفسيّةِ والمعنويّةِ والعمليّةِ والواقعيّةِ عندَ التعاملِ مع هكذا أحوالٍ شديدةِ البؤسِ. لكنْ في النهايةِ هذا هو الواقعُ الذي يسيطرُ على مؤسّساتِ العالَمِ النامي عامّةً والعربيِّ بشكلٍ خاصٍّ. قد يحتاجُ الأمرُ إلى ما يقاربُ ١٠٠ (مائةَ) سنةً، ويزيدُ، حتى تخطوَ المؤسّساتُ العربيّةُ خطواتٍ مهمّةً في تنظيمِ وتهذيبِ وترتيبِ شئونِها وأمورِها؛ أو هكذا صوّرتُ لنفسِيَ الأمرَ!.

بعدَ تلكَ "الصدمةِ شبهِ المتوقّعةِ"، أو المحسوبِ حسابُها حدسياً، بيومٍ واحدٍ أجريتُ مكالمةً هاتفيّةً مع السيّدِ "عزيزِ أبوالعزِّ" في مقرِّ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" والّذي أخبرني أنَّ الأمورَ تسيرُ على ما يرامُ. لا داعيَ للقلقِ أبداً وسيبدأُ العملُ على نشرِ مخطوطةِ "عناقيدُ البؤسِ" وستظهرُ في "المعرضِ الدوليِّ للكتابِ" القادمِ، كما يتوقّعُ! فيما بعد؛ "إن شاء الله يا فندم"، أضافَ. سيقامُ "المعرضُ الدوليُّ للكتابِ" في شهرِ يونيو حزيرانِ أو يوليو تموزِ من عامِ ٢٠٠٨ حسبَ التوقّعاتِ. سادَ التفهّمُ والتقديرُ للموقفِ والواقعِ والمشاعرِ والأحاسيسِ عنديَ، ولن يمضيَ سوى شهريْنِ أو ثلاثةٍ على الأكثرِ قبلَ حلولِ الموعدِ الجديدِ لإظهارِ أوّلِ إصدارٍ؛ لكنْ يظلُّ الأمرُ في عدادِ "ربّما!". بعبارةٍ أخرى ها قد مضى أكثرُ من اثني عشرَ شهراً والشعورُ السّائدُ "المتفائلُ" أنّهُ كلّما طالَ الوقتُ كلّما اقتربتْ ساعةُ الفرَجِ، الفرَجُ هنا بخروجِ أوّلِ إصدارٍ من روايةِ "عناقيدُ البؤسِ". في منتصفِ مايو أيارَ جرى اتصالٌ بينِيَ وبينَ السيّدِ "أبوالعزِّ" بشأنِ إصدارِ روايةِ "عناقيدُ البؤسِ". بدورهِ أخبرني أنَّ كلَّ الأمورِ تسيرُ على خيرِ ما يرامُ. أضافَ أنَّ الكتابَ سيدخلُ المطبعةَ في بدايةِ شهرِ حزيرانَ يونيو ٢٠٠٨، أو شهرِ تموزِ يوليو على أكثرِ الاحتمالاتِ بطئاً وتشاؤماً من جهتهِ.

ها أنا الآنَ في الشهرِ الرابعِ عشرِ (١٤ شهراً) بعدَ تسليمِ المخطوطاتِ للنّشرِ في دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" بانتظارِ إخطارٍ أو إنذارٍ أو توجيهٍ أو بشرىً أو اعتذارٍ أو تنبيهٍ، نهائيٍّ واضحٍ مباشرٍ بيّنٍ بشأنِ أيٍّ ممّا سبقَ. اختلطَ الحابلُ بالنابلِ عليَّ ولم تعدْ لديَّ قدرةٌ على فهمِ الإشاراتِ المرسَلةِ. في تلكَ الإشاراتِ قد يكونُ هنالكَ اعتذارٌ ضمنيٌّ أو مبطّنٌ بالنيّةِ بعدمِ نشرٍ أو القدرةِ على النشرِ أو حتى التعاملِ مع مخطوطاتٍ قد لا تتمتّعُ بالحدِّ الأدنى منَ المستوى المطلوبِ. قد لا يتماشى خطُّ فكرِ الروايةِ مع سياسةِ وخطِّ فكرِ دارِ النشرِ. أيّةُ أسبابٍ أخرى للاعتذارِ عن النشرِ مقبولةٌ حتى لو كانت من قبيلِ حلمٍ مزعجٍ أتى على

الناشرِ بشأنِ المؤلِّفِ وشخصيتهِ وأعمالهِ!. في الوقتِ الذي برعتُ فيهِ في قراءةِ ما يجولُ بخاطرِ رفيقِيَ الحمارِ وتفسيرِ أفكارهِ وطموحاتهِ وأحلامهِ فإنّني لم أفلحْ في عملِ الشيءِ ذاتهِ بالنسبةِ للإنسانِ. السببُ بسيطٌ هو أنّني ركنتُ بجلِّ حواسِّيَ إلى لسانهِ الذي خلقَهُ اللهُ تعالى لهُ لإعانتهِ في إعلانِ نواياهُ وطموحاتهِ وأفكارهِ وما يجولُ في خواطرهِ وأحاسيسهِ ومشاعرهِ بصدقٍ وشفافيّةٍ أخويّةٍ! مع الآخرينَ.

في ٢٧ يونيو حزيرانَ ٢٠٠٨، الجمعةَ مساءاً، أجريتُ مكالمةً هاتفيةً مع السيّدِ "أبوالعزِّ"، حلقةُ الوصلِ الوحيدةُ المتبقّيةُ بينِيَ وبينَ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ". حقيقةً بدأتْ شخصيّةُ السيّدِ "أبوالعزِّ" تخبو في عينيَّ واعتبارِيَ، من شخصٍ قادرٍ على أنْ يكونَ أو يصبحَ جبّاراً من جهةِ الخيرِ والعملِ إلى آخرَ سيِّئِ الطالعِ لا يأبهُ ارتكابَ الرذائلِ على الآخرينَ في سبيلِ العيشِ؛ وفي ذلكَ يجبُ القولُ "أستغفرُ اللهَ العظيمَ" احترازاً. عبرَ المكالمةِ كنتُ أتوقّعُ خبراً يقينياً بشأنِ نشرِ مخطوطةِ "عناقيدُ البؤسِ"، والانتهاءِ منَ القلقِ بشأنِها. ها أنا بعدَ عدّةِ وعودٍ غيرِ مكتملةٍ بالبدءِ بالطباعةِ والنشرِ بدأتْ دائرةُ الصبرِ والتحمّلِ تضيقُ بشكلٍ يُحدثُ شبهَ اختناقٍ في عمليّةِ التنفّسِ وإعاقةٍ في سيرِ عملِ القلبِ والدورةِ الدمويّةِ، وبشكلٍ واضحٍ لِيَ وللعيانِ وربّما الملأِ من حولِيَ. لم يحدثْ ذلكَ الخبرُ اليقينيُّ بعدُ خاصّةً مع اقترابِ موعدِ "المعرضِ الدوليِّ للكتابِ" الذي سيقامُ في بحرِ شهرِ يوليو تموز ٢٠٠٨ كموعدٍ تمَّ تأكيدُهُ. تأجيلٌ آخرُ مع عبارةٍ مُطَمْئِنَةٍ تقولُ أنَّ الأمورَ تسيرُ على ما يُرامُ، "إن شاء الله يا فندم"، ولا داعيَ للقلقِ على أيِّ شيءٍ.

قبلَ انتهاءِ المكالمةِ الهاتفيّةِ أعلاهُ أضافَ السيّدُ "أبوالعزِّ" أنّهُ سيعلِمني بأيِّ جديدٍ يحدثُ، ولا داعيَ للاتصالِ بهِ من جهتِيَ مرّةً أخرى وإشغالِ نفسِيَ بالقلقِ أو بأيّةِ أمورٍ أخرى!. عبارةٌ أو نصيحةٌ! تعني واقعياً أنَّ عليَّ الانتظارَ حتى إشعارٍ آخرَ وتحملُ الكثيرَ من التفسيراتِ في أحشائِها الصغيرةِ، منها أنَّ الأمورَ لا يمكنُ أنْ تظلَّ تسيرُ على ما يرامُ!. هذهِ "كليشيهةٌ" أو قالبٌ لغويٌّ يُعطى فقط للحمقى والبُلهاءِ والبائسينَ الميئوسِ من أحوالِهم. عليَّ أنْ أقومَ بخطواتٍ حاسمةٍ من مثلِ محاولةِ النشرِ من جديدٍ لدى دارِ نشرٍ أخرى وإضاعةِ أو هدرِ ما يقاربُ الخمسةَ عشرَ شهراً من الانتظارِ، حتى الآنَ، بأيامِها ولياليها وأحداثِها المثيرةِ للتفاؤلِ والتشاؤمِ وخيبةِ الأملِ والضغطِ على الفكرِ والقلبِ والأعصابِ. قبلَ هذهِ التجربةِ مع دارِ "الأفندمُ للنشرِ" ضاعَ أحدَ عشرَ شهراً عبثاً بمكوثِ مخطوطةِ " عناقيدُ البؤسِ" ساكنَةً في إحدى خزائنِ دارِ "الفخامةُ للنّشرِ" الخشبيةِ دونَ قراءةِ صفحةٍ واحدةٍ منها. على قلبِيَ وكبدِيَ وأعصابِيَ وعروقِيَ ومناعةِ دمِ جسمِيَ ومعنويّاتِيَ وثقتِيَ بالحياةِ والبشرِ والإنسانيّةِ فلتُقرأْ عليها جميعاً "الفاتحةُ"!.

المبرّرُ المفترَضُ المتكرّرُ في مثلِ هكذا حالاتٍ هو الروتينُ وازدحامُ الدّورِ على الطباعةِ والنشرِ في مؤسّسةٍ عريقةٍ مرموقةٍ. هذا إلى جانبِ أمورٍ أخرى كثيرةٍ لا ينفعُ النفسَ المطمئنّةَ على الإطلاقِ الولوجُ العبثيُّ في التفكيرِ والتخمينِ والحدْسِ في متاهاتِها. في مجملِ الأمورِ يتكرّرُ قولٌ من مثلِ "تبّاً لهكذا أوضاعٍ لا مفرَّ منها ولا حولَ للمرءِ فيها ولا قوّةً ولا قراراً، وليس لهُ إلا الصبرُ وتمنيةُ النفسِ بغذاءٍ خياليٍّ مثيرٍ أو جيّاشٍ يضرُّ ولا ينفعُ". كثيرونَ من الكتّابِ يضطرّونَ، عن غباءٍ أو حسنِ نيّةٍ أو تقديراً واحتراماً ذوقياً لكلماتٍ ووعودِ ألسنِ الآخرينَ، للوقوعِ في هكذا حالاتٍ مأساويةٍ على القلبِ والأعصابِ والأحاسيسِ والمداركِ والمشاعرِ الإنسانيّةِ النبيلةِ المترفّعةِ.

باتَ عليَّ الانتظارُ حوالي الشهرِ قبلَ التّجاسرِ مرّةً أخرى على توجيهِ استفسارٍ أو تساؤلٍ آخرَ عمّا يجري لحالةِ نشرِ كتابٍ تبدو مستعصيةً وقابلةً للتحوّلِ إلى كابوسٍ مزمنٍ وكارثةٍ لا مفرَّ من الوقوعِ فيها. السؤالُ الأهمُّ الذي لم يزلْ ماثلاً في ذهنيتِيَ هو ما الذي يوقفُ أو يمنعُ دارَ "الأفندمُ للنّشرِ" من توجيهِ كلمةٍ محدّدةٍ تركّزُ على موعدِ تنفيذِ وعدِ النشرِ بهامشِ صحٍّ أو خطأٍ بزمنٍ لا يتجاوزُ الشهرَ، أو الاعتذارُ عن النشرِ؟!. بعبارةٍ أخرى ما الذي يمنعُ الإداريينَ في القرنِ الواحدِ والعشرينِ من جدولةِ الخطواتِ بحيثُ يريحونَ من لجأ إليهم طوعاً أو كرهاً، عن براءةٍ أو غباءٍ أو بالصدفةِ المفرحةِ أو المقيتةِ؟!. الاعتذارُ عن النشرِ قد يكونُ لأيِّ سببٍ، وجيهٍ أو هامشيٍّ أو حتى غيرِ منطقيٍّ، في النهايةِ يطلقُ رصاصةَ الرحمةِ على وضعٍ كانَ يمكنُ تلافيهِ منذُ البدايةِ ببضعِ كلماتٍ حتى لو كانتْ معسولةً أدبيّاً وأخلاقيّاً وإنسانيّاً. ذلكَ بدلَ التأرجحِ بينَ أملٍ ضعيفٍ بالنشرِ وقوّةِ وضعٍ مأساويٍّ وخيبةِ أملٍ متكرّرةٍ بشيءٍ من الانتظامِ والمنهجيّةِ شبهِ المقصودةِ!.

في بدايةِ شهرِ آبِ أغسطسِ ٢٠٠٨ تمَّ التجاسرُ على مقامِ وهيبةِ السيّدِ "أبوالعزِّ" وأجريتُ معهُ مكالمةً هاتفيّةً ناجحةً بعدَ محاولةٍ أولى رنَّ فيها الهاتفُ لديهِ طويلاً دونَ ردٍّ من جهتهِ. مرّةً أخرى زعمَ السيّدُ "أبوالعزِّ" أنَّ كلَّ شيءٍ في محلّهِ بشأنِ مخطوطةِ "عناقيدُ البؤسِ" وكلُّ الأمورِ على ما يُرامُ تسيرُ. أنا شخصيّاً من النوعِ الحسّاسِ الذي لا يليقُ بطريقةِ عيشِيَ وتربيتِيَ وتعليمِيَ أنْ ألحَّ على شخصٍ للقيامِ بعملٍ هو من اختصاصهِ. الافتراضُ العقليُّ الإنسانيُّ هنا هو أنّهُ لو كانَ باستطاعةِ أمثالِ السيّدِ "أبوالعزِّ"، الذي نجلُّهُ ونحترمُهُ لعملهِ وكيانهِ، فِعْلَ شيءٍ لكانَ فَعَلَ ذلكَ. ما الذي يجبرُهُ أنْ "يكذبَ" ويماطلَ ويسوّفَ ويضيعَ حياةَ الآخرينَ التي لا تقدَّرُ بثمنٍ لديهم، يضيعُها عليهم في الانتظارِ. هو يعلمُ أنّني، أنا الدّكتورُ موسىً يعقوبٌ قاسمٌ، كاتبٌ مؤلّفٌ مبدعٌ وأحملُ شهادةَ دكتوراه وذو مستوى إحساسٍ ولباقةٍ وذوقٍ في التعاملِ عندِيَ يقتضي

تصديقَ أقوالِ الآخرينَ الصادرةِ من ألسنتِهم وأفواهِهم؛ الآخرونَ يحملونَ عناوينَ رفيعةَ المستوى أو هكذا هو مُعلَنٌ ومُفتَرَضٌ. لا يوجدُ لديَّ ما يدعو إلى الدّخولِ أكثرَ في أعماقِ الآخرينَ والتحقيقِ معهم وسبرِ أغوارِ قلوبِهم ونواياهُم الحسنةِ والشرّيرةَ. مرّةً أخرى وضعني السيّدُ أو الأستاذُ "أَبوالعزِّ" في موقفِ الانتظارِ المملِّ بل القاتلِ للأنفاسِ الإنسانيّةِ النبيلةِ المُسالمةِ. وضعني في حالةِ اختبارٍ على شكلِ بلوىً أخرى محتملةٍ أشدَّ ضراوةً ومضاضةً وبؤساً من خازوقِ دارِ "الفخامةُ للنّشرِ"، سيئةِ الصّورةِ في ذهنِيَ.

رمضانُ شهرُ خيرٍ وبركاتٍ بامتيازٍ بمختلفِ الأشكالِ والألوانِ. في بدايةِ شهرَيْ رمضانَ وأيلولِ سبتمبر عامَ ٢٠٠٨ كانَ لِيَ موعدٌ مع حدثٍ مهمٍّ أنقذني من الاستمرارِ في ورطةٍ نفسيّةٍ ومعنويّةٍ قادرةٍ على أنْ تصبحَ قاتلةً للروحِ والمعنى، وقبلَ هذا وذاكَ للنّفسِ. السيّدُ "فهيمُ أبوالغيث" مسافرٌ إلى بلدِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" في مهمّةٍ خاصّةٍ بهِ. أخبرني بذلكَ بالصّدفةِ حينَ اتصلتُ بهِ لأبارِكَ لهُ قدومَ شهرِ رمضانَ. السيّدُ "أبوالغيث" من المصداقيّةِ والاحترامِ والنخوةِ والشّهامةِ بمكانٍ. أوصيتُ السيّدَ "أبوالغيث" بضرورةِ الاتصالِ بيَ من مكتبِ مديرِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" ولو برنّةِ تلفونٍ محمولٍ!. وفعلاً حدثَ وتكلّمتُ مع مسئولٍ في دارِ "الأفندمُ للنّشرِ". في بدايةِ المكالمةِ أخبرني ذلكَ المسئولُ أنَّ الرّوايةَ جاهزةٌ للطّبعِ؛ كليشيهةٌ لغويّةٌ لم تعدْ تحملُ أيّةَ مصداقيّةٍ تقريباً لديَّ. أصررتُ على إعطاءِ موعدٍ محدّدٍ للنّشرِ بهامشِ خطأٍ نهائيٍّ، ولو بشهرٍ أو شهريْنِ على الأكثرِ! وبحضورِ شاهدٍ هذهِ المرّةَ، السيّدُ "فهيمُ أبوالغيثِ". لم يجدْ المسئولُ مناصاً من إعطاءِ الردِّ الحقيقيِّ ألا وهو عدمُ رغبةِ أو قدرةِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" على طبعِ ونشرِ وتوزيعِ مخطوطةِ "عناقيدُ البؤسِ". السببُ كما ذكرَ المسئولُ أو المندوبُ عنهُ هو أنَّ المخطوطةَ "طويلةٌ"!. لكنْ كانَ السّؤالُ شبهُ الفوريِّ هو "لماذا احتاجَ الأمرُ أكثرَ من ستّةِ عشرَ شهراً للوصولِ إلى هذا الحكمِ الذي من الممكنِ التوصّلُ إليهِ في الدّقائقِ أو السّاعاتِ أو الأيّامِ أو الأسابيعِ أو الأشهرِ الأولى من تسليمِ المخطوطةِ، أو المخطوطاتِ الثلاثةِ المتفاوتةِ في الطّولِ؟!". لكنْ في النتيجةِ حلَّ الخيرُ والبركةُ إذْ ذهَبَ همٌّ قائمٌ على أملٍ زائفٍ أو وهمٍ في غيرِ موضعهِ. هذا إضافةً إلى انتفاءِ الحاجةِ للحديثِ أو التخاطبِ الهاتفيِّ مع السّيّدِ "عزيزِ أبوالعزِّ"، والزّمرةِ القليلةِ العددِ من حولِه، الذي لا يمكنُ أنْ يليقَ حتى بمستوىً متدنٍّ من حفظِ الكرامةِ وماءِ الوجهِ والذّوقِ واللياقةِ المهنيّةِ الصّادقةِ الحريصةِ على حسنِ سيرِ شئونِ الغيرِ.

بعدَ هذه التجربةِ المريرةِ والقابلةِ للتحوّلِ إلى كارثةٍ معنويّةٍ ونفسيّةٍ، سواءَ قامتْ دارُ "الأفندمُ للنّشرِ" بنشرِ المخطوطةِ أم كانت كلُّ تلكَ الوعودِ هراءً منثوراً على ذقنِيَ، ما

الذي يمكنُ عملُهُ بشأنِ وضعِ النقاطِ على الحروفِ وتسميةِ الأسماءِ بمسمّياتِها الحقيقيّةِ في مثلِ هكذا قضيةٍ؟!. مثلاً هل تستطيعُ دارُ "الأفندمُ للنّشرِ" أو أيِّ مسئولٍ فيها أو من ينيبُ عنها أو يتطوّعُ للدّفاعِ عنها مواجهةَ الأمورِ بشكلٍ حضاريٍّ؟!. لا أودُّ القولَ بشكلٍ شجاعٍ أو يتمتّعُ بالحدِّ الأدنى من روحِ المسئوليّةِ، ذلكَ كيْ لا تُفسّرَ الأسئلةُ والتساؤلاتُ بالتحدّي المؤدّي إلى إثارةِ غريزةِ العنفِ وردِّ الفعلِ السلبيِّ في أنفسِ القومِ. في القولِ والاستفسارِ والتساؤلِ قد يُثارُ الجدلُ بشأنِ رجولةِ وشجاعةِ ومدنيّةِ وحضارةِ ومستوى ذوقِ ودرايةِ المشمولينَ بالأسئلةِ أو المساءلةِ!، بالأحرى. هنالكَ التساؤلاتُ، وربما التّهمُ المشينةُ!، التي من الممكنِ توجيهُها إلى مؤسّسةِ دارِ "الأفندمُ للنشرِ" ذاتِ العقودِ العديدةِ من سنينِ العمرِ. عمرٌ مليءٌ بالعملِ المتواصلِ على مدارِ السّاعةِ والتعاملِ في مجالِ الفكرِ وتداولهِ ونشرهِ بطرقٍ ترضي أذواقَ الكتّابِ والمؤلّفينَ وقرّاءِ الشّارعِ الذي يعجُّ بالفقراءِ والسائلينَ وعابري السبيلِ ومن تقطّعتْ بهم سبلُ الحياةِ. في ذلك قدّمَ "الشيخُ ترياقُ" خدماتٍ جليلةً للفكرِ والمفكّرينَ تؤهّلُهُ لتبوّءِ مقامٍ لا يسهلُ إلا على كبارِ العظماءِ الوصولُ إليهِ.

لكنْ واستغلالاً أو استفادةً من وضعِ حريّةِ الرأيِ المنشودةِ التي ناضلَ ويناضلُ أمثالُ "الشيخِ ترياقٍ" لنشرِها وتوطيدِها في قلبِ العالَمِ العربيِّ ومدِّها إلى الأطرافِ المتراميةِ يمكنُ التطرّقُ إلى النقاطِ والأسئلةِ والتساؤلاتِ التاليةِ. لا أودُّ القولَ بأنَّ هذهِ التّساؤلاتِ قانونيةٌ لأنَّ ذلكَ يثيرُ ألماً في القلبِ وضيقاً في الروحِ حيثُ لا أحدَ يجرؤُ على توجيهِ لومٍ أو انتقادٍ إلى شخصيّةٍ مرموقةٍ من مثلِ شخصيّةِ "الشيخِ ترياقٍ"، صاحبِ القلبِ الكبيرِ والصّدرِ الواسعِ والابتسامةِ الدافئةِ الواعدةِ بالخيرِ لجميعِ الميئوسِ من حالِهم على الدّوامِ. "الشيخُ ترياقٌ" من النّوعِ الذي لا يملُّ إكرامَ ضيوفِهِ مهما زادوا في العددِ ومهما طالتْ فترةُ بقائِهم في كنَفِ ضيافتِهِ، وتلكَ صفةٌ يعزُّ وجودُها هذهِ الأيّامَ ويندرُ إلى درجةٍ تقتربُ كثيراً من العدمِ. لنقلْ أنّها تساؤلاتٌ تجري وراءَ الكواليسِ أو في إحدى زوايا مقهىً شعبيٍّ يضمُّ على إحدى طاولاتهِ زمرةً من "المتسلّقينَ" على سلّمِ الفكرِ والكتابةِ والتأليفِ، والجدلِ بهدفِ إثارةِ الجدلِ.

١. من المسئولُ عن الإساءةِ إلى الوجهِ الحضاريِّ لمؤسّسةٍ تسعى جاهدةً ولمدّةٍ تقتربُ من نصفِ قرنٍ من الزمانِ للوصولِ بالفكرِ العربيِّ والإسلاميِّ إلى مستوىً يليقُ بالحضاراتِ الساميةِ النبيلةِ؟!. في الوقتِ الذي يجبُ أنْ تتمتّعَ فيهِ مؤسّسةٌ تتوخّى نشرَ الفكرِ والحضارةِ والمدنيّةِ بقدْرٍ كبيرٍ من حسنِ الإدارةِ والتنظيمِ تجري الأمورُ على أرضِ الواقعِ في بعضِ تفاصيلِها أو حالاتِها بشكلٍ يُحدِثُ المرارةَ الفادحةَ في النفْسِ والروحِ.

٢. من المسئولُ الفعليُّ أو الحقيقيُّ أو الحريُّ أو الجديرُ بالسؤالِ عن إضاعةِ أكثرَ من ١٧ عشرَ شهراً من وقتِ العمرِ لكاتبٍ أو مؤلِّفٍ أو إنسانٍ أو حتى شبهِ إنسانٍ تائهٍ ضائعٍ في بريّةِ الفوضى والتخلّفُ الذي يستوطنُ البيئةَ العربيّةَ مُنذُ القِدمِ؟!.

٣. من المسئولُ عن إضاعةِ جهودِ رفيقيْنِ، حمارٍ وصديقهِ، في إصلاحِ الخللِ الفاضحِ الواضحِ في العمليّةِ التعليميّةِ في الدولِ الناميةِ؟!. كانَ بالمستطاعِ أنْ يقودَ هذا الحمارُ وصاحبُهُ ثورةً فكريّةً تضعُ قطارَ التنميةِ في الدولِ الناميةِ على السكّةِ، وبشكلٍ يريحُ الشعوبَ الناميةَ من حالةِ التبعيّةِ المذلّةِ للدولِ الصناعيّةِ؛ تبعيّةٌ تحرقُ الضلوعَ والأنفاسَ لأجيالِ الدولِ الناميةِ.

٤. ما موقفُ مؤسّسةِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" من ظاهرةِ الوعودِ الزائفةِ "الخرقاءِ"، تقتربُ في تعدادِها من العشرةِ، شهراً بعدَ شهرٍ، تُعطى دونَ هوادةٍ واعتبارٍ لأحاسيسِ الآخرينَ وبشكلٍ دوريٍّ كما لو كانَ الأمرُ عاديّاً لا يحتملُ المراجعةَ والنقاشَ؟!.

٥. كم من المالِ ينبغي على مؤسّسةِ دارِ "الأفندمُ للنّشرِ" وطاقمِ عملِها دفعُهُ لتعويضِ هذهِ الحالةِ وحالاتٍ مشابهةٍ في حالِ قرّرَ أحدُهم الهبوطَ بمستواهُ وإضاعةَ وقتهِ وملاحقةَ الأمرِ قانونيّاً، قد يكونَ ذلكَ عبثيّاً؟!. لن تتمكّنَ دارُ "الأفندمُ للنّشرِ" من الوفاءِ الماليِّ لقضيةٍ واحدةٍ، ربّما، إذا ما حاولَ صاحبُها جرَّها لتشملَ حقوقاً فكريّةً واجتماعيّةً وشخصيّةً إلى آخرِ الحبلِ في كلٍّ منها على الطريقةِ العصريّةِ الحديثةِ.

٦. ما موقفُ دورِ النشرِ الأخرى ذاتِ الأوضاعِ المشابهةِ أو الأكثرَ أو الأقلَّ تراجيديّةً في التعاملِ مع وقتِ عمرِ الآخرينَ الضائعِ؟!. بعبارةٍ أخرى هل يمكنُ تطبيقُ شيءٍ قانونيٍّ ما على القائمينَ على تصريفِ أعمالِ ومنهجيّةِ دارِ "الأفندمُ للنشرِ" لتكونَ عبرةً وإصلاحاً لمن يمكنُهُ أنْ يعتبرَ أو يصلِحَ نفسَهُ؟!. هذا المطلبُ أو المنطقُ هو من بابِ الزندقةِ على المنهجيّةِ الفكريّةِ العامّةِ السّائدةِ ومحاولةِ تخطّي واقعٍ مفعمٍ بالكوارثِ والمآسي المقبولةِ لدى العامّةِ والكثيرِ من الخاصّةِ، كأمرٍ واقعٍ لا مفرَّ منهُ بل مقبولٍ.

بتاتاً وقطعاً وعلى الإطلاقِ، ليسَ من الأخلاقِ والحكمةِ والواقعيّةِ رفعُ قضيةٍ على مؤسّسةٍ فكريّةٍ عربيّةٍ أو في دولِ العالَمِ الثالثِ عامّةً. المطالبةُ بالحقوقِ وإحقاقِ الحقِّ والحالُ هذهِ يدخلُ دائرةَ الغرابةِ والاستغرابِ بل والمعارضةِ والاستهجانِ العارمِ وربّما الشّرسِ العنيدِ العنيفِ. يزيدُ الأمرُ غرابةً في قضيّةٍ ضدَّ مؤسّسةٍ أوجدَها ويديرُها ويشرفُ عليها شخصٌ نبيلٌ كريمٌ مكافحٌ مناضلٌ وصاحبُ مبادئَ ساميةٍ نبيلةٍ ووجهٍ بشوشٍ من مثلِ "الشيخِ ترياقٍ". على العكسِ من ذلكَ يمكنُ القولُ أنّهُ تبّاً لهكذا مؤلّفٍ

غريبٍ يحاولُ إصلاحَ الأمورِ التعليميةِ والفكريّةِ ولو باستعمالِ جهودِ كافّةِ الحميرِ في المنطقةِ، الحقيقيّةِ التي تمشي على أربعٍ منها والبشريّةِ التي تمشي على اثنتيْنِ لكلٍّ منها. الأمورُ لا تُحَلُّ بهكذا اعتباطيّةٍ مزريةٍ لا تنمُّ إلا عن فشلِ صاحبِها في التعاملِ مع واقعٍ مريرٍ بائسٍ متعدّدِ الجوانبِ والاتجاهاتِ بطريقةٍ تتسمُ بالحدِّ الأدنى من الحكمةِ والموضوعيّةِ والواقعيّةِ.

هذهِ النزعةُ لِ"الأفندمُ للنشر" والتصرّفِ والهويّةِ والهوى هي قطعاً جزءُ لا يتجزّأُ من الثقافةِ العربيّةِ خاصّةً والشرقيّةِ عامّةً السائدةِ. في المجتمعِ العربيِّ الحاليِّ تنتشرُ ثقافةُ الكذبِ، التي ليس فقط لم تعدْ رذيلةً سهلةَ الارتكابِ بل لها كلُّ ما يبرّرُها، تنتشرُ بشكلٍ واسعٍ ودونَ حسيبٍ أو رقيبٍ. ثقافةُ الكذبِ ترتكزُ على فكرةٍ ساذجةٍ مفادُها بأنّهُ إذا ما استطاعَ أحدُهم إيهامَ آخرَ بحقيقةٍ! أمرٍ ونجحَ في ذلكَ، فهيَ مشكلةُ الذي صدّقَ ولا أحداً غيرَهُ. تزيدُ فاعليّةُ ثقافةِ الكذبِ هذهِ باستخدامِ عباراتٍ وجدانيّةٍ وعاطفيّةٍ من مثلِ "إن شاء الله يا فندم" و"بإذن الله يا باشا" و"توكّل على الله يا ريّس" و" تحت أمرك يا زعيم" و"حاضر يا عبقري!" و"تكرمْ عينَكْ حبيب ألبي (قلبي)" وغيرها!. أينَ هو ذلكَ الشخصُ أو تلكَ المؤسّسةُ العربيّةُ، والشرقُ أوسطيةُ أو من كافّةِ دولِ العالَمِ الثالثِ، من التي تحرصُ على الصّدقِ واحترامِ الوعودِ والمواعيدِ المقطوعةِ وتتوخّى روحَ الصراحةِ والشّفافيّةِ المهنيّةِ والحرصِ الضّميريِّ النّاضجِ في التعاملِ مع شئونِ الحياةِ والآخرينَ؟!.

لا مبالغةَ في القولِ أنَّ التفكيرَ في إصلاحِ وضعٍ كهذا بهذهِ الطريقةِ لهو من بابِ التهريجِ المبتذَلِ والطموحِ غيرِ الواقعيِّ، عدا عن إمكانيّةِ وصفهِ بجنونِ العظمةِ الناجمِ عن مرضِ الانفصامِ المستفحَلِ في الشخصيّةِ. معظمُ أمراضِ انفصامِ الشخصيّةِ عندَ المتعلّمينَ في الدّولِ النّاميةِ ناجمةٌ عن العيشِ في مجتمعيْنِ، الأوّلُ هو المجتمعُ النّامي والثّاني هو المجتمعُ الأكثرُ "رقيّاً ومدنيّةً ورغدَ عيشٍ"، إذا ما يجوزُ التعبيرُ!. الأمورُ لا تُصلَحُ هكذا على الإطلاقِ، وعلى المرءِ الحكيمِ الرّزينِ أنْ يتركَ الأمورَ لفعلِ الزمنِ البطيءِ بما فيهِ من كوارثَ وعواملَ أخرى مساعدةٍ فعّالةٍ وتأخذُ دورَ كلٍّ منها حسبَ تسلسلٍ زمنيٍّ طبيعيٍّ ومنطقيٍّ ممكنٍ لها. في ذلكَ قد يَصلُحُ قولٌ مأثورٌ من مثلِ "لا يُصلِحُ العطّارُ ما أفسدَ الدّهرُ"؛ في الصّددِ هذا كيفَ يكونُ الأمرُ إذا ما استُبدِلَ العطّارُ بحمارٍ ورفيقهِ، لم يعرفا استعمالَ العطورِ في حياتيْهما!؟. على العكسِ من ذلكَ يمكنُ للمرءِ أنْ يتلاهى بالضحكِ مع نفسهِ، وعلى نفسهِ ومن نفسهِ، وبصحبةِ عددٍ من الأصدقاءِ المحبينَ للتهريجِ في إحدى الزوايا الضيّقةِ؛ وما أكثرَ الأخيرةَ في عالَمِنا العربيِّ المعاصرِ!. في ذلكَ قد لا يكونُ هنالكَ أيُّ داعٍ أبداً للتفكيرِ باستعمالِ معجونٍ خاصٍّ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ من مثلِ اختراعِ

صديقِيَ المقرَّبِ "هاني النحّاسِ" الذي يعملُ في بلديّةِ المدينةِ منذُ ما يزيدُ عن عقدٍ من السّنينِ، بالذّاتِ معجونِ بِ٣.

ملاحظةٌ: تمَّ إرسالُ مخطوطةِ "عناقيدُ البؤسِ" إلى دارِ نشرٍ أخرى عن طريقِ البريدِ الإلكترونيِّ. هنالكَ وعدٌ وأملٌ حقيقيّانِ بإصدارِ المخطوطةِ بطولِها وعرضِها في غضونِ أقلَّ من ثلاثةِ أشهرٍ من استلامِها، لكنّها تحملُ عنواناً آخرَ! في ذلكَ على المرءِ المُسالِمِ أنْ يكرّرَ قولاً للدّعاءِ، بعدَ أنْ يستغفرَ ربَّهُ كثيراً، من مثلِ "اللهمَّ إنّي أعوذُ بكَ من قهرِ الرّجالِ، أو بالأحرى أشباهِ الرّجالِ، والنّساءِ".

"أوريزونُ للنّشرِ"

تتردّدُ عبارةُ "زبدُ السّيلِ" في الأوساطِ العربيّةِ المختلفةِ وتُطلقُ على وضعِ أناسٍ في حالةٍ من اليأسِ والبؤسِ وقلّةِ الفاعليّةِ وضحالةِ الإنتاجِ الماديِّ والفكريِّ. الرسولُ الأكرمُ محمّدٌ صلّى اللهُ عليهِ (وآلهِ وصحبهِ) وسلّمَ تنبّأَ وضعاً كهذا يمرُّ على أمّةِ المسلمينَ. حاليّاً لا يوجدُ وضعٌ مزرٍ أكثرَ سوءاً من حالِ المتعلّمينَ العربِ من مرحلةِ المدرسةِ الأولى إلى المتوسّطةِ والثانويّةِ والجامعيّةِ الأولى وبعدَها الماجستيرُ والدكتوراه والأستاذيّةُ في الجامعاتِ. أصبحَ جهازُ التربيةِ والتعليمِ في الدّولِ النّاميةِ بشكلٍ عامٍّ والعالَمِ العربيِّ بشكلٍ خاصٍّ "فوّهةً فوّارةً" من الزّبدِ يغطّي المكانَ. في التعليمِ العربيِّ الحديثِ حيلَ بينَ المتعلّمِ العربيِّ وبيئتهِ ومحيطهِ ومجتمعهِ وشئونهِ وشجونهِ. يعودُ ذلكَ إلى التدخّلِ الاستعماريِّ الإمبرياليِّ على شكلِ عربدةٍ ودعارةٍ فكريّةٍ وأكاديميّةٍ وسياسيّةٍ، منها ما هو مقنّعٌ ومنها ما هو على رؤوسِ كلِّ الأشهادِ. أخيراً لجأَ المتعلّمُ العربيُّ إلى الطّعنِ بلغتهِ ومعتقدهِ وهويّتهِ وتاريخهِ وتراثهِ في محاولةٍ يائسةٍ بائسةٍ للوصولِ بذاتهِ إلى ما يسمّى بالعالَميّةِ قفزاً على كلِّ الحواجزِ الذاتيّةِ والمحليّةِ التي فشلَ في تحقيقِ أيِّ تقدّمٍ فيها. ضاعتْ جهودُ كافّةِ المتعلّمينَ العربِ في مؤخّرةِ ضبعٍ في البريّةِ ولم يستطيعوا إنتاجَ عودِ ثقابٍ، ولا علبةَ عيدانِ ثقابٍ. غرقَ المتعلّمُ العربيُّ في أتونِ حالةٍ من المزايداتِ والمهاتراتِ بينَ المرءِ ونفسهِ التي تؤدّي في النهايةِ إلى لا شيءَ على الإطلاقِ، اللهمَّ إلا من تهريجٍ مبتذلٍ وخلْقِ ظاهرةٍ صوتيّةٍ لا تنفعُ يومَ أيِّ حسابٍ.

في تخبّطهِ اللاهثِ نحوَ تحقيقِ أيِّ تطوّرٍ أو تقدّمٍ إلى الأمامِ لجأَ المتعلّمُ العربيُّ إلى ارتكابِ الموبقاتِ ضدَّ بني قومهِ وأوطانهِ ومستقبلهِ وعقائدهِ النبيلةِ السّاميةِ. في كيفيّةِ تشكيلِها وعملِها ذهبتْ وزاراتُ التّعليمِ العالي إلى اختيارِ وزراءَ ومسئولينَ كبارٍ ممّنْ لديهم جرأةٌ عدوانيّةٌ وقناعةٌ فكريّةٌ تعزو سببَ تخلّفِ العربِ علميّاً وفكريّاً وتقنيّاً إلى تمسّكِهم باعتقادِهم الدينيِّ وبالذّاتِ الإسلاميِّ. تكوّنتْ آفةٌ تجمعُ بينَ ما تُعرفُ ببعضِ النّخبِ المتعلّمةِ بالتّعاونِ مع أخرى "مختارةٍ إثنيّاً" من الأقليّاتِ وظيفتُها ملاحقةُ الفكرِ الدينيِّ الإسلاميِّ في عقرِ دارهِ وآخرِ معاقلهِ. الهدفُ المُعلَنُ والمخفيُّ المستَترُ هو حرمانُ العربِ كقلبٍ للعالَمِ والفكرِ الإسلاميِّ مما تبقّى من روحهِ الفكريّةِ والسّياسيّةِ الممثّلةِ باعتناقهِ الدّينَ الإسلاميَّ. أصبحتْ الصفوفُ المتراصّةُ الطويلةُ من المصلّينَ المسلمينَ في المساجدِ والمعابدِ مثلَ تماثيلَ قديمةٍ مشلولةٍ فكريّاً تكادُ تخلو من الحيويّةِ والنّشاطِ العصريِّ. أصبحَ المسلمونَ المتديّنونَ بلحاهُم وذقونِهم وسحنتِهم وملابسِهم الخاصّةِ عرضةً سهلةً لنكاتِ خرّيجي الجامعاتِ الدّاخليّةِ والخارجيّةِ، من ذوي الأذهانِ "المخصيّةِ" أكاديميّاً. المرشّحونَ لدوراتِ الطّيّارينَ المدنيّينَ والحربيّينَ وضبّاطِ الجيشِ والشّرطةِ والأطبّاءِ والمهندسينَ والمخرجينَ والممثّلينَ السينمائيّينَ وأصحابِ الأقلامِ المراهقةِ وأصحابِ ومديري الشّركاتِ وأبناءِ الأثرياءِ لم يبخلوا جهداً موجّهاً لبني جلدتِهم من المحافظينَ على هويّتِهم وأصالتِهم ونبلِهم. لم يبقَ أمامَ "دزّينتيْنِ ونيّفٍ" من الزّعماءِ العربِ المصابينَ بمرضِ "الجمودِ الأزليِّ"، زرافاتٍ أو كلٌّ على حدةٍ، إلا استبدالُ الحرفِ العربيِّ بآخرَ "خنفشاريٍّ" ذي أصلٍ لاتينيٍّ أسوةً بما فعلَهُ الجنرالُ المهزومُ "مصطفى كمال أتاتورك". بقرارٍ أو مرسومٍ أو أمرٍ شبهِ عسكريٍّ وبينَ عشيّةٍ وضُحاها قامَ الجنرالُ أتاتوركُ، وبمساعدةٍ حاسمةٍ من دولِ الحلفاءِ، قامَ بإحلالِ الحرفِ اللاتينيِّ محلَّ العربيِّ في اللغةِ التركيّةِ.

ما أنْ حصلَ السيّدُ "رباحُ" (في الروايةِ أو المخطوطةِ) على درجةِ الدكتوراه من جامعةٍ غربيّةٍ، معتبَرةٍ أكاديميّاً، وعادَ إلى مسقطِ رأسهِ ليجدَ أنّهُ أُلقِيَ بهِ في حالةٍ من العقمِ في الإنتاجِ الفكريِّ والماديِّ والمعنويِّ. منذُ البدايةِ لم يحرصْ جهازُ التربيةِ والتعليمِ على أيٍّ من أبنائهِ للولوجِ في مرحلةِ إنتاجِ أيِّ شيءٍ مهما صَغُرَ، لا بشكلٍ جماعيٍّ مع بَني وطنهِ وقومهِ ولا بشكلٍ فرديٍّ مع دائرتهِ العائليّةِ الضيّقةِ. روايةُ أو قصّةُ "زبدُ السّيلِ" تحكي قصّةَ أحدِ المتعلّمينَ العربِ الذينَ لا يعوّلُ عليهم إلا في تكرارِ تعليمِ مادّةٍ بطريقةٍ مبتذلةٍ عاقرٍ. لا يُستبعَدُ، وعلى الإطلاقِ، أنْ يكونَ هذا الوضعُ ناجماً عن مؤامرةٍ جماعيّةٍ حاشدةٍ محاكَةٍ من قِبلِ الدولِ الصناعيّةِ للاستحواذِ المطلَقِ على إنتاجِ الموادِّ والأدواتِ والآلاتِ التي تحتاجُ إلى استعمالِ العقلِ في إنتاجِها؛ عقلٌ وهبَهُ اللهُ تعالى للجميعِ بالتّساوي

المطلقِ بغضِّ النظرِ عن العرقِ والجنسِ واللونِ والمعتقَدِ. حصلت الدّولُ الصناعيّةُ على مآربِها في الدولِ والمجتمعاتِ الناميةِ حينَ ظهرت إلى حيّزِ الوجودِ جيوشٌ من "زبدِ السيلِ"، تلتهمُ بمصروفاتِها وتستنزفُ في منهجيّةٍ بقائِها التطفّليّةِ كلَّ شيءٍ. نتيجةً لذلكَ وعلى سبيلِ المثالِ لا الحصرَ فالمكتبةُ العربيّةُ تخلو رفوفُها وسجلاتُها ومحتوياتُها ومقتنياتُها من أيّةِ كتبٍ قيّمةٍ في كلِّ مجالاتِ الفكرِ والإبداعِ والإنتاجِ العلميِّ والتقنيِّ ذواتِ منشئٍ وأصولٍ عربيّةٍ صِرفةٍ.

روايةُ "زبدُ السيلِ" تحاولُ وضعَ النقاطِ على الحروفِ وتسميةِ الشخصيّاتِ البائسةِ بمسمّياتِها في محاولةِ الكاتبِ جلبَ العقلِ العربيِّ إلى التركيزِ والاعتناءِ بأصلهِ والانطلاقِ من أصالتهِ. الهدفُ هو الحفاظُ على الحدِّ الأدنى على الأقلِّ من الاتّصالِ والتواصلِ بينَ المتعلّمِ العربيِّ ومقوّماتِ شخصيّتهِ وهويّتهِ وتاريخهِ ومستقبلهِ. الهدفُ الآخرُ من "الرّوايةِ"، أو هكذا تمّت تسميتُها مجازاً، هو إضافةُ صفةٍ أو مسحةٍ عربيّةٍ متأصّلةٍ إلى الفكرِ العالَميِّ الحديثِ في وجهِ ظاهرةِ العولَمةِ الحديثةِ التي لا تبقي للآخرينَ من أيِّ رافدٍ ثقافيٍّ حضاريٍّ وتقنيٍّ صناعيٍّ أصيلٍ أو أصليٍّ. بعدَ النّجاحاتِ والاختراقاتِ العلميّةِ الهائلةِ في مجالِ الحاسوبِ وبرمجتهِ أصبحت اللغاتُ الأخرى وفي مقدّمتِها العربيّةُ تقفُ في حالةِ عدٍّ عكسيٍّ سريعٍ على وجودِها. المجتمعُ العربيُّ والحالُ هذهِ أصبحَ مثلَ كومةٍ ممتدّةٍ من حطامِ الفخارِ ينتظِرُ الأفولَ العضويَّ بعدَ أفولِ الوجودِ الحضاريِّ السّاطعِ لهُ لعهودٍ طويلةٍ.

كغيرِها من الأعمالِ الأدبيّةِ أو الفكريّةِ الأخرى لم تجدْ روايةُ "زبدُ السيلِ" آذاناً محليّةً قويّةً صاغيةً، أيْ من جهةِ دورِ النّشرِ في المكانِ الذي أقيمُ فيهِ. يتلاهى القومُ باتّباعِ طرقٍ "تقليديّةٍ" بل مبتذلةٍ في جمعِ وتكويمِ الأموالِ في أوضاعٍ أقربَ إلى طرقِ الجرذانِ والضّباعِ والذّئابِ والحيواناتِ المفترسةِ الأخرى، في غابةِ الوجودِ البشريِّ الحديثِ. طفقتُ أبحثُ في الوطنِ الكبيرِ عن دارِ نشرٍ تعينُني على تقديمِ أفكاريَ إلى القارئِ العربيِّ خاصّةً الذي يحملُ شهادةً بَهَرَ نفسَهُ بها أوّلاً ومن حولَهُ ثانياً. كانَ الوضعُ من الصعوبةِ بمكانٍ بسببِ حالةِ شبهِ انعدامِ ردودٍ يقينيّةٍ عبرَ الشبكةِ الدوليّةِ للمعلوماتِ. التجربةُ الميدانيّةُ مع دورِ نشرٍ محليّةٍ، أو هكذا تصفُ نفسَها، كانت مريرةً مرارةَ طعمِ الحنظلِ في ظلامٍ دامسٍ؛ ذلكَ ما جعلَ أمرَ الثقةِ بدارِ نشرٍ عربيّةٍ عن طريقِ الإنترنَتْ ليسَ في الحسبانِ. عليَّ الانتظارُ حتّى قدومِ معرضٍ للكتابِ إلى المكانِ فيهِ تجري المقابلةُ وجهاً لوجهٍ مع النّاشرِ ممّا يتيحُ التأكّدَ من براءةِ وصدقِ الأخيرِ وعلى الهواءِ وفي الموقعِ، إذا ما كانَ ذلكَ بالإمكانِ.

المكانُ هو معرضٌ دوليٌّ للكتابِ دوريٌّ والزّمانُ هو منتصفُ شهرِ كانون أوّلِ ديسمبرَ ٢٠٠٧. معرضُ الكتابِ الدوليِّ السنويِّ للكتابِ هذا حدَثٌ كبيرٌ نسبيّاً في مدينةٍ عربيّةٍ لكنَّ جلَّ سكّانِها ليسوا من العربِ! مساحةُ قاعاتِ المعرضِ وأجنحةُ دورِ النّشرِ كبيرةٌ نسبيّاً وتمتّعَ المعرضُ بتنظيمٍ وترتيبٍ مُميَّزيْنِ أضْفَت جميعاً هيبةً خاصّةً على مجملِ فعاليّاتِ المعرضِ. لكنَّ المظهَرَ الخارجيَّ غايَرَ الحقيقةَ والجوهرَ كثيراً. تركّزتْ الكتبُ المعروضةُ على القصّةِ والكتبِ الموروثةِ منذُ عهودٍ طويلةٍ. خلتْ المعروضاتُ بصورةٍ شبهِ مطبقةٍ من أيّةِ مادّةٍ علميّةٍ أو تقنيّةٍ أو فكريّةٍ ذاتِ اعتبارٍ. في عالَمٍ يعجُّ بالنّشاطِ الفكريِّ والعلميِّ والتقنيِّ والاختراعاتِ والابتكاراتِ والاختراقاتِ في كُلِّ اتجاهٍ بقيَ أصحابُ العقولِ العربُ في حالةٍ من العقمِ والشّللِ وما يمكنُ أنْ يُعرفَ بِ"خصْيِ الأذهانِ". جلسَ العارضونَ للكتبِ في حالةِ انتظارٍ لزوّارٍ من النوعِ الذي يشتري أيَّ شيءٍ موضوعٍ بينَ غلافيْنِ مزخرفيْنِ. بدا المنظَرُ بائساً من أوّلِ نظرةٍ إلى الشّكلِ الخارجيِّ ومن حالِ الشكوى الدائمةِ للعارضينَ عن نقصٍ خطيرٍ في المبيعاتِ. نقصٌ لا يمكّنُهم حتّى من دفعِ رسومِ استئجارِ أجنحةِ الكتبِ في المعرضِ. هنالكَ مِنْ أصحابِ دورِ النّشرِ مَنْ قطعَ مسافاتٍ مِنْ مئاتِ وآلافِ الكيلومتراتِ برّاً وبحراً وجوّاً سوفَ يعودُ بخفّيْ حُنيْنٍ، تقريباً بل بشكلٍ شبهِ مطلقٍ، إلى مِنْ حيثُ أتى. ذلكَ الوضعُ، المأساويُّ بامتيازٍ، قد يستحلبُ أحياناً! عاطفةَ أحدِ المسئولينَ الأثرياءِ لتقديمِ تعويضٍ جماعيٍّ لدورِ النّشرِ ولو عن جزءٍ من الخسائرِ الفادحةِ المادّيّةِ والنفسيّةِ والمعنَويّةِ.

حتّى في ظلِّ هذا الجوِّ المشبعِ باليأسِ بحثتُ عن دارٍ للنشرِ مهما تكنْ متواضعةَ الإمكانيّاتِ. في النهايةِ فهذهِ القضيّةُ قضيّتِيَ، والبيتُ بيتِيَ وهنا يجوزُ بل يصدقُ التعبيرُ، ولا معنىً أو فائدةً حقيقيّةً من التحليقِ في دنيا خيالِ الشهرةِ والمجدِ سيأتي من دارِ نشرٍ في العالَمِ العربيِّ مرموقةٍ. مرموقةٌ بماذا؟! ها هو الإنتاجُ الفكريُّ والعلميُّ والتقنيُّ العربيُّ يلَامسُ الصفرَ، جملةً وتفصيلاً.

السيّدُ "سعدُ فخراوي" مديرٌ في دارِ "أوريزون للنّشرِ" يقفُ في حالةٍ تسبيحٍ وخشوعٍ للخالقِ تعالى في انتظارِ زائرٍ يقولُ لهُ: "كيفَ حالُكَ وماذا بجعبتِكَ؟!". يقفُ السيّدُ "فخراوي" جائعاً خاويَ الأمعاءِ عطشاناً متحسّراً بشكلٍ يضيفُ بؤساً على بؤسٍ لكلِّ من رأى المنظرَ وأعطاهُ قدْراً من الانتباهِ والتمحيصِ والتفكيرِ. إذنْ كانَ واجباً شخصيّاً وإنسانيّاً وقوميّاً إعطاءُ الانتباهِ إلى شخصِ السيّدِ "فخراوي"، الذي عرّفَ عن نفسهِ لِيَ بالدّكتورِ "فخراواي". من جناحِ عرضٍ وبيعِ الكتبِ للدّكتورِ "فخراوي" التقطتُ بضعةَ كتبٍ اشتريتُها بالأثمانِ المكتوبةِ عليها. حاولَ السيّدُ "فخراوي" إعطائِيَ بعضَ الحسمِ

على المبيعاتِ إلا أنّني أبيتُ ذلكَ ودفعتُ الأثمانَ كلَّها، ورغماً عن شدّةِ إصرارهِ! لكنَّ معظمَ الكتبِ المعروضةِ ليستْ من إنتاجِ دارِ "أوريزون للنّشر". ذلكَ ما أضافَ رغبةً لديَّ للإمعانِ في إمكانيّةِ نشرِ روايةِ "زَبدُ السّيلِ" في دارِ النشَرِ تلكَ. في الموقعِ وفي بيئةٍ تزخرُ بالكسادِ والتّشاؤمِ المفرطِ اليائسِ، لكنْ بشكلٍ لا يخلو من الأملِ الذي من الممكنِ أنْ يولدَ! جرى الحديثُ الآتي:

أنا: لديَّ كتابٌ أودُّ طبعَهُ ونشرَهُ في وعبرَ داركم للنشرِ، وعلى الطريقةِ التقليديّةِ شبهِ البائدةِ الآنَ في الطّباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ، الكتابُ الموضوعُ بينَ غلافيْنِ. هل هنالكَ إمكانيّةٌ لعملِ ذلكَ؟!.

الدّكتورُ "فخراوي": نعمْ! وعلى الرّحبِ والسّعةِ. كلُّ ما عليكَ فعلُهُ هو جلبُ طبعةٍ إلكترونيّةٍ على قرصٍ عاديٍّ أو مدمَجٍ. عندَما أعودُ إلى الوطنِ الأوّلِ، أو الأمِّ، سأدرسُ الموضوعَ وأُرسِلُ لكَ بالخبرِ اليقينِ في غضونِ فترةٍ قصيرةٍ، شهراً على الأكثرِ.

أنا: سآتيكَ بالقرصِ المُدمَجِ غداً. أرجو أنْ تعطيَ الأمرَ اهتماماً كافياً. أعرفُ أنَّ المبيعاتِ بائسةٌ، لكنْ لا عليكَ يا هذا سوفَ يتحسّنُ الوضعُ حينَ يعودُ المتعلّمُ العربيُّ إلى بعضِ رشدهِ على الأقلِّ. حينَها ستزيدُ ثقةُ القارئِ العربيِّ بكاتبيهِ ومفكّريهِ وعلمائهِ ويُقبِلُ على شراءِ واقتناءِ الكتبِ العربيّةِ بشرهٍ ونهمٍ متزايديْنِ. اليومَ تعجُّ رفوفُ مكتباتِ المتعلّمينَ العربِ قربَ أسِرّةِ نومِهم بمئاتِ الكتبِ المستوردةِ بأغلى الأثمانِ لكلٍّ منها، لكنْ دونَ مردودٍ ماديٍّ أو عمليٍّ من التّعاملِ مع تلكَ الكتبِ من جانبِ المتعلّمِ العربيِّ يكفي لسدِّ فتحةِ شرجِ "مؤخّرةِ حمارٍ". في هذا الصّددِ فالقارئُ العربيُّ بحاجةٍ إلى من يشتريهِ ويحترمُ ذكاءَهُ أوّلاً! قبلَ أنْ يشتريَ الكتابَ العربيَّ.

في اليومِ التالي زرتُ المعرضَ واصطحبتُ معِيَ بعضَ الأصحابِ والأصدقاءِ، لكنْ منْ ذوي الرّغبةِ والقدْرةِ الشرائيّةِ المتوسّطةِ. أعطيتُ الدّكتورَ "فخراوي" نسخةً مكتوبةً على القرصِ المدمَجِ، وتناولتُ معهُ بعضَ القهوةِ باسترخاءٍ في ظلِّ غيابِ زوّارٍ من النّوعِ الذي يشتري. في اليومِ الأخيرِ للمعرضِ أخبرتُ الدّكتورَ "فخراوي" بأنَّ دقّةَ الكلامِ والوعودِ والمواعيدِ مقدّسةٌ لَديَّ ولا داعيَ للشعورِ بالإحراجِ من أيِّ قرارٍ متّخذٍ، بالسّلبِ أو بالإيجابِ، طالما بقينا ضمنَ المدّةِ الزمنيّةِ المرسومةِ والمقترَحةِ من جانبهِ. لا أميلُ إلى فرضِ نفسيَ وأفكاريَ على أحدٍ أو مجموعةٍ أو مؤسّسةٍ، حتّى لو كانتْ تلكَ الأفكارُ نبيلةً أو ساميةً أو فيها بعضُ التمدّنِ زيادةً عن الآخرينَ. أضفتُ لهُ أنّهُ لم يبقَ من العمرِ لديَّ أكثرَ مما مضى منهُ ولستُ آسفاً على نجاحٍ أو من إخفاقٍ يأتيني من دارِ نشرٍ

عربيّةٍ، بعدَما حدثَ معِيَ من كوابيسٍ وأمراضٍ لا أعلمُ أينَ وكيفَ سينتهي بِيَ الأمرُ بسببِها!؟.

احتوت بطاقةُ التعريفِ التي قدّمها لِيَ الدّكتورُ "فخراوي" على أربعةِ طرقٍ على الأقلِّ للاتصالِ والتواصلِ معهُ؛ التلفونُ الأرضيُّ والمحمولُ وصندوقُ البريدِ العاديِّ والعنوانُ الإلكترونيُّ وعنوانُ المؤسّسةِ أيْ دارُ النشرِ ومكانُ الإقامةِ وربّما بعضُ الأصحابِ لهُ!. قلتُ في نفسِيَ "يا ولداً، لا تحقرنَّ صغيراً في ملامةٍ إنَّ البعوضةَ تدمي مقلةَ الأسدِ!"؛ كما يقولُ بيتُ الشِّعرِ العربيُّ المأثورُ (والذي قد يؤدّي الأمرُ بمن يكرّرُهُ ويتمنطقُ بهِ إلى أنْ يُصابَ بمرضِ انفصامِ الشخصيّةِ وجنونِ العظمةِ!). بعدَ حواليْ الأسبوعيْنِ من مغادرةِ الدّكتورِ "فخراوي" على الطائرِ الميمونِ، الافتراضيِّ، إلى وطنهِ الأوّلِ حاولتُ الاتصالَ بهِ لغرضِ التذكيرِ والحفاظِ على الصداقةِ العتيدةِ والاطمئنانِ على الأحوالِ العامّةِ وسيرِ الأمورِ لديهِ. نجحتُ في ذلكَ بعدَ اجتيازِ صعوباتِ الاتصالِ بسببِ ضعفٍ في شبكةِ الاتصالاتِ والإصلاحاتِ الجاريةِ عليها في حينهِ. ثمَّ قمتُ بإرسالِ بريدٍ إلكترونيٍّ لإضافةِ عنوانِ دارِ النشرِ إلى لائحةِ المواقعِ الجديدةِ، المهمّةِ لِيَ في لائحةِ بريدِيَ الإلكترونيِّ. لم يكنْ هنالكَ ردٌّ على البريدِ الإلكترونيِّ وكانَ الردُّ على الهاتفِ عادةً ما يتسمُ بمحاولةِ الطّمأنةِ من جانبِ دارِ "أوريزونُ للنّشرِ" على أنَّ كلَّ شيءٍ يسيرُ على ما يُرامُ.

مضى شهرٌ ونيّفٌ على تسليمِ المخطوطةِ وبدأت الصورةُ في خيالِيَ بالتحوّلِ إلى القاتمةِ. أجريتُ اتصالاً هاتفيّاً أرضيّاً مع المؤسّسةِ بعدَ أنْ تعذّرَ الاتصالُ عبرَ المحمولِ. الاتصالُ عبرَ الإنترنتْ لم يُجدِ نفعاً حيثُ، وفي هذا الموضوعِ بالذاتِ، لا يُطبَّقُ قانونُ نيوتنِ الثالثِ الذي ينصُّ على أنَّ "لكلِّ فعلٍ ردُّ فعلٍ مساوٍ لهُ في المقدارِ ومعاكسٌ لهُ في الاتجاهِ". السّببُ في الإخفاقِ في تطبيقِ قانونِ نيوتنِ الثالثِ بسيطٌ وواضحٌ، ذلك لأنّهُ حتى يكونَ هنالكَ ردُّ فعلٍ وجَبَ أنْ يكونَ هنالكَ جسمٌ قادرٌ على إحداثِ ردِّ فعلٍ. بعبارةٍ أخرى بدأت الصّورةُ الصّادقةُ لدارِ "أوريزونُ للنّشرِ" نوعاً ما تضمحلُّ شيئاً فشيئاً. الشّخصُ الذي بدأَ يجيبُ على التّلفونِ بالنيابةِ عن الدّكتورِ "فخراوي" أخبرني أنَّ الأخيرَ في رحلةٍ إلى لندن حيثُ هنالكَ يُقامُ معرضٌ دوليٌّ للكتابِ. أخبرني المتكلّمُ على الهاتفِ أنَّ الدّكتورَ "فخراوي" سيعودُ إلى المكانِ في وطنهِ بعدَ حواليْ الأسبوعيْنِ من حينهِ. سُررتُ للخبرِ وقلتُ في نفسِيَ أنَّ تلكَ الدارَ للنشرِ تخطُّ طريقَها نحوَ العالَميّةِ على الرغمِ من شحِّ الإمكانيّاتِ الدّاعمةِ وضحالةِ الإنتاجِ الكميِّ والنوعيِّ باللغةِ العربيّةِ. حقيقةً وخيالاً بدأتُ أرنو إلى أيِّ نجاحٍ محتملٍ لدارِ النّشرِ تلكَ. ذلكَ ما أضافَ بعضَ الثّقةِ الجديدةِ في نفسِيَ بخصوصِ التعاملِ مع دارِ النشرِ.

بعدَ انتهاءِ الأسبوعيْنِ، وكما لو كانتْ هنالكَ أيّةُ قيمةٍ للحفاظِ على صدقِ وكرامةِ المواعيدِ في بلادِ العربِ!، عاودتُ الاتصالَ مع دارِ النّشرِ للاستعلامِ عن الأحوالِ. لم أنجحْ في الاتصالِ مع الدكتورِ "فخراوي" هاتفيّاً حينَ لجأتُ عبثاً إلى شبكةِ الإنترنتْ. ضاعَ أسبوعٌ آخرُ في انتظارِ ردٍّ على الإنترنتِّ. لم تكنْ للدكتورِ "فخراوي" ودارِ النّشرِ التي يديرُها عنوانُ مؤسّسةٍ وطنيةٍ في شبكةِ العنكبوتِ الدوليّةِ. مَثَلُ دارِ "أوريزونُ للنّشرِ" كمَثَلِ الملايينِ من عناوينِ العامّةِ من الناسِ الذينَ لا عنواناً وطنيّاً لهم؛ عنوانٌ يحفظُ ماءَ وجوهِهم من حالةِ "التسوّلِ البريديِّ" التي يقعونَ فيها دونَ شعورٍ بذلكَ!. مع ازديادِ فترةِ الانتظارِ دونَ ردٍّ ومثولِ شبحِ تجربةِ دارِ "الفخامةُ للنّشر" في مخيّلتِيَ زادَ شبحُ اليأسِ والبؤسِ فوقَ رأسِيَ وأمامَ ناظرِيَ. للهربِ من الاكتواءِ أكثرَ بنارِ التأخيرِ والتأجيلِ، وحالَةِ ضربِ الأخماسِ بالأسداسِ والتهيّؤاتِ البائسةِ، أصبحتُ مصمّماً أكثرَ على الحصولِ على جوابٍ بالنّفيِ أو التأكيدِ أو معرفةِ ما يجري، حقيقةً ودونَ مورابات. لا أريدُ أنْ أذهبَ لتقديمِ طلبٍ إلى دارِ نشرٍ أخرى ويأتيني عزيزيَ الدّكتورُ "فخراوي" بعدَ حينٍ يخبرني أنّهُ كانَ "منشغلاً!!" بالإعدادِ لنشرِ كتابيَ عن عبثيّةِ التعليمِ الحديثةِ في العالَمِ العربيِّ، ووضعهِ في صورةٍ نهائيّةٍ صالحةٍ للعرضِ والنّشرِ قدْرَ الاستطاعةِ!!؟.

توارى الدّكتورُ "فخراوي" عن الإجابةِ والردِّ على أو التواصلِ معهُ عبرَ الطّرقِ التقليديّةِ عن بعدٍ. باتَ من الواجبِ عليَّ الذهابُ والسّفرُ إلى مكانِ إقامةِ وعملِ الدّكتورِ "فخراوي" إذا ما أردتُ معرفةً ولو بصيصِ معرفةٍ عمّا يجري. لكنَّ جلَّ الدلائلِ تشيرُ إلى أنَّ الدّكتورَ "فخراوي" ليسَ الشخصَ المؤهّلَ للتعاملِ مع طباعةِ ونشرِ كتابيَ. عودةً إلى بيتِ الشّعرِ العربيِّ الذي يدعو إلى عدمِ احتقارِ الصغيرِ في ملامةٍ ليبدوَ أنَّ الشّاعرَ كانَ مُبالِغاً في الأمورِ أو يحاولُ أنْ يرفقَ بحالِ الصّغارِ والضّعفاءِ أو أنّهُ مرَّ بتجربةٍ مريرةٍ مع من ظنَّ أنّهم كباراً ...!؟. بعبارةٍ أخرى تغيبُ عن تفسيرِ بيتِ الشعرِ الوقائعُ أو الدّواعي والحيثيّاتُ الميدانيّةُ لتأليفهِ. بإيجازٍ وصراحةٍ لا يصلَحُ بيتُ الشّعرِ هذا هنا. على العكسِ من ذلكَ فإنَّ طريقةَ "حلاقةِ" الدّكتورِ "فخراوي" لذقونِ الآخرينَ، على النّاشفِ ولو من حالةِ بؤسٍ مستشريةٍ!، تستدعي تطبيقَ الطريقةِ المُثلى في الردِّ باستعمالِ معجونِ (باءٍ٣) لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ على ذقنهِ من ابتكارِ السيّدِ "هاني النّحاسِ". هذا مع ضرورةِ تقديمِ بعضِ الاحترامِ وحتّى الوجلِ بسببِ ضعفِ وفقرِ وبؤسِ حالِ الدّكتورِ "فخراوي". تَظلُّ الخسارةُ في التعاملِ مع الدّكتورِ "فخراوي" تلامسُ الحدَّ الأدنى حيثُ المدّةُ الزمنيّةُ المهدورةُ قصيرةٌ نسبيّاً، شهرانِ أوَ أقلَّ؛ وهو لم يطلبْ رسوماً ماليّةً قد تضيعُ وتجعلُ الأمورَ تسيرُ باتجاهٍ أسوأَ بكثيرٍ مما حصلَ.

عليَّ أنْ أبحثَ عن دارٍ بديلةٍ للنّشرِ قد تحتاجُ لإيجادِها بعضَ الوقتِ. في حينهِ كانتْ التوقّعاتُ أنَّ ذلكَ سيحدثُ من خلالِ توخّي دارِ نشرٍ أخرى في معرضٍ دوليٍّ للكتابِ سيُقامُ في شهرِ أبريلِ نيسانَ ٢٠٠٨. بذلكَ أضاعَ الدكتورُ "فخراوي" حوالي الخمسةِ أشهرٍ من العمرِ مطعّمَةً بالمقتِ والمرارةِ والتحسّبِ لِما هو أسوأُ وأخيراً الفشلِ كما هي العادةُ في التّعامُلِ مع أيّةِ مؤسّسةٍ عربيّةٍ. لا تعويضَ لِما ضاعَ منّيَ وعليَّ إلا من اللهِ سبحانَهُ وتعالى، صاحبِ الحكمةِ المطلَقةِ الحقِّ فيما يحدثُ. لكنَّ تلكَ الفترةَ قصيرةٌ بالنسبةِ لتجاربَ أخرى سبقت، وكما يقولُ المثلُ المحليُّ البائسُ فلقد "تعوّدَ الخدُّ على كثرةِ اللطمِ". يحدثُ ذلكَ في ومن مجتمعِ طبقةٍ نخبةٍ من المفكّرينَ والناشرينَ والمتعلّمينَ، أو هكذاَ يُنظَرُ إليهم من بعيدٍ وقريبٍ. لكنَّ اعتناقَ! ثقافةِ الكذبِ والنقصِ الحادِّ في الذّوقِ والشّجاعةِ الأدبيّةِ والتخلّفِ المزري في العلاقاتِ العامّةِ والإدارةِ هي المسيطرُ والمتحكّمُ؛ كانَ اللهُ تعالى في عونِ من يُلقى بهِ في خضمِّ أتونِها.

صولانا للنشر

"جادةُ الجُرذانِ" أو "في الضّاحيةِ جُرذٌ" روايةٌ أو قصّةٌ أخرى طوّرتُها من العيشِ بجوارِ عائلةٍ من "الجُرذانِ" كانت قد سكنت طويلاً في الجزءِ العلويِّ من حائطِ البيتِ الذي آويتُ إليهِ بنفسِيَ. الجُرذُ "تسونارا" هو بطلُ القصّةِ، إبّانَ عمرهِ الذي امتدَّ إلى ثمانيةِ سنينٍ ونيّفٍ. تزاوَجَ الجرذُ "تسونارا" مع أمّهِ بالاشتراكِ مع أبيهِ وعاشوا جميعاً في حالةٍ مقاومةٍ دائمةٍ وصراعِ بقاءٍ ضدَّ جلِّ النشاطِ الإنسانيِّ البشريِّ من حولِهم. في الرّوايةِ صمدَ هؤلاءِ الجُرذانُ الثلاثةُ مع التركيزِ على البطلِ الرئيسيِّ، في الروايةِ كذلكَ، المدعو"تسونارا" كيْ يحكيَ الأخيرُ قصّةَ وجودِ الإنسانِ على سطحِ الكرةِ الأرضيّةِ. قضت الحمْلاتُ الكيماويّةُ والصحيّةُ والبشريّةُ اليدويّةُ والميكانيكيّةُ (العصيُّ ومصائدُ الفئرانِ والجُرذانِ) على نسلِ هذهِ العائلةِ التي لو تُركت لشأنِها في التكاثرِ لأتتْ على كلِّ مجرياتِ الأمورِ في المدينةِ، وفي زمنٍ قياسيٍّ نسبيٍّ. كانَ من الممكنِ أنْ تكوّنَ هذهِ العائلةُ المنكوبةُ من الجُرذانِ بنفسِها فقّط مستعمرةً أو مستوطنةً "جُرذيّةً" تضاهي في تركيبِها وتنظيمِها المستوطناتِ البشريّةَ العصريّةَ، تحتَ ظروفٍ عامّةٍ مشابهةٍ. يحبُّ الجُرذُ أنْ يأكلَ ويأكلَ ويتناسلَ ويتناسلَ ويتناسلَ.

طرحت الروايةُ أكثرَ من ٦٠ موضوعاً في مجالاتِ الفكرِ والفلسفةِ والتجارةِ والصناعةِ والطيرانِ والرفاهيّةِ واللهوِ والتصرّفاتِ العامّةِ فيها الجرذُ يعجَبُ ويستغربُ لحالِ الإنسانِ ونزعةِ الأخيرِ اتجاهَ الأوّلِ. استنتجَ الجُرذُ في النهايةِ وقبلَ قضائهِ نحبَهُ بدقائقَ أنَّ البشرَ ليسوا جزءاً أساسيّاً من الأرضِ. أغلبُ الظنِّ أنَّ الإنسانَ أتى بتكوينهِ وفكرهِ ونزعاتهِ ومجملِ شخصيّتهِ من خارجِ الكينونةِ الأرضيّةِ والتي أيْ الأخيرةُ لها القدرةُ على إنتاجِ كائناتٍ أرضيّةٍ من مثلِ الديناصوراتِ والقرَدةِ والجُرذانِ والدِّببةِ والأبقارِ والفيَلةِ والأغنامِ والأفاعي ..... إلخُ إلخُ إلخُ. أو إذا ما كانَ الأمرُ كذلكَ أيْ خُلِقَ الإنسانُ من وحلِ وطينِ الأرضِ فلقد تدخّلت قوّةٌ ذكيّةٌ غيرُ عاديّةٍ (تسمّى في الأديانِ السماويّةِ أو البشريّةِ بقوّةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى) لتشكيلِ تصرّفِ الإنسانِ اتجاهَ غيرهِ بشكلٍ أساسيٍّ. هذهِ القوّةُ "الغامضةُ الخفيّةُ" أعطتْ الجنسَ البشريَّ امتيازاً لا يعادلُهُ امتيازٌ آخرُ لدى الكائناتِ الحيّةِ الأخرى. إضافةً إلى طبيعةِ وشكلِ قوامِ الإنسانِ الخاصّةِ والخاصِّ على التّوالي؛ ذلكَ ما جعلَ منهُ "إلهاً" صغيراً مسيطراً على ما سواهُ وخاصّةً من الكائناتِ الحيّةِ الأخرى. حُرمت الكائناتُ الحيّةُ الأخرى من هذهِ الميّزاتِ الذكيّةِ المرتكزةِ على قوّةِ الذّاكرةِ والتحليلِ العقليِّ المقارَنِ والتي جميعاً لها القدرةُ على حسمِ معاركِ السيطرةِ، الآنيةِ لكنْ ليسَ الإستراتيجيّةِ البعيدةِ المدى، على الأوضاعِ لصالحِها.

بالذّاتِ نحنُ نتحدّثُ عن نسخةٍ من نوعٍ خاصٍّ من الكائناتِ الحيّةِ، الإنسانُ، امتشقَ صفاتٍ ميّزتهُ عن غيرهِ بطريقةٍ استعباديّةٍ استعماريّةٍ استعلائيّةٍ. لذلكَ وفي استنتاجٍ نهائيٍّ أقربَ إلى المنهجيّةِ العلميّةِ المغطّاةِ أو المقنّعةِ بكثافةٍ بالشكوكِ والهواجسِ توصّلَ الجُرذُ (أو الكاتبُ النّاطقُ بلسانِ الجُرذِ!، أنا الدّكتورُ موسىَ يعقوبٌ قاسمٌ) إلى فكرةٍ مفادُها أنَّ الإنسانَ لم يتطوّرْ، لا عن قردٍ ولا عن ديناصورٍ. تشابهت تصرّفاتُ البشرِ بالحيواناتِ أو الكائناتِ الأرضيّةِ نتيجةً لاشتراكِها في عدّةِ مَناقبَ أهمُّها الاعتمادُ لفترةٍ طويلةٍ على المصادرِ المشترَكةِ في التغذيةِ والتنفّسِ والتّعاطي مع شجونِ وشئونِ الحياةِ الأخرى. ربّما!! جاءَ الإنسانُ بطريقةِ غزوٍ من خارجِ بيئةِ الأرضِ أو تطوّرَ من كونهِ "كائناً أرضيّاً" بطريقةٍ ذكيّةٍ، بالإضافةِ إلى أنّهُ واجهَ ظروفاً مشابهةً للظّروفِ التي تمرُّ على بقيّةِ الكائناتِ الأخرى. في حقيقةِ الأمرِ يصلُ الكاتبُ البشرُ (أو تسونارا الجُرذُ!) إلى نتيجةٍ فكريّةٍ تجمعُ بينَ الفرضيّةِ الخياليّةِ والحقيقةِ مفادُها أنَّ الإنسانَ روحيٌّ سماويٌّ بالأصلِ واكتسبَ صفاتٍ "جُرذيّةً" في تصرّفاتهِ بسببِ مكوثهِ فترةً طويلةً من الزمَنِ يتمرّغُ في نفسِ الظّروفِ "الجُرذيّةِ".

في القرآنِ الكريمِ وفي "سورةِ هودٍ" هنالكَ نصٌّ إعجازيٌّ علميٌّ قد يتوافقُ معَ هذا المعنى: "هوَ (اللهُ تعالى) أنشأَكُم من الأرضِ واستعمرَكُم فيها" (آيةُ رقمُ ٦١). هذا مع ملاحظةِ أنَّ الكاتبَ لم يهدفْ إلى إثباتِ أو تأييدِ نصٍّ دينيٍّ منذُ بدايةِ كتابةِ حلقاتِ ومشاهدِ "المذكّراتِ أو القصّةِ أو الرّوايةِ" إلى النهايةِ. فقط تُركَ سردُ أمورِ مشاهدِ القصّةِ المختلفةِ المتفرّعةِ وهي تسيرُ على طبيعتِها فيها الجُرَذُ "تسونارا" قادرٌ على الخوضِ في كافّةِ تفاصيلِ وأوجهِ الحياةِ والنّشاطِ البشريِّ. الجُرَذُ "تسونارا" يدخلُ في تفاصيلِ عالَمِ الطيرانِ مثلاً بجدارةٍ حيثُ لهُ القدرةُ على أنْ يصبحَ رائداً فضائيّاً بامتيازٍ يُستكشَفُ الفضاءُ عن طريقهِ. هذا إلى جانبِ عددٍ لا حصرَ لهُ من الموضوعاتِ في نهايةِ نقاشِ كلٍّ منها يسألُ الجُرَذُ السّؤالَ التاليَ: "من أينَ للإنسانِ هذهِ الامتيازاتُ التي تُألِّقُهُ وتُعملقُهُ على ما سواهُ بالرغمِ من قصرِ مدّةِ تاريخِ وجودهِ النسبيِّ على سطحِ كوكبِ الأرضِ؟!".

يقعُ الكتابُ "جادةُ الجُرذانِ" في حوالي َ ٢٥٠ صفحةً من قياسِ A4 أيْ حواليْ َ ١٠٠ ألفِ مُفردةً أو كلمةً عربيّةً. بمواضيعهِ المطروحةِ قد يضيفُ هذا الكتابُ إلى المكتبةِ العربيّةِ أفكاراً قد تكونُ ذاتَ قيمةٍ تنفعُ في مقاومةِ موجةِ الإلحادِ والتنكّرِ للفكرِ السّماويِّ الروحيِّ النبيلِ، الذي لا يستطيعُ البشرُ الاستغناءَ عنهُ مهما استكبروا واستعلوا وولّوا. حقيقةً دونَ وجودِ مغذٍّ سامٍ دائمٍ للضّميرِ البشريِّ يقتربُ الإنسانُ في منهجيّتهِ إلى أنْ يكونَ جُرذاً بامتيازٍ. لا ينفعُ التعليمُ العَلمانيُّ في تهذيبِ السّلوكِ البشريِّ مهما كانَ متقدّماً يخترقُ السماواتِ والأرضَ باستخدامِ أرقى وسائلِ التقنيةِ المتقدّمةِ. في هذا الصّددِ معروفٌ الجُرذُ الحقيقيُّ بجشعهِ وطمعهِ ونزعةِ الإبقاءِ على كلِّ شيءٍ في مرمى تصرّفِ "نواجذهِ"، خوفاً من الموتِ جوعاً بسببِ نقصٍ خطيرٍ في المئونةِ قد يحلُّ بهِ يوماً ما!. ما منهجيّةُ أصحابِ الشركاتِ والحالُ هذهِ إلا بلورةٌ واضحةٌ لتصرّفاتٍ مبنيّةٍ على الطمعِ والجشعِ بلا رقيبٍ أو حسيبٍ. يجبُ على الجنسِ البشريِّ الواعي التنبهُ لهذهِ النزعةِ منَ نوعِ الشّرّيرةِ قبلَ فواتِ كلِّ أوانِ عليهِ بسببِ إعطاءِ تلكَ الشّركاتِ كاملَ الحريّةِ لامتلاكِ كوكبِ الأرضِ وخيراتهِ ومقدّراتِ أهلهِ الطبيعيّةِ.

واجهَت روايةُ "جادةُ الجرذانِ" ظروفاً صعبةً في محاولاتِ نشرِها عن طريقِ دورِ النشرِ في المنطقةِ القريبةِ المحيطةِ. عندَ اللجوءِ إلى دارِ نشرٍ عادةً ما يَطرحُ المسئولُ أوَ مندوبٌ عنهُ السّؤالَ التقليديَّ "إنْ كانَ الكاتبُ لهُ في السَّوقِ سمعةٌ طيّبةٌ أو عريقةٌ أو مقبولةٌ على الأقلِّ!؟". إذا ما كانَ الجوابُ بالنفي فما على الكاتبِ الحديثِ إلا أنْ يحاولَ "الاختفاءَ" عن الناظرِ بطريقةٍ أو بأخرى أو يدفَعَ الثمنَ غالياً، عدّاً ونقداً. حقيقةً ولئلا يُظلَمَ القائمونَ عليها فَإنَّ حالَ دورِ النشرِ العربيّةِ الماديّةِ لا يسمحُ لقبولِ كاتبٍ ينشرُ فكرَهُ

فيها أقلَّ من حائزٍ على جائزةٍ عالميّةٍ أو شاعرٍ أو كاتبٍ طفّحَ وجوهَ العربِ لعناتٍ وسُباباً وشتائمَ جعلتهُ نجماً فكريّاً! بلا منازعٍ، لدى الجماهيرِ المتعطّشةِ طويلاً للتغيير. غيرَ ذلكَ على الكاتبِ الجديدِ أنْ يَفتحَ جيوبَهُ لدورِ النّشرِ بعدَ أنْ يخلعَ نعليهِ "احتراماً لوادي الناشرينَ المقدّسِ"، وفي ذلكَ حاشى وربّما كلا للتشبيهِ بشكلٍ عامٍّ!. بالذّاتِ تمَّ رفضُ روايةِ "جادةُ الجرذانِ" من دارَيْنِ للنّشرِ لأسبابٍ غيرِ معلَنَةٍ أو واضحةٍ، ولو بالحدِّ الأدنى المتدنّي. أغلبُ الظّنِّ أنّهُ لم يكنْ هنالكَ مجالٌ لأصحابِ دورِ النّشرِ للاطّلاعِ على محتوياتِها ولو بأيِّ مستوىً من المعقوليةِ!. اللجانُ القارئةُ في معظمِ دورِ النّشرِ مكوّنةٌ من صاحبِ ومديرِ دارِ النّشرِ نفسهِ، معَ نفرٍ محدودٍ من أفرادِ أسرتهِ المقرّبينَ من مثلِ ابنهِ أو بنتهِ أو إحدى زوجاتهِ. من وجهةِ نظرٍ أخرىً فما أنْ يبدأَ الحديثُ عن قصّةٍ أو روايةٍ بطلُها جرذٌ حقيقيٌّ يمشي على أربعٍ ولهُ ذيلٌ حتّى تثورَ ثائرةُ ذلكَ الناشرِ أو المندوبِ عنهُ ليُعرِضَ عن الكاتبِ بوجههِ. ذلكَ ما يعني أنْ لا مستقبلَ لروايةٍ فيها جُرذانٌ في مجتمعٍ يعتبرُ الجرذَ نجساً إلى جانبِ شكلهِ الذي يثيرُ خوفاً ورعباً وانكماشاً ونفوراً عامّاً لدى الشيوخِ والنساءِ والأطفالِ والرجالِ، على حدٍّ سواءَ تقريباً.

لذلكَ كانَ عليَّ أنْ أبذلَ جهداً كبيراً في محاولةِ إقناعِ مندوبي دورِ النشرِ بأنَّ الجُرذَ من مخلوقاتِ اللهِ تعالى. قد يكونُ الجُرذُ غيرَ ذي ودٍّ مع الكثيرِ من البشرِ إلا أنّهُ يُستعملُ هنا لإثباتِ شيءٍ مفيدٍ للبشريّةِ. هذا إلى جانبِ أهمّيتهِ عندَ التضحيةِ بنفسهِ وأولادهِ لإجراءِ تجاربَ صحيّةٍ وكيماويّةٍ مميتةٍ لهُ في المختبراتِ لخدمةِ الجنسِ البشريِّ، على سطحِ الأرضِ وفي الفضاءِ. أتت هذهِ المحاولاتُ بعضَ أُكُلِها، أو هكذا بدت الأمورُ، عندَما التقيتُ بمندوبٍ لدارِ "صولانا للنّشرِ". منذُ البدايةِ أبدى المندوبُ إعجابَهُ بالفكرةِ وعلى الفورِ طلبَ نسخاً إلكترونيّةً أو ورقيّةً، أو من الأفضلِ كلتاهما معاً. سمعاً وطاعةً! قمتُ بإحضارِ الاثنتيْنِ، الإلكترونيّةِ والورقيّةِ، وقلتُ لهُ أنّني بانتظارِ ردٍّ بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ؛ لكنْ على راحةِ بالٍ وهدوءِ دارِ النّشرِ!. بحصولِ النّاشرِ على نسخةٍ ورقيّةٍ أُلغيتْ الحاجةُ لطباعةٍ تجريبيّةٍ من أجلِ استعراضِ الأفكارِ على ورقٍ، هذا بالإضافةِ إلى توفيرِ تكاليفِ ذلكَ وقتاً وجهداً ومالاً وتغليفاً جاهزاً للحملِ والنّقلِ إلى أيِّ مكانٍ. أضفتُ للمندوبِ أنَّ طبيعةَ شخصيّتِيَ الضعيفةَ الدّمثةَ لا تسمحُ لِيَ بالتعاملِ مع مصدرَيْنِ في آنٍ معاً، خوفاً من حدوثِ خيبةِ أملٍ في النّشرِ لطرفٍ على حسابِ آخرَ وذلكَ ما لا يروقُ أو يليقُ بي على الإطلاقِ. هذهِ صفةٌ من جانبِيَ مكتسَبَةٌ من والدِيَ، ربّما!، الذي وُلِدَ وعاشَ وماتَ منعزلاً بشكلٍ شبهِ تامٍّ عن واقعِ الحياةِ والتصرّفاتِ الميدانيّةِ الحقيقيّةِ البشريّةِ العامّةِ. بعدَ سنِّ الخمسينَ لا أزالُ أعاني من هذهِ الصفةِ المكتسَبةِ التي تُعتبَرُ في مجتمعٍ تسيطرُ عليهِ ثقافةُ الكذبِ والفسادِ مثلبةً و"جورةً" أو حفرةً لا يجبُ أنْ يسقطَ الإنسانُ الذّكيُّ فيها على

الإطلاقِ. المشكلةُ في التعاملِ معَ دورِ النّشرِ هنا هي أنَّ القائمينَ عليها لا يبالونَ على الإطلاقِ بإعطاءِ سقفٍ زمنيٍّ للردِّ على طلباتِ النّشرِ. قد يمضي دهرٌ، آيلٌ إلى الأبديّةِ في عصرِ الثوراتِ الإلكترونيّةِ وفي مجالِ الاتصالاتِ، دونَ ردٍّ ولو متواضعٍ عن الحالِ الذي وصلَتْ إليهِ المخطوطةُ "المرشّحةُ" للنّشرِ في تلكَ الدّارِ.

تسلّمَ مندوبُ دارِ "صولانا للنشرِ" المخطوطةَ بشقّيها الإلكترونيِّ والورقيِّ. وعدني المندوبُ أنّهُ في ظرفِ أسبوعيْنِ على الأكثرِ سيتمُّ الردُّ بالإيجابِ أو القبولِ، أو بمرافقةِ اقتراحاتٍ للقبولِ النهائيِّ في النّشرِ بهذا الشكلِ أو ذاكَ؛ تصوّرتُ نفسِيَ كما لو كانَ الوضعُ يجري مع دارِ نشرٍ عالَميّةٍ مرموقةٍ!. فعلاً قمتُ بأخذِ عناوينَ أخرى لدورِ نشرٍ في حالِ تعذّرَ النشرُ في دارِ "صولانا للنشرِ". بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ من إعطاءِ النسخةِ الأصلِ لم يصلنِ فيها بعدُ أيُّ إشعارٍ حتّى بوصولِ تلكِ النُّسخِ إلى مقرِّ دارِ "صولانا للنّشرِ". حينها "بدأَ الفأرُ يلعبُ في سروالِيَ" وقلتُ لنفسِيَ: "ها هي قصّةُ دورِ النّشرِ المعهودةُ (بالذّاتِ والتسميةِ دورُ "الفخامةُ والأفندمُ للنّشرِ") تطلُّ بل تتكرّرُ عليَّ من جديدٍ". "ويحَ حالِيَ وأمّيَ من حالٍ بائسٍ يتكرّرُ على قلبِيَ وأعصابِيَ ودماغِيَ وكبدِيَ والأغشيةِ الحيويّةِ المحيطةِ بالأجهزةِ الحيويَّةِ في جسدِيَ"؛ ندبتُ حظِّيَ وحظَّ أمّيَ أمامَ نفسِيَ في المرآةِ قائلاً. حتّى حينهِ كنتُ قد أضعتُ خمسةَ عشرَ شهراً على الأقلِّ في دهاليزِ دورِ نشرٍ أخرى دونَ تحقيقِ أيّةِ نتيجةٍ "تشرّفُ" الذوقَ الإنسانيَّ!. أرسلتُ بريداً إلكترونيّاً إلى عنوانِ دارِ "صولانا للنّشرِ" الإلكترونيِّ أستعلمُ الأوضاعَ، لكنَّ ردّاً على ذلكَ البريدِ كانَ في حكمِ المتعذّرِ عنهُ. "يا ويحَ قلبِيَ على دارِ نشرٍ للكتبِ لا توجدُ فيها سكرتيرةٌ أو دائرةٌ للعلاقاتِ العامّةِ لا ترسلُ سطراً واحداً في بريدٍ إلكترونيٍّ قد يأخذُ دقائقَ من الوقتِ ينقذُ حياةَ وصحّةَ مؤلِّفٍ كاتبٍ"؛ صحتُ بنفسِيَ لدى عبورِ الشّارعِ المليءِ بحركةِ السيّاراتِ قائلاً. مرّةً أخرى شبحُ الفقرِ وثقافةُ النصبِ والكذبِ في الحسبانِ تطلُّ جميعاً عليَّ بشأنِ دورِ النّشرِ ولا داعيَ للتفكيرِ الطويلِ في الأمورِ. إمّا أنْ تقبلَ بذلكَ الواقعِ المزري جدّاً أو تذهبَ إلى أقربِ حاويةٍ للمهملاتِ والقمامةِ والذبالةِ (الزّبالةِ) وتلقِيَ بنفسِكَ فيها؛ إلى حيثُ لا رجعةَ!.

لجأتُ إلى استعمالِ الهاتفِ النقّالِ أو الجوّالِ. السؤالُ البائسُ المعهودُ المطروحُ من الجانبِ الآخرِ "من أنتَ وماذا تريدُ؟!". نعمْ! أنا الدكتورُ موسىً يعقوبُ قاسمٌ؛ أريدُ معرفةَ ما حصلَ مع روايةِ "جادةُ الجرذانِ" التي سلّمتُكمُ إيّاها في المعرضِ الدوليِّ للكتابِ المُقامِ في شهرِ أبريلَ نيسانَ عامَ ٢٠٠٨، لو سمحتُم!؟. "نعمْ أتذكّرُ ذلكَ وما عليكَ إلا الانتظارُ قليلاً حتّى يأتيَني ردٌّ من المقرِّ الرئيسيِّ لدارِ النشرِ في الموطنِ الأمِّ أو الأصلِ أو

الأوّلِ"، أجابَ الشخصُ على الطّرفِ الآخرِ من خطِّ الاتّصالِ. "سمعاً وطاعةً لكن ها قد مضت خمسةُ أسابيعَ بفارقِ ثلاثةِ أسابيعَ عن الموعدِ الأوّلِ الموعودِ"، ناقشتُهُ بالأمرِ. كانَ الجوابُ أنْ لا عليكَ يا هذا وانتظرْ قليلاً، ها أنا ذاهبٌ بعدَ أسبوعٍ تقريباً إلى العاصمةِ الأمِّ وسآتيكَ بالخبرِ اليقينِ عندَ عودتِيَ الميمونةِ. إذنْ باتَ عليَّ سلوكُ طريقِ الصبرِ والانتظارِ المفتوحِ. قلتُ في نفسِيَ أنَّ اللهَ تعالى قد جعلَ الصبرَ ملاذاً آمناً للمؤمنِ، من صفاقةِ الزّمنِ الغادرِ الأرعنِ!. إضافةً إلى ذلكَ فأنا من أشدِّ أنصارِ الحمارِ وأكثرِ المعجبينَ بهِ شكلاً ومنهجيّةً. لشدّةِ إعجابِيَ بالحمارِ عليَّ أنْ أسلكَ دربَهُ ومنهجيّتَهُ في الكفاحِ والنضالِ العنيدِ، والصبرِ الذي قهَرَ الحمارُ بهِ سطوةَ وصلفَ وصفاقةَ الزمنِ.

بعدَ حواليْ الأسبوعيْنِ كرّرتُ الاتصالَ التلفونيَّ ولنفسِ المصدرِ السابقِ وتكرّرَ السؤالُ السّاذجُ القاتلُ لروحِ الصّبرِ والأعصابِ "من أنتَ وماذا تريدُ؟َ!". أنا الدكتورُ موسىَ يعقوبٌ قاسمٌ أحاولُ معرفةَ ما جرى لروايتِيَ المسمّاةِ "جادةُ الجُرذانِ". لم يصلنِ حتى الآنَ من جهتِكم لا بريدٌ إلكترونيٌّ ولا رسالةٌ قصيرةٌ (باستعمالِ خدمةِ الرسائلِ القصيرةِ خ.ر.ق. بالعربيّةِ أو إس.إم.إس. بالإنجليزيّةِ) من الهاتفِ المحمولِ ولا رنّةٌ، أو الأخيرةُ ما تسمّى في الأوساطِ الشعبيّةِ الدوليّةِ والعربيّةِ بِـ"missed call". لو سمحتُم أنقذونِ ولو بقصاصةِ خبرٍ، عن أيِّ شيءٍ يجري لِيَ معكُم، أنقذونِ من أوهامِ نفسِيَ وظنونِ أفكارِيَ التي من شبهِ المؤكّدِ أنَها تؤدّي بيَ إلى الآثامِ المؤدّيةِ إلى جحيمِ الدّنيا على الأقلِّ، والعياذُ باللهِ تعالى. الجوابُ لا عليكَ يا هذا ستصلُكَ رسالةُ ردٍّ في القريبِ العاجلِ. بعدَ أسبوعٍ من هذهِ المكالمةِ المفعمةِ باليأسِ وصلت رسالةٌ بالبريدِ الإلكترونيِّ يعتذرُ فيها الناشرُ عن طباعةِ ونشرِ روايةِ "جادةُ الجُرذانِ". السّببُ المعلَنُ أو المقدَّمُ هو أنَّ هنالكَ ازدحاماً على دارِ "صولانا للنشرِ" يجعلُ أمرَ البتِّ في الروايةِ متعذّراً لمدّةٍ لا تقلُّ عن ١٥ شهراً إضافيّةً من حينهِ. قلتُ في نفسِيَ، يا ولداً!، ربّما يكونُ هذا التأجيلُ أو الانتظارُ على الدّورِ مردُّهُ إلى أنَّ نوعيّةَ المادّةِ المكتوبةِ على لسانِ الجُرذِ "تسونارا" من مستوى الخزعبلاتِ المرئيّةِ وغيرِ القابلةِ للجدلِ في عالَمٍ تتضاعفُ المادّةُ الفكريّةُ المنشورةُ فيهِ يوماً إثرَ يومٍ، وربّما نصفَ يومٍ إثرَ النصفِ الآخرِ من اليومِ!.

لكنَّ ذلكَ لم يمنعنِ من رفعِ سمّاعةِ هاتفِيَ النقّالِ وتقديمِ جزيلِ شكرِيَ على الردِّ السّريعِ نسبيّاً. قلتُ في نفسِيَ "هنالكَ وعودٌ بالردِّ من قبلُ من دورِ نشرٍ مضى عليها أكثرُ من عشرةِ أشهرٍ". مضى فقط شهرانِ على دارِ "صولانا للنّشرِ" للحصولِ على كلمةٍ تعادلُ في وزنِها ابتسامةً صفراءَ أو نومَ ليلةِ صيفٍ عن أيِّ ردِّ فعلٍ لفعلٍ كبيرٍ من مثلِ منحِ عصارةِ فكرٍ لمدّةٍ لا تقلُّ عن سنةٍ لأحدِ "أعلامِ" دورِ النّشرِ. على الهاتفِ أخبرتُ

الشخصَ الآخرَ بعميقِ امتنانِيَ لهُ ولدارِ "صولانا للنشرِ" ولرئيسِها الموقّرِ الذي في اعتقادِيَ وصلَ إلى ما وصلَ إليهِ بسببِ عبقريّةٍ غير عاديّةٍ مقارنةً مع ما تبقّى من محيطهِ. كذلكَ وبسببِ سهولةِ وتيسّرِ استعمالِ الإنترنتْ أرسلتُ بريداً إلكترونيّاً يعبّرُ عن صدقِ امتنانِيَ للسرعةِ النسبيّةِ في الردِّ النهائيِّ "فقط"، هذا ليسَ تهكّماً أو استغباءاً لنفسِيَ أو للغيرِ. أنا من النوعِ الذي يقدّرُ ظروفَ الآخرينَ حتى لو كانت كاذبةً مصطنعةً، لطالَما يقلّلُ ذلكَ من الضّررِ النفسيِّ والمعنويِّ والماديِّ للضحيّةِ. في النهايةِ هذهِ هي طبيعةُ الجنسِ البشريِّ الأنانيِّ عامّةً والمجتمعاتِ المتخلّفةِ خاصّةً. في الأخيرةِ يكتسبُ الأمرُ صبغةً خاصّةً في ظلِّ اعتبارِ ثقافةِ الكذبِ ونكْثِ الوعودِ المقطوعةِ أمراً عاديّاً لا يُلامُ عليهِ المرءُ أو يُحاسَبُ لا ضميريّاً ولا من جهازٍ قضائيٍّ معتمَدٍ.

هذا الدّرسُ العنيدُ نوعاً ما مع دارِ "صولانا للنّشرِ" أفادني في تعديلِ فكريَ أكثرَ قليلاً عندَ التّعاملِ مع دارٍ للنّشرِ. الاستقبالُ الحارُّ المشفوعُ بابتساماتٍ عرَضيّةٍ لكاتبٍ في معرضٍ لبيعِ الكتابِ لا يعني بالدرجةِ الأولى والثّانيةِ ... وربّما حتّى الأخيرةِ، لا يعني قبولَ شخصيّةِ أو أعمالِ الكاتبِ. أغلبُ الظنِّ الذي لا إثمَ فيهِ، ربّما على الإطلاقِ، أنَّ الهدفَ من تحيّةِ واستقبالِ الكاتبِ هو جلبُ نظرِ وفكرِ الأخيرِ، خاصّةً الجديدِ، إلى رفوفٍ تحتوي كتباً بهدفِ بيعِها. ما أنْ يخرجَ الكتابُ المطبوعُ من بينِ أحزمةِ ومكابسِ المطابعِ حتّى يقعَ في حالةِ انتظارٍ مملٍّ لمن يشتريهِ، وهذه ربّما أصعبُ مراحلِ عمليّةِ التأليفِ والطباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ والتّسويقِ. تسويقُ الكتابِ العربيِّ بشكلٍ عامٍّ هو من أصعبِ المراحلِ على المستوى الدوليِّ مقارنةً بما يُكتَبُ باللغاتِ الأخرى. على أيّةِ حالٍ وإرضاءاً للنزعةِ أو النزوةِ الماليّةِ، المطعّمةِ بالفشلِ في تحقيقِ نجاحٍ من جهةِ دورِ النّشرِ، عادةً ما أقومُ بشراءِ كتبٍ أنا متأكّدٌ أنَّ قراءتَها مضيعةٌ للوقتِ ومغبِّرةٌ للوجهِ والسّحنةِ. يعودُ ذلكَ إلى افتقارِ الكتابِ العربيِّ للمادّةِ المهمّةِ نظراً للجوءِ المفكّرِ والمتعلّمِ العربيِّ إلى اللغاتِ والثّقافاتِ الأخرى لتحقيقِ تألّقٍ! لهُ فيها. عزاؤُنا نحنُ معشرُ المؤمنينَ باللهِ تعالى هو مجرّدُ التلفّظِ بقولِ "لا إلهَ إلا اللهُ ولا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ"، يزيحُ الكثيرَ من ثِقَلِ الهمومِ والكوارثِ والمهازلِ.

ملاحظةٌ: نُشِرتْ روايةُ "جادةُ الجُرذانِ" في دارِ نشرٍ أخرى تحتَ عنوانٍ آخرَ واستغرقَ نشرُها فترةً تُعتبرُ قياسيّةً مقارنةً مع ما جرى لها حتّى حينهِ، لأسبابٍ كثيرةٍ لا مجالَ لذكرِها هنا!. بعدَ ما لا يقلُّ عن سنتيْنِ ونصفٍ من الانتهاءِ من تأليفِها، وبعدَ جهودٍ ماراثونيّةٍ مضنيةٍ بامتيازٍ، خرجت روايةُ "جادةُ الجُرذانِ" إلى حيّزِ الوجودِ.

دارُ "الطّرجمانُ للنشرِ"

مرّةً أخرى هنا أتحدّثُ عن قصّةٍ رمزيّةٍ في التعاملِ مع دارِ نشرٍ بشأنِ مخطوطةٍ وجدتُ صعوبةً في تسويقِ نشرِها في دارِ نشرٍ محليّةٍ. هذهِ المخطوطةُ تتحدّثُ عن طورٍ تاريخيٍّ اجتماعيٍّ زراعيٍّ رعويٍّ فيهِ الإنسانُ بصورةٍ عامّةٍ والمرأةُ بصورةٍ خاصّةٍ في عدادِ الذينَ يعانونَ بضراوةٍ وعنادٍ. تتمتّعُ المرأةُ بقدْرٍ كبيرٍ من الأهميّةِ في العملِ والحفاظِ على المجتمعِ وتأمينِ مستقبلهِ وازدهارهِ وتطويرِ مكانتهِ النفسيّةِ والمعنويّةِ والماديّةِ. تفوقُ المرأةُ في المجتمعِ وبكثيرِ الأهميّةَ الرقميّةَ أو العدديّةَ لوجودِها في أيِّ مجتمعٍ. لولا مشقّةُ كسبِ العيشِ المتعسّرةِ نسبيّاً في بعضِ مناطقِ العالَم، خاصّةً في الشرقِ عامّةً والشرقِ العربيِّ خاصّةً!، لكانَ دورُ الرجلِ لا يكادُ يُذكَرُ مع دورِ وأهميّةِ المرأةِ في المجتمعِ والحياةِ. عانتْ وتعاني المرأةُ من مرارةِ التهميشِ والإقصاءِ والإهمالِ وحُسبَتْ على الدّوامِ في الضعفِ في خانةِ الأطفالِ والشيوخِ الكبارِ في السنِّ. ذلكَ بالرّغمِ من أنّها برعتْ في الماضي في كلِّ تحدّياتِ وفنونِ الحياةِ في المجاليْنِ السلميِّ البنّاءِ وفي مجالِ الحروبِ والدفاعِ عن المجتمعِ والوطنِ والحياةِ ضدَّ أشكالِ وألوانِ من الغزاةِ الغاشمينَ.

المرأةُ في الفكرولوجيّةِ الإسلاميّةِ مقدّسةٌ مصونةٌ ممجّدةٌ محترَمةٌ وتتمتّعُ بكاملِ التقديرِ. الرّجالُ قوّامونَ على النساءِ من أجلِ تثبيتِ فكرةِ الحفاظِ على المرأةِ شرفاً وكرامةً واحترامَ وجودٍ وهيبةٍ وتمجيدٍ. المرأةُ في الإسلامِ، على العكسِ من نظيرتِها في الثقافاتِ الأخرى، ليست لعبةً أو دميةً أو تمثالاً أو هيكلاً جنسيّاً؛ هيَ ليسَت كذلكَ على الإطلاقِ. تتمتّعُ المرأةُ بمشاعرَ وأحاسيسٍ وعواطفَ متدفّقةٍ نبيلةٍ أنيقةٍ راقيةٍ وبشكلٍ طبيعيٍّ يحلمُ جلُّ الرجالِ بالوصولِ إلى مستواها. في العقيدةِ الإسلاميّةِ فإنَّ جلَّ النصوصِ تؤدّي بالمرأةِ العزيزةِ الكريمةِ إلى التربّعِ على عرشِ المجدِ الحقيقيِّ. يسري قانونُ استعمالِ القوّةِ وأسلوبُ الضربِ للمرأةِ في الإسلامِ على فئةٍ ضيّقةٍ في المجتمعِ تقتربُ في حجمِها من الصفرِ، ومن يقومُ بتطبيقِ هكذا منهجيّةٍ أو أسلوبٍ لا يتمتّعُ بشيمِ الرّجالِ الحقيقيّينَ. أساءَ الرجلُ المسلمُ الضّاربُ للمرأةِ تفسيرَ النّصوصِ التي تسمحُ بذلكَ، كما أساءَ تفسيرَ الكثيرِ من النّصوصِ الأخرى في مجالاتٍ متعدّدةٍ لصالحهِ الأنانيِّ.

عشتُ معظمَ سنينِ طفولتِيَ وحياتِيَ المبكّرةِ في مجتمعٍ ريفيٍّ بسيطٍ فيهِ المرأةُ عُزلت وأُعطِيَ الرجالُ صلاحيّاتٍ تتخطّى قضايا الوجودِ الأساسيِّ والمصيرِ وتقريرِ سيرِ الحياةِ.

أتت تصرّفاتُ الرجالِ أو الذكورِ ونزواتُهم بعنجهيّةٍ وصفاقةٍ ورعونةٍ على جلِّ حقوقِ النّساءِ في الشارعِ والبيتِ والأماكنِ العامّةِ وفي تناولِ الطعامِ وكيفيّةِ العملِ. بالذّاتِ أتذكّرُ والدتِيَ عندَما كانت تقومُ بجلِّ أعمالِ البيتِ والحقولِ المزروعةِ وإطعامِ الدوابِّ وحَلْبِ المواشي وحملِ وإرضاعِ وتنشئةِ وفرةٍ من الأطفالِ. مقابلَ ذلك كانَ والدِيَ يقومُ بأعمالٍ روتينيّةٍ محدودةٍ تتركّزُ على شقِّ الأرضِ بمحراثٍ تجرُّهُ الدوابُّ وبيعِ المحصولِ في حاراتِ وشوارعِ المدينةِ، لتأمينِ نقودٍ سائلةٍ تلزمُ للتعاملِ ماديّاً مع أيِّ شيءٍ ماديٍّ خارجَ نطاقِ البيتِ والقَريةِ.

في سنٍّ فوقَ الخامسةِ والأربعينَ من العمرِ تقريباً تعرّضتْ أمٌّ كادحةٌ في القريةِ لحادثٍ مرعبٍ لها ولأسرتِها المكوّنةِ من زوجِها وأولادِها وبناتِها. هاجمَ ما يسمّى "مختارُ العائلةِ الكبيرةِ أو الحَمولةِ" (مَنصِبٌ قادمٌ من بقايا العهدِ العثمانيِّ والانتدابِ البريطانيِّ) تلكَ الأمَّ بعصاً من الخيزرانِ طويلةٍ رفيعةٍ كانَ يحملُها في عمليّةِ "زفٍّ أو تعريسِ" أحدِ شبابِ القريةِ. رأى أولادُها الصّغارُ وزوجُها الضعيفُ الفقيرُ آثارَ الضّربِ بالعصا على بدنِها وبالذّاتِ في منطقةِ الظّهرِ وبطّةِ الساقِ. تعرّضتْ والدةٌ أمٌّ كادحةٌ أخرى لحادثٍ مماثلٍ في نقاشٍ حادٍّ مع زوجِها أودى بحياتِها. في جلِّ الجزءِ من العمرِ الذي عشتُ فيهِ في القريةِ كانَ ضربُ النّساءِ (الإناثِ عموماً) أو التهديدُ بهِ، وقد يصلُ إلى حدِّ تهديدِ حياةِ الضحيّةِ، كانَ مفخرةً بينَ الذكورِ الأزواجِ عندَما يجتمعونَ مع بعضِهم وفي الحديثِ يلهونَ ويتلاهونَ ويتسلّونَ. المطلّقةُ أو حتّى الأرملةُ في ذلكَ المجتمعِ الزّراعيِّ الرّعويِّ عارٌ وثِقَلٌ نفسيٌّ ومعنويٌّ على المرأةِ، وليسَ الأمرُ كذلكَ على الرّجلِ ولو بمقدارِ قيدِ أنملةٍ. هنالكَ مثلٌ شعبيٌّ بائسٌ لكنْ واقعيٌّ منتشرٌ في المجتمعِ يقولُ "يلعنْ يوم البنات، همّهم للممات" (أيْ لسوءِ حظِّ المنكوبِ! بهنَّ فإنَّ همَّ البناتِ والقلقَ عليهنَّ يمتدُّ إلى يومِ المماتِ). إذا ما تمرّدتْ امرأةٌ على حالٍ وُضعتْ فيهِ ليسَتْ لها في تأسيسهِ ناقةٌ ولا حتّى سَخلٌ أصدرَ لها ما يُسمّى أو يُعرَفُ بالقاضي أو منِ ينيبُ عنهُ أمراً بالعودةِ صاغرةً إلى بيتِ طاعةِ ذلكَ الزّوجِ. من كانتْ من النّساءِ المطلّقاتِ أو الأراملِ بلا عزوةٍ كافيةٍ من الأقاربِ عليها أنْ تصمتَ وتعملَ طيلةَ حياتِها صمتَ أهلِ القبورِ.

تركتُ الحياةَ في القريةِ في سنِّ الشبابِ وطفقتُ أبحثُ عن أسلوبٍ "عصريٍّ" في الحياةِ في المدينةِ القريبةِ ومن ثمَّ الدّولِ وحتّى الثقافاتِ الأخرى. بذلكَ أُتيحَ لي المجالُ للتعرّفِ على بيئاتٍ اجتماعيّةٍ أخرى لكنْ بشكلٍ أقربَ إلى السطحيّةِ منها إلى الغوصِ في الأعماقِ الحقيقيّةِ. بالذّاتِ وجدتُ أنَّ أحوالَ المرأةِ في المجتمعاتِ الأخرى تقلُّ شأناً عن حالِ المجتمعِ الإسلاميِّ الحقيقيِّ، وليسَ العربيِّ الذي لا تزالُ آثارُ وأساليبُ الجاهليّةُ تسيطرُ

على مجملِ تطلّعاتهِ وتصرّفاتهِ. المجتمعُ الإسلاميُّ هنا خيالاً وليسَ تطبيقاً، إذ لا يوجدُ مجتمعٌ إسلاميٌّ حقيقيٌّ يستعملُ فيهِ القومُ عقولَهم لإعطاءِ المرأةِ ما تستحقُّ من حقوقٍ بناءاً على التوصياتِ والقوانينِ والنّصائحِ والوصايا الإسلاميّةِ الإلهيّةِ. في هذا السّردِ الموجزِ تكفي الإشارةُ إلى حديثٍ نبويٍّ شريفٍ واحدٍ من مثلِ "الجنّةُ تحتَ أقدامِ الأمّهاتِ"، ليَظهرَ مقدارُ الطّاقةِ الحياتيّةِ والمعنويّةِ والرّوحيّةِ الكامنةِ في المرأةِ. بالمقابلِ على المرأةِ في المجتمعاتِ الأخرى أنْ تقومَ بأعمالٍ وتخضعَ لظروفٍ تحطُّ من قيمتِها المعنويّةِ وتحوّلُها إلى كائنٍ بيولوجيٍّ من السهلِ إجراءُ التجاربِ البيولوجيّةِ عليهِ. بشكلٍ أكثرَ خصوصيّةٍ فالمرأةُ في تلكَ المجتمعاتِ فقدت شخصيّتَها كأنثىً مقدّسةٍ محصّنةٍ ووقعتْ في براثنِ السّوقِ التجاريِّ الحرِّ، عملاً وماهيّةً وهويّةً ووجوداً؛ ذلكَ ما لا يروقُ للكثيرينَ من أمثالِيَ.

قمتُ بتأليفِ كتابٍ على شكلِ قصّةٍ أو روايةٍ هي أقربُ للمذكّراتِ عن امرأةٍ وُلدت في بدايةِ القرنِ العشرينِ، بالذاتِ من جيلِ والدتِيَ. أسميْتُ الروايةَ "سُلَيْمَةُ والذّئابُ"؛ سُلَيْمَةُ هنا تصغيرٌ لكلمةِ "سلامةٌ"، والذّئابُ هنا مجموعةٌ من الرجالِ من حولِ "سُلَيْمَةِ". الرّجالُ هنا نوعانِ من الخارجِ قادمونَ مع موجاتٍ من الاحتلالِ والاستعمارِ الخارجيّيْنِ، بالإضافةِ إلى رجالِ المجتمعِ الداخليِّ الرسميِّ الحكوميِّ والشعبيِّ العامِّ. عانت المرأةُ العاملةُ بصمتِ أهلِ القبورِ والجنودِ المجهولينَ المعلومينَ من كلِّ هؤلاءِ وبالذّاتِ من "الدائرةِ الداخليّةِ" المحيطَةِ بالمرأةِ، أبوها وأخوها وحموها وأولادُها وأحفادُها. كلُّ هؤلاءِ استثمرَت المرأةُ فيهم أملاً بتقديمِ التفاتةٍ حريصةٍ عليها عندَما تمرضُ أو تضعفُ أو يتقدّمُ بها السنُّ ويهنُ عظمُها ويشتعَلُ رأسُها شيباً. لكنَّ ذلكَ كانَ أقربَ إلى السّرابِ، وما أنْ يبدأَ شتاءُ العمرِ يحلُّ بها حتى يولّيَ كلٌّ إلى طريقٍ وتُتْركَ المرأةُ على جانبِ طريقٍ تراقبُ سيرَ الحياةِ ببالغِ الأسى والحزنِ واللوعةِ والعجزِ عن القيامِ بأيِّ شيءٍ. الجهازُ الرسميُّ في الدّولةِ، أو الحكومةُ، لم يقمْ بفعلِ أيِّ شيءٍ للحفاظِ على كرامةِ وعزّةِ أنفسِ هؤلاءِ المكافحاتِ بصمتٍ من أجلِ المجتمعِ ويكتفي على الأكثرِ بتقديمِ خدماتِ التقاعدِ للأقليّةِ من الذينَ عملوا في سلكهِ بطريقةٍ أو بأخرى. الجهازُ الرسميُّ يهتمُّ بمن عملَ لهُ ومعهُ وكأنَّ بقيّةَ أفرادِ وكتلِ الشّعبِ ليسوا من شأنهِ بشيءٍ.

في العصرِ الحديثِ ومع اشتدادِ التأزّمِ والتوتّرِ بينَ الثقافاتِ باتت المرأةُ العربيّةُ والمسلمةُ مثارَ جدلٍ بينَ القوى الغازيَةِ وأنصارِ الأخيرةِ المحليّينَ من جهةٍ وأنصارِ حريّةِ وحقوقِ المرأةِ في المجتمعِ الإسلاميِّ نفسهِ. في روايةِ "سُلَيْمَةُ والذئابُ" كانَ الهدفُ هو إنقاذُ المرأةِ المسلمةِ من الذّئابِ المحليينَ التقليديّينَ وذئابِ الهجمةِ الثّقافيّةِ الإمبرياليّةِ

الشّرسةِ، حاليّاً بقيادةِ الرّئيسِ الأمريكيِّ جورج بوش المنحلِّ أخلاقيّاً والكذّابِ بامتياز. من شأنِ عمليّةِ "إنقاذِ المرأةِ" على الطريقةِ الغربيّةِ أنْ تؤدّيَ وبسرعةٍ قياسيّةٍ إلى عمليّةِ "تدعير" وانحلالِ المرأةِ وتخلّيها عن اتّباعِ المعاني السّاميةِ النبيلةِ العزيزةِ الكريمةِ. ذلكَ يعني تطبيقَ ما أمكنَ الوصولُ إليهِ في حالِ المجتمعاتِ الغربيّةِ من تفسّخٍ وانحلالٍ وتآكلٍ ومثالبَ مزريةٍ على حالِ المرأةِ العربيّةِ المغبونةِ في أمرِها منذُ قرونٍ طويلةٍ. هذا ما يؤدّي حتماً إلى القضاءِ على الحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّةِ السامية النبيلةِ وبضربةٍ مُحكمةٍ تأتي بشكلٍ عامٍّ طامٍّ على الجزءِ المهمِّ والحيويِّ الحسّاسِ في المجتمعِ، المرأةُ. بعبارةٍ أخرى يعرفُ الغزاةُ من الخارجِ من أينَ تُؤكلُ الأكتافُ وكيفَ تُساقُ الإبلُ، وهنا يجوزُ التعبيرُ المجازيُّ. الهدفُ هو ضَربُ بنيانِ وكيانِ المجتمعِ العربيِّ الإسلاميِّ بشكلٍ جذريٍّ يؤدّي إلى تفكيكهِ والقضاءِ عليهِ ما أمكنَ ذلكَ.

دُرتُ أبحثُ في المكانِ عن دارِ نشرٍ لروايةِ "سُلَيْمَةُ والذّئابُ". في السّوقِ وجدتُ الكثيرَ من الكتبِ العربيّةِ التي تطرحُ موضوعَ المرأةِ ومنها اللامعُ الذي يحاولُ الاقتداءَ بالطريقةِ الغربيّةِ المعتمِدةِ على ما وصلت إليهِ المرأةُ "الهوليووديّةُ الشقيّةُ"، قوقازيّةُ اللونِ بشكلٍ خاصٍّ. من بعيدٍ، بدا اندفاعِيَ وحماسِيَ بشأنِ طرحِ قضيّةِ "سُليْمةِ" مثلَ فكرٍ قد يصبُّ في النهرِ الفكريِّ المحرِّضِ الذي بدأَ يتشكّلُ من مجموعةٍ من الحملاتِ الإعلاميّةِ والفكريّةِ الشّرسةِ على العالَميْنِ العربيِّ والإسلاميِّ. عندَما أشرحُ لشخصٍ ناشرٍ أو من ينيبُ عنهُ مفهومَ ومضمونَ الرّوايةِ أُواجَهُ بتحفّظٍ من الجانبِ الآخرِ يثيرُ الغضبَ في نفسِيَ. بشكلٍ عامٍّ أدمنَ الرّجلُ العربيُّ الذي في جيبهِ مالٌ على رؤيةِ نفسهِ يقودُ امرأةً خانعةً مستسلمةً لهُ أو خاشعةً "ذليلةً" خاليةَ الجيوبِ من الأموالِ، تنظرُ إلى الحياةِ من حولِها من خلفِ مجموعةٍ من السّتائرِ أو السّواترِ النفسيّةِ والمعنويّةِ والماديّةِ.

في "معرضٍ دوليٍّ للكتابِ" في شهرِ ديسمبر كانونِ الثّاني ٢٠٠٧ التقيتُ بامرأةٍ تديرُ جناحَ دارِ "الطّرجمانُ للنّشرِ". أبدتِ السيّدةُ "سميحةُ القرطيِّ" حماسَها لفكرةِ "سُليْمَةُ والذّئابُ". ذهبَ الحماسُ بالسيّدةِ "القرطيِّ" أنْ اقترحت تغييرَ عنوانِ الروايةِ إلى عنوانٍ آخرَ مثلَ "سوسو والزّئاب" أو "ماما والزّئاب" أو "ماما والحراميّة"، لتسهيلِ تسويقِها في الشّارعِ العربيِّ من القرّاءِ غيرِ العابئينَ بالتعاطي مع نصوصٍ باللغةِ العربيّةِ الفصحى. قلتُ في نفسِيَ "ما شاءَ اللهُ!" على اللغةِ العربيّةِ الفصحى أينَ ذهبت في دهاليزِ بعضِ دورِ النشرِ "الملتزمةِ" المنتشرةِ في المنطقةِ. لكنْ في ذلكَ الجوِّ العائليِّ! المتكوّنِ للتّوِّ في جناحِ الدارِ في المعرضِ أعطتني السيّدةُ "القرطيُّ" عنواناً إلكترونيّاً لها في دارِ النّشرِ كيْ أُرسِلَ لها نسخةً إلكترونيّةً، أيْ بالبريدِ الإلكترونيِّ، للمخطوطةِ. سُررتُ

كثيراً بذلكَ وقلتُ إنَّ الأمرَ هانَ على والدتِيَ في روايةِ "سُلَيْمَةُ والذئابُ". توقّعتُ بل وددتُ نشرَ الروايةِ في دارِ "الطّرجمانُ للنشر" بالسّرعةِ الممكنةِ. بعدَ انتهاءِ المعرضِ بأسبوعيْنِ تقريباً قمتُ بإرسالِ رسالةٍ إلكترونيّةٍ فيها وددتُ التأكّدَ من العنوانِ البريديِّ وأنَّ الشخصَ على الطّرفِ الآخرِ لم تزلْ عندَ حماسِها بشأنِ النشرِ. من تجربتِيَ في الحياةِ وخاصّةً مع دورِ النشرِ يجبُ التأكّدُ من سلامةِ وتأكيدِ كافّةِ الخطواتِ أوّلاً بأوّلٍ، الصغيرةِ والكبيرةِ وعلى الدّوامِ. بعدَ حواليْ الشّهرِ من حينهِ كرّرتُ إرسالَ الرسالةِ بعدَ محاولاتِ اتصالٍ هاتفيّةٍ عديدةٍ للتأكّدِ من صحّةِ أو حقيقةِ الموقعِ الآخرِ. بعدَ تلكَ الاتصالاتِ الهاتفيّةِ وصلتْ رسالةٌ إلكترونيّةٌ تفيدُ بأنَّ السيّدةَ "القرطيَّ"، أو "مدام كورتي Madame Kurty**" كما ذكرتْ لِيَ السّكرتيرةُ على الهاتفِ المحمولِ، قد أرسلت لِيَ بريداً إلكترونيّاً من قَبلُ.**

وفعلاً تفقّدتُ البريدَ الإلكترونيَّ لديَّ ووجدتُ أنَّ هنالكَ رسالةً بريديّةً باللغةِ الإنجليزيّةِ وصلت ليسَ إلى صندوقِ البريدِ (Inbox**) ولكنْ إلى ال(**Spam**) أيْ ملحقٌ آخرُ في البريدِ الإلكترونيِّ، وعلى غيرِ العادةِ!. قلتُ في نفسِيَ لماذا أرسلتْ السيّدةُ "القرطيُّ" ردَّها عليَّ باللغةِ الإنجليزيّةِ؟!. لم أعرفْ تفسيرَ ذلكَ بالضبطِ بالرّغمِ أنّني أوضحتُ لها أثناءَ لقائِيَ بها في جناحِ دارِ النّشرِ في معرضِ الكتابِ أنّني من ضحايا اللوردِ الإنجليزيِّ "آرثر بلفور" ووعدِهِ المشئومِ منذُ خروجِ الماءِ من صلبِ أبِيَ، ليستقرَّ في رحمِ أمِّيَ، وحتّى إشعارٍ آخرَ قد يستمرُّ إلى ما بعدَ يومِ القيامةِ. ثمَّ لا أعرفُ السببَ في وصولِ هذهِ الرّسالةِ إلى صندوقِ أو مربّعِ ال(**Spam**)، لكنَّ النتيجةَ أنَّ البريدَ تأخّرَت عليَّ قراءتُهُ والحالُ هذهِ حواليْ الشهرِ. أرسلتُ رسالةً باللغةِ العربيّةِ الفصحى، طبعاً، إلى السيّدةِ "القرطيِّ" أعتذرُ فيها عن عدمِ تمكّني من التقاطِ الرسالةِ من قبلُ بسببِ خللٍ! فنيٍّ غيرِ عاديٍّ أو متوقّعٍ في شبكةِ العنكبوتِ الدوليّةِ للمعلوماتِ. لكنَّ ردّاً على ذلكَ من جهةِ السيّدةِ "القرطيِّ" فيما بعدُ لم يأتِني.**

حاولتُ الاتصالَ الهاتفيَّ وكذلكَ عن طريقِ البريدِ الإلكترونيِّ لإعادةِ التواصلِ مع دارِ "الطّرجمانُ للنّشر"، لكنْ بدا الوضعُ مثلَ التعاملِ مع جسمٍ لا يرغبُ في الاستمرارِ في التواصلِ. قلتُ لنفسِيَ "يا ولداً هلْ تظنُّ أنَّ بقيّةَ الخلقِ سيعطّلونَ أعمالَهم وأشغالَهم ومشاريعَهم لحلِّ مشاكلِكَ والتخصّصِ في النّظرِ المستديمِ في أمورِكَ؟!". في عقلِيَ الباطنيِّ لا أعتقدُ أنَّ دارَ "الطّرجمانُ للنّشرِ" ستوافقُ على نَشرِ روايةِ "سُلَيْمَةُ والذّئابُ" لعدَمِ سيرِها في خطِّ النشرِ العامِّ لتلكَ الدّارِ، خطٌّ يسايرُ المفهومَ الجديدَ للعولَمةِ وروحَها النّاريّةَ المتأجّجةَ على المبادئِ والأفكارِ السّاميةِ النبيلةِ. بعضُ دورِ النّشرِ العربيّةِ وبسببِ

الفراغِ الهائلِ في الثقافةِ والمشاكلِ غيرِ المحلولةِ منذُ مئاتِ السنينِ تحاولُ اقتباسَ ما جرى ويجري في الثّقافاتِ الغريبةِ الأخرى وإدخالهِ عنوةً إلى المجتمعاتِ العربيّةِ والإسلاميّةِ. يريدُ هؤلاءِ الكتّابُ والمؤلّفونَ أنْ يظهروا أبطالاً وروّادَ تحريرِ! المرأةِ العربيّةِ بافتراضِ المجتمعاتِ الأخرى ناجحةً في ذلكَ المجالِ. لكنَّ التجربةَ مع دارِ "الطّرجمانُ للنّشرِ" لم تكنْ مريرةً أو خازوقاً كما حدثَ مع دورِ نشرٍ أخرى. كانتْ تلكَ التجربةُ أقربَ إلى خيبةِ أملٍ عابرةٍ توازي مرورَ سحابةِ صيفٍ حارٍّ كانَت تحملُ زخّةً خفيفةً من البَرَدِ. لا أعتقدُ أنَّ هذهِ الحالةَ من "الحلاقةِ السريعةِ على النّاشفِ للذقنِ" تستدعي استعمالَ معجونٍ بـ٣ الذي ابتكرَهُ الصّديقُ العزيزُ السيّدُ "هاني النحّاسُ" للتّعاملِ بالمثلِ مع الحالقينَ لذقونِ الآخرينَ على النّاشفِ. على العكسِ من ذلكَ ربّما عليَّ الاعتذارُ للسيّدةِ "القرطيِّ" على عدمِ التقاطِ ردِّها الإلكترونيِّ في الوقتِ المناسبِ والذّهابِ بالتجربةِ مع دارِ "الطّرجمانُ للنّشرِ" إلى آخرِ الحبلِ، إذا ما يجوزُ التعبيرُ.

"سميروفُ للنّشرِ"

لديَّ مخطوطةٌ أخرى عن معاناةِ وكفاحِ المرأةِ العربيّةِ الريفيّةِ هي من نفسِ بيئةِ وصُلبِ ورحمِ مخطوطةِ "سُلَيْمَةُ والذّئابُ". نفسُ الأفكارِ السابقةِ عن المرأةِ الريفيّةِ المكافحةِ قد خُطّتْ بأسلوبٍ آخرَ. في المخطوطةِ الجديدةِ وجدتْ تلكَ الأفكارُ والمعاني نفسَها في قوالبَ لغويّةٍ جديدةٍ، مع خواطرَ إضافيّةٍ على شكلِ تنميقٍ وإعادةِ ترتيبٍ. مرّةً أخرى يمكنُ تكرارُ القولِ أنّهُ عاشت المرأةُ بشكلٍ عامٍّ والعربيّةُ بشكلٍ خاصٍّ حياةً قاسيةً فيها هُضِمتْ جلُّ حقوقِها وامتُهنتْ في شخصيّتِها. كانَ ذلكَ امتداداً لسيادةِ، أو "سيدودةِ"، الذكورِ في المجتمعِ بناءاً على القوّةِ الجسديّةِ والحاجةِ الماسّةِ إلى من يؤمّنُ تمويلاً للبيتِ ويدافعُ عن الأوطانِ والمجتمعاتِ عندَ اشتدادِ الأزماتِ والحروبِ. بسببِ طبيعةِ المرأةِ الجسديّةِ والقيودِ المعنويّةِ والنفسيّةِ وحتّى الماديّةِ المفروضةِ عليها بقيتِ المرأةُ تصنّفُ في خانةِ الضعفاءِ بل المستضعفينَ. اتّهمَ الرجلُ المرأةَ بالضعفِ الجسديِّ حتّى وهي حاملٌ لجنينٍ منهُ ولاحقاً عندَ حضانتِها وإرضاعِها للطفلِ الوليدِ. ثمَّ أجبرَ الرجالُ النّساءَ على القيامِ بالأعمالِ الدنيئةِ المستوى في البيتِ والمزرعةِ مثلَ التنظيفِ والأعمالِ التي يأبهونَ لأنفسِهم القيامَ بها. حتى نهايةِ القرنِ العشرينِ وبدءِ الواحدِ

والعشرينِ لا تزالُ المرأةُ تعاني من هدرِ حقوقِها بطريقةٍ جاهلةٍ فظّةٍ عنيدةٍ، ومن أقربِ النّاسِ إليها وأبعدِهم عنها على حدٍّ سواءَ تقريباً.

لستُ من أنصارِ مساواةِ الرجلِ بالمرأةِ، لسببٍ بسيطٍ وهو عدمُ إمكانيّةِ المساواةِ الطبيعيّةِ. والحالُ هذهِ تتمُّ المساواةُ لصالحِ الرجلِ من حسابِ المرأةِ وذلكَ ما يشكّلُ غبناً وظلماً للنّساءِ. أنا من أنصارِ إعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ في القيامِ والقعودِ والعملِ والقدراتِ العقليّةِ والإداريّةِ والنفسيّةِ والمعنويّةِ والماديّةِ. حينها سيجدُ الرجلُ نفسَهُ حقيقةً في حالٍ لا يُحسدُ عليهِ. كمسلمٍ أقتدي بالرسولِ الكريمِ صلّى اللهُ عليهِ (وآلهِ وصحبهِ) وسلّمَ وصحابتهِ فإنَّ هنالكَ هامشاً كبيراً في احترامِ وتمجيدِ وحفظِ حقوقِ المرأةِ لا يتوفّرُ في أيّةِ ثقافةٍ أو حضارةٍ أخرى. بالذّاتِ ومقارنةً بالثقافةِ الغربيّةِ الماديّةِ بامتيازٍ فإنَّ للمرأةِ العربيةِ والمسلمةِ بشكلٍ خاصٍّ تعظيمٌ وتمجيدٌ وتكريمٌ تحلمُ بهِ كبرياتُ النّساءِ اجتماعيّاً في المجتمعاتِ الغربيّةِ. بفضلِ الإفراطِ في تنزيلِ مستوى المرأةِ في الثقافةِ الغربيّةِ أصبحتْ النّساءُ هناكَ سلعةً تجاريّةً قابلةً للاستهلاكِ على مدارِ السّاعةِ خاصّةً من جهةِ الشّركاتِ التجاريّةِ التي لا تأبهُ إلا لزيادةِ الربحِ الماديِّ فقط على حسابِ كلِّ شيءٍ آخرَ، في مقدّمتهِ شرفُ وجلالُ وعظيمُ قدْرِ المرأةِ.

هذا المؤلَّفُ عن المرأةِ بناءاً على ما عاصرتُهُ من ظلمٍ وحيفٍ وقعا على أقربِ النّاسِ إليَّ، والدتِيَ وأخواتِيَ ومن يليهنَّ في القرابةِ والجوارِ وبقيّةِ المجتمعِ والأمّةِ. "أيّامُ العيشِ مع الحراذينِ" روايةٌ أو مخطوطةٌ على شكلِ شبهِ مذكّراتٍ تصفُ حالَ امرأةٍ ريفيّةٍ قرويّةٍ ضعيفةٍ مستضعفةٍ اجتماعيّاً. تعملُ المرأةُ دونَ توقّفٍ وتُستهلَكُ ماديّاً ومعنويّاً دونَ هوادةٍ تُذكَرُ من قِبلِ البشرِ من حولِها. بالإضافةِ إلى الأعداءِ الخارجيّينَ، فالبشرُ من حولِ تلكَ الضحيّةِ مدى الحياةِ تظلُّ تأكلُ ولا تعطي بالمقابلِ شيئاً يناسبُ القيمةَ والمقامَ والعملَ ولو بنسبةٍ مئويّةٍ بسيطةٍ. "الحراذينُ" هنا في عنوانِ المخطوطةِ جمعٌ لكلمةِ "حرذونٍ" (أو حردونٌ باللهجةِ الشاميّةِ الدارجةِ) هو اسمٌ شعبيٌّ لكائنٍ حيٍّ من نوعِ الزواحفِ، جدُّ مُسالِمٍ، أسوَدُ رماديُّ اللونِ يأوي عادةً إلى الجحورِ والشّقوقِ في الصخورِ في البراري. عادةً ما يظهرُ الحرذونُ للفلاحينَ متسلّقاً على قممِ وسطوحِ الصخورِ في البراري الجرداءِ والحقولِ الزراعيّةِ، تحتَ أشعّةِ الشّمسِ السّاطعةِ في الصيفِ محاولاً الهربَ من الحرارةِ وضيقِ التنفّسِ في الجحورِ. يتغذّى الحرذونُ على بعضِ الخضارِ والفواكهِ الناضجةِ في مزارعِ الفلاحينَ وبعضِ الديدانِ والجنادبِ والحشراتِ التي يسهلُ عليهِ التقاطُها أو اصطيادُها. الحرذونُ في حالةِ حربٍ أو صراعٍ

دائم مع الأفاعي والجُرذانِ القويّةِ الشّرسةِ في المكانِ من حولهِ، بالإضافةِ إلى الفلاحِ وأفَرادِ أسرةِ الأخيرِ الذينَ ينزعجونَ من شكلهِ ووجودهِ في المكانِ.

مضى عليَّ دهرٌ من الزّمنِ أحاولُ تسويقَ الرّوايةِ لنشرِها لدى دورِ النّشرِ. في كلِّ مرّةٍ أرى فيها مندوباً عن دارِ نشرٍ أواجَهُ بالسّؤالِ التالي "هل أنتَ كاتبٌ محترفٌ مرموقٌ، أيْ هل أنتَ معروفٌ في سوقِ الكتابةِ والنشرِ؟!". الجوابُ لا، على العكسِ من ذلكَ فإنَّ جلَّ خلفيّتِيَ الفكريّةِ علميّةٌ بامتيازٍ. أنا حائزٌ على شهادةِ الدكتوراه في العلومِ وبميلٍ واضحٍ نحوَ الرّياضيّاتِ درستُها في الجامعةِ بلغةٍ أقربَ إلى الاستعماريّةِ الهوجاءِ منها إلى محاولةِ نشرِ أيِّ فكرٍ تطبيقيٍّ معقولٍ أو مفيدٍ في المجتمعِ. أنا الآنَ أحاولُ أنْ أنفضَ الغبارَ الكثيفَ والصّدأ المخيفَ عن نفسِيَ نتيجةً لابتعادِيَ المعيبِ عن لغتِيَ وثقافتِيَ الأصلِ، اللغةُ والثقافةُ العربيّتانِ المجيدتانِ السّاميتانِ. أنا أعودُ الآنَ للبحثِ عن ذاتِيَ في ذاتِيَ، عن طريقِ الكتابةِ باللغةِ العربيّةِ الفصحى المجيدةِ.

في أحدِ معارضِ الكتبِ الدوليّةِ وبينما أنا في حالةِ تجوالٍ حثيثةٍ يعتريها اليأسُ مررْتُ بجناحِ دارِ نشرٍ في مكانٍ منعزلٍ يحتاجُ إلى مرشدٍ خاصٍّ أو توصيةٍ خاصّةٍ مشفوعةٍ بخريطةِ طريقٍ للوصولِ إليهِ!. المكانُ منعزلٌ وقيمةُ المعروضاتِ فيهِ قليلةٌ والمشرفُ عليهِ رجلٌ قويُّ البنيةِ الجسديّةِ والعقليّةِ وفي منتصفِ العمرِ يشكو قلّةَ الوارداتِ والزّائرينَ والزّائراتِ والإفلاسَ الماديَّ "الجاحدَ الكافرَ". قلتُ في نفسِيَ "يا موسىً ابنَ يعقوبٍ قاسمِ! أنتَ الآنَ أمامَ حالةٍ تحتاجُ بعضَ الشّهامةِ، يا أبا الشّهامةِ والغيرةِ!". تقدّمتُ من جَناحِ المبيعاتِ والتقطتُ بضعَ كتبٍ طلبتُ من المشرفِ على المبيعاتِ في دارِ "سميروفُ للنّشرِ" شراءَها منهُ. جَمَعَ المشرفُ أثمانَ الكتبِ على حاسبةٍ إلكترونيّةٍ صغيرةٍ وإعطاني الحسابَ الكاملَ. أعطاني المشرفُ الحسابَ وقالَ أنّهُ سيمنحُني حسماً على المبيعاتِ اعتبرتُهُ غيرَ لائقٍ بمستوايَ! الاجتماعيِّ المفترضِ والنّفسيِّ والمعنويِّ الحقيقيِّ. رفضتُ الحسمَ وأعطيتُهُ كلَّ الحسابِ مع إكراميّةٍ متواضعةٍ إلى حدٍّ ما. ذُهِلَ مندوبُ المبيعاتِ ذاكَ لذلكَ المستوى من التعاملِ بكرمٍ! ولاحظتُ ارتفاعَ معنويّاتهِ وبدأَ يضربُ الخطى يميناً ويساراً باحثاً عن زبائنَ جددٍ. بعدَ قليلٍ استطردتُ قائلاً لهُ أنَّ لديَّ مخطوطةً للنّشرِ لا أمانعُ أنْ تجدَ طريقَها إلى سوقِ النّشرِ عبرَ دارِ "سميروفُ للنّشرِ" تلكَ. وفعلاً وبحرارةٍ أعطاني المشرفُ العنوانَ البريديَّ الإلكترونيَّ لدارِ "سميروفُ للنّشرِ" ووعَدَ بالعملِ شخصيّاً مع مديرِ الدارِ كيْ يتدبّرَ الأمرَ باهتمامٍ خاصٍّ. فعلاً اقتنعتُ داخليّاً بقربِ الفرَجِ والانفراجِ على قصّةِ التي قضتْ سنينَ نعومةِ أظفارِها وصباها وشبابِها وكهولتِها وشيخوختِها المبكّرةِ والمتأخّرةِ مع وبينَ الحراذينِ. قلتُ في نفسِيَ "

أنْ يا دكتورَ موسىً! فإنَّ مشكلةَ العبيدِ من النّساءِ القرويّاتِ من النّوعِ الذي يعملُ دائماً قريباً من بيئاتِ الحراذينِ وبعيداً عن ميدانِ عملٍ ودوائرِ تفكيرِ وخيالِ رجالِ وموظّفي ومسئولي الدولةِ في المخطوطةِ الرّوايةِ، ها قد حُلّتْ".

في البريدِ الإلكترونيِّ أرسلتُ رسالةً فيها عرضتُ نفسِيَ ونبذةً قصيرةً ملخّصاً عن مخطوطتِيَ ورغبتِيَ في النّشرِ لدى دارِ "سميروفُ للنّشرِ". في الرّسالةِ الإلكترونيّةِ ذكرتُ للنّاشرِ أنَّ الأمورَ لا تُقاسُ بعراقةِ دارِ النّشرِ ولا بمستواها ولا باعتباراتٍ أخرى قد لا تعدو أكثرَ من شكليّةٍ سطحيّةٍ. علينا جميعاً العملُ على إعادةِ الرّوحِ إلى لغةٍ وثقافةٍ باتتا تُحسبانِ في الدوائرِ الاستعماريّةِ والدوليّةِ اسميّاً التابعةِ لها، الأقلَّ استعماريّةً كما تبدو للغافلِ الجاهلِ، تُحسبانِ في حكمِ البائدتيْنِ. ها أنا الآنَ أحاولُ أنْ أدلِيَ بدلوِيَ متأخّراً في ذلكَ المجالِ شديدِ الحساسيّةِ والحرَجِ الآنَ. الرّسالةُ من جهتِيَ تقولُ "إذا ما جئتُكم يا رفاقُ! فخُذوني". في رسالةٍ ردٍّ بالبريدِ الإلكترونيِّ ردَّ مديرُ وصاحبُ دارِ "سميروفُ للنّشر" أنّهُ سُرَّ برسالتِيَ وأنّهُ يرغبُ في التعاملِ معِيَ بإيجابيّةٍ وتشرُّفٍ!. في نفسِ الرّسالةِ طلبَ النّاشرُ أنْ أرسلَ بالتّزامنِ مع إرسالِ النسخةِ الإلكترونيّةِ للمخطوطةِ "أيّامُ العيشِ مع الحراذين" تحويلةً ماليّةً بمبلغٍ من المالِ عالٍ؛ في ذلكَ يتمُّ تحويلُ الأموالِ بيسرٍ وسهولةٍ من أقربِ وكالةٍ للصّرافةِ وتحويلِ الأموالِ عبرَ الحدودِ. لكنْ بدأَ الوسواسُ الخنّاسُ يضربُ في أركانِ دماغِيَ منذُ البدايةِ. لماذا الآنَ يتمُّ طلبُ الأموالِ؟!، على الكتابِ أنْ يمرَّ بإجراءاتٍ روتينيّةٍ منها الرقابةُ والمطبوعاتُ والدّوائرُ القانونيّةُ الأخرى إلى جانبِ احتمالِ وجودِ أخطاءَ لغويّةٍ وفكريّةٍ وتناقضاتٍ تجعلُ من المتعذّرِ نشرَ الكتابِ المخطوطةِ ..... إلخُ إلخُ إلخُ. ثمَّ ماذا عن رأيِيَ في شكلِ الإخراجِ النهائيِّ للكتابِ إنْ يصدرْ وماذا بشأنِ التعاقدِ النهائيِّ وتوزيعِ ريعِ المبيعاتِ؟! .... أسئلةٌ كثيرةٌ عادةً ما تُطرَحُ من أشخاصٍ عاشوا ثقافتيْنِ بينيْهما فروقٌ مدنيّةٌ وتقنيّةٌ وإداريّةٌ وتنظيميّةٌ شاسعةٌ.

منذُ البدايةِ أيقنتُ أنَّ دورَ النّشرِ بحاجةٍ ماسّةٍ بل يائسةٍ مستميتةٍ إلى دعمٍ ماليٍّ يأتيها ولو من مَحافظِ الشحّاذينَ أو أكياسِ الشّياطينِ أو جحورِ الفئرانِ والجُرذانِ وصوامعِ الحراذين. ما طلبُ المالِ أو الرّسومِ الماليّةِ بهذا الشكلِ إلا أحدُ عوارضِ هذهِ المشكلةِ المستفحلَةِ. على الجميعِ أفراداً وجماعاتٍ رسميّينَ وشعبيّينَ التعاضدُ للحدِّ من استفحالِ الأزمةِ الماليّةِ لقطاعٍ واسعٍ ثقافيٍّ حضاريٍّ معبِّرٍ عن وجهٍ وتاريخٍ وهويّةٍ وفكرٍ وكيانِ الأمّةِ. صبرتُ قليلاً لأعطِيَ فرصةً للنّاشرِ للاطلاعِ على المحتوياتِ والحصولِ على قبولٍ للنّشرِ من الجهاتِ الرسميّةِ المعنيّةِ. أخيراً ودونَ الحصولِ على وعدٍ خطيٍّ رسميٍّ، لكنْ

شفويٍّ، أرسلتُ إلى دارِ "سميروفُ للنّشرِ" مبلغاً من المالِ كما طلبَهُ صاحبُ أو مالكُ أو مديرُ، أو الجميعُ معاً!، دارِ النشرِ. نظريّاً أصبحتْ الكرةُ في ملعبِ بل في شباكِ مرمى النّاشرِ إذ لم يبقَ أمامَ النّاشرِ إلا إصدارُ الكتابِ. عمليّاً وواقعَ حالٍ أصبحتُ في حكمِ المستجدي لدارِ "سميروفُ للنّشرِ" للحصولِ على الإصدارِ بشكلٍ وإخراجٍ مناسبيْنِ، في وقتٍ يحتاجُ إليهِ الكاتبُ للدّخولِ إلى سوقِ الكتابِ بالسّرعةِ الممكنةِ.

معَ دارِ "سميروفُ للنّشرِ" التّواصلُ بالطّرقِ العاديّةِ عبرَ البريدِ الإلكترونيِّ والتخاطبِ الهاتفيِّ أصبحَ في حكمِ الغائبِ، بشكلٍ مطلقٍ تقريباً. بدلاً عن البحثِ المضني عن دارٍ للنّشرِ حلّتْ هنا مشكلةٌ إضافيّةٌ تتمثّلُ في دفعِ مبلغٍ من المالِ دونَ حصولِ تعاقدٍ رسميٍّ ولو كانَ شكليّاً ارتجاليّاً من النّوعِ البلديِّ! المحليِّ. حتّى أنَّ طرفاً ثالثاً يشهدُ بصدقِ كلامِيَ في الموضوعِ إذا ما تطلّبَ الأمرُ! لم يكنْ موجوداً. يزيدُ الأمرُ شؤماً هو التّعاملُ مع دارِ نشرٍ خارجَ الحدودِ الإقليميّةِ وذلكَ ما يستثني أمرَ اللجوءِ للقضاءِ والقانونِ المحليّيْنِ في حالِ امتدّتْ الأزمةُ لتصلَ إلى حدِّ النّكثِ بالمواعيدِ وعددِ النُّسخِ في الإصدارِ والحصصِ فيها وحتّى ما يسمّى بحقوقِ الملكيّةِ الفكريّةِ!. لذلكَ فإنَّ ضربَ الأخماسِ بالأسداسِ باتَ سيّدَ الموقفِ. كلُّ الأسئلةِ المحيّرةِ باتت تطرقُ بابَ بالِيَ على مدارِ السّاعةِ، خاصّةً وقتَ الحاجةِ إلى الاسترخاءِ والنّومِ. وصلَ الأمرُ إلى درجةٍ قلتُ فيها لنفسِيَ "يا ولداً ويا زلمةً! هل أنتَ تريدُ أنْ تقيمَ الدّينَ في جزيرةِ مالطا في أربعٍ وعشرينَ ساعةً؟!". "ثمَّ ماذا لو ضاعت الرّسومُ ولم يُنشرْ أيُّ شيءٍ لكَ؟!، عليكَ أنْ تحافظَ على صحّتِكَ ونفسِكَ وضغطِ دمِكَ وعلاقاتِكَ مع نفسِكَ وغيرِكَ"، أضفتُ لنفسِيَ هامساً أحياناً وصائحاً أحياناً أخرى. "الفصلُ أو الشّهرُ الذي ليسَ لكَ منهُ فائدةٌ إيّاكَ أنْ تعدَّ أيّامَهُ"، استطردتُ أحياناً لنفسِيَ قائلاً كما يقولُ المثلُ الشعبيُّ البائسُ. ثمَّ إنَّ حياةَ الآخرينَ لا تتخصّصُ في حلِّ مشاكلِكَ وأمِّكَ والحراذينِ. لستَ في بلدٍ أوروبيٍّ فيهِ الخطواتُ تقاسُ بالميليمترِ في المسافةِ والثانيةِ في الزّمنِ والجرامِ في الكتلةِ والكلمةِ في الذّوقِ والحياءِ والإيماءةِ في الإتيكيتِ؛ عليكَ أنْ تتخلّصَ من مرضِ انفصامِ الشخصيّةِ الذي يحلُّ بكَ لا محالةَ. كلُّ هذهِ الأقوالِ والاعتباراتِ تطرقُ بالِيَ لتهوينِ الخَطْبِ عليَّ.

بعدَ حواليْ الشهرِ من إرسالِ الرّسومِ أجريتُ اتصالاً هاتفيّاً مع دارِ "سميروفُ للنّشرِ" وتلقّيتُ جواباً يقولُ أنَّ الأمورَ تجري على خيرِ ما يُرامُ. لا داعِيَ للقلقِ؛ أردفَ المصدرُ قائلاً. وزيادةً في الطّمأنةِ سألَ المصدرُ في دارِ "سميروفُ للنّشرِ" عن أيِّ اقتراحٍ يجولُ بخاطرِيَ لإضافتهِ إلى الشكلِ والإخراجِ النهائيّيْنِ للكتابِ!؟. لا يوجدُ بينَ يديَّ أيُّ شيءٍ من المخطوطةِ أو الكتابِ ما يجعلُ من أيِّ اقتراحٍ من لدنِّيَ أمراً ممكناً عمليّاً. كلُّ ما

أقترحُ أو أقدرُ على اقتراحهِ هو القولُ الشعبيُّ البائسُ المأثورُ "سيروا ونحنُ من ورائِكم" أو "ديروا بالكم على حالكم". ها قد مرَّ الشهرُ الثالثُ تقريباً على إرسالِ المخطوطةِ بالبريدِ الإلكترونيِّ ولم يصلنِ على بريدِيَ الإلكترونيِّ أو العاديِّ ما يشيرُ فعليّاً أو حقيقةً إلى حدوثِ عمليّةِ طباعةٍ أو نشرٍ أو إصدارٍ لشيءٍ اسمُهُ "كتابٌ مخطوطٌ بينَ غلافيْنِ!". بعدَ مرورِ الشّهرِ الرّابعِ ولم أتلقَّ شيئاً بدأتُ أشعرُ أنّني أخضعُ لعمليّةِ ضحكٍ على اللحى والذّقونِ ويجبُ أنْ أحضّرَ نفسِيَ وذقنِيَ لمرحلةِ ما بعدَ تأكيدِ ذلكَ بشكلٍ نهائيٍّ.

لدى زيارتِيَ لمعرضٍ دوليٍّ للكتابِ مررتُ بطريقةٍ عابرةٍ لم أحسبْ أيَّ حسابٍ لوجودِ إصدارٍ لِيَ فيها. فوجئتُ بأنَّ دارَ "سميروفُ للنّشرِ" قد أصدرتْ الكتابَ "أيّامُ العيشِ مع الحرادّينِ"، وها هو معروضٌ في جناحِ الدّارِ في المعرضِ الدّوليِّ للكتابِ. سألتُ مندوبَ المبيعاتِ عن السّببِ في عدمِ إخبارِيَ بالأمرِ من قبلُ؟!. أضفتُ للمندوبِ أنّني لم أخبرْ أحداً من أصدقائِيَ وأصحابِيَ المفترَضينَ ومعارفِيَ، وأصحابِ وأصدقاءِ ومعارفِ هؤلاءِ، بالأمرِ لعدمِ وجودِ يقينٍ لديَّ بأمرِ النّشرِ. "يا زلمة! ذلكَ ما يحرمُ الكتابَ من مبيعاتٍ شبهِ مؤكّدةٍ وسوقٍ للمستقبلِ"، أضفتُ لهُ لائماً وبعضَ الشّيءِ متحسّراً. كيفَ لِيَ في اللحظةِ الأخيرةِ أنْ أخبرَ أحداً بالموضوعِ!؟، لقد ضاعَ عليَّ الموسمُ أو هكذا فكّرتُ. أجابَ المندوبُ أنَّ الناشرَ كانَ يريدُ أنْ يُحدِثَ مفاجأةً سارّةً لِيَ، من شأنِها أنْ تقلبَ الأمورَ والحساباتِ في دماغِيَ رأساً على عقبٍ!. طريقةٌ مزيجٌ بينَ أعمالِ الجنِّ والشياطينِ والملائكةِ والمقالبِ المضحكةِ المبكيةِ والمحرجةِ والمفرحةِ للذّوقِ العامِّ!، ومآربَ أخرى.

تأمّلتُ الكتابَ وشكلَهُ وإخراجَهُ وتبيّنَ لِيَ أنَّ أقلَّ من ثلثِ الرّسومِ المدفوعةِ تقريباً قد ذهبتْ لتصرَفَ على كميّةٍ ونوعيّةِ كلٍّ من الورقِ والطباعةِ والإخراجِ. كنتُ قد تخيّلتُ على غلافِ الكتابِ رسماً فنيّاً (فانجوخيّاً نسبةً إلى الفنّانِ الهولنديِّ الكلاسيكيِّ Van Gogh) لامرأةٍ ريفيّةٍ جائعةٍ تعملُ في أرضٍ تجمعُ الأخيرةُ بينَ الجرداءِ والمزروعةِ؛ ينتصبُ حولَ المرأةِ في الجوارِ حرذونٌ أو مجموعةٌ من الحراذينِ، تواجهُ الأخيرةُ الشّمسَ على صخرةٍ أو صخورِ صوّانٍ صلبةٍ في المحيطِ. لكنَّ ذلكَ كانَ مجرّدَ خيالِ أهلِ الخيالِ الخصبِ في التخيّلِ وإجزالِ الأحاسيسِ المتدفّقةِ من العقلِ والدّماغِ. هذا إلى جانبِ عيوبٍ في اختيارِ نوعِ الخطِّ وحجمهِ والحبرِ المستعملِ في الطباعةِ. كذلكَ لم تحصلْ دارُ النّشرِ على رقمِ تسلسلٍ أو إيداعٍ دوليٍّ (ISBN) لمخطوطةِ "أيّامُ العيشِ مع الحراذينِ". بدا الكتابُ مثلَ "منشورٍ سريٍّ!" يوزَّعُ في الأزقّةِ خلفَ الشوارعِ الرئيسيّةِ في المدينةِ المزدحمةِ بالحياةِ والحركةِ. قلتُ في نفسِيَ "هكذا خدٌّ تناسبُهُ هكذا لطمةٌ أو لصقةٌ

بائسةٌ"، ولولا أنَّ مستوى الكتابةِ والأفكارِ من لدنِّيَ كانَ من التّعاسةِ والضحالةِ بمكانٍ لما رخُصتْ الأمورُ هكذا على ذقنِيَ. لكنّني كنتُ سعيداً جدّاً بإخراجِ أيِّ شيءٍ من إنتاجِيَ الفكريِّ إلى السّوقِ، مستأنساً بالقولِ المأثورِ "أوّلُ الغيثِ القَطْرُ". بالرّغمِ من المثالبِ والنواقصِ والانتقاداتِ الآنيّةِ واللاحقةِ من القرّاءِ للكتابِ إلا أنّني أشعرُ ببعضِ الانتصارِ على الذّاتِ والواقعِ المريرِ. الانتصارُ بإصدارِ أيِّ شيءٍ لِيَ باللغةِ العربيّةِ الفُصحى المجيدةِ، المشكَّلَةِ (بعلاماتِ الضمّةِ والفتحةِ والكسرةِ والشَّدَّةِ والسّكونِ والمدِّ والتنوينِ ...) المنقَّطَةِ جيّداً (بعلاماتِ النقطةِ والفاصلةِ وشبهِ الفاصلةِ والتعجّبِ والاستفهامِ ...) بأقصى اهتمامٍ ممكنٍ.

بدّوع للنشر

كانَ السيّدُ "أيهمُ الوجديُّ" هاجراً لجناحِ الكتبِ التابعِ لدارِ النشرِ التي يديرُها في المعرضِ الدوليِّ للكتابِ المُقامِ في نوفمبرِ تشرينِ أوّلِ عامَ ٢٠٠٧. يحاولُ السيّدُ "الوجديُّ" التشدّقَ بأيِّ شيءٍ خارجَ نطاقِ بيعِ الكتبِ المعروضةِ بسببِ قلّةِ أو حتى انعدامِ عددِ الزائرينَ من النّوعِ المشتري لذلكَ الجناحِ شديدِ التواضعِ في الحجمِ وعددِ الكتبِ المعروضةِ. حتّى نوعيّةُ الكتبِ المعروضةِ في ذلكَ الجناحِ كانت لشعراءَ وكتّابٍ من النوعِ الذينَ يكثرونَ التعاطي بمادّةٍ تُحدِثُ ما يمكنُ أنْ يطلَقَ عليهِ "إسهالٌ فكريٌّ" لدى القارئِ والمستمعِ، عدا عن الناطقِ الأصليِّ بها نفسهِ. أشعارٌ وأفكارٌ مستهلكَةٌ مبتذَلةٌ تحاولُ حرقَ كلِّ ما تتناولُهُ بالتجريحِ والشتمِ واللعنِ والقدْحِ والإكثارِ من التهويلِ المؤدّي إلى استفحالِ "عقدةِ الاضطهادِ" الجماهيريّةِ الجماعيّةِ الحاشدةِ. السيّدُ "الوجديُّ" الحائزُ على شهادةٍ جامعيّةٍ متقدّمةٍ يظلُّ في رواحهِ ومجيئهِ العبثيِّ يلهو بترديدهِ تلكَ الأشعارَ التي تهاجمُ الأسلافَ والرعيلَ الأوّلَ بكلماتٍ لا يحلو ترديدُها لمنْ أرادَ أنْ يتمتّعَ بالحدِّ الأدنى المتدنّي من السلوكِ الرضيِّ اللطيفِ. وكما تقولُ الحكمةُ والأمثالُ بأنَّ "الفقرَ كافرٌ"؛ بذلكَ باتَ السيّدُ "الوجديُّ" من أكثرِ الملائمينَ لتطبيقِ مثلِ هكذا قولٍ على نفسهِ ومشاعرهِ وتصوّراتهِ.

وبما أنّني شخصيّاً من الحسّاسينَ لقضايا الفقرِ وتوزيعِ الثروةِ البائسِ، سرعانَ ما جلَبَ السيّدُ "الوجديُّ" انتباهيَ. قلتُ في نفسِيَ أنَّ "السيّدَ الوجديَّ من أكثرِ النّاسِ شدّاً للانتباهِ إلى حالهِ". أضفتُ هامساً لنفسِيَ "فلنتناولْ وإيّاهُ كوباً من الشايِ أوَ القهوةِ في المطعمِ

الصغيرِ في الجوارِ ولنتناقشْ بِشأنِ أيّةِ أمور". ظلَّ السيّدُ "الوجديُّ" يقدحُ كالمنشارِ بالشخوصِ والشخصيّاتِ خاصّةً العريقةِ منهاً أثناءَ احتسائهِ لمزيدٍ من القهوةِ. استمرَّ ذلكَ بعدَما أكّدتُ لهُ ومن في المعيّةِ أنَّ أيَّ شيءٍ يتناولونَهُ هو على حسابيَ المتواضعِ، ولا داعيَ للقلقِ بشأنِ دفعِ أيِّ شيءٍ. لم يتوقّفْ الأمرُ عندَ ذلكَ قلتُ للسيّدِ "الوجديِّ" أنّني مهتمٌّ بتلكَ الأشعارِ والأفكارِ الثوريّةِ العنيدةِ، لكنْ المتآكلةِ بالعفنِ والصّدأِ والمنطقِ التقليديِّ والحديثِ. في الوقتِ ذاتِهِ فإنَّ تلكَ الأشعارَ، من نوعِ الزندقةِ والتبجّحِ باللعبِ في الوقتِ الضّائعِ، تعطيني بعضَ العزاءِ والمواساةِ لدى التفكيرِ بالأمورِ المحيطةِ. وفعلاً وبعدَ تناولِ القهوةِ والشاي وبعضِ الطعامِ زرتُ جناحَ دار "بدّوعُ للنشرِ" لأرى أنَّ الوضعَ لا يبشّرُ بخيرٍ، وعلى الإطلاقِ. فوقَ ذلكَ تبيّنَ لِيَ أنَّ السيّدَ "الوجديَّ" هو من أحقِّ الناسِ باهتمامِيَ أنا كشخصٍ قادرٍ على مدِّ يدِ العونِ، ولو بشقِّ تمرةٍ من ميسورٍ لشخصٍ يتضوّرُ جوعاً ويحاولُ النّجاةَ من مهلكةٍ بأيّةِ وسيلةٍ ممكنةٍ.

ظنَّ السيّدُ "الوجديُّ" أنَّ هنالكَ بعضَ الأملِ بعونٍ ماديٍّ منّيَ لإنقاذهِ من الحالةِ البائسةِ اليائسةِ التي وقعَ فيها. قلتُ في نفسِيَ "وليكنْ ذلكَ"، فالهدفُ هو رفعُ المعنويّاتِ لديهِ لدرجةٍ تجعلُهُ يقفُ على قدميهِ أو يطيرُ قليلاً بعدَ اكتساءِ "جناحيهِ" ببعضِ الريشِ. سألتُهُ إنْ كانَ يحتاجُ لبعضِ العونِ الماديِّ السريعِ حينَ أجابَ بِـ"لا" المنقوعةِ عميقاً وبشكلٍ مثيرٍ للانتباهِ بِـ"نَعَم". لم يكنْ لديَّ في الجيبِ ما يكفي لإعطاءِ شيءٍ وتُركَتْ الأمورُ تجري على حالِها. اشتريتُ كتباً إضافيّةً منهُ من النّوعِ الذي لا يمكنُ أنْ ينفعني بشيءٍ في حياتِيَ الأكاديميّةِ والعمليّةِ، وعلى الإطلاقِ؛ أنا من النوعِ المعجَبِ بل المحبِّ بقوّةٍ للحمارِ الذي لا يمانعُ أنْ يحملَ أسفاراً قد لا يعي على الإطلاقِ ماذا يجري فيها. الشّعرُ الثوريُّ أقامَ الدنيا ولَمّا يقعدْها في خيالِ الشّبابِ لكنّهُ لم يستطعْ انتشالَ جائعٍ أو فقيرٍ من حالةِ الفقرِ المدقعِ التي أدمنَ الأخيرُ الوقوعَ فيها. لم يستطعْ الشعرُ الثوريُّ إنقاذَ أهلِ قضيّةٍ من براثنِ الضّياعِ السياسيِّ والاجتماعيِّ والاقتصاديِّ والأكاديميِّ المستعرِ على رؤوسِ هؤلاءِ منذُ البدايةِ، ولم يزلْ كذلكَ. السّببُ واضحٌ وسهلُ الاستيعابِ ويكمنُ في أنَّ الشّاعرَ يضعُ كلَّ جهدهِ كيْ يُمتّعَ القارئَ أو المستمعَ لشِعرهِ باختيارِ الوزنِ والقافيةِ دونَ الولوجِ الموضوعيِّ في القضيّةِ تحتَ المجهرِ. لم أودّعْ السيّدَ "الوجديَّ" حينَ انتهت فعاليّاتُ معرضِ الكتابِ وذلكَ ربّما ما حملَهُ على الظنِّ أنّني هربتُ من ذلكَ لتجنّبِ تقديمِ مساعدةٍ شديدةِ الإلحاحِ. زادَ من حدّةِ وقْعِ ذلكَ الاحتمالِ على السيّدِ "الوجديِّ" حينَ أخبرتُهُ بأنّني أبحثُ بشغفٍ عن ناشرٍ أمينٍ، يصبحُ صديقاً لِيَ عن كثبٍ بحيثُ أبعثُ إليهِ ما أتوصّلُ إليهِ من مادّةٍ فكريّةٍ حالَ إنجازِ الأخيرةِ. لكنّني كنتُ قد أعطيتُ الأربعةَ أعمالٍ هي

كلُّ ما لديَّ في حينهِ، وأنتظرُ ردّاً لكلٍّ منها؛ قسمٌ من الوعودِ يحملُ كلاماً شفويّاً أقربَ إلى الآمالِ والأوهامِ "الخنفشاريّةِ" منها إلى وعودٍ أكيدةٍ شريفةٍ صادقةٍ نبيلةٍ.

لكنَّ السيّدَ "الوجديَّ" احتلَّ زاويةً من باليَ وتفكيريَ وضميريَ وقلتُ في نفسِيَ أنّهُ إذا ما أُتيحتْ لِيَ الفرصةُ لن أتردّدَ في النشرِ لدى دارِ "بدّوعٌ للنَّشرِ" التي يديرُها أو يشرفُ عليها. أنا من النوعِ الذي لا يبالي بجمعِ المادّةِ على الإطلاقِ وأعتبرُ المالَ وسخاً ماديّاً ومعنويّاً وحضاريّاً من مُفرَزاتِ عقولِ الكُسالى بدنيّاً وعقليّاً، عدا عن كونهِ إستراتيجيّاً يؤدّي إلى الهاويةِ. في المعرضِ الدوليِّ للكتابِ المنعقدِ في أبريلَ نيسانِ عامَ ٢٠٠٨ (أيْ بعدَ حواليْ خمسةِ أشهرٍ من اللقاءِ الأوّلِ بالسيّدِ الوجديِّ) كنتُ أزورُ المعرضَ متوقّعاً بعضَ الإصداراتِ لِيَ منْ دورِ نشرٍ، ولديَّ بعضُ الكتبِ الجديدةِ التي أبحثُ عنْ دورِ نشرٍ للتعاملِ معها. فعلاً خطَرَ ببالِيَ إعطاءُ السيّدِ "الوجديِّ" روايةً بعنوانِ "الجُرذُ" التي لمْ تلقَ الكثيرَ من الاهتمامِ بسببِ اسمِها الذي يثيرُ في نفوسِ القارئينَ العربِ بعضَ الحساسيّةِ الممزوجةِ بالنّفورِ نفسيّاً وصحيّاً وروحيّاً. تقعُ الروايةُ في حوالي ٢٧٠ صفحةً (إيهُ٤ A4) وتتناولُ العيشَ في حيٍّ بشريٍّ آوتْ إليهِ عائلةٌ من الجُرذانِ التي تمشي على أربعٍ ولها ذيولٌ وتتمتّعُ بميّزاتٍ عصريّةٍ!، في تناولِ الطعامِ والاستمتاعِ بالحياةِ. على لسانِ الجُرذانِ الحقيقيّةِ طُرِحت عشراتُ القضايا والتي منها استنتجَ الجرذُ البطلُ في الروايةِ "تصوتصو" أنَّ الإنسانَ صُنِعَ بطريقةٍ ذكيّةٍ! في الخَلقِ والتطوّرِ لم تحظَ بقيّةُ الكائناتِ الحيّةِ بها. توصّلتُ إلى تلكَ النتيجةِ رغمَ قلّةِ حماسِيَ للأديانِ والنظَريّةِ الدينيّةِ بشأنِ قضيّةِ خلقِ وتطوّرِ الإنسانِ والكائناتِ الحيّةِ الأخرى. الفكرةُ تَطرحُ بشكلٍ مبسّطٍ وظاهريٍّ، لكنْ نافذٍ، التفكيرَ بشئونِ الخَلقِ والخالقِ ما يجعلُ القضايا المطروحةَ تشدُّ انتباهَ المتديّنينَ وأشباهِهم والملحدينَ وأنصافِ الأوّلينَ والأوسطينَ والأخيرينَ!.

"تفضّلْ يا سيّدَ الوجديَّ" هذهِ روايتِيَ فاقرأها، وارفضْها إنْ شئتَ أو فاقبلْها إذا ما شئتَ كذلكَ. حملَ السيّدُ "الوجديُّ" الروايةَ أو المخطوطةَ ووعدَ أنّهُ سيدرسُها ويحيطُها بعنايةٍ خاصّةٍ تكريماً للصّداقةِ التي باتت تجمعُنا. أنا من النّوعِ الذي يقدّسُ الصداقةَ الحقيقيّةَ، إذا ما وُلِدتْ أو وُجِدَت. من بينِ أكثرَ من ستّةِ ملياراتٍ من البشرِ على كوكبِ الأرضِ أواجهُ صعوبةً حقيقيّةً في التعرّفِ على ثلّةٍ أو زمرةٍ منهم!، بغضِّ النّظرِ عن الفكرِ والدينِ والمذهبِ والعرقِ ومكانِ الولادةِ. مع انتشارِ الفكرِ الرأسماليِّ وسيطرةِ نظريّةِ السّوقِ الحرِّ فلنقرأْ الفاتحةَ على روحِ الصّداقةِ الصّادقةِ النّظيفةِ الصّرفةِ. توقّعتُ البدءَ بدراسةِ إمكانيّةِ نشرِ المخطوطةِ بسرعةٍ قياسيّةٍ والحصولَ على ردٍّ في أقلَّ من شهرٍ واحدٍ، وبكثيرٍ. لكنَّ شئونَ المطبوعاتِ وضرورةَ الحصولِ على إذنٍ بالنّشرِ ما يعيقُ

عمليّةَ النّشرِ إنْ لم يلغِها أو يطالبْ بتغييرِها بشكلٍ جذريٍّ. لا يعي هؤلاءِ القائمونَ على شئونِ المطبوعاتِ أنَّ المادّةَ الفكريّةَ مثلُها مثلُ المادّةِ الغذائيّةِ قابلةٌ للتّلفِ والتعفّنِ والتآكلِ، وأنْ تشيخَ وتهرمَ وتصبحَ غيرَ ذاتِ معنىً عاجلاً أمْ آجلاً. لكنْ لا حيلةً في اليدِ فهنالكَ الأمورُ الرسميّةُ وهنالكَ ما يختصُّ بدورِ النشرِ ذاتِها. كلُّ ذلكَ يضيفُ عبئاً نفسيّاً ومعنويّاً مزهقاً لأنفاسِ وأرواحِ الكتّابِ والنّاشرينَ الذينَ جميعاً ينتظرونَ بفارغِ الصبرِ عرضَ شيءٍ لهم في السّوقِ الحرِّ شديدِ حمّى التنافسِ على كلِّ شيءٍ تقريباً.

بعدَ حواليْ الشهرِ تقريباً وبعدَ مكالمةٍ هاتفيّةٍ محاولاً التحادثَ مع السيّدِ "الوجديِّ" جاءتني عن طريقِ البريدِ الإلكترونيِّ رسالةٌ تقولُ أنَّ تكاليفَ أو مصاريفَ طباعةِ الروايةِ يفوقُ الألفَ وخمسمائةِ دولاراً أمريكيّاً يمكنُ إرسالُها على دفعتيْنِ. الأولى الآنَ، في حينهِ، والثانيةُ بعدَ صدورِ العددِ الأوّلِ أيْ بعدَ نزولِ الإصدارِ الأوّلِ إلى السّوقِ. فعلاً وعلى الفورِ قمتُ بإرسالِ نصفِ المبلغِ وكنتُ أودُّ إرسالَ كلِّ المبلغِ طالما مشت الأمورُ على ما يُرامُ. بعدَ تجربةٍ مريرةٍ قاسيةٍ على القلبِ والدماغِ والكبدِ والكلى من دورِ نشرٍ أخرى ها هو السيّدُ "الوجديُّ"، ومن حالةٍ شديدةِ البؤسِ واليأسِ، يقودُ ثورةً في عالَمٍ لاَ يحترمُ قيمةَ وقتِ الإنسانِ وجهودهِ وحالتهِ النفسيّةِ والمعنويّةِ والصحيّةِ والذوقيّةِ. أرسلْتُ بريداً إلكترونيّاً عبّرتُ فيهِ عن عميقِ سعادتِيَ بشخصٍ يحترمُ المواعيدَ وكلماتِ لسانهِ. أضفتُ لهُ في الرسالةِ رجاءاً بأنْ لا يتردّدَ في طلبِ ما يلزمُ لإخراجِ روايةِ "الجُرذُ" إلى حيّزِ الوجودِ والنجاحِ المحتملِ. للجُرذِ في ضميريَ مكانةٌ خاصّةٌ بعدَ أنْ أخبرني أحدُ الأصدقاءِ أنّهُ إبّانَ مكوثهِ في زنزانةِ سجنٍ لهُ لم يجدْ من يواسيهِ في وحدتهِ الموحشةِ غيرَ جُرذٍ قاسمَهُ طعامَهُ على الدّوامِ وبشكلٍ غايةٍ في الودّيّةِ!. في ردّهِ في الأسبوعِ التالي وعدَ السيّدُ "الوجديُّ" بأنّهُ سيرسلُ لِيَ صورةً إلكترونيّةً عن الغلافِ وبقيّةِ جسمِ الروايةِ، والذي سيعجبُني كثيراً؛ أضافَ في رسالتهِ الإلكترونيّةِ القصيرةِ. الرسائلُ الإلكترونيّةُ القصيرةُ تعبّرُ حقيقةً عن واقعٍ مريرٍ لدورِ النّشرِ خاصّةً إذا ما كانتْ تلكَ الرّسائلُ تنضحُ بأخطاءَ إملاءٍ لغويّةٍ وقواعدَ لغةٍ وتنقيطٍ، عدا عن تشكيلِ الحروفِ غيرِ الموجودِ بتاتاً كما لو كانت الكتابةُ هيروغليفيّةً أو لاتينيّةً أو صينيّةً أو يابانيّةً أو كوريّةً ...

ليطمئنَّ قلبِيَ انتظرتُ وصولَ أيِّ شيءٍ يمتُّ للغلافِ أو طريقةِ إخراجِ الروايةِ أو أيِّ تعليقٍ بشأنِها. من أسبوعٍ لآخرَ واصلتُ إرسالَ الرسائلِ بالبريدِ الإلكترونيِّ مقدّماً دعمِيَ المعنويَّ لشخصٍ ناشرٍ اعتقدتُ أنّهُ في حالةِ فقرٍ أو عوزٍ ماحقٍ في سوقِ إنتاجِ وبيعِ الكتابِ العربيِّ. بعدَ حواليْ الشهرِ من حينهِ بعثَ لِيَ السّيّدُ "الوجديُّ" رسالةً بالبريدِ

الإلكترونيِّ وأخرى عبرَ خدمةِ الرسائلِ القصيرةِ (خ.ر.ق.) تقولانِ أنَّ الكتابَ قد تمّتْ طباعتُهُ وأنّهُ قيدَ التوزيعِ أو الطّرحِ في الأسواقِ. يعني ذلكَ فقط أنّهُ آنَ الأوانُ لدفعِ ما تبقّى من المبلغِ المستحقِّ على الطّباعةِ الذي يغطّي كلَّ شيءٍ، حيثُ لا تريدُ دارُ النّشرِ (أو تقدرُ على!) المشاركةَ ولو بجزءٍ رمزيٍّ من التّكاليفِ. قلتُ في نفسِيَ "وليكنْ ذلكَ وما الجودُ عندِيَ إلا من الموجودِ"، كما يقولُ المثلُ الشعبيُّ القديمُ المأثورُ. أضافَ السيّدُ "الوجديُّ" أنّهُ سيرسلُ لِيَ نسخةً ورقيّةً بالبريدِ العاديِّ ستصلني في غضونِ أسبوعٍ أو عشرةِ أيّامٍ، على أكثرِ الأحوالِ شؤماً في خدماتِ البريدِ بينَ دولِ العالَمِ العربيِّ.

انتظرتُ بفارغِ الصبرِ لأرى كتاباً يُظهِرُ على غلافِهِ جُرذاً يشيرُ الأخيرُ إلى السّماءِ، أو ما شابهَ ذلكَ، إذا ما تمكّنَ السيّدُ "الوجديُّ" من قراءةِ المخطوطةِ وفهمَ محتواها جيّداً، أو لدرجةٍ ما!. من جهتِيَ حاولتُ أنْ أشرحَ للسيّدِ "الوجديِّ" ذلكَ من خلالِ البريدِ الإلكترونيِّ والمكالماتِ الهاتفيّةِ، لكنَّ ذلكَ كانَ من قبيلِ العبثِ. كيفَ يمكنُ لِيَ التدخّلُ في الأمورِ وكلُّ ما يصلني من السيّدِ "الوجديِّ" ليسَ أكثرَ منِ سطرٍ أو اثنيْنِ في بريدٍ إلكترونيٍّ لا يحتوي لا شرحاً ولا صورةً ولا غلافاً ولا مقدّمةً ولا مؤخّرةً ولا تعليقاً؟!. بعبارةٍ أخرى أكثرَ هزليّةً لكنْ واقعيّةً بدتْ رسائلُ السيّدِ "الوجديِّ" الإلكترونيّةِ وعبرَ خدمةِ الرسائلِ القصيرةِ مثلَ الشيفراتِ بينَ القادةِ الميدانيينَ في حروبِ العصاباتِ. مضى شهرٌ ويزيدُ على موعدِ "إرسالِ!" نسخةٍ من الكتابِ في البريدِ العاديِّ. لكنَّ عربةَ النقلِ لم تصلْ بعدُ، أو أنَّ إدارةَ أمنِ الحدودِ والمعابرِ والموانئِ الجويّةِ أعجبتْ بالجُرذِ في الروايةِ وتحاولُ الإبقاءَ عليها أطوَلَ مدّةٍ ممكنةٍ لديها!. هنالكَ احتمالٌ آخرُ! وهو أنَّ الجُرذَ في الروايةِ شعرَ بالجوعِ بسببِ طولِ الانتظارِ والتحسّبِ على الحدودِ بينَ الدولِ العربيّةِ وأقدمَ على قضمِ وهضمِ الروايةِ، ورقاً ومحتوياتٍ.

خلالَ فترةِ انتظارِ استلامِ المخطوطةِ المطبوعةِ أجريتُ عدّةَ مكالماتٍ وأرسلتُ عدّةَ رسائلَ بالبريدِ الإلكترونيِّ للاطمئنانِ على صحّةِ وسلامةِ المرسِلِ. هو بخيرٍ وبصحّةٍ جيّدةٍ ومشتاقٌ لِيَ ويتمنّى رؤيتِيَ في أقربِ فرصةٍ ممكنةٍ. حقيقةً! ذلكَ ما ميّزَ السيّدَ "الوجديَّ" عن غيرهِ من النّاشرينَ الذينَ لا يأبهونَ لفتحِ سمّاعةِ الهاتفِ الجوّالِ، للردِّ ولو بدردشةٍ، حالَ ظهورِ اسمِيَ أو رقمِيَ عليهِ. قسمٌ من النّاشرينَ لا يبالي بالاعتذارِ بزعمٍ من مثلِ أنَّ الهاتفَ المحمولَ لم يكنْ "محمولاً" في جيبهِ عندَما حصلَت محاولةُ الاتصالِ معهُ قبلَ أسبوعٍ من حينهِ!. تلكَ المنهجيّةُ من جانبِ النّاشرينَ جعلتني أشعرُ أنّني ثقيلُ الظلِّ وأكثرُ منبوذاً أمامَ نفسِيَ وغيرِيَ. في كلِّ مرّةٍ أجريتُ اتصالاً أو استقبلتُ آخرَ (الأخيرُ من النّدرةِ بمكانٍ تقتربُ من العدَمِ) اختلطَ عليَّ الأمرُ، هل أنا في مَقْلَبٍ على المغفلينَ أو ورطةٍ أو

في حقيقةٍ أو خيالٍ أو حلمٍ أو كابوسٍ!؟. عليَّ الانتظارُ ما أمكنَ لرؤيةِ حقيقةِ ما يجري، سلباً أو إيجاباً.

نحنُ الآنَ على بعدِ بضعةِ أيّامٍ من معرضٍ دوليٍّ جديدٍ للكتابِ، بالذّاتِ قبلَ ٤ أيّامٍ فقط من إقامتهِ. أنا موعودٌ بأنْ يكونَ لِيَ إصدارٌ فيهِ يضمُّ مخطوطةَ "الجُرذُ". لم يصلنِ أيُّ شيءٍ أو أيّةُ معلوماتٍ أكيدةٍ عن كتابِيَ، فلذةِ قلبِيَ وكبدِيَ ودماغِيَ وأعصابِيَ وكيانِيَ. أوصيتُ أحدَ الأصدقاءِ المقيمينَ في البلدِ المضيفِ بزيارةِ المعرضِ لرؤيةِ إصدارٍ بهذا المعنى لِيَ. عسى أنْ يحصلَ شيءٌ إيجابيٌّ أكيدٌ قبلَ الانتهاءِ من كتابةِ هذهِ المذكّراتِ لأضعَها في هذا النصِّ. لي أقاربُ ومعارفُ كثيرونَ في بلدِ المعرضِ الدوليِّ للكتابِ، لكنّني كنتُ على الدوامِ متردّداً في إبلاغِيَ لهم بالأمورِ بسببِ حالةِ نقصِ الدقّةِ في الوعودِ والمواعيدِ التي وقعتُ فيها مع دارِ "بدّوعٍ للنّشرِ". ذلكَ ما أضاعَ عليَّ بعضَ الشعبيّةِ المتوقّعةِ أو المأمولةِ لكتابٍ لِيَ لدى بعضِ الأصحابِ والأصدقاءِ. السّؤالُ الأهمُّ هو متى يصلُ العربُ إلى تقديرِ قيمةِ المواعيدِ والكلامِ الصّادقِ الحقيقيِّ الموثّقِ؟!. لكنْ وبصدقٍ فإنّني أباركُ للسيّدِ "الوجديِّ" ذكاءَهُ ونباهتَهُ وقدرتَهُ على اختراقِ الكثيرِ من المفاهيمِ العربيّةِ في سرعةِ النّشرِ في المكانِ والزّمانِ المناسبيْنِ، رغماً عن أوضاعٍ ماديّةٍ بالغةِ السّوءِ تشكّلُ كابوساً يؤرّقُ نومَ عتاةِ عشّاقِ النّومِ واللا-مبالينَ بكوارثِ الدّهرِ. الآنَ خرجتْ روايةٌ أو مخطوطةٌ لِيَ، "الجُرذُ" لكنْ تحتَ عنوانٍ آخرَ، إلى الوجودِ واحتفلتُ بها مع لفيفٍ من الأصدقاءِ والمقرّبينَ فكريّاً، على قلّةِ هؤلاءِ جميعاً. افتقرَ الاحتفالُ المتواضعُ في صالةِ الطّعامِ إلى قلبِ الاحتفالِ المتمثّلِ بنسخةٍ أو بضعِ نُسخٍ ورقيّةٍ مطبوعةٍ توضعُ على طاولةٍ منتصبةٍ ممتدّةٍ في المكانِ. لكنَّ الخيالَ الفكريَّ واسعٌ وقادرٌ على التعويضِ عن الواقعِ الماديِّ الملموسِ، وفي ذلكَ على الإنسانِ المؤمنِ أنْ يجزلَ في شكرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى على نعمةِ العقلِ التي تعينُهُ في تحقيقِ الكثيرِ من الأشياءِ، حقيقةً وخيالاً.

" كميلونُ للنّشرِ"

أثناءَ عبورِيَ في حياةِ المجتمعاتِ العصريّةِ منذُ نعومةِ أظفارِيَ وحتّى تقدّمَ بِيَ العمرُ وجدتُ تشابهاً وتماثلاً كبيريْنِ بين تصرّفاتِ البشرِ ونظيراتِها عندَ الكائناتِ الحيّةِ الأخرى. بالذّاتِ فالكائناتُ الأخرى قادرةٌ على تشكيلِ أنظمةٍ إداريّةٍ بشكلٍ فطريٍّ وتلقائيٍّ طبيعيٍّ في الحياةِ والعملِ تحاكي بل تنافسُ وتضاهي الأنظمةَ والأساليبَ المتّبعةَ لدى البشرِ. الأمثلةُ

على تلكَ الأنظمةِ كثيرةٌ وتبدأ بالمستوطناتِ المكوّنةِ من الأحياءِ المجهريّةِ (الميكروسكوبيّةِ) الدقيقةِ إلى الكائناتِ الأخرى مثلَ النملِ والنحلِ والصّملِ والدبابيرِ إلى جلّ الكائناتِ الأخرى الأكبرِ حجماً والأكثرِ تشابهاً مع التركيبةِ العضويّةِ (الفسيولوجيّةِ) البشريّةِ. من الممكنِ إنشاءُ أنظمةٍ "سياسيّةٍ إداريّةٍ" من الزواحفِ والقوارضِ والحيواناتِ والطيورِ؛ أكثرُ تخصيصاً هنالكَ الكلابُ المعروفةُ بقدرتِها العاليةِ نسبيّاً على تلبيةِ متطلّباتِ الدولةِ البشريّةِ الإداريّةِ السياسيّةِ الحديثةِ. المعروفُ عن الكلابِ مركزيّتُها في التصرّفِ فهي تميلُ إلى شدّةِ الولاءِ والوفاءِ لسادتِها ومولاتِها ومن تحبُّهُ ويحبُّها. في الدولةِ الحديثةِ وحتّى مع التقدّمِ المعتبَرِ في مجالاتِ العلومِ والتقنيةِ لا تزالُ الكلابُ المدرّبةُ جيّداً تلعبُ دوراً مميّزاً في شئونِ الدّفاعِ والأمنِ وقمعِ المعارضينَ ومثيري الشغبِ ومهاجمةِ وتخويفِ المتظاهرينَ، وفي الأنشطةِ الاجتماعيَّةِ والتسليةِ والرياضةِ والأمورِ الإنسانيّةِ المختلفةِ.

في المجتمعاتِ التي تشهدُ استقراراً نسبيّاً ملحوظاً وجدت الكلابُ "الوديعةُ الوفيّةُ" طريقَها للعيشِ جنباً إلى جنبٍ مع الإنسانِ. رافقت الكلابُ، بأحجامِها وأمزجتِها وأنشطتِها المختلفةِ، رافقت البشرَ في الشارعِ والمزرعةِ والبيتِ والحانوتِ والسيّارةِ والقطارِ والطيّارةِ والسفنِ البحريةِ والفضائيّةِ المأهولةِ. لم تستطعْ القططُ مضاهاةَ ذلكَ على الرغمِ من صغرِ حجمِها ووداعتِها وقربِها من الإنسانِ. عاشرَ الإنسانُ الكلبَ لفترةٍ طويلةٍ ونادراً ما كانت تحدثُ حالاتٌ من المللِ والضّجرِ بينَ الاثنيْنِ. في وجهٍ آخرَ اقتربَ الإنسانُ والكلبُ من درجةٍ عاليةٍ من التكاملِ والتلاقي وفي الكثيرِ من الحالاتِ وصلَ الإنسانُ إلى مستوىً قريبٍ من الكلبِ في النظرةِ العامّةِ إلى الحياةِ. هنالكَ ثلاثةُ أو أربعةُ أوجهٍ رئيسيّةٍ من الأنشطةِ وحّدتْ الكلابَ مع البشرِ العاديّينَ، الطّعامُ والرياضةُ والتسليةُ والجنسُ. في المجتمعاتِ المستقرّةِ اقتصاديّاً وفكريّاً! إلى حدٍّ كبيرٍ توافقت وتكاملتْ الكلابُ مع البشرِ في هذهِ الأنشطةِ بشكلٍ ملفتٍ للنظرِ. في المجتمعاتِ الغربيّةِ تكادُ لا توجدُ حجرةٌ أو سريرُ نومٍ يخلو من حياةٍ كلبيّةٍ بجانبهِ، بصورةٍ أو بأخرى تشملُ تلكَ الأنشطةُ الأمورَ الشخصيّةَ الفرديّةَ والجماعيّةَ والبيتيّةَ.

"اشيانوكراسيا" هو اسمٌ مركّبٌ من شقّيْنِ. "اشيانو" باللغةِ الفرنسيّةِ تخصُّ أو ترتبطُ بجنسِ الكلابِ و"كراسيا" باللغةِ اليونانيّةَ تعني "الحكمَ". إذنْ "اشيانوكراسيا" تعني حكمَ الكلابِ أو عندَما تحكمُ الكلابُ بعضَها وغيرَها أو ديمقراطيّةَ الكلابِ، إذا ما قورنت بأنظمةِ حكمِ البشرِ لبعضِها البعضِ. قليلاً "اشيانوكراسيا" عنوانٌ مثيرٌ للجدلِ ملفتٌ للانتباهِ خاصّةً في المجتمعاتِ التي لا تنظرُ إلى الكلابِ نظرةً عاليةَ المستوى. إذا ما تمَّ

عقدُ مقارنةٍ بينَ حكمِ الكلابِ والبشرِ تصبحُ الأمورُ أكثرَ شائكةً وقد يختلطُ الأمرُ على الكثيرينَ من البشرِ عندَ تفكيرِهم بالموضوعِ. إيجادُ دولةٍ للكلابِ بنظامِ حكمٍ يعتمدُ معاييرَ أقربَ لتوجّهاتِ الكلابِ أمرٌ ممكنٌ نظريّاً روائيّاً خياليّاً اعتماداً على أسسٍ واقعيّةٍ قريبةٍ مما يجري في الحياةِ. بعبارةٍ أخرى يمكنُ إيجادُ مُناخٍ لبروزِ كلبٍ رئيسٍ وآخرَ وزيرٍ وثمّةَ نائبٍ في البرلمانِ، كلبٌ كذلكَ يمشي على أربعٍ وبذيلٍ قصيرٍ أو طويلٍ. يمكنُ إدخالُ الكلابِ في الكثيرِ من أسسِ ومفاصلِ أنشطةِ الدولةِ خاصّةً ما تعلّقَ منها بالأمنِ والدفاعِ والأنشطةِ الأخرى في الدولةِ. أبعدَ من ذلكَ فإيجادُ جمهوريّةٍ كلبيّةٍ مطعّمةٍ بعناصرَ بشريّةٍ أمرٌ يدخلُ في حسابِ الإمكانيّاتِ الحقيقيّةِ الواقعيّةِ على حسابِ الخيالِ الروائيِّ. في النّظامِ السياسيِّ الكلبيِّ يخدمُ البشرُ نظامَ الكلابِ السياسيَّ بطريقةٍ تحافظُ على نكهةٍ ونبرةٍ خاصّةٍ في التوجّهاتِ والنّزعةِ والسياسةِ العامّةِ. في النهايةِ فإنَّ روايةً من مثلِ "اشيانوكراسيا" قادرةٌ على أخذِ جزءٍ من التفكيرِ البشريِّ للولوجِ فيها إمّا للمتعةِ أو إمكانيّةِ المقارنةِ الإيجابيّةِ والسلبيّةِ.

تقعُ روايةُ "اشيانوكراسيا" في أكثرَ من ٢٠٠ صفحةً أيْ أكثرَ من ٨٠ ألفَ كلمةً لغويّةً عربيّةً. بدأتْ الروايةُ بمجموعةٍ لا بأسَ بعددِها من الكلابِ الضائعةِ "المتمرّدةِ" وانتهت بتشكيلِ دولةٍ عصريّةٍ حديثةٍ فيها الكلابُ تشكّلُ أكثرَ من ٨٠% من مكوّناتِ الدولةِ وأقلَّ من ٢٠% من البشرِ. هنالكَ أقليّاتٌ أخرى من القططِ والجُرذانِ والقرَدةِ و"الأقرابشيّينَ" (جنسٌ وسطٌ بينَ القرَدَةِ والبشرِ) التي شاركتْ في تكوينِ هيكلةِ الدّولةِ الكلبيّةِ وأنشطتِها الإداريّةِ والتنظيميّةِ. ازدهرتْ دولةُ الكلابِ إلى درجةٍ كبيرةٍ خاصّةً مع دخولِ التنظيمِ الإداريِّ البشريِّ إلى أركانِها وأنشطتِها ومفاصلِها. لكنَّ الفسادَ الماليَّ والإداريَّ والأخلاقيَّ البشريَّ حوّلَ الدولةَ إلى جحيمٍ نفسيٍّ وماديٍّ ومعنويٍّ من عدمِ الاستقرارِ والطمأنينةِ والأمنِ والأمانِ. في النهايةِ قرّرَ الكاتبُ، أنا الدّكتورُ موسىً، إنهاءَ الحكمِ فيها عن طريقِ إنهاءِ وجودِها بزلزالٍ بحريٍّ تركّزَ في الجزيرةِ التي نشأت عليها جمهوريّةُ الكلابِ الضائعةِ، في البدايةِ، و"اشيانوكراسيا" في النهايةِ. تبدو معظمُ مشاهدِ الروايةِ حقيقيّةً أكثرَ من كونِها خياليّةً روائيّةً.

بعدَ أنْ أنجزتُ القسمَ الأكبرَ من الروايةِ طفقتُ أحاولُ إيجادَ دارٍ مناسبةٍ للنشرِ. كيفَ الوصولُ إلى مندوبٍ لدارٍ للنّشرِ عربيّةٍ يتمُّ الحديثُ معهُ عن دولةٍ تحكمُها الكلابُ وفي الجوِّ كلمةُ كلبٍ تعني التحقيرَ والتسفيهَ والشّتمَ والإهانةَ لأيِّ بشرٍ عاديٍّ؛ هذا عدا عن كونِ الأخيرِ مسئولاً إداريّاً أو أمنيّاً كبيراً مرموقاً عندَ أهلهِ وأنصارهِ وشعبهِ. الوضعُ يحتاجُ إلى بعضِ الحرصِ والحذرِ. المكانُ "معرضٌ للكتابِ دوليٌّ" والزمانُ منتصفُ شهرِ

كانونِ الأوّلِ ديسمبرِ عامَ ٢٠٠٧. أمامَ أحدِ الأجنحةِ يجلسُ شخصٌ طويلُ القامةِ مربوعُ الوجهِ أشيبُ اللحيةِ القصيرةِ وفي جناحِ دارهِ للنّشرِ في المعرضِ تشكيلةٌ من الكتبِ ذواتِ العناوينِ التي تطلُّ بشغفٍ على فكرِ وأعينِ القرّاءِ من الزوّارِ. من تلكَ العناوينِ "داعرةُ الممالكِ" و"طعامٌ صائغٌ لأسماكِ القرشِ" و"رحيلٌ بلا عودةٍ" و"ملكٌ يعطسُ وأمّةٌ تُصابُ بالزّكام" .... إلخُ إلخُ إلخُ. قلتُ في نفسِيَ "يا ولداً! إنَّ هذهِ العناوينَ تجعلُ من قبولِ اشيانوكراسيا للطباعةِ والنّشرِ أمراً سهلاً". اتجهتُ إلى ذلكَ الشخصِ وألقيتُ عليهِ سلاماً فيهِ بعضُ الحرارةِ القابلةِ للزّيادةِ. تصافحنا بحرارةٍ يشوبُها بعضُ الحذرِ بشكلٍ قد يكونُ الموقفُ قريباً من وصفهِ بِـ"ها قد عرفت اللحى بعضَها"، حسبَ التعبيرِ العاميِّ الشائعِ في بلادِ الشّامِ وما بينَ النّهريْنِ.

اشتكى الدكتورُ "سؤدُدُ الوَعْيان" من قلّةِ الزوّارِ المشترينَ ومن العبثيّةِ الناجمةِ عن التعاملِ مع سوقِ الكتابِ في المعرضِ الدوليِّ. قلتُ لهُ لا عليكَ يا هذا يحتاجُ الأمرُ إلى قليلٍ من الدعايةِ والتسويقِ النّشطِ؛ هذا هو الأسلوبُ العصريُّ، أضفتُ لهُ. قدّمَ الدكتورُ "سؤدُدُ" بعضاً من المعروضِ وبالفعلِ بدأتُ بتناولِ أعدادٍ من الرواياتِ ذواتِ العناوينِ الكبيرةِ ومنها ما ينضحُ دعواتٍ لإطلاقِ العنانِ لأفكارِ الشّذوذِ عن القواعدِ التقليديّةِ، والكثيرُ من الكتبِ المعروضةِ مترجَمٌ عن لغاتٍ وثقافاتٍ أخرى. حصولُ بعضِ الكتّابِ العربِ على جوائزَ عالميّةٍ، هادفةٍ! ربّما، في مجالِ كتابةِ الرّوايةِ حفّزَ الكثيرينَ من الكتّابِ والفنّانينَ الآخرينَ لتوخّي الاندفاعِ الأهوجِ بشأنِ التعرّضِ للمعتقداتِ والرّموزِ التاريخيّةِ والمقدّسةِ بهدفِ الوصولِ إلى شهرةٍ وجوائزَ عالميّةٍ مشابهةٍ. ظنَّ هؤلاءِ الوصوليّونَ بامتيازٍ أنَّ الطّريقَ الأقصرَ للوصولِ إلى العالميّةِ باتَ سالكاً عن طريقِ الطّعنِ بأحدِ أو مجموعةٍ من الرموزِ الدينيّةِ القويّةِ الرّاسخةِ في الفكرِ العربيِّ الإسلاميِّ أو أحدِ الأمكنةِ التي تهوي إليها أفئدةُ المؤمنينَ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ. في ذلكَ ذهبَ هؤلاءِ الكتّابُ ضحيّةَ حدْسِهم الخاطئِ والثّقةِ العمياءِ بنوايا مانحي الجوائزِ العالميّةِ. ذلكَ ما جعلَ هؤلاءِ الكتّابَ يخسرونَ مياهَ وجوهِهم وشعبيّاتِهم والجوائزَ التي طالما حلموا في الوصولِ إليها؛ الأخيرةُ إلا للترضيةِ ربّما.

سألتُ الدّكتورَ "الوعيانَ" عن إمكانيّةِ النشرِ في دارِ "كميلونُ للنّشرِ" وعن الشروطِ والواقعِ لدارِ النّشرِ التي يعملُ فيها مثلَ مديرٍ عامٍّ وتنفيذيٍّ ومقرِّرٍ ومحكّمٍ!؟، وما حولَ ذلكَ دارَ حديثٌ ذو شجونٍ. في النهايةِ وبعدَ نقاشٍ موجزٍ بعضَ الشيءِ قرّرتُ أنَّ خيرَ مكانٍ من حيثُ المبدأِ والتطبيقِ لطباعةِ ونشرِ القصّةِ عن الكلابِ الضائعةِ هو دارُ "كميلونُ للنّشرِ". بسرعةٍ استجابَ الدكتورُ "الوعيانُ" لطلبِيَ وطلبَ منّيَ تزويدَهَ بقرصٍ

مُدمَجٍ يحتوي الروايةَ "اشيانوكراسيا". وفعلاً كانَ لديَّ في الحقيبةِ الصغيرةِ التي أحملُها قرصٌ مدمَجٌ كتبتُ عليهِ اسميَ وعنوانِيَ ورقمَ هاتفِيَ المحمولِ في حالِ ودَّ الدكتورُ "الوَعيانُ" التواصلَ معِيَ مستقبلاً!. منهجيّةٌ عادةً ما يسيرُ عليها المغفّلونَ أو الجاهلونَ أو التائهونَ الهائمونَ على وجوهِهم في غابةٍ بشريّةٍ تستبدُّ فيها ظاهرةُ المظاهرِ البرّاقةِ الخادعةِ وثقافةُ الكذبِ.

خلالَ أيّامِ المعرضِ المتبقّيةِ زرتُ جناحَ دارِ "كميلونٌ للنّشرِ" عدّةَ مرّاتٍ وفي كلِّ مرّةٍ أجلبُ للدّارِ زوّاراً قارئينَ من ذوي القوّةِ الشرائيّةِ التي لا بأسَ عليها. لوحظتْ حركةُ ازدهارٍ نسبيٍّ لجناحِ دارِ "كميلونٌ للنّشرِ" ناجمةٌ عن مشروعِ حالةِ "التصاهرِ" الفكريِّ المتوقَّعِ بينِيَ وبينَ دارِ "كميلونٌ للنّشرِ". حتّى أنَّ الدكتورَ "الوعيانَ" وعدَ بأنْ يعطِيَ روايتِيَ "اشيانوكراسيا" لأحدِ المعتبَرينَ اللامعينَ في عالَمِ الكتابةِ والروايةِ لقراءتِها والتّعليقِ عليها. زعمَ الدكتورُ "الوَعيانُ" أنَّ ذلكَ الشخصَ الكاتبَ الكبيرَ من النوعِ اللبراليِّ المفرطِ في تشجيعِ حريّةِ التفكيرِ. أضافَ أنّهُ شخصيّاً تعرّضَ لانتقاداتٍ ديماغوجيّةٍ وغوغائيّةٍ صاخبةٍ بسببِ مؤلّفاتهِ وأفكارهِ اللبراليّةِ أدّتْ بهِ فيما مضى إلى التألّقِ في عالَمِ الإعلامِ والسياسةِ ورشّحتهُ لنيلِ جوائزَ عالميةٍ مرموقةٍ، ذلكَ بدلَ أنْ تؤذيَهُ. قلتُ للدكتورِ "الوعيانِ": "اللهمَّ أبعْدنا جميعاً عن السياسةِ والأمنِ والرقابةِ والعقائديّاتِ، والإعلامِ الصّاخبِ قبلَ هذا وذاكَ". فعلاً ومبدئيّاً سارَ التحسّبُ والتوقّعاتُ من جانبِيَ بشكلٍ لامسَ بلْ ضاجعَ الخيالَ فوقَ السّحابِ بكثيرٍ من الارتفاعِ والعلوِّ.

مرّةً أخرىً وليست أخيرةً ولدى السؤالِ عن موعدِ الردِّ على طباعةِ ونشرِ المخطوطةِ أجابَ الدكتورُ "الوعيانُ" أنّهُ خلالَ فترةٍ وجيزةٍ قد لا تعدو بضعةَ أيّامٍ. "بضعةَ أيّام!؟" استفسرتُ بصوتٍ عالٍ مندهشاً. أثنيتُ على الدكتورِ "الوَعيانِ" قائلاً أنّهُ ها قد بلغَ الأمرُ ببعضِ العربِ إلى مضاهاةِ دورِ النشرِ العالميّةِ المرموقةِ. أثناءَ لقاءاتِيَ المتكرّرةِ في المعرضِ بالدكتورِ "الوَعيانِ" أخبرتُهُ أنَّ رئيسَ الكلابِ قد يكونُ كلباً أو بشراً ولا يوجدُ تشبيهٌ أو ترميزٌ على أحدٍ. هكذا تنسحبُ الأمورُ بالنسبةِ للوزراءِ والنوّابِ في البرلمانِ وبقيّةِ الهيكلِ الإداريِّ والتنظيميِّ في دولةٍ غالبيّةُ قاطنيها من جنسِ الكلابِ النّابحةِ التي تمشي على أربعٍ. أنا من النّوعِ الذي لا يخلطُ الأمورَ ببعضِها حفاظاً على الهدوءِ وتوخّياً لحفظِ حقوقِ الجميعِ، الضعفاءِ والأقوياءِ. ردَّ الدكتورُ "الوعيانُ" بأنَّ موظّفي رقابةِ المطبوعاتِ في وطنهِ الأمِّ ليسوا من الغباءِ وقِصرِ البصيرةِ لتلكَ الدّرجةِ. أضافَ الدّكتورُ "الوَعيانُ" أنّهُ "على كلِّ حالٍ رحْ نشوف!". مع انتهاءِ أيّامِ المعرضِ الدوليِّ للكتابِ أدارَ الدكتورُ "الوَعيانُ" ظهرَهُ وبدأت من عندِيَ التوقّعاتُ بالبدءِ بالتعاملِ مع مادّةٍ فكريّةٍ

منشورةٍ لِيَ في دارِ نشرٍ تتوخّى الإمساكَ بالقضايا الفكريّةِ والاجتماعيّةِ والسياسيّةِ المطروحةِ كالإمساكِ بالأفعى من رأسِها، أو حتّى وسطِها. صحتُ بوجهِ نفسِيَ في المرآةِ قائلاً ومهرِّجاً "يا لَهوتي ويا خرابي علّلي حيجرالي!"، إذا ما بدأتْ الجماهيرُ تتساءلُ عن جمهوريّةِ الكلابِ وعن أنشطتِها السياسيّةِ والإداريّةِ والاجتماعيّةِ المختلفةِ. بات عليَّ أنْ أفتحَ فراغاً جديداً إضافيّاً في البريدِ الإلكترونيِّ لِيَ مع احتمالِ تدفّقِ آلافِ الأفكارِ والأسئلةِ عن الموضوعِ.

مضى الأسبوعانِ الأوّلانِ ولم يحدثْ هنالكَ أيُّ اتصالٍ عن طريقِ البريدِ الإلكترونيِّ يخبرُني أنَّ دارَ "كميلونٌ للنّشرِ" استلمت القرصَ المدمَجَ سالماً ولا داعيَ للقلقِ والتحسّبِ، وأنّها بصددِ إلقاءِ الضوءِ على محتوياتهِ والبدءِ بالبحثِ في إمكانيّةِ النّشرِ. ثمَّ مضى الأسبوعُ الثالثُ وفكّرتُ بإشعالِ المبادرةِ من جهتِيَ حينَ أرسلتُ رسالةً بالبريدِ الإلكترونيِّ أذكّرَ الدكتورَ "الوَعيانَ" بالوعودِ المشرقةِ الجيّاشةِ المقطوعةِ من جانبهِ عن أمرٍ لا يستغرقُ منهُ أكثرَ من بضعةِ أيّامٍ للحصولِ على ردٍّ ما. صبرتُ أسبوعاً آخرَ ولم يأتِنِي ردٌّ حينَ قرّرتُ اللجوءَ إلى طريقةِ الهاتفيْنِ الأرضيِّ والمحمولِ، ذوي التكلفةِ العاليةِ. بعدَ محاولاتٍ عدّةٍ نجحتُ في التحدّثِ مع الدكتورِ "الوَعيانِ" وأخبرتُهُ أنّني حاولتُ التواصلَ معَهُ عن طريقِ الشبكةِ الدوليّةِ للمعلوماتِ. أخبرني الدكتورُ "الوَعيانُ" أنَّ الرسائلَ وصلتْ ولكنّهُ لم يتمكّنْ هو وحاسوبُهُ من فكِّ الرموزِ اللغويّةِ فيها. أحياناً تصلُ الخطاباتُ باللغةِ العربيّةِ بأحرفٍ "خُنفشاريّةٍ" تجبُ إعادةُ ترميزِها من جديدٍ عن طريقِ ميّزةِ "Encoding" في شبكةِ الإنترنتْ مخصّصةٍ للّغاتِ غيرِ لاتينيّةِ-الأحرفِ. سألتُهُ إذا ما كانَ بالإمكانِ إضافةُ عنوانِيَ الإلكترونيِّ إلى قائمةِ العناوينِ لديهِ بسببِ محاولةِ "التصاهرِ" عن طريقِ النّشرِ لدى دارِ "كميلونٌ للنّشرِ" في سبيلِ تسهيلِ مهمّةِ التواصلِ عبرَ الشبكةِ الدوليّةِ. وعَدَ الدكتورُ "الوَعيانُ" بذلكَ لكنَّ تحقيقَ الوعدِ كانَ من قبيلِ التوقّعاتِ الظنّيّةِ البحتةِ المتفائلةِ أو الطّموحةِ.

مرَّ أسبوعانِ آخرانِ لإمكانيّةِ تلقّي خبرٍ أو إشارةٍ أو كلمةٍ "أيوى أو لأّى" من جانبِ الدكتورِ "الوَعيانِ" أو طاقمِ! دارِ النشرِ التي يعملُ فيها مديراً ومالكاً وناشراً ولجنةَ تحكيمٍ وتقريرٍ، كما ظهرَ لاحقاً. أجريتُ اتصالاتٍ أخرى مع دارِ "كميلونٌ للنّشرِ" وردّت عليَّ فتاةٌ أو امرأةٌ بصوتٍ لطيفٍ قد تكونُ من العائلةِ أخبرتني في بدايةِ المكالمةِ الهاتفيّةِ أنْ أنتظرَ حتى يفرغَ الدكتورُ "الوَعيانُ" من عملٍ ينشغلُ بإنجازهِ، قبلَ أنْ ينتقلَ إلى الحديثِ المباشرِ معِيَ. لكنّها عادت وبسرعةٍ زعمتْ أنَّ الدكتورَ "الوَعيانَ" غيرُ موجودٍ حاليّاً، في حينهِ، وسوفَ يكلّمُني لاحقاً!!؟. يبدو أنّها تلقّتْ إيماءةً ماكرةً من

الدّكتور "الوَعيانِ" بذلكَ، واللهُ تعالى أعلمُ!. مضى أسبوعٌ آخرُ حينَ عاودتُ الاتصالَ وجاءَ الزعمُ هذهِ المرّةَ بأنَّ الدكتورَ "الوَعيانَ" قد طارَ إلى إحدى العواصمِ العالميّةِ حيثُ سيُقامُ معرضٌ دوليٌّ للكتابِ وقد يستغرقُ الأمرُ طويلاً، شهراً أو بعضَ شهرٍ، قبلَ عودةِ الدكتورِ "الوَعيانِ" إلى مكانِ عملهِ في دارِ النّشرِ. مرّةً أخرى وليست أخيرةً بدت الأمورُ لديَّ مثلَ "عليَّ بالانتظارِ حتّى إشعارٍ آخَرَ!"، أو بالعاميّةِ العربيّةِ الواقعيّةِ "موتْ يا اقديش (حمار) حتى ييجيك الحشيش (العشبُ أيْ الطعامُ)". أضفتُ للسكرتيرةِ لطيفةِ الصّوتِ أنّني فقط أريدُ جواباً وأفضّلُ أنْ يكونَ بالنفي! عمّا آلت إليهِ الأمورُ في روايةِ "اشيانوكراسيا". أجابت السّكرتيرةُ أنَّ لا أحدَ مخوّلٌ بالإجابةِ على هذا السّؤالِ إلا سعادةُ الدّكتور "الوَعيانِ". أضافت السكرتيرةُ ببعضِ التودّدِ والتعاطفِ الممزوجِ بنبرةِ الأسى والتأسّفِ لحالِيَ أنّهُ وعلى كلِّ حالٍ "اتركْ لديَّ رقمَ هاتفِكَ وسأخبرُ الدكتورَ الوَعيانَ في الأمرِ ليتّصلَ بكَ حيثُ لهُ مشوارٌ إلى المنطقةِ التي تقطنُ فيها!!؟". وفعلاً فعلتُ وعلى نيّاتِيَ وبراءتِيَ وعذريّةِ ضميرِيَ أعطيتُ السكرتيرةَ رقمَ هاتفِيَ المحمولِ!.

في مثلِ هكذا حالاتٍ على المرءِ أنْ يكونَ أكثرَ ذكاءاً وقوّةَ حدْسٍ وممسكاً للمبادرةِ، ولو على حسابِ العبثِ بضمائرِ وشرفِ وكرامةِ أمثالِ الدّكتورِ "الوَعيانِ". إذا ما تنكّرَ الشخصُ وهربَ من الأسئلةِ والردِّ على التلفونِ والبريدِ الإلكترونيِّ فأغلبُ الظنِّ الذي ليسَ فيهِ إثمٌ أنَّ ذلكَ الشخصَ لم يتردّدْ في وضعِ مخطوطةِ "اشيانوكراسيا" في حاويةٍ للذّبالةِ (الزّبالةِ) بعدَ أنْ مرّرَها بجانبِ مؤخّرتهِ!. من قِبَلِ أمثالِ الدّكتورِ "الوَعيانِ" ينعدمُ الحدُّ الأدنى لأهميّةِ إعطاءِ وعودٍ لا تعدو أنْ تكونَ أكثرَ من كلامِ هراءٍ. هؤلاءِ لم يصلْ بهم الذوقُ والتعليمُ والشّرفُ الرفيعُ إلى احترام أيّةِ عاداتٍ أو قِيمٍ أو مبادئَ نبيلةٍ. معنويّاً وذوقيّاً وطريقةَ تعاملٍ حضاريّةً فإنَّ أقربَ وأنسبَ الأمكنةِ إلى أمثالِ الدكتورِ "الوَعيانِ" هي حاوياتُ نفاياتِ البلديّةِ. قد يُغفرُ للمرءِ البشريِّ كذبُهُ في مواقعَ ونقاطٍ محدودةٍ، لكنَّ امتهانَ ثقافةِ رذيلةِ الكذبِ يؤدّي بالأنفسِ والمجتمعاتِ إلى السقوطِ بشكلٍ حرٍّ في الرذيلةِ عن تصميمٍ وسبقِ إصرارٍ. هذا ما تقومُ بهِ طبقةٌ من المفترَضِ أنّها وصلت إلى مرحلةٍ متقدّمةٍ منَ التعليمِ لا تسمحُ لها استباحةَ مشاعرِ وعواطفِ وحياةِ وأوقاتِ الآخرينَ.

بعدَ حواليْ ٥٠ يوماً على تسليمِيَ مخطوطتِيَ للنشرِ في دارِ "كميلونٌ للنّشرِ" قرّرتُ أنَّ التعاطيَ مع الدكتورِ "الوَعيانِ" وأسلوبهِ هو من قَبيلِ الغباءِ والجهلِ اللذيْنِ لا يُغتَفران. ما الذي يمنعُ أو يوقفُ شخصاً من الردِّ على سؤالٍ أو استفسارٍ برسالةٍ أو جملةٍ تستغرقُ من وقتهِ دقائقَ لكتابتِها وإرسالِها في أرخصِ وسيلةِ بريدٍ عرَفها الجنسُ البشريُّ؟!، الإنترنتْ. لم أُجرِ مكالمةً أو اتصالاً بهذا المعنى مع الدّكتورِ "الوَعيانِ" أو دارِ "كميلونٌ

للنّشرِ"، خلافاً لأسلوبِيَ وأخلاقِيَ وتوخّياً للحفاظِ على شرفِ التعاملِ مع البشرِ. السّببُ بسيطٌ هو أنَّ أمثالَ الدكتورِ "الوَعيانِ" لا يتمتّعونَ بالشرفِ الكافي الذي يستأهلُ الحفاظَ عليهِ. شخصيّاً لا أستطيعُ مغادرةَ مكانٍ يقطنُهُ حتّى كلبٌ أو قطٌّ أو عصفورٌ دونَ أخذِ رضا وموافقةِ الأخيرِ، لكنَّ ذلكَ لا يجبُ أنْ يطبّقَ مع حالةِ الدّكتورِ "الوَعيانِ". بالنسبةِ لِيَ الأمرُ باتَ شبهَ عاديٍّ، خازوقٌ آخرُ من دورِ النّشرِ أصابني في مؤخّرتِيَ وقلبِيَ وأعصابِيَ ودماغِيَ ووجودِيَ بينَ القومِ من بني صحبتِيَ. ستظلُّ هذهِ الذّكرى المشئومةُ في ذاكرتِيَ حتّى آخرِ نبضةٍ في عروقِيَ. زرعَ الدّكتورُ "الوَعيانُ" نفسَهُ وشبحَهُ في الذّاكرةِ بطريقةٍ أقربَ إلى المُفلسِ ماديّاً وأدبيّاً وذوقيّاً وفكريّاً وحضاريّاً منها إلى أيِّ أسلوبٍ يليقُ بأيِّ تصرّفٍ بشريٍّ بحتٍ، هذا عدا عن حضاريٍّ. لا يُنصحُ باستعمالِ معجونِ بِ٣ لحلاقةِ ذقنِ الدّكتورِ "الوعيانِ"، ربّما حفاظاً على مستوى سمعةِ هذا المعجونِ الفريدِ من نوعهِ!.

دارُ "ميريديوسُ للنّشرِ"

ملاحظةٌ: هنالكَ بعضُ التكرارِ في إعادةِ صياغةِ النّصِّ حولَ الروايةِ هنا، والمخطوطاتِ الأخرى!، أرجو فيهِ أنْ يتّسعَ صدرُ القارئِ في كلِّ هذهِ وذاكَ وأنْ لا يُستثارَ غضباً ويوسعَ النّصوصَ والكاتبَ انتقاداتٍ لاذعةً. مع شديدِ الأسفِ هي طبيعةُ الأمورِ هكذا في واحةٍ من الارتباكِ وعدمِ الوضوحِ في الرؤيةِ والفوضى والتخبّطِ في سيرِ العملِ والحياةِ وطرقِ التّعاملِ.

مرّةً أخرى، لكنْ ليستْ الأخيرةَ، يمكنُ القولُ أنَّ المعارضَ المحليّةَ والدوليّةَ للكتبِ تُعتبَرُ من أكثرِ الأمكنةِ قدرةً على إيجادِ نقاطِ التقاءٍ عن كثبٍ ووجهاً لوجهٍ بينَ المؤلّفينَ والنّاشرينَ. يعودُ ذلكَ إلى الفُرصِ السانحةِ لعقدِ مواجهاتٍ ميدانيّةٍ بينَ الناشرِ والمؤلّفِ لكيْ يريا بعضيْهما بعضاً ولتقديرِ ما يمكنُ أنْ تؤولَ إليهِ الأمورُ فيما بعدُ، بشكلٍ أقربَ إلى الدقّةِ العمليّةِ المعقولةِ. في غمرةِ البحثِ عن ناشرٍ يتمتّعُ بأمانةٍ وثقةٍ بيّنةٍ واضحةٍ قدْرَ الاستطاعةِ لا بدَّ للمؤلِّفِ أنْ يُتعِبَ ويُجهِدَ نفسَهُ قَليلاً أو كثيراً، خاصّةً إذا ما كانَ ذلكَ الشّخصُ لا يتمتّعُ بحظٍّ عظيمٍ يأتي النّاسَ خبطَ عشواءَ عادةً من الغيبِ!. هذا مقارنةً مع حالِ المجتمعاتِ الغربيّةِ ودولةِ "الكيانِ الصّهيونيِّ"، والتي كمؤلِّفٍ وكاتبٍ ومفكّرٍ ذي ضميرٍ! لا أنصحُ بالاقتداءِ بالأحوالِ فيها، فإنَّ حفْظَ الحقوقِ ومياهِ الوجوهِ يبدأُ منذُ اللحظَةِ التي تطأُ فيها قدمُ مؤلِّفٍ أرضَ دارِ نشرٍ أو يصلُ إلى الأخيرةِ أيُّ شيءٍ من فكرٍ على شكلِ مادّةٍ قابلةٍ للنّشرِ.

مرّةً أخرى أقولُ أنَّ هنالكَ تجربةً لنفسِ المخطوطةِ الكتابِ "اشيانوكراسيا" مع دارِ نشرٍ أخرى. ومرّةً أخرى ننظرُ إلى هذهِ الرّوايةِ لكنْ نَصِفُ الأمورَ بكلماتٍ أخرى؛ التكرارُ هنا يهدفُ للتمويهِ على الشخصيّاتِ الواردةِ في النصوصِ السابقةِ واللاحقةِ ذواتِ الأصولِ الحقيقيّةِ!. الخلاصةُ أنّهُ في خلواتيَ المتكرّرةِ مع نفسِيَ ونتيجةً لمراقبتِيَ للأحداثِ المتلاحقةِ بتلاطمٍ وازدحامٍ من حولِيَ قمتُ بتأليفِ مادّةٍ على شكلِ قصّةٍ أو روايةٍ بعنوانِ "اشيانوكراسيا". بمجموعِهِ يعني العنوانُ كما ذُكِرَ سابقاً حكمَ الكلابِ، أو عندَما تحكمُ الكلابُ أو جمهوريّةُ الكلابِ أو دولةٌ تحكمُها الكلابُ، إذا ما أرادَ أحدُهم التطرّفَ في الذهابِ بعيداً بالأمورِ.

الكلبُ في الثقافةِ المحليّةِ الشّرقِ أوسطيّةِ خاصّةً منبوذٌ إلى حدٍّ بعيدٍ ويوصفُ بالنّجسِ ويُستحسنُ عدمُ التلامسِ بهِ إذ أنّهُ روحيّاً يُنقِضُ الوضوءَ وصحيّاً قادرٌ على نقلِ أمراضٍ قد تكونُ وبائيّةً فتّاكةً. في المجتمعِ العربيِّ، وحتّى دوليّاً، إذا ما أرادَ أحدُهم سبَّ أو شتمَ أحدٍ سرعانَ ما يقارنُهُ بالكلبِ مستوى نظافةٍ وتدنّي مستوى أخلاقٍ أو إهمالٍ أو نبذٍ، أو ربّما اعتمادٍ في تمويلِ بعضٍ منهُ! على الغيرِ. والحالُ هذهِ فإنَّ الحديثَ عن حكمِ الكلابِ في روايةٍ من مثلِ "اشيانوكراسيا" يضربُ على وترٍ حسّاسٍ في الذهنيّةِ الفكريّةِ العربيّةِ، خاصّةً في أوساطِ أجهزةِ الدولةِ الرسميّةِ والرّقابَةِ العامّةِ على المطبوعاتِ ووسائلِ الإعلامِ. الأوساطُ المحافِظةُ لا تبخلُ في أجزاءَ منها من التقزّزِ والاندهاشِ من وصفٍ لحالةٍ فيها تسيطرُ الكلابُ على الحكمِ. بسببِ هذا وكثيرٍ من ذاكَ باتتْ روايةُ "اشيانوكراسيا" في وضعٍ لا تُحسدُ عليهِ لا هي ولا صاحبُها أو مؤلّفُها ولا ناشرُها. هذا بالرّغمِ من أنّني بذلتُ مجهوداً كبيراً استثنائيّاً جعلني أشعرُ أنَّ هذهِ القصّةَ هي جوهرةُ أعمالِيَ الفكريّةِ المتواضعةِ، فكريّاً ولغويّاً وتجربةً اجتماعيّةً!.

لكنْ ثمّةَ لدى الكلبِ بعضَ الصفاتِ يسيلُ لها لعابُ الكثيرينَ من الأوفياءِ والمخلصينَ والوديعينَ الودودينَ. لولا بعضُ الكلابِ المدرّبةِ على أعمالٍ وتصرّفاتٍ عدوانيّةٍ وعنيفةٍ لكانَ الكلبُ يتربّعُ على درجةٍ من المجدِ يحلمُ بها كثيرونَ من كبارِ القادةِ السّياسيّينَ عبرَ التاريخِ. فقط ينقصُ الكلبَ لسانٌ ناطقٌ يعبّرُ عن أحوالهِ ومشاعرهِ وطموحاتهِ. في روايةِ "اشيانوكراسيا" محاولةٌ لوضعِ النقاطِ المناسبةِ على الحروفِ المناسبةِ وتسميةِ الأسماءِ بمسمّياتِها وإعادةِ الاعتبارِ إلى ذلكَ الكائنِ الحيِّ "المسكينِ" الذي من السهولةِ بمكانٍ عليهِ غزوُ العقولِ والعواطفِ والبيوتِ وغرفِ النومِ وأماكنِ الاستجمامِ والاستحمامِ الخاصّةِ، بجدارةٍ منقطعةِ النظيرِ لدى كافّةِ الكائناتِ الحيّةِ الأخرى ومن ضمنِها الإنسانُ.

الحديثُ مع الناشرينَ العربِ عن روايةِ عنوانُها "اشيانوكراسيا" يثيرُ توتّراً وارتباكاً قد يرقى أحياناً إلى درجةِ الاشمئزازِ منهُ والسخطِ عليهِ والحذرِ منهُ والرفضِ لهُ. حتى أنَّ أحدَ عملاءِ بيعِ الكتبِ نصحَني كمؤلّفٍ بعدمِ الخوضِ بأمورٍ كهذهِ حيثُ ما أنْ يرى رجلُ المطبوعاتِ الرسميُّ العنوانَ حتّى يرفضَ عرضَ الكتابِ أو السّماحَ بدخولهِ إلى الدولةِ المكلّفِ بحمايةِ أمنِها الدّاخليِّ. أضافَ مندوبُ المبيعاتِ أنَّ ليسَ لدى رجلِ المطبوعاتِ ذاكَ وقتٌ لقراءةِ أيِّ شيءٍ داخلَ المطبوعةِ أو المخطوطةِ وإذا ما أصرَّ الناشرُ على إدخالِ الرّوايةِ إلى تلكَ الدولةِ (لأنَّ ليسَ بِها شيءٌ يهدّدُ أمنَ أيَّ شيءٍ) ما عليهِ إلا أنْ ينتظرَ قراءتَها والتي قد تستغرقُ طويلاً من الوقتِ، قريباً من الأبدِ أو يومِ الحشرِ. في ظلِّ معطياتٍ كهذهِ تواجهُ روايةُ "اشيانوكراسيا" ومؤلِّفُها وضعاً لا يُحسدانِ عليهِ، رسميّاً وشعبيّاً وربّما فكريّاً واجتماعيّاً عامّاً. بعبارةٍ أخرى وَجَبَ البحثُ عن ناشرٍ أو دارِ نشرٍ جريئةٍ بعضَ الشّيءِ، إذا ما يجوزُ القولُ. قبلَ حوالَيْ الشّهرينِ من حينهِ كانَ قَد جُنَّ جنونِيَ بسببِ عدمِ الحصولِ على ردٍّ من جهةِ دارِ "كميلونٌ للنّشرِ". أضاعَ الدّكتورُ "سؤدُدُ الوَعيانُ" عليَّ شهوراً خمسةً من الوقتِ كانَ يمكنُ استغلالُها في محاولاتِ نشرٍ في دورٍ أخرى للنّشرِ. إضافةً إلى ذلكَ فإنَّ القيمةَ المعنويّةَ لروايةِ "اشيانوكراسيا" بدأتْ تهزلُ والحافزُ لنشرِها يضمحلُّ في خاطريَ إلى درجةِ اليأسِ من إمكانيّةِ نجاحِيَ في طباعتِها ونشرِها، بتاتاً!!. حتّى أنَّ كثيراً من الأصحابِ نصحوني بتوخّي وضعِها في "مدوّنةٍ" على الإنترنتْ بهدفِ إطلاعِ أكبرِ جمهورٍ ممكنٍ من القرّاءِ عبرَ العالَمِ عليها.

إذنْ لم يزلْ الخيالُ الماثلُ أمامِيَ أنّهُ في الدولةِ الحديثةِ، قبلَ إدخالِ التقنيةِ بشكلٍ واسعٍ، فإنَّ الكلابَ المدرّبةَ جيّداً هي عمادُ وزارتَيْ الدفاعِ والداخليّةِ والأمنِ العامِّ والخاصِّ. حديثاً ومع غزوِ المالِ ورأسِ المالِ وأعمالهِ للعقولِ البشريّةِ عبرَ العالَمِ فإنَّ للكلابِ أهميّةً خاصّةً في عملِ الشركاتِ الأمنيّةِ الخاصّةِ. حتّى أنَّ بعضَ مديري ومالكي تلكَ الشّركاتِ يحضّونَ رجالَهم على الاقتداءِ شبهِ الكاملِ بالكلابِ الشُّرطيّةِ المدرّبةِ. في البيوتِ الغربيّةِ الحديثةِ يكادُ لا يخلو أيٌّ منها من كلبٍ للحراسةِ أو ودودٍ حصلَ على مكانةٍ خاصّةٍ في البيتِ، من جهةِ ربّةِ البيتِ أو ربِّ الأسرةِ وبقيّةِ أعضاءِ الأخيرةِ. هذهِ وغيرُها من الأفكارِ والنظريّاتِ وحتى بعضِ القصصِ الدينيّةِ عن أحداثٍ في التاريخِ كانتْ فيها الكلابُ ذاتَ أدوارٍ مميّزةٍ أدّتْ إلى بعضِ النتائجِ الإيجابيّةِ في أذهانِ البعضِ.

بعدَ مشاوراتٍ ولقاءاتٍ من هنا وهناكَ في أجنحةِ دورِ النّشرِ في معرضِ الكتابِ ولعدّةِ أيّامٍ في نتيجتِها غيرِ مشجّعةٍ إلى حدٍّ كافٍ طفقتُ أبحثُ في الزّوايا المقفرةِ! في المعرضِ عنْ حظٍّ يأتيني من السماءِ فيما يُعرفُ بفرصةِ اللحظةِ الأخيرةِ تقريباً. حظٌّ يأتي على شكلِ

شخصٍ قادرٍ على استيعابِ بعضٍ من أفكاريَ في الكلابِ واحتمالِ تولّيها السلطةَ في دولةٍ ما. المكانُ "معرضٌ دوليٌّ للكتابِ" والزمانُ في شهرِ أبريلِ نيسانٍ من العامِ ٢٠٠٨. الساعةَ الخامسةَ مساءاً في اليومِ قبلَ الأخيرِ من المعرضِ كنتُ على موعدٍ مع شخصٍ بدا لبراليّاً أو متحرّراً بما فيهِ الكفايةُ ليقبلَ بالتعاملِ مع فكرةِ نشرِ تلكَ الروايةِ في دارِ نشرهِ التي زعمَ أنّهُ يعملُ مديراً عامّاً فيها. السيّدُ "عبّودُ سحويلُ" متوسّطُ طولِ القامةِ نحيفُ الجسمِ وأسنانُهُ تطلُّ السوسةُ من بينِ الفتحاتِ البينيّةِ فيها بشكلٍ مؤسفٍ لحالةِ الرثّةِ البائسةِ ولأطبّاءِ الأسنانِ في المنطقةِ التي يقطنُ فيها. كانَ السيّدُ "سحويلُ" يلبسُ بنطلوناً قديماً بدا أكبرَ مقاساً من خصرهِ النحيفِ ولذلكَ استعانَ بحزامٍ قديمٍ لمساعدتهِ على الإبقاءِ على البنطلونِ في موضعهِ عندَ الخصرِ كيْ لا يسحلَ إلى الأسفلِ. من حينٍ لآخرَ يقومُ السيّدُ "سحويلُ" بتعديلِ وضعِ البنطلونِ وإعادةِ أطرافِ القميصِ المتدلّيةِ خارجَ الحزامِ إلى وضعِها العاديِّ داخلَ البنطلونِ، مع ما قد يحملُهُ ذلكَ من شكلٍ قد يبدو نشازاً غيرَ مريحٍ في نظرِ البعضِ. لكنْ كانَ ذلكَ نقطةً إيجابيّةً في نظريَ ككاتبٍ لا يهتمُّ أبداً بالشكليّاتِ والظهورِ والاستعراضِ. نظرتُ إلى السيّدِ "سحويلِ" بشيءٍ من الإجلالِ على أنّهُ إنسانٌ بسيطٌ مكافحٌ وصلَ إلى درجةٍ مرموقةٍ من نشرِ الفكرِ ولم يُعرْ انتباهاً للشّكليّاتِ الخادعةِ! أكثرَ من ذلكَ فإنّني لا ألبسُ بنطلوناً أحسنَ حالاً من بنطلونِ السيّدِ "سحويلِ"؛ ذلكَ ما جعلَني أشعرُ أنّنا من نفسِ الطبقةِ والنفسيّةِ والفلسفةِ والكفاحِ والنظرةِ العمليّةِ للحياةِ، وربّما ما بعدَ الموتِ! كانَ السيّدُ "سحويلُ" سريعَ القبولِ للآراءِ وتميّزَ برحابةِ صدرٍ وفكرٍ ولبراليّةٍ أقربَ إلى الزندقةِ الدينيةِ الاجتماعيّةِ منذُ اللحظةِ الأولى للّقاءِ.

بسرعةٍ تآلفتُ روحيّاً ومعنويّاً مع السيّدِ "سحويلِ" والذي بدورهِ زعمَ أنّهُ يحاولُ بفكرهِ وعملهِ الحدَّ من تأثيرِ قبضةِ الرّقيبِ ومقصّهِ على الفكرِ والمطبوعاتِ؛ ذلكَ رغماً عن حالةِ الإفلاسِ الماليِّ والفكريِّ التي تشدُّ بنواجذِها عليهِ شخصيّاً وعلى دارِ النّشرِ التي يزعمُ إدارتَها. أضافَ السيّدُ "سحويلُ" أنَّ دارَ "ميريديوسُ للنشرِ" تحاولُ أنْ تكونَ رياديّةً في ذلكَ المجالِ وأنَّ صاحبَها قد ضاقَ ذرعاً بما تمليهِ الرواسبُ والأفكارُ القديمةُ التي عفا عنها الزمنُ، بطريقةٍ وبأخرىً. بعبارةٍ أخرىً باتَ التمسّكُ بالتراثِ في منهجيّةِ دارِ "ميريديوسُ للنشرِ" من بابِ التخلّفِ والرّكودِ والتحجّرِ ويجبُ الإفلاتُ من ذلكَ الوضعِ والانطلاقُ السريعُ إلى الأمامِ. أضافَ السيّدُ "سحويلُ" الذي قد يكونُ يحملُ لقبَ دكتورٍ في تخصّصٍ ما. في اليومِ التالي حملتُ قرصاً مدمَجاً (CD) يحتوي الروايةَ ومعلوماتٍ عنّي على شكلِ سيرةٍ ذاتيّةٍ قد تلزمُ لدارِ النشرِ وجهازِ الأمنِ في الدولةِ.

بعدَ تسليمِ القرصِ المدمَجِ للسيّدِ "سحويلٍ" زعَمَ الأخيرُ أنَّ الأمرَ لا يستغرقُ أكثرَ منِ شهرٍ على أبطأِ الأحوالِ وأقلِّها تفاؤلاً قبلَ الحصولِ على ردٍّ. الردُّ المتوقَّعُ سيحملُ توصيةً بالشّروعِ بالطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ أو اقتراحاً بتعديلِ بعضِ النصوصِ أو الاعتذارِ عنِ النشرِ أيْ الرفضِ. بدوريَ كشخصٍ يقدّسُ دقّةَ المواعيدِ والصراحةَ والصّدقَ أخبرتُ السيّدَ "سحويلَ" أنَّ نشرَ الروايةِ يقلُّ كثيراً في الأهميّةِ عن الصدقِ في المواعيدِ. أضفتُ لهُ في الموقعِ أنّني لشدّةِ شغفِيَ بصدقِ ودقّةِ التوقيتِ أقيسُ الوقتَ بالمايكرو-ثانيةٍ (واحد بالمليون من الثانية)، وأحاولُ تطويرَ قياسِ الوقتِ إلى النّانو-ثانيةٍ (واحدٌ بالمليارِ من الثانيةِ). لكنّني في الوقتِ ذاتِهِ واقعيٌّ وأعرفُ أنَّ الزّمنَ في دولِ العالَمِ النّامي مثلُهُ مثلُ الصّدقِ والصّراحةِ، لا قيمةَ لهذهِ جميعاً. أخبرتُهُ أنّهُ إذا ما تمَّ هدرُ يومٍ أو أسبوعٍ أو شهرٍ إضافيٍّ فلا ضيراً كبيراً في ذلكَ، المهمُّ هو الصّدقُ والصّراحةُ والخبَرُ الصّحيحُ. لم يكنْ بعلمِيَ في حينهِ أنَّ الحديثَ بهذا الشّكلِ عن هكذا مواضيعَ يحاكي الاسترسالَ في التهريجِ أمامَ "جُرذٍ بشريٍّ ضائعٍ جائعٍ" يتحيّنُ فرصةً للحصولِ على لقمةِ عيشٍ.

جهلاً وربّما غباءاً! وبعدَ حوالي الثلاثةِ أسابيعَ من تسليمِ روايةِ "اشيانوكراسيا" للسيّدِ "سحويلٍ" أجريتُ معهُ مكالمةً هاتفيّةً، محاولاً تعزيزَ المعرفةِ والصداقةِ معهُ. بعدَ عدّةِ محاولاتٍ من الاتصالِ ردَّ السيّدُ "سحويلُ" وبصوتٍ واعدٍ دافئٍ أخبرني أنَّ الأمورَ تسيرُ على خيرِ ما يُرامُ، وكما وعدني سابقاً. أضافَ السيّدُ "سحويلُ" أنّهُ ما هي إلا بضعةُ أيّامٍ ستمرُّ حتّى يخبرَني بنتيجةِ الاطّلاعِ على روايةِ "اشيانوكراسيا". أضافَ ذلكَ بعضَ الراحةِ في نفسِيَ لكنّني من النوعِ الملدوغِ من أفعىً أو عقربٍ أو عنكبوتٍ، أو دارِ نشرٍ! سابقةٍ، بتُّ لا أرتاحُ أبداً للوعودِ المقطوعةِ إلا عندَما أرى شيئاً متجسّداً على أرضِ الواقعِ. يكونُ ذلكَ على شكلِ رسالةٍ بالبريدِ الإلكترونيِّ أو أخرى بالهاتفِ المحمولِ أو الجوّالِ (باستعمالِ خدمةِ الرّسائلِ القصيرةِ خ.ر.ق.) وربّما برنّةٍ على الأخيرِ أو ما يُعرفُ دوليّاً وشعبيّاً بال"missed call"، أو عن طريقِ رسولٍ خاصٍّ يعيدُ للذوقِ العامِّ والإتيكيتِ بعضَ الاعتبارِ. لم يحدثْ أيٌّ مما سبقَ على الإطلاقِ، وفي ذلكَ على المرءِ أنْ يستغفرَ ربّهُ كثيراً على هذهِ الطّموحاتِ التي لا لزومَ ولا مكانَ لها على أرضِ الواقعِ.

هنا لا بدَّ من تكرارِ ذكرِ أمرٍ مهمٍّ للقارئِ مفادُهُ أنَّ دفءَ اللقاءِ والاستقبالِ من جهةِ موظّفٍ في دارِ نشرٍ قد تكونُ لهُ حوافزُ ومبرّراتٌ أخرى. أحدُ هذه المبرّراتِ هو فتحُ بابِ الصداقةِ مع طرفٍ قد تكونُ لديهِ إمكانيّاتٌ ماديّةٌ متطوّرةٌ. ذلكَ ما قد يفسحُ المجالَ لاستدرارِ عطفٍ ولطفٍ وودٍّ ونزعةِ كرمِ ذلكَ الشّخصِ؛ بالذّاتِ لاستدرارِ ما أمكنَ من "ضِرْعهِ الماليِّ" آنيّاً في الموقعِ أو مستقبَلاً قريباً، وربّما بعيداً. لذلكَ يحملُ البعضُ

بطاقةَ تعريفٍ على الحالِ سرعانَ ما يحاولُ وضعَها في مفكّرةِ ومذكّرةِ ذلكَ الشّخصِ. هذهِ طريقةٌ عصريّةٌ لما يسمّى حديثاً بفتحِ المجالِ أمامَ عملِ "بيزنِسْ business" مع الجمهورِ والتي أصبحت مبتذلةً وتميلُ إلى الاستجداءِ غيرِ المشرِّفِ على الإطلاقِ. في الماضي كانَ من يحملُ كروتَ التّعريفِ تلكَ من ذوي المراتبِ الماليّةِ والاجتماعيّةِ العاليةِ، والذينَ كانَ من الممكنِ الاستدلالُ عليهم من ملاحظةِ التضخّمِ الواضحِ في كروشِهم ومؤخّراتِهم وذقونِهم ومن لمعانِ أُطُرِ نظّاراتِهم الذهبيّةِ والبلاتينيّةِ. الحافزُ الثاني هو أنَّ أجنحةَ بيعِ الكتبِ خاصّةً في المعارضِ العربيّةِ تعاني كساداً واضحاً وحارقاً للضّلوعِ. قد يمضي يومٌ كاملٌ دونَ تمكّنِ مندوبِ المبيعاتِ في جناحِ دارِ النّشرِ من بيعِ بضعةِ نُسَخٍ وبأسعارٍ يجهدُ البائعُ نفسَهُ كثيراً لأنْ تكونَ مناسِبةً. من بابِ الردِّ على حسْنِ الاستقبالِ والضيافةِ! قد يخجلُ المرءُ على نفسهِ وذقنهِ ويشتري كتاباً أو اثنيْنِ من مجموعةٍ من الكتبِ المعروضةِ. في جلِّ الكتبِ المعروضةِ فهي ذاتُ أفكارٍ مكرّرةٍ بابتذالٍ أو مترجَمةٍ تثيرُ الإعياءَ في الفكرِ والنّفسِ أو من نوعِ الخزعبلاتِ المقولبةِ لغويّاً جيّداً. هنالكَ مبرّراتٌ أخرى قد لا يشرّفُ الذوقَ عرضُها لدى طبقةٍ من روّادِ الفكرِ في العصرِ الحديثِ الذين يعانونَ التقوقعَ والتخلّفَ المؤدّي إلى الانقراضِ الفكريِّ الثقافيِّ.

بعدَ حواليْ الأسبوعيْنِ من المكالمةِ الهاتفيّةِ الأولى وفي ظلِّ لا-مبالاةٍ وانقطاعِ اتصالٍ بينَ دارِ "ميريديوسُ للنشرِ" وبينِيَ ككاتبٍ بدأتْ تلوحُ في الأفقِ بوادرُ انتكاسةٍ جديدةٍ لِيَ. يحدثُ هذا في خضمِّ سعيِيَ للحصولِ على طرفٍ آخرَ يعي أهميّةَ وحساسيّةَ إعطائهِ قطعةً من عصارةِ الفكرِ قيّمةً. الاتصالُ بدارِ "ميريديوسُ للنّشرِ" يمرُّ عبرَ السيّدِ "سحويلٍ" والذي بعدَ أيّامٍ من محاولةِ الاتصالِ يردُّ ويزعمُ أنّهُ كانَ في رحلةٍ عبرَ الدّولِ ومنها الدّولُ الغربيّةُ، مفخَرةُ العقليّةِ العربيّةِ الحديثةِ. ها قد مضى أكثرُ من ٤٥ يوماً على تسلّمِ الروايةِ عن الكلابِ وطريقةِ حكمِها لأنفسِها بأنفسِها ولم تأتِني "قُصاصةُ بريدٍ إلكترونيٍّ" أو رسالةٌ قصيرةٌ في هاتفٍ محمولٍ، أو حتى ردٌّ سريعٌ سهلٌ على محاولاتِيَ في الاتّصالِ والتواصلِ. لا يحتملُ الأمرُ أكثرَ من بضعةِ دقائقَ من موظّفٍ أو موظّفةٍ في العلاقاتِ العامّةِ لتقومَ بما يلزمُ، إذا ما كانَ هنالكَ حيّزٌ للعلاقاتِ العامّةِ في مؤسّسةٍ كهذهِ. لكنَّ الوضعَ بشكلٍ عامٍّ لا يبشّرُ بخيرٍ أبداً، أو هكذا بدا الوضعُ بناءاً على تجاربَ جمّةٍ سابقةٍ.

يبدو أنَّ السيّدَ "سحويلَ" قد حفِظَ اسمِيَ ورقْمَ الهاتفِ لديَّ في ذاكرةِ هاتفهِ المحمولِ، على غيرِ عادةِ مندوبي دورِ النّشرِ الأخرى الذينَ يُعتقَدُ أنّهم لا يمانعونَ وضعَ تلكَ الأرقامِ والعناوينِ في مؤخّرةٍ لا تتمتّعُ بالحدِّ الأدنى من النظافةِ. ذلكَ ما جعلَ أمرَ التعاملِ معِيَ

يخضعُ للكثيرِ من الحساباتِ والاحتمالاتِ التي تعتمدُ على المزاجِ والحالِ العامِّ لدى السيّدِ "سحويلٍ". بينَ مكالمةٍ ناجحةٍ وأخرى قد تمرُّ عدّةُ أيّامٍ وحتّى أسبوعٍ أو أكثرَ يكونُ هنالكَ ردٌّ، هذهِ المرّةَ والمرّاتِ التي تلي من شخصٍ آخرَ يُعتقدُ أنّهُ زميلٌ في العملِ أو صديقٌ مقرَّبٌ للسيّدِ "سحويلٍ". لكنْ لم تكنْ هنالكَ صديقاتٌ أو زميلاتُ عملٍ وتلكَ تُعتبرُ سلبيّةً حسْبَ خبرتِيَ في مجالِ التعاملِ مع البشرِ من جنسِ الذّكورِ. الصوتُ الآخرُ على هاتفِ السيّدِ "سحويلٍ" المحمولِ في المرّةِ الأولى يقولُ أنَّ السيِّدَ "سحويلَ" قد تركَ الهاتفَ المحمولَ في حالةِ شحنٍ للبطّاريّةِ؛ وربّما "لا يريدُ إزعاجَ الهاتفِ الجوّالِ في تناولِ وجبةِ الإلكتروناتِ تلكَ!". أضافَ ذلكَ الشّخصُ الظلُّ أو الشّبحُ المضلِّلُ أنّهُ بإمكانِيَ الاتصالُ بعدَ حواليْ الساعتيْنِ من الوقتِ حيثُ سيكونُ السيّدُ "سحويلُ" قد عادَ "بإذنِ الله يافندم!". وملاحقةً للكذّابِ إلى عتبةِ بابهِ، كما يقولُ المثلُ الشعبيُّ البائسُ، تمَّ الاتصالُ بعدَ الساعتيْنِ تقريباً. النتيجةُ المتوقّعةُ لمعاودةِ الاتصالِ الهاتفيِّ أنْ لا ردّاً من الجهةِ الأخرى على الإطلاقِ ويبقى الهاتفُ المحمولُ "يُطرِبُ صاحبَهُ بنغمةِ صوتهِ"، ربّما.

بعدَ بضعةِ أيّامٍ وعلى أحرَّ من الجمرِ المتوقّدِ تجري محاولةٌ جديدةٌ للاتصالِ. هذهِ المرّةَ شخصٌ آخرُ، قد يكونُ هو الشّخصُ السابقُ بصوتٍ مختلفٍ!، يزعمُ أنَّ السيّدَ "سحويلَ" ليسَ موجوداً وأنّه سيعودُ بعدَ قليلٍ من حينهِ. في نفسِ الليلةِ يتمُّ الاتصالُ مرّةً أخرى، ومرّةً أخرى يردُّ الشخصُ الآخرُ والذي قد يكونُ شخصاً ظلّاً آخرَ للسيّدِ "سحويلٍ" في حضورهِ وغيابهِ. هذه المرّةَ يستفسرُ الشخصُ الظلُّ "الجديدُ!" عن "اسمِيَ وماذا أريدُهُ؟!". أنا اسمِيَ الدكتورُ موسىً يعقوبٌ قاسمٌ تقدّمتُ بروايةٍ عنوانُها "اشيانوكراسيا" لمحاولةِ التشرّفِ بالنشرِ في دارِ "ميريديوسُ للنشرِ" الغرّاءِ. ماذا حدثَ وماذا قد يحدثُ للروايةِ؟! أريدُ جواباً، فَقط جواباً. يردُّ الشخصُ الظَلُّ أنَّ الأمورَ ستُعالَجُ وتُناقَشُ وسيتمُّ الردُّ قريباً جدّاً. يضيفُ الشخصُ الظلُّ بأنْ أحاولَ الاتصالَ مرّةً أخرى لاحقاً. ولاحقاً تجري المحاولةُ مرّةً أخرى في محاولةِ هذهِ المرّةَ للسماعِ لبعضٍ من أنفاسِ السيّدِ "سحويلٍ". كانَ ذلكَ من قبيلِ خيالِ الأغبياءِ أو محاولةِ تصريفِ نقودِ "أهلِ الكهفِ" في سوقٍ أتتْ عليهِ ثقافةُ الكذبِ وسيطرتْ عليهِ بنواجذِها بشكلٍ كاملٍ.

اللعنةُ على الحظِّ والحياةِ وسوءِ الطّالعِ والقمرِ السّاطعِ والزمنِ الفاقدِ للوزنِ والقيمةِ للإنسانِ والمبادئِ والذّوقِ العامِّ. من وعْدٍ بالحصولِ على ردٍّ مناسبٍ بعدَ شهرٍ واحدٍ من تسليمِ المخطوطةِ الروايةِ إلى جوابٍ على الهاتفِ المحمولِ بعدَ أشهرٍ من مثْلِ "السيّدُ سحويلٌ ذاهبٌ للتعزيةِ! بعزيزٍ لديهِ وسيعودُ بعدَ نصفِ ساعةٍ من حينهِ". في ردٍّ آخرَ لا يتوانى الشخصُ على الطّرفِ الآخرِ من الخطِّ ليقولَ "أنَّ السيّدَ سحويلَ في حالةِ غيبوبةٍ

ينتظرُ مساعدةً تأتيهِ ولو عبرَ موجاتِ الأثير!". لكنْ وهرباً من حالةٍ قد تطولُ وتأتي تبعاتُها بشكلٍ مأساويٍّ على الحالةِ الصحيّةِ والعصبيّةِ حدثتْ آخرُ مكالمةٍ تلفونيّةٍ:

أنا: ألو، أنا الدكتورُ موسىً يعقوبٌ قاسمٌ، كيفَ الحالُ؟!.

الشّخصُ الظلُّ: أهلاً، الحمدُ للهِ يافندم. ماذا يمكنُني أنْ أخدمَكَ؟!.

أنا: وددتُ لو تخبرُ السيّدَ "سحويلَ"، المديرَ العامَّ لدارِ "ميريديوسُ للنّشرِ" أنّني شديدُ الأسفِ والاعتذارِ على إزعاجِيَ المتكرّرِ لهُ. كانَ من الممكنِ بل من الواجبِ أنْ لا تتمَّ فصولُ هذهِ القصّةِ الشّنيعةِ القصيرةِ الطويلةِ الثقيلةِ على الذوقِ والإحساسِ والحياةِ، فيما لو كانَ هنالكَ الحدُّ الأدنى من التفكيرِ بالعواقبِ وما ستؤولُ إليهِ الأمورُ في التّعاملِ مع قضايا قادرةٍ على احتواءِ الكثيرِ من الغموضِ.

هذهِ قصّةٌ أخرى لكنْ لن تكونَ الأخيرةَ من قصصِ الولوجِ في حالاتٍ عقيمةٍ اسمُها محاولةُ النشرِ في دورِ النّشرِ في دولِ العالَمِ الثّالثِ شديدةِ التشوّهِ والتخلّفِ الفكريِّ والماديِّ والاجتماعيِّ والثّقافيِّ. التعاملُ مع طبقةٍ من المثقّفينَ أو المتعلّمينَ تسيطرُ عليهم الطوباويّةُ وثقافةُ الكذبِ والخداعِ المتأصّلةُ أمرٌ غايةً في السلبيّةِ والمرارةِ وشدّةِ الوقْعِ على حسنِ سيرِ الحياةِ. مقارنةً مع التعاملِ مع دورِ النّشرِ الأخرى خاصّةً في العالَمِ الغربيِّ فإنّهُ لا بدَّ من القولِ "ألا لعنةٌ تحلُّ على وضعٍ عامٍّ فيهِ شخصٌ يدخلُ في هكذا متاهاتٍ مع أشباهِ بشرٍ!". أوضاعٌ يكونُ العيشُ في ظلِّ "اشيانوكراسيا" أكثرَ شرفاً وعزّةَ نفسٍ واحتراماً للحياةِ من الخوضِ في دهاليزِ مجتمعٍ لا تجدُ فيهِ ثقافةُ الكذبِ من يعملُ على محاصرتِها ومنعِها من الانتشارِ والسيادةِ فيهِ بشكلٍ عامٍّ ساحقٍ ماحقٍ. في هذا الصّددِ لا يُستحسَنُ استعمالُ معجونِ بـ٣ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ هنا بسببِ تدنّي مستوى أو جودةِ ذقنِ السيّدِ "سحويلٍ" عن أنْ يتمَّ التّعاملُ معهُ بهذا المعجونِ. إضافةً إلى ذلكَ لا يُعتقدُ أنَّ هنالكَ فاعليّةً كافيةً لمعجونِ بـ٣ في التّعاملِ مع ذقنِ السّيّدِ "سحويلٍ" بغيةَ حملهِ على التّراجعِ عن منهجيّتِهِ في الكذبِ. بعبارةٍ أخرى من الصعوبةِ بمكانٍ قد تصلُ إلى درجةِ الاستحالةِ فصلُ سلوكِ حياةِ السيّدِ "سحويلٍ" عن الكذبِ.

ملاحظةٌ: نُشِرتْ روايةُ "اشيانوكراسيا" في دارِ نشرٍ أخرى تحتَ عنوانٍ آخرَ وفي فترةٍ قياسيةٍ نسبياً، ما بينَ موعدِ تسليمِها لدراستِها للنّشرِ وخروجِها إلى سوقِ الكتابِ. هذا مع بعضِ الصعوباتِ والمعاناةِ التي لا مفرَّ من تخطّيها بالنسيانِ خاصّةً لعقليّةٍ بحاجةٍ إلى الحدِّ الأدنى من الهدوءِ وراحةِ البالِ. يجبُ أنْ تُؤخَذَ بالحسبانِ وعلى الدّوامِ حالةُ الإفلاسِ

الماليِّ المزمنِ التي تسيطرُ على الأوضاعِ النفسيّةِ والمعنويّةِ والسلوكيّةِ للمشمولينَ في عمليّةِ الطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ والتّسويقِ.

دارُ "بطوطةُ للنّشرِ"

تسيطرُ على الذهنيّةِ البشريّةِ نزعةُ حبِّ الظهورِ إلى السطحِ بأسهلِ وأقربِ وربّما أرخصِ الطرقِ الممكنةِ. مثلُها مثلُ بقيّةِ المؤسّساتِ النَظيراتِ عبرَ العالَمِ فدورُ النشرِ في الدّولِ النّاميةِ عموماً، والعربيّةِ خصوصاً، قادرةٌ على رفعِ أناسٍ من مرتبةٍ أو موقعٍ متدنٍّ إلى آخرَ قد يلامسُ مواقعَ النجومِ فوقَ السّحابِ في أذهانِ المعجَبينَ. لذلكَ إذا ما تَمكّنَ أحدُهم من الانتهاءِ من تأليفِ كتابٍ بالطّرقِ التقليديّةِ سرعانَ ما يبحثُ عن ناشرٍ ناجحٍ أو لامعٍ في دنيا الفكرِ والنّشرِ والإعلامِ. الطرقُ التقليديّةُ في التأليفِ قد تكونُ عن طريقِ الإبداعِ والابتكارِ الأدبيِّ والشعريِّ والنثريِّ وقد يكونُ في مجالِ التحليلِ والفكرِ المقارَنِ. هنالكَ طريقةٌ أقلُّ تكلفةً فكريّاً تعتمدُ على الترجمةِ ونقلِ الأفكارِ كما هي أو ببعضِ التصرّفِ حتى تصبحَ قراءةُ النصِّ سهلةً قدْرَ المستطاعِ. للمترجمِ والحالُ هذهِ هامشٌ كبيرُ من الحريّةِ يختارُ فيهِ ما يشاءُ من الأعمالِ العالَميّةِ الناجحةِ ويعملُ عليها فترةً من الوقتِ. وثمّةَ هنالكَ طريقةٌ حديثةٌ في التّأليفِ تعتمدُ "القطعَ واللصقَ" على نطاقٍ واسعٍ وهي تسودُ حاليّاً مع التواكلِ المتصاعدِ على وصولِ المعلوماتِ والأفكارِ بطريقةٍ سهلةٍ عبرَ شبكةِ الإنترنتْ. تصلحُ هذهِ الطريقةُ في "تأليفِ" الكتبِ العلميّةِ والأكاديميّةِ في شتّى المجالاتِ والميادينِ. لكنَّ هذهِ الطّريقةَ الأخيرةَ المنتشرةَ عبرَ العالَمِ تعملُ على شلِّ قدْرةِ العقولِ على التفكيرِ الأصيلِ الأصليِّ المستقلِّ. في النهايةِ سيلجأُ المؤلِّفُ إلى إحدى دورِ النّشرِ ليسوّقَ ويوزّعَ "بيضاتهِ" الفكريّةَ إلى جماهيرِ القرّاءِ عن طريقِها.

في سوقِ النّشرِ ذاتهِ هنالكَ المئاتُ من دورِ النّشرِ، منها القديمُ والعريقُ والحديثُ والصاعدُ والهابطُ والواعدُ والنّاجحُ والفاشلُ والمفلسُ والطّموحُ والكاذبُ والصّادقُ والحابلُ والنابلُ. كلُّ أعلاهُ مخلوطٌ على شكلِ سبيكةٍ قد لا يكونُ هنالكَ من بدٍّ في وصفِها بأنّها تكتنفُ نفحاتٍ شيطانيّةً أو إلهيّةٍ لاهوتيّةٍ أو ذاتِ طابعٍ متميّزٍ بهذا الشكلِ أو ذاكَ. في النهايةِ فالكسبُ الماديُّ الماليُّ بصورةٍ خاصّةٍ هو المأربُ الذي تلتقي عندَهُ جلُّ إراداتِ وميولِ ونزعاتِ دورِ النشرِ. وفي ظلِّ كسادٍ هائلٍ قاتلٍ للأنفاسِ فمن المتوقّعِ من دورِ النشرِ الحديثةِ أنْ تفعلَ أيَّ شيءٍ يليقُ بالمقامِ أو لا يليقُ بأيِّ مقامٍ في سبيلِ تأمينِ شيءٍ

يقيها من حالةِ الإفلاسِ المروّعةِ التي تعاني منها حاليّاً مؤسّساتُ العالَمِ بشكلٍ عامٍّ والعالَمِ النّامي بشكلٍ خاصٍّ. إفلاسٌ أو خواءُ جيوبٍ قد يضطرُّ المسئولينَ في دورِ النّشرِ من ذوي ربطاتِ العنقِ الفاخرةِ، أو هكذا تبدو، لارتكابِ الموبقاتِ الفكريّةِ والسياسيّةِ والوطنيّةِ عدا عن السلوكيّةِ الرّوحيّةِ الدينيّةِ!.

في خضمِّ التحوّلِ الدوليِّ العامِّ إلى تعزيزِ الخصخصةِ وتعميمِ دورِ المؤسّساتِ الخاصّةِ باتَ على المجتمعاتِ البحثُ عن طرقٍ لتعزيزِ ذلكَ في فكرِ الأجيالِ. تواجهُ الدولُ في العالَمِ النامي ظروفاً مرعبةً في مواجهتِها مع الواقعِ المريرِ الناجمِ عن إخفاقِ الدولِ الصناعيّةِ في تأمينِ حلولٍ جذريّةٍ، من البدايةِ، تجعلُ العالَمَ أكثرَ أمناً وأماناً نفسيّاً ومعنويّاً وماديّاً. يعودُ ذلكَ إلى أنَّ تلكَ الدولَ الصناعيّةَ من الأنانيّةِ والجهلِ والتسلّطِ تركّزُ بالدرجةِ الأولى والثّانيةِ ... إلى الأخيرةِ على تنميةِ نفسِها وإيراداتِها ولو على حسابِ كلِّ الغيرِ. لكنْ من البديهيِّ أنَّ حلَّ أيّةِ مشكلةٍ أو مجموعةٍ منها يجبُ أنْ يبدأَ من المصدرِ نفسهِ أوّلاً وثانياً وثالثاً .... إلى ما قبلَ أخيراً بواحدٍ أو اثنيْنِ!. نتيجةً لذلكَ كانَ لا بدَّ للشعوبِ الناميةِ من العودةِ إلى الذّاتِ، وعندَما عادت إلى ذاتِها وجدت أنفسَها في وضعٍ لا تُحسدُ عليهِ. كلُّ المصروفاتِ باتجاهِ التعليمِ الحديثِ لمِ تُنجزْ لتلكَ الدولِ إلا تبعيّةً إضافيّةً صرفةً قاتلةً للروحِ والنفسِ والمعنى والمادّةِ. مثلاً وعلى الإطلاقِ لا حصراً فإنَّ كلَّ النّشاطِ العلميِّ والعمليِّ والتقنيِّ الفنيِّ لأطبّاءِ الأسنانِ والمعاملِ الخاصّةِ المُلحَقةِ بها في الدّولِ النّاميةِ لم يمكّنْها من إنتاجِ فرشاةٍ متواضعةِ المستوى لتنظيفِ الأسنانِ. لا يُفترَضُ الغباءُ والعقمُ المُطبِقُ في عقولِ جموعِ العاملينَ في مجالِ طبِّ الأسنانِ، لكنَّ سياساتِ الدّولِ الصناعيّةِ الاحتكاريّةِ وتطبيقِ قانونِ ما تسمّى بالملكيّةِ الفكريّةِ حرمَ منظومةَ العالَمِ النّامي من إنتاجِ فرشاةِ أسنانٍ واحدةٍ. باتَ التّفكيرُ العامُّ يتّجهُ إلى أنَّ كلَّ من يريدُ أنْ يُبدعَ أو يبتكرَ في شيءٍ عليهِ أنْ يذهبَ إلى إحدى تلكَ الدّولِ الصناعيّةِ. بعبارةٍ أخرى تمَّ حرمانُ الدّولِ النّاميةِ من عقولِها المفكّرةِ أو المبدعةِ أو المنتجةِ وبقيتْ مثلَ أجسامٍ مشلولةٍ تتجهُ بأصابعِها وأفواهِها إلى الدّولِ "الغنيّةِ".

في ذهنِ المؤلِّفِ يمثّلُ الحمارُ الذي يمشي على أربعٍ وبأذنيهِ وظهرهِ وذيلهِ المميّزةِ كلُّها إضافةً إلى أسلوبهِ في التصرّفِ إزاءَ الحياةِ مثلاً يعينُ الشعوبَ الناميةَ على التحرّرِ الاقتصاديِّ والفكريِّ والاجتماعيِّ وتبعاً لذلكَ السّياسيِّ. في منهجيّةِ الحمارِ المتمثّلةِ بجدّيتهِ في العملِ ومثابرتهِ وقدرةِ تحمّلهِ وصبرهِ على ظروفِ الحياةِ وتصرّفاتِ البشرِ قد يكمنُ مفتاحُ الحلِّ في جلِّ قضايا الشعوبِ في دولِ العالَمِ النامي خاصّةً، وحتّى العالَمِ عامّةً. الحمارُ المُهانُ المُستباحُ شكلاً وكرامةً وتصرّفاتٍ وصوتاً والمستخفُّ بهِ قدراتٍ

ذهنيّةً يقدّمُ جانباً شديدَ الإشراقِ على المعضلةِ البشريّةِ المتراكمةِ في التضخّمِ والاستعصاءِ. في ذلكَ يصبحُ الحمارُ حقّاً بطلاً جديراً بالوقوفِ في ظلّهِ أمامَ تجربتهِ وفلسفتهِ وروحهِ التي لا تعرفُ سوءَ النّوايا ولا المللَ ولا الكللَ في العملِ للصّالحِ العامِّ والخاصِّ.

قمتُ بصرفِ بعضِ الجهدِ لتسليطِ الضّوءِ على دولةِ مؤسّساتٍ يمكنُ للحمارِ وضْعُ حجرِ الأساسِ في إنشائِها وتطويرِها. يعتمدُ الحمارُ في ذلكَ على صفاتٍ أساسيّةٍ متوفّرةٍ فيهِ مثلَ قوّةِ حافرِهِ وحضورِهِ الجنسيِّ المتميّزِ وصبرِهِ الذي لا حدودَ لهُ، تقريباً؛ الميّزةُ الأخيرةُ تتجلّى عندَما يكونُ مخصيّاً. هذا إلى جانبِ قدرتهِ على إنجازِ استقلالٍ سياسيٍّ هائلٍ بتوخّيهِ قلّةَ المصروفِ والاعتمادِ على الغيرِ ممّا يؤهّلُهُ لتبوّئِ مكانٍ مرموقٍ في وزاراتِ الاقتصادِ أو يكونَ قدوةً ورمزاً معبّراً لوزراءِ النقلِ أو العملِ والعمّالِ والفلاحةِ والزّراعةِ في حكومةِ تكنوقراطٍ بشريّةٍ ناجحةٍ. قلتُ في نفسِيَ "يا ولداً!" تذكّرْ أيّامَ أعزِّ صديقٍ لكَ في صباكَ، الحمارُ "حالوشُ". يتمتّعُ صديقِيَ "حالوشُ" الأصلُ أو الحقيقيُّ، وهو حمارٌ كانَ يقتنيهِ أحدُ أصدقاءِ الوالدِ المقرّبينَ (وكانَ يُكنى "أبوالطيّبِ")، يتمتّعُ بقوّةٍ جنسيّةٍ غيرِ عاديّةٍ إلى جانبِ حافرٍ لا يلينُ وماعونٍ قدرةٍ على إنجازِ الأعمالِ الشّاقّةِ لا يعرفُ النضوبَ. بعدَ تفكيرٍ قليلٍ لكنْ مهمٍّ وجدتُ حلّاً في دولةِ مؤسّساتٍ حقيقيّةٍ يؤسّسُ لها مخلوقٌ مميّزٌ مثلَ "حالوشِ"، بشكلٍ قصصيٍّ روائيٍّ هنا.

أثناءَ كتابةِ نصوصِ مشاهدِ روايةِ "بطولاتٌ وأبطالٌ" القائمةِ على منهجيّةِ الحمارِ "حالوشِ"، وعمومِ الحميرِ من سلالتهِ، كانتْ هنالكَ لذّةٌ في الفكرِ فتحتْ أبواباً كثيرةً كانتْ من قبلُ مغلقَةً. منهجيّةٌ سلّطتْ الضوءَ على نقاطٍ تهمُّ الإنسانَ العاديَّ البسيطَ والمتقدّمَ في الفكرِ وحتّى العصريَّ من مستوى نجومِ هوليوود والمدمنينَ على أفلامِ الأخيرينَ. في حوالَيْ ١٥٠ صفحةً أو ما يعادلُ حوالَيْ ٦٠ ألفَ كلمةٍ عربيّةٍ قمتُ بترتيبِ الروايةِ في مشاهدَ متلاحقةٍ. في دولةِ الحمارِ التي أسّسَها "حالوشُ" احتاجَ الإنسانُ للاستغناءِ بل للاستقلالِ عنها للجرّارِ الزراعيِّ وسيّارةِ النقلِ وحافلاتِ الشّحنِ والمولّداتِ الكهربائيّةِ وشبكاتِ نقلِ المياهِ في الأنابيبِ وثوراتٍ متعاقبةٍ في الإلكترونيّاتِ والاتصالاتِ والإنترنتْ. لكنَّ فكرةَ ونظريّةَ ومنهجيّةَ الحمارِ في العملِ وفلسفتَهُ في الحياةِ لا تزالُ ترسلُ إيحاءاتٍ إيجابيّةً جمّةً إلى كلِّ أصحابِ العلاقةِ والشّأنِ. ليسَ من المستبعَدِ أنْ يواجهَ الفكرُ البشريُّ المتخبّطُ الأهوجُ ظروفاً حرجةً تؤدّي بهِ في النهايةِ إلى العودةِ إلى التوسّلِ! إلى الحمارِ الذي يمشي على أربعٍ لحلِّ مشاكلِ الأوّلِ المستعصيةِ المتراكمةِ.

حَمَلتُ روايةَ "بطولاتٌ وأبطالٌ" إلى معرضٍ دوليٍّ للكتابِ مُقام في أبريلِ نسيانَ ٢٠٠٨. السيّدُ "فهدُ بورَعدٍ" جمعتني بهِ صداقةٌ سريعةٌ من معرضٍ سابقٍ للكتابِ دوليٍّ. في حينهِ أيْ في اللقاءِ الأوّلِ ترفّعَ السيّدُ "بورعدٌ" عن التعاملِ مع روايةٍ أخرى لِيَ بعدَ أنْ اكتشفَ أنّني جديدٌ في عالَمِ الكتابةِ والتأليفِ العربيّيْنِ. حينَها نصحني السيّدُ "بورعدٌ" أنْ ليسَ لي مستقبلٌ واعدٌ في سوقِ الروايةِ الذي يطفحُ بالحابلِ والنّابلِ من الروائيينَ، الأصليينَ والمترجمينَ الناقلينَ. لشخصٍ واقعيٍّ وواعٍ قادمٍ متأخّراً إلى سوقِ الكتابةِ في القصصِ والمذكّراتِ والرّواياتِ فإنَّ نصيحةَ السيّدِ "بورَعدٍ" هذهِ تعادلُ قافلةً طويلةً من الإبلِ الثمينةِ!، وليسَ جَمَلاً واحداً كما درجتْ العربُ قديماً على تقديرِ قيمةِ النصيحةِ المناسبةِ في الوقتِ المناسبِ!. إضافةً فإنّهُ لا ضيرَ ولا عجبَ ولا غرابةَ في رفضِيَ من قِبَلِ السيّدِ "بورعدٍ" لأنَّ خلفيّتِيَ وأساسِيَ علمِيٌّ، وما التعلّقُ بالروايةِ إلا حالةٌ طارئةٌ أملتها الظروفُ القاهرةُ بحدّةٍ وضراوةٍ واستمراريّةٍ. في حديثٍ وديٍّ جانبيٍّ على هامشِ الأعمالِ لكنْ جرى بينَ القلوبِ عوضاً عن الألسنِ والعقولِ، وفي خضمِّ أعمالِ المعرضِ الدوليِّ للكتابِ المُقامِ:

أنا: طابَ يومُكَ يا سيّدَ "بورعدَ"، وفرصةٌ سعيدةٌ أنْ أراكَ مرّةً أخرى. هل تذكرُني؟! لقد رأيتُكَ في معرضٍ دوليٍّ للكتابِ قبلَ عدّةِ أشهرٍ.

السيّدُ "بورعدٌ": نعمْ، أذكرُكَ جيّداً. أنتَ الدّكتورُ "آآآآ.... موسى"؟!.

أنا: يا لكَ من عبقريٍّ تتمتّعُ بماردٍ من الفطنةِ وقوّةِ الذّاكرةِ! في الدماغِ. نعمْ، أنا الدكتورُ موسىً يعقوبٌ قاسمٌ. لقد أبديتَ تحفّظاً على تقبّلِ روايةٍ سابقةٍ للنشرِ من تأليفِيَ. ها قد أتيتُكَ اليومَ بروايةٍ جديدةٍ لا يمكنُكَ أنْ ترفضَها!. حمارٌ فحلٌ قويٌّ ينشِئُ دولةَ مؤسّساتٍ مطعّمةً بظاهرةِ الخصخصةِ ويُبدِعُ فيها. ها قد أتيتُ لكَ بقرصٍ مُدمَجٍ (CD) ونسخةٍ أخرى مسحوبةٍ على الورقِ لا يمكنُكَ الهربُ من قبولِها. وإذا ما أدبرتَ عن ذلكَ فأنتَ لستَ بصديقِيَ ولن أزورَ جناحَ دارِ "بطوطةُ للنّشرِ" في المعرضِ، ولن أشترِيَ منها كتباً!.

السيّدُ "بورعدٌ": هاهاهاها ههههه، لا عليكَ يا هذا؛ سآخذُ منكَ الروايةَ وأحاولُ نشرَها في دارِنا للنشرِ. والآنَ تفضّلْ وألقِ بنظرةٍ على مجموعةٍ من روائعِ الكتبِ الجديدةِ الصادرةِ عن دارِنا للنشرِ.

أنا: هذا كتابٌ يعجبُني، وذاكَ، وذاكَ ..... ها وذاكَ يالله .... لشأنِكَ وشأنِ الكتابِ أعطِني إيّاهم بالسّعرِ العاديِّ ولا أريدُ حسماً على المبيعاتِ. سأضغطُ على نفسِيَ وميزانيّتِيَ. لقد استأجرتُ سيّارةَ تاكسي مدفوعةَ الأجرةِ سلفاً، ولا أحتاجُ لتوفيرِ نقودٍ في ذلكَ الاتجاهِ للعودةِ إلى بيتِيَ.

السيّدُ "بورعدٌ": لن يأخذَ الأمرُ أكثرَ من أسبوعيْنِ أو ثلاثةٍ كيْ أردَّ عليكَ بجوابٍ فيهِ قبولٌ أو اعتذارٌ عن النشرِ. لدينا مجموعةٌ من اللجانِ القارئةِ المحكِّمةِ وسأوصيهم شخصيّاً بتدبّرِ الأمرِ، "تِكرَمْ عاينَكْ حبيبْ ألبيه!" (تعبيرٌ شائعٌ يمكنُ وضعُهُ باللغةِ الفصحى: إكراماً لعينِكَ يا حبيبَ قلبِيَ!).

أنا: اللهُ يرضى عليكَ يا هذا، ذلكَ ما يوفّرُ عليَّ كثيراً من الجهدِ والوقتِ وتشتيتِ الفكرِ ويريحني من التحسّبِ غيرِ الموضوعيِّ والميدانيِّ. نحنُ اليومَ نعيشُ في عصرِ السّرعةِ الحقيقيّةِ في حسمِ الأمورِ وتطوّرِ الذّوقِ والإتيكيتِ والعلاقاتِ العامّةِ.

خلالَ فترةِ المعرضِ وحتى إلى ما قبلَ النهايةِ بدقائقَ كانَ لا بدَّ من تكرارِ حضورِيَ للمعرضِ لترسيخِ وجودِيَ ما أمكنَ في أذهانِ من يعنيهم الأمرُ ولدحضِ حجّةٍ أو مبرّرٍ متكرّرٍ مثلَ "آسفٌ نسيتُ عملَكَ الفكريَّ أو حتّى اسمَكَ وشكلَكَ!". ذلكَ ما كانَ يحدثُ في حالاتٍ سابقةٍ تؤدّي بالإنسانِ الكاتبِ أو المؤلّفِ إلى العيشِ في دوّامةٍ مع نفسهِ ومع الأشباحِ. كان الوعدُ يتلخّصُ بأنّهُ في غضونِ أسبوعيْنِ من حينهِ ستُعرضُ الروايةُ على اللجنةِ وبعدَها بأسبوعيْنِ إضافيّيْنِ سيتمُّ الردُّ. وبما أنّنا نعيشُ في مجتمعٍ لا يعرفُ كثيراً دقّةَ المواعيدِ ومعنى ما ينطقُ بهِ اللسانُ، وتجنّباً للإحراجِ من السّؤالِ الملحِّ، كانَ لا بدَّ من مضاعفةِ تلكَ الفترةِ الزمنيةِ وتمديدِها لشهرٍ قبلَ التجرّؤِ بالسّؤالِ عمّا يجري ويحصلُ. لم تصلنِ رسالةٌ رسميّةٌ أو إشعارٌ رسميٌّ باستلامِ تلكَ المخطوطةِ، "بطولاتٌ وأبطالٌ"، أو بدءِ التعاملِ معها. لم يتوصّلْ القومُ حتّى الآنَ إلى آليّةٍ أو جدولةٍ للوقتِ بهامشٍ ضيّقٍ من الخطأِ في التقديرِ. في هذا المجالِ بالذّاتِ لا تزالُ المؤسّساتُ في الدولِ الناميةِ عامّةً والعربيّةِ خاصّةً، يا ويحَ القلبِ عليهم، لا تزالُ في الفترةِ البدائيّةِ التي أعقبتْ ظهورَ الحضاراتِ والمدنيّةِ والتطوّرِ الفكريِّ والتقنيِّ للبشريّةِ.

بعدَ حواليْ الشهرِ من حينهِ أجريتُ اتصالاً مع السيّدِ "بورعدٍ" والذي ردَّ على الطرفِ الآخرِ من خطِّ الهاتفِ المحمولِ وكانَ لا يزالُ دافئَ الصوتِ والوعدِ. قلتُ في نفسِيَ "يا ولداً! منذُ البدايةِ لو صبرتَ قليلاً قبلَ الوقوعِ في براثنِ التخلّفِ والفوضى والتعفّنِ لدى بعضِ دورِ النشرِ الأخرى". ها هو السيّدُ "بورعدُ" يحلُّ عقدةً نفسيّةً ومعنويّةً، وقد

تكونُ ماديّةً مستعصيةً، إذا ما تمكّنَ الحمارُ "حالوشُ" من المرابطةِ بصبرٍ مطلوبٍ بشدّةٍ في سوقِ بيعِ الكتابِ والروايةِ العربيّةِ الحديثِ. ومثلَ أحدِ نجومِ هوليوودَ أو لاعبي كرةِ السلّةِ أو القدمِ بعدَ إحرازِ الأخيرِ لهدفٍ حاسمٍ في مباراةٍ أمامَ ناظرِ الجماهيرِ اندفعتُ إلى الأمامِ بقوّةٍ ورفعتُ قبضتِيَ وصوتِيَ عالياً هاتفاً "ها قد فعلتُها أنا وحالوشُ وبورعدُ".

بعدَ حواليْ الأسبوعِ وددتُ إجراءَ مكالمةٍ هاتفيّةٍ على الهاتفِ المحمولِ مرّةً أخرى بهدفِ "التجسّسِ" على مجرياتِ أمورِ "حالوشِ وسلالتهِ" في دارِ "بطوطةٌ للنّشرِ". ردَّ عليَّ شخصٌ آخرُ زعمَ أنَّ السيّدَ "بورعدَ" في مهمّةِ عملٍ خارجَ البلادِ وسيعودُ بعدَ أسبوعٍ من حينهِ. لا عليهِ!، ردَدتُ وقلتُ سأنتظرُ أسبوعاً آخرَ. أنا من النوعِ الذي يرتاحُ أكثرَ للطّعامِ الموعودِ، أكثرَ من الذي في الفمِ أو ما بينَ يديَّ. أسبوعٌ آخرُ مَرَّ، وكرّرتُ المكالمةَ. ردَّ نفسُ الشخصِ السابقِ وزعَمَ هذهِ المرّةَ أنَّ السيّدَ "بورعدَ" انتقلَ إلى دولةٍ أخرى وقد يمضي أسبوعانِ على الأقلِّ قبلَ عودتهِ إلى البلادِ. سألتُ ذلكَ الشخصَ إنْ كانَ يعرفُ هاتفاً أو فاكْساً أو طريقةً للاتصالِ بأحدٍ يعرفُ عن النشرِ لسؤالهِ عمّا آلتْ إليهِ "جمهوريّةُ الحميرِ" في روايةِ "بطولاتٌ وأبطالٌ". اعتذرَ ذلكَ الشخصُ بأنّهُ لا علمَ لديهِ ولا قدرةً لهُ على التعاطي مع هكذا شئونٍ وأمورٍ. أضافَ أنَّ عليَّ أنْ أصبرَ قليلاً حتّى يأتِيَ صاحبُ الشأنِ، السيّدُ "بورعدُ". قلتُ في نفسِيَ أنّهُ إذا ما أتت الأمورُ للصبرِ فإنّني من أكثرِ الجديرينَ بذلكَ إذ أنَّ هنالكَ روايتيْنِ لِيَ قيدَ الطباعةِ عن الحمارِ المعروفِ عالَميّاً بالصبرِ والتحمّلِ والجلَدِ. لكنْ هنالكَ شبحُ أو حتّى بوادرُ أزمةٍ أو كارثةٍ في مجالِ النّشرِ تلوحُ في الأفقِ.

في زيارةٍ لأحدِ الزملاءِ المقرّبينَ إلى دولةِ السيّدِ "بورعدِ" أوصيتُ الأوّلَ بزيارةِ الثاني في دارِ "بطوطةُ للنشرِ" والاستفسارِ عن كثبٍ عن حالِ روايةِ "بطولاتٌ وأبطالٌ". وفعلاً تمَّ لهُ ذلكَ وزعمَ السيّدُ "بورعدُ" أنَّ الروايةَ بيدِ أعلى المناصبِ في دارِ "بطوطةُ للنّشرِ". أضافَ السيّدُ "بورعدٌ" أنّهُ خلالَ أسبوعٍ تقريباً من حينهِ سيتمُّ الردُّ النهائيُّ على طلبِ نشرِ الروايةِ. كانَ هنالكَ فرحٌ مزدوَجٌ، علَى الأقلِّ، فالروايةُ بيدِ شخصيّةٍ مرموقةٍ فكريّاً أوّلاً وسيتمُّ الردُّ على طلبِ النّشرِ بسرعةٍ مقبولةٍ ثانياً. وفعلاً لكنْ بعدَ عشرةِ أيّامٍ تقريباً جاءتني رسالةٌ بالبريدِ الإلكترونيِّ فيها يعتذرُ السيّدُ "بورعدٌ" عن نشرِ روايةِ "بطولاتٌ وأبطالٌ". حدثَ ذلكَ دونَ إبداءِ أسبابٍ تختصُّ بالنصِّ والأسلوبِ والمستوى الأدبيِّ والفكريِّ والاجتماعيِّ ... إلخُ إلخُ. لكنْ قد تكونُ هنالكَ عدّةُ أسبابٍ مجتمعةٌ تحولُ دونَ الخوضِ في نشرِ روايةٍ تتطرّقُ بشكلٍ واقعيٍّ ميدانيٍّ إلى شئونِ الحمارِ وقدراتهِ على

طَرْقِ أبوابٍ عديدةٍ خاصّةً في النواحي السّياسيّةِ والإداريّةِ والتنظيميّةِ والجنسيّةِ والقدْرةِ على الانتشارِ والسّيادةِ في المجتمعاتِ البشريّةِ بطريقةٍ أو بأخرىً.

يجبُ الاعترافُ هنا بأنَّ الردَّ السّريعَ نسبيّاً على طلبِ النّشرِ من جانبِ دارِ "بطوطةُ للنّشرِ"، ولو بعدَ إلحاحٍ ومتابعةٍ مضنيَيْنِ مُكلِفيْنِ!، يمكنُ أنْ يُعتبَرَ رياديّاً يجبُ الاقتداءُ بهِ من جهةِ دورِ النّشرِ الأخرى في العالَمِ الثالثِ. ذلكَ ما يعطي للكاتبِ المؤلِّفِ وقتاً أطوَلَ للبحثِ عن بدائلَ في البحثِ عن دورِ نشرٍ أخرى، سلوكٌ مشرِّفٌ وحضاريٌّ لا يدخلُ في حسبانِ دورِ نشرٍ كثيرةٍ في التعاملِ مع الكتّابِ حتّى الآنَ. بالنّسبةِ لحالِيَ شخصيّاً فإنّني من النّوعِ الذي لا يحبّذُ إعطاءَ فريقيْنِ مختلفيْنِ طلباً واحداً، وأفضّلُ الانتظارَ حتّى ينتهيَ الأمرُ من دارِ نشرٍ قبلَ الانتقالِ إلى أخرى. ذلكَ تجنّباً للإحراجِ الذي يرقى عندِيَ إلى مرتبةِ خطيئةٍ لا تُغتفَرُ بسهولةٍ؛ إذ كيفَ أسمحُ لنفسِيَ بإضاعةِ أوقاتِ وجهودِ الآخرينَ للبتِّ في إمكانيّةِ طباعةِ ونشرِ عملٍ لِيَ!؟ تكونُ نتيجتُهُ الإعراضُ الأرعنُ عنهم. في الوقتِ ذاتهِ يجبُ القولُ أنَّ ذلكَ الردَّ السّريعَ نسبيّاً جاءَ نتيجةَ إلحاحٍ وتذكيرٍ مستمرٍّ من جهتِيَ للقائمينَ على النّشرِ، باستعمالِ الوسائلِ العصريّةِ السريعةِ الممثّلةِ بالهاتفيْنِ الثّابتِ والمحمولِ وخدمةِ الرسائلِ القصيرةِ (خ.ر.ق.) والإنترنتْ والتقليديّةِ عن طريقِ زيارةٍ ميدانيّةٍ لمقرِّ دارِ النّشرِ من قِبَلِ أحدِ الزملاءِ المقرّبينَ. لكنْ وفي النهايةِ فالأمورُ تُقاسُ بالنتائجِ ولا مانعَ أنْ نظلَّ نبحثُ عن ولو قطراتِ ماءٍ في قعرِ كأسِ التّفاؤلِ لنزعمَ بعدَها أنَّ الكأسَ يحتوي ماءاً.

ملاحظةٌ: بعدَ حواليْ الثلاثةِ أسابيعَ من تلقّي الردِّ النهائيِّ في الاعتذارِ من دارِ "بطوطةُ للنّشرِ" أرسلتُ نسخةً بالبريدِ الإلكترونيِّ عن روايةِ "بطولاتٌ وأبطالٌ" لدارِ نشرٍ أخرى. بعدَ حوالي الثلاثةِ أشهرٍ لا أزالُ أنتظرُ ردوداً أكيدةً مشفوعةً بالوثائقِ على استفساراتِيَ عن مصيرِ الرّوايةِ. لكنَّ وحسبَ الوعودِ المقطوعةِ مبدئيّاً والشواهدِ من المكانِ وحولَهُ سيتمُّ نشرُ مخطوطةِ "بطولاتٌ وأبطالٌ" في دارِ النّشرِ تلكَ وتحتَ عنوانٍ آخرَ، ربّما أكثرَ ملاءمةً لواقعِ حالِ أحداثِ الروايةِ من العنوانِ أعلاهُ. لا يعني ذلكَ أبداً أنَّ الأمورَ سارتْ بسلاسةٍ ويسرٍ بل شابتها الكثيرُ من المواقفِ المنغّصةِ للبالِ والفكرِ والرّوحِ والحالةِ الماديّةِ المتداعيةِ. في النهايةِ تمَّ إسدالُ السّتارِ على فصولِ قصّةِ نشرِ كتابٍ لو تستمرُّ طويلاً لكانَ ساهمتْ في إحداثِ الكثيرِ من الويلاتِ والثبورِ والمآسي الصحيةِ والنفسيةِ والفكريّةِ والروحيّةِ. تساهمُ كلُّ هذهِ في الحالةِ المترديّةِ بامتيازٍ في سوقِ الكتابِ العربيِّ.

"فلاشو للنّشرِ"

التاريخُ هو منتصفُ شهرِ أبريلِ نيسانِ عامَ ٢٠٠٨ والمكانُ هو قاعةٌ في معرضٍ دوليٍّ للكتابِ. قارَبَ المعرضُ على الانتهاءِ ولم تبقَ منهُ سوى بضعُ ساعاتٍ على الإغلاقِ. كنتُ أحملُ بيدِيَ قرصاً مدمَجاً يحتوي مخطوطةً بعنوانِ "البطّيخُ الأصفرُ" أحاولُ البحثَ عن دارٍ لنشرِها، بغضِّ النّظرِ عن مكانِ وجودِ وتاريخِ حياةِ وسمعةِ الدّارِ والمسئولينَ عنها. في جلِّ عمليّةِ التأليفِ والطّباعةِ والنّشرِ يشبهُ الأمرُ الوضعَ لدى أعمىً يخترقُ بعصاهُ سوقاً مزدحماً بما هبَّ ودبَّ من الشخوصِ والأذواقِ والنزواتِ والنّصّابينَ وبقايا أمينينَ وما رحمَ ربُّكَ من هذا وذاكَ. ضقتُ ذرعاً بعمليّةِ التأليفِ وما يتبعُها من طباعةٍ ونشرٍ وتوزيعٍ و"جني أتعابٍ" وطفقتُ أبحثُ في الوجودِ عن أيِّ شيءٍ. خلالَ هذهِ العمليّةِ العبثيَّةِ المارقَةِ سيّئةِ الوقْعِ على الأعصابِ والكرامةِ الشخصيّةِ والإنسانيّةِ شعرتُ باختلالٍ واضحٍ في الخطواتِ والقدرةِ على الوقوفِ والسّيرِ على القدميْنِ والتعاملِ مع الأفكارِ الواردةِ للدّماغِ بلا هوادةٍ من كلِّ اتجاهٍ. لا مبالغةَ في القولِ فلقد كنتُ على وشكِ السّقوطِ أرضاً مغمىً عليَّ من الإرهاقِ الجسديِّ والفكريِّ.

من بينِ أجنحةِ دورِ النّشرِ كانَ ينتصبُ هنالكَ جناحُ دارِ "فلاشو للنّشرِ"، ويشرفُ على المبيعاتِ فيهِ شابٌّ يقتربُ من المنتصفِ في العمرِ. كانَ الشّابُّ "زاهي عطيّات" يحاولُ بطريقةٍ دبلوماسّيةٍ لطيفةٍ إقناعَ مجموعةٍ صغيرةٍ من الزوّارِ من جنسِ الإناثِ بشراءِ مجموعةٍ من الكتبِ التي يعرضُها. بسرعةٍ جذبتني طريقةُ العرضِ والإقناعِ التي يتمتّعُ بها الشّابُّ "عطيّاتُ"، وما أن انتهى من الحديثِ معَ مجموعةِ الزوّارِ حتى اختليتُ بهِ جانباً وتعرّفتُ عليهِ وعرّفتُهُ بنفسِيَ. كنتُ أشعرُ أنَّ الوقتَ يمرُّ بسرعةٍ تفوقُ بكثيرٍ السّرعةَ العاديّةَ في الحياةِ ولدى بقيّةِ البشرِ. أخبرتُ السيّدَ "عطيّاتٍ" بأنَّ لديَّ كتاباً أحاولُ نشرَهُ بالسّرعةِ الممكنةِ. مخطوطةُ "البَطّيخُ الأصفرُ" للمرّةِ الأولى تحاولُ النّزولَ إلى السّوقِ ولا مانعَ أنْ تكونَ دارُ نشرٍ من أيِّ مستوىً في السّوقِ، مرموقٍ أو غيرِ مرموقٍ. في ذهنِيَ أنَّ على الكاتبِ والكّتابِ يقعُ عبءُ إثباتِ جدارةِ أيٍّ منهما وليست مسئوليّةُ دارِ النشرِ بالدرجةِ الأولى والثانيةِ والثالثةِ تقريباً.

"البطّيخُ الأصفرُ" مخطوطةٌ أو مذكّراتٌ أو قصّةٌ تبحثُ في أسبابِ ضياعِ اللغةِ والثقافةِ والشخصيّةِ العربيّةِ على مذبحِ التقدّمِ التقنيِّ والازدهارِ الاجتماعيِّ المتوخّى. لغويّاً فالبطّيخُ الأصفرُ يعني إمّا فاكهةَ الشمّامِ، أو البطيخَ الأحمرَ (أحمرٌ من الدّاخلِ أخضرٌ من

الخارجِ) التّالفَ حيثُ جلدُ الأخيرِ يميلُ للّونِ الأصفرِ عندَ بدءِ تَلَفهِ؛ في الرّوايةِ المعنى الثّاني هو الأقربُ بهدفِ الوصفِ. في سردِ نصوصِ "الرّوايةِ أو المذكّراتِ" هنالكَ فتىً ينتقلُ في التعليمِ بينَ الابتدائيِّ والمتوسطِ والثّانويّةِ والجامعةِ ويصلُ مرحلةَ الحصولِ على شهادةِ الدكتوراه. خلالَ إلقاءِ الضّوءِ على خطّةِ تعليمهِ تجدُ الشخصيّةُ الوحيدةُ في السّردِ أنَّ وصفَ "البطّيخُ الأصفرُ" في المجتمعِ ينطبقُ أوّلاً وقبلَ كلِّ شيءٍ على كتلةٍ كبيرةٍ تحوي السّوادَ الأعظمَ من المتعلّمينَ في دولِ العالَمِ النّامي عامّةً والعالَمِ العربيِّ خاصّةً. بعبارةٍ أخرى تعبيرُ "البطّيخُ الأصفرُ" ينطبقُ بشكلٍ واضحٍ على مجموعةٍ كبيرةٍ من المتعلّمينَ "المخصيينَ" ذهنيّاً والذينَ أقدموا على بيعِ أهاليهِم وديارِهم وأوطانِهم ومبادئِهم بأثمانٍ بخسةٍ. ذلكَ سعياً وراءَ امتيازاتٍ سهلةٍ وصلتْ إليها المجتمعاتُ الأخرى، فيما يُعرفُ بدولِ العالَمِ الأوّلِ، تأتيهم عن طريقِ التّقليدِ الأعمى المزيّفِ أو حتّى بحصولِهم على جنسيّاتٍ أجنبيّةٍ تضرُّ أكثرَ ممّا تنفعُ في عمليّةِ البناءِ السّليمةِ للمجتمعاتِ النّاميةِ. "البطّيخُ الأصفرُ" تضعُ الكثيرَ من النّقاطِ على الحروفِ وتسمّي الكثيرَ من الأسماءِ بمسمّياتِها في محاولةٍ لجلبِ انتباهِ جيوشٍ من "المخصيّينَ ذهنيّاً" من المتعلّمينَ الموغِلينَ في زيادةِ المصاريفِ فقط، على حسابِ إنتاجِ أيِّ شيءٍ ولو بحجمِ عودِ ثقابٍ أو طاقيّةٍ للرأسِ أو شمسيّةٍ للوقايةِ من أشعّةِ الشّمسِ ومطرِ الشّتاءِ.

أنا: لديَّ كتابٌ لم أجدْ متّسعاً من الوقتِ كافٍ في غمرةِ وخضمِّ أعمالِ وفعّاليّاتِ المعرضِ الدوليِّ للكتابِ للتعرّفِ على دارِ نشرٍ مناسبةٍ. ما هي إمكانيّةُ دارِ "فلاشو للنّشرِ" لديكم للتعاملِ معِيَ بشأنِ هذا الموضوعِ؟!.

السيّدُ "عطيّاتُ": على الرّحبِ والسّعةِ وهل لديكَ ما يمكنُ أنْ نراهُ ونبحثَ فيهِ؟!.

أنا: لديَّ هذا القرصُ المدمَجُ وعليهِ المخطوطةُ مكتوبةٌ. كذلكَ أهديكَ هذهِ القصّةَ كتبتُها عن كفاحِ المرأةِ في المجتمعِ الريفيِّ بعنوانِ "خادمةٌ وذئابٌ" صدرتْ للتّوِّ. الذّئابُ في المذكّرةِ هنا تمشي على اثنتيْنِ ولا يوجدُ واحدٌ منها يمشي على أربعٍ ولهُ ذيلٌ وأنيابٌ تقليديّةٌ حادّةٌ.

السيّدُ "عطيّاتٌ": على الرّحبِ والسّعةِ "يا أفندم". عندَما أعودُ إلى الديارِ في الوطنِ سأناقشُ الوضعَ مع مديرِ دارِ النشرِ وسأردُّ عليكَ الجوابَ في غضونِ شهرٍ على أكثرِ الأحوالِ تشاؤماً.

أنا: تهمّني المواعيدُ الدقيقةُ و"وعدُ الحرِّ ديْنٌ"، كما يقولُ المثلُ العربيُّ الذي نادراً ما يطبّقُ في المجتمعِ العربيِّ نفسهِ، وعلى الإطلاقِ بتاتاً تقريباً.

السيّدُ "عطيّاتٌ": لا لا يافندم، نحنُ لدينا المواعيدُ محترمةٌ ووقتُ الإنسانِ ثمينٌ نحرصُ على توفيرهِ لهُ كيْ يستغلَّهُ بالشكلِ الذي يراهُ مناسباً لهُ.

أنا: هذا الكلامُ الواعدُ سيجعلني أنامُ ليلِيَ هادئاً مرتاحاً مطمئنّاً. ها أنا أعطيكَ ما هو أعزُّ من فلذةِ كبدٍ صغيرٍ في العمرِ على والديهِ، خاصّةً أمّهِ. هذهِ عصارةُ أفكارِيَ وخلاصةُ جهودِيَ لمدّةٍ لا بأسَ عليها من الزّمنِ. الأهمُّ من ذلكَ هي المبادئُ التي يحملُها الكتابُ ومحاولةُ تطبيقِها في العصرِ الحاليِّ. الآنَ تدلَهِمُّ الأجواءُ على العربِ والمسلمينَ بفعلِ تبعثرِ الجبهةِ الداخليّةِ العربيّةِ والإسلاميّةِ في وجهِ الهجمةِ الثقافيّةِ المحمومةِ المستعرةِ من الخارجِ والدّاخلِ، على حدٍّ سواءَ تقريباً.

فعلاً ذهبتُ إلى البيتِ مرتاحَ البالِ أنَّ في النهايةِ وفرصةِ اللحظةِ الأخيرةِ هنالكَ من أملٍ في دارِ نشرٍ تصدقُ في المواعيدِ وتحترمُ وتقدّرُ قيمةَ أوقاتِ البشرِ، خاصّةً الأخيرينَ من طبقةِ الكتّابِ. من ابتلاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ لِيَ أنّني شخصٌ أُقدّسُ المواعيدَ الدقيقةَ وُضِعْتُ في مجتمعٍ لا يحترمُ على الإطلاقِ تقريباً أهميّةَ وصدقَ الوعودِ ودقّةَ المواعيدِ. بدأتْ حالةُ الانتظارِ لردٍّ عسى أنْ يكونَ إيجابيّاً ويتمَّ الانتهاءُ من فصلٍ آخرَ في محاولاتِ النشرِ بسرعةٍ ليتسنّى لِيَ التفرّغُ للكتابةِ في موضوعاتٍ أخرى شيّقةٍ لِيَ. وفعلاً اكتسبتُ همّةً ونشاطاً ووقتاً إضافيّاً لمشروعِ كتابةٍ كنتُ قد بدأتُهُ من حالةٍ شديدةِ اليأسِ والبؤسِ المعنويّيْنِ. حتّى أنّني أثناءَ الكتابةِ الجديدةِ بدأتُ أستمتعُ باحتساءِ فنجانٍ من القهوةِ التركيّةِ، أو السّريعةِ، أو كأسٍ من الشّايِ أو بعضِ عصائرِ الفواكهِ. ذلكَ مع انتظامٍ واضحٍ في مواعيدِ تناولِ وجباتِ الطّعامِ قليلاً أصابَ معارفِيَ من حولِيَ ببعضِ الذّهولِ. قلتُ في نفسِيَ ولمنْ حولِيَ أنَّ "من جدَّ وجدَ، ومن سارَ على الدّربِ وصلَ، ومن طلبَ العُلى سهِرَ الليالي، وما نيلُ المطالبِ بالتّمنّي، ...."، وغيرَ ذلكَ من التعبيراتِ القديمةِ أضفتُ إليها بعضاً من خاطرِيَ المكسورِ المجروحِ.

مضت الأسابيعُ الثلاثةُ الأولى منذُ بدءِ الوعدِ ثمَّ انقضى الرابعُ والخامسُ حينَ بدأت تلوحُ في الأفقِ صورةُ تجربةٍ أخرى مع دورِ النّشرِ قد لا تقلُّ بؤساً وقتاماً عن سابقاتِها. حاولتُ إجراءَ اتصالاتٍ هاتفيّةٍ مع السّيدِ "عطيّاتٍ" ولم أفلحْ في ذلكَ بسببِ سفرهِ للخارجِ كما كانت الرسائلُ الصوتيّةُ من شركاتِ الاتصالاتِ عبرِ الحدودِ تشيرُ في أشرطةِ التسجيلِ الأوتوماتيكيّةِ. يمكنُ القولُ أنَّ التقنيةَ الغربيّةَ قد انتقلت بنجاحٍ في هذا المجالِ الذي يخبِرُ المتّصلَ بأنَّ "الهاتفَ المحمولَ المقصودَ مغلقٌ أو خارجَ نطاقِ التغطيةِ، يُرجى المحاولةُ مرّةً أخرى فيما بعدُ" كترجمةٍ حرفيّةٍ عن الأصلِ القائلةِ " The mobile phone you are dialing has been switched off or outside the coverage area, please try again

later". نجحتُ مرّةً بالاتّصالِ بالسيّدِ "عطيّاتٍ" وقمتُ بتذكيرهِ على الهاتفِ بنفسِيَ واللقاءِ والكتابِ والوعودِ المقطوعةِ. وعدَ السيّدُ "عطيّاتٌ" بإعطاءِ الموضوعِ عنايةً خاصّةً وقالَ أنّهُ على عهدهِ ووعدهِ ثابتٌ وماضٍ.

بعدَ حواليَ ٤٥ يوماً على تسليمِ مخطوطةِ "البطّيخُ الأصفرُ"، قطعتُ فيها كثيراً من الأملِ في التواصلِ، أخبرني صديقٌ لِيَ كانَ بصحبتِيَ في المعرضِ الدوليِّ للكتابِ أنّهُ تلقّى بريداً إلكترونيّاً يخصّني. يبدو أنَّ السيّدَ "عطيّاتٍ" قد امتزجَ عليهِ أمرُ العناوينِ حينَ أخذَ بطاقةَ تعريفٍ من صديقِيَ ونسِيَ الاطلاعَ على كلِّ سيرتِيَ الذّاتيّةِ الموجودةِ على القرصِ. لا مشكلةَ في ذلكَ فلقد حوّلَ صديقِيَ المقرّبُ الرسالةَ الإلكترونيّةَ إليَّ وبدوريَ رددتُ على دارِ "فلاشو للنّشرِ". تقولُ الرّسالةُ من دارِ "فلاشو للنّشرِ" أنَّ إدارةَ الدّارِ بصددِ البتِّ في طلبِيَ بطباعةِ ونشرِ المخطوطةِ المسمّاةِ "البطّيخُ الأصفرُ". كانتْ لهجةُ الرّسالةِ واعدةً وارتاحَ لها خاطِرِيَ. في الحالِ رددتُ على الرّسالةِ برسالةٍ إلكترونيّةٍ أخرى أخبرتُ دارَ "فلاشو للنّشرِ" أنّني أنا المؤلّفُ لا غيرُ وأنّني سعيدٌ أخيراً بالحصولِ على ردٍّ من جانبِ دارِ نشرٍ بالوسائلِ المتعارفِ عليها عصريّاً بخصوصِ الطّباعةِ والنّشرِ.

بعدَ حواليْ الأسبوعينِ من حينهِ وصلتني رسالةٌ بالبريدِ الإلكترونيِّ أظهَرَ فيها المرسِلُ المسئولُ في دارِ النّشرِ حماسَهُ لنشرِ مخطوطةِ "البطّيخُ الأصفرُ". أضافَ المرسِلُ أنّهُ يحتاجُ إلى تعاونٍ من جانبِيَ يتركّزُ على إمكانيّةِ دفعِ تكاليفِ الطباعةِ البالغِ حواليْ ١٢٠٠ دولاراً أمريكيّاً. ذلكَ مبلغٌ عالٍ ولا أقدرُ على توفيرهِ من نفسِيَ. تساءلتُ معَ نفسِيَ عن فائدةِ الاستمرارِ في محاولةِ نشرِ كتبٍ فيها ضياعٌ للجهدِ والعمرِ والخبرةِ، والمالِ دونَ هوادةٍ!؟. لكنَّ قطارَ الحياةِ لا يجبُ أنْ يتوقّفَ عندَ مشكلةٍ من هذا القبيلِ أو ذاكَ. لجأتُ إلى صديقٍ ميسورِ الحالِ قليلاً وأخبرتُهُ بالأمرِ والذي بدورهِ أظهرَ رغبةً في مساعدتِيَ بدفعِ جزءٍ لا بأسَ بهِ من المبلغِ أعلاهُ ريثما أسترجعُ ذلكَ من مبيعاتٍ متوقّعةٍ بعدَ طبعِ ونشرِ الكتابِ. يتميّزُ الإنسانُ بتشدّقهِ بالأملِ الذي قد يكونُ خافتاً يظلُّ يسعى لإحيائهِ ولو بالمغامرةِ بدفعِ تكاليفَ لا مهربَ من دفعِها. وضعُ سوقِ الكتابِ العربيِّ من الضحالةِ بمكانٍ يتوقّعُ فيهِ المرءُ كلَّ ما هو مخيّبٌ للآمالِ. جلُّ دورِ النّشرِ في المكانُ تبدو مفلسةً ماليّاً بسببِ ضعفِ مستوى مبيعاتِ الكتبِ. لكنَّ سنّةَ الحياةِ تقتضي أنَّ تجاربَ قومٍ عندَ قومٍ آخرينَ فوائدُ؛ وليكنْ الأمرُ كذلكَ، قلتُ في نفسِيَ.

بسرعةٍ رددتُ على البريدِ الإلكترونيِّ وأخبرتُ إدارةَ دارِ "فلاشو للنّشرِ" بأنّني سأرسلُ المبلغَ المطلوبَ على الاسمِ والعنوانِ اللذينِ تتوخّاهما. بعدَ حواليْ الأسبوعِ من الرّسالةِ الردِّ هذهِ جاءني مقترحٌ باسمِ وعنوانِ الشّخصِ المسئولِ. عن طريقِ وكالةِ صرافةٍ

وتحويلِ أموالٍ دوليّةٍ أرسلتُ حوالةً بالمبلغِ المطلوبِ، حوالةً من النّوعِ الذي يصلُ في الحالِ أو في دقائقَ من كبسةِ زرٍّ إلى أيِّ مكانٍ في العالَمِ. انتظرتُ أسبوعاً آخرَ للحصولِ على تأكيدٍ باستلامِ المبلغِ، على شكلِ سندِ قبضٍ مثلاً!، لكنَّ ذلكَ كانَ من قبيلِ الإسرافِ في تخيّلِ مستوى عالٍ في الإتيكيتِ والعلاقاتِ العامّةِ المتطوّرةِ!. ربّما! لم يجدْ المديرُ المسئولُ متّسعاً من الوقتِ ليعلمني فيهِ عن استلامِ المبلغِ، برسالةٍ إلكترونيّةٍ قد لا تأخذُ دقائقَ من وقتهِ الثمينِ. هنالكَ تفسيرٌ آخرُ هو أنَّ العقليّةَ الشرقيّةَ عموماً والعربيّةَ خصوصاً تجدُ حرَجاً في الإخبارِ عن مبلغٍ من المالِ يصلُ إليها، صوناً للكرامةِ الشخصيّةِ وعزّةِ النّفسِ!. كانَ عليَّ أنْ أتأكّدَ بنفسِي من وصولِ المبلغِ المرسَلِ حينَ أجريتُ مكالمةً هاتفيّةً فيما بعدُ، أيْ بعدَ إرسالِ المبلغِ بأسبوعٍ. في مثلِ هكذا أحوالٍ ميئوسٍ منها في التعاملِ مع مجموعةٍ بشريّةٍ غارقةٍ فيما يمكنُ أنْ يُعرَفَ بجحيمِ البؤسِ والفقرِ والشقاءِ والفوضى يكفي الوصولُ إلى الهدفِ بغضِّ النظرِ عن موعدِ الوصولِ متقدّماً أو متأخّراً. هذا مع العلمِ أنّهُ من الندرةِ بمكانٍ قد تصلُ إلى مستوى العدمِ أنْ تجدَ داراً للنّشرِ، وحسبَ خبرتِيَ المتواضعةِ فقط، تتمتّعُ بمستوى علاقاتٍ عامّةٍ تسمحُ بالتعاملِ بمستوىً مقبولٍ يحفظُ الحدَّ الأدنى من ماءِ الوجهِ والراحةِ المعنويّةِ والنفسيّةِ.

بعدَ التأكّدِ من استلامِ المبلغِ من جهةِ دارِ "فلاشو للنّشرِ" باتَ عليَّ الانتظارُ حتّى صدورِ الكتابِ إلى الأسواقِ والبدءِ بجني بعضِ النتائجِ في جلِّها مبدئيٌّ (نسبةً إلى المبادئِ) معنويٌّ نفسيٌّ. توقّعتُ الأمرَ قريباً، شهراً أو بعضَ شهرٍ؛ مغامرةٌ ومقامرةٌ في العواطفِ والأهواءِ والخيالِ بعدَ المقامرةِ في الأموالِ والجهودِ وصحّةِ البدنِ، وزمنِ العمرِ الذي لا يقدَّرُ بثمنٍ. من حينٍ لآخرَ عليَّ أنْ أُجريَ اتصالاتٍ للتواصلِ مع دارِ "فلاشو للنّشرِ" والتأكّدِ من سلامةِ سيرِ الأمورِ. من جهةِ دارِ النشرِ بدا الوضعُ أنْ لا قلَقاً ولا حزناً عليها بعدَ أنْ أمّنتْ كلَّ مستلزماتِها للطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ من جهودِ وجيبِ الكاتبِ. في رسالةٍ بريديّةٍ إلكترونيّةٍ شكّلتْ شبهَ تعاقدٍ اقترحَ النّاشرُ أنْ يكونَ خُمسُ (٢٠%) النّسخِ من نصيبِيَ والأربعةُ أخماسٍ (٨٠%) الباقيةُ من نصيبِ دارِ "فلاشو للنّشرِ". وإمعاناً في تطبيقِ شروطِ "القويِّ على الضعيفِ أو الدائنِ على المدينِ أو الذئبِ على الخروفِ! ..."، أنا الذي يجبُ أنْ يسوّقَ حصّتِيَ في النَّشرِ!؛ من أقاربِيَ وأصدقائِيَ وأصحابِيَ ومعارفِيَ وما يتبعُهم. هذا مع العلمِ أنّني شخصيّاً من النوعِ الذي لا يجدُ أيّةَ "عينٍ قويّةٍ" لبيعِ صديقٍ أو قريبٍ أو معرفةٍ لِيَ كتاباً قمتُ بتأليفهِ وتمويلِ طبعهِ ونشرهِ وتوزيعهِ وتسويقهِ. المهمُّ أنّني حصلتُ على بركةِ أو شرفِ حملِ اسمِ دارِ "فلاشو للنّشرِ" الغرّاءِ؛ وذلكَ بالنسبةِ لِيَ حقيقةً شيءٌ غايةً في الأهميّةِ. في هذا السّياقِ اشتكى مديرُ "فلاشو

للنّشرِ" في رسالةٍ لهُ نادرةٍ على الإنترنتْ بمرارةٍ وبؤسٍ ظاهريْنِ من سوءِ وضيقِ ورداءةِ حالِ سوقِ الكتابِ العربيِّ.

شكوى وتظلُّمُ إدارةِ نشرِ دارِ "فلاشو للنّشرِ" بشأنِ عبثيّةِ حالِ الكتابِ العربيِّ لم تأتِ من فراغٍ على الإطلاقِ. تلكَ هيَ نتيجةٌ متوقّعةٌ من تهافتِ المتعلّمِ العربيِّ، ومن يتولّونَ أمرَهُ من والديْنِ ومؤسّساتٍ أكاديميّةٍ وحكوماتٍ ودولٍ، تهافُتهِ على اللغاتِ والثقافاتِ والجنسيّاتِ الأخرى للتعلّمِ وإخراجِ نتاجِ فكرِهِ فيها إذا ما وُجِدَ الأخيرُ. المتعلّمُ العربيُّ يريدُ أنْ يصبحَ "حصاناً" أو "طاووساً" أو "ديكاً ملقّحاً" أو حتّى "كبشاً ناطحاً" في نظرِ من حولَهُ بغضِّ النّظرِ عن إنتاجِهِ الماديِّ والفكريِّ الذي يلامسَ حضيضَ الحضيضِ صباحاً ومساءاً وعلى رؤوسِ كلِّ الأشهادِ. حاليّاً! من مرحلةِ الإعداديّةِ والثّانويّةِ، بل وما دونَ ذلكَ، يصبحُ التلميذُ يحلمُ بيومٍ يصبحُ فيهِ "أجنبيّاً أو متأجنباً" على قومِهِ ولغتِهِ وثقافتِهِ وهويّتهِ الأصلِ. المجتمعُ العربيُّ نتيجةً لذلكَ باتَ مثلَ الجسدِ مقطوعِ الرأسِ أو معطّلِ الدماغِ. أصبحَ وضعُ الكتابِ العربيِّ بسببِ ذلكَ في حالٍ لا يُحسَدُ عليهِ مطلقاً. شخصيّاً أصبحَ وضعِيَ اتجاهَ ذلكَ مثلَ الطبيبِ البائسِ الذي يحاولُ إعادةَ الروحِ إلى مصابٍ بمرضٍ عضالٍ منذُ مدّةٍ طويلةٍ. عليَّ أنْ أكافحَ وأصبرَ وأعانيَ الأمراضَ البدنيّةَ والنفسيّةَ والمعنويّةَ، وأتغاضى عن قسمةٍ "ضيزى" تأتيني بهذا الشّكلِ أو ذاكَ. على المرءِ أنْ يتصوّرَ أنَّ الكاتبَ يقدّمُ جهدَهُ وعمرَهُ وخبراتِهِ وأموالَهُ ليحصلَ على لا شيءَ، أو حتّى يواجهَ خسراناً شبهَ قاتلٍ للقلبِ والأعصابِ والروحِ والفكرِ والدماغِ. فعلاً بدأتْ تطرقُ بابَ جسمِيَ الكثيرُ من عوارضِ الأمراضِ النفَسيّةِ والسلوكيّةِ والمعنويّةِ والصحيّةِ، الأخيرةُ في أكثرِ مناطقِ الجسمِ حيويّةً وأهميّةً مثلَ القلبِ والدماغِ والكبدِ والكِلى وغُددِ الجهازِ التناسليِّ!.

بعدَ حواليْ ثلاثةِ أسابيعَ من تسليمِ المبلغِ أيْ بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ من تاريخِ تسليمِ مخطوطةِ "البطّيخُ الأصفرُ" للنّشرِ عاودتُ الاتصالَ للاطمئنانِ القلبيِّ على سيرِ الأمورِ التي توقّعتُ أنْ تكونَ في نهايةِ المطافِ. بعدَ محاولاتٍ غيرِ ناجحةٍ استمرّتْ عدّةَ أيّامٍ نجحتُ في استدرارِ ردٍّ من مسئولِ دارِ "فلاشو للنّشرِ". طمأنني ذلكَ المسئولُ أنَّ غلافَ الكتابِ جاهزٌ وجميلٌ جذّابٌ وسيحاولُ أنْ يرسلَ لِيَ صورةً لغلافِ الكتابِ بالبريدِ الإلكترونيِّ لاحقاً!؛ وذلكَ ما لم يحدثْ على الإطلاقِ. أضافَ أنّهُ في ظرفِ أسبوعٍ على الأكثرِ سيكونُ الكتابُ جاهزاً. السّؤالُ الذي كانَ يجولُ في خاطرِيَ هو ما هو الشيءُ المفقودُ أو المُنتظَرُ حدوثُهُ حتى ينتهيَ الأمرُ بالطباعةِ!؟. ها هو معرضٌ دوليٌّ للكتابِ على الأبوابِ في شهرِ يوليو تمّوزَ ٢٠٠٨، وحبّذا لو كانت لديَّ مشاركةٌ في ذلكَ المعرضِ ترفعُ المعنويّاتِ

قليلاً. لم يذكرْ لِيَ المسئولُ في دارِ "فلاشو للنّشر" عن أيِّ سببٍ في تأخيرِ النشرِ لكتابٍ لا يتجاوزُ المائتينِ (٢٠٠) من الصّفحاتِ من قياسِ A4. كلُّ شيءٍ مكفولٌ بهِ من جهةِ المؤلِّفِ ما على النّاشرِ إلا أنْ يضعَ اللمساتِ الأخيرةَ على إخراجِ الكتابِ ونشرهِ إلى حيّزِ الوجودِ. في السّياقِ هذا غيرُ معقولٍ أنْ نظلَّ نضعُ اللومَ والمسئوليّةَ على الغولِ المسمّى بدوائرِ الرّقابةِ والمطبوعاتِ الرسميّةِ، والتي في عصرِ تَزاحُمِ الثّوراتِ الإلكترونيّةِ والاتصالاتِ لا بدَّ أنّها قامت بتطويرِ أنفسِها باتجاهِ الأفضلِ والأسرعِ.

بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ ونصفٍ على تسليمِ المخطوطةِ وقبلَ أقلَّ من أسبوعٍ من معرضٍ دوليٍّ للكتابِ لا يوجدُ وعدٌ بظهورِ الكتابِ "البطّيخُ الأصفرُ" في المعرضِ. لا يوجدُ كذلكَ تأكيدٌ بعدمِ نشرِ الكتابِ حتّى الآنَ، حتّى بعدَ تسديدِ الرّسومِ! الأهمُّ من ذلكَ لا يوجدُ جدولٌ زمنيٌّ بتحقَيقِ أيِّ شيءٍ وبهامشِ خطأٍ يقاسُ بالأيّامِ أو الأسابيعِ أو حتّى الأشهرِ! التعاملُ في هكذا قضايا أصبحَ مثلَ الذي يحاولُ الإمساكَ بيديهِ بكتلةٍ من مادّةِ الزئبقِ المسكوبةِ على الأرضِ. يا لضياعَ الجهودِ والوقتِ والآمالِ والأحلامِ والأموالِ في سبيلِ لا شيءَ، وعلى الإطلاقِ. بتُّ لا أعتقدُ أنَّ الوعودَ السّابقةَ من جانبِ دارِ النّشرِ ستتحقّقُ وباتَ عليَّ التعاطي مع مواعيدَ ووعودٍ وآلامٍ وأوهامٍ وليالٍ مأساويّةٍ جديدةٍ. بعبارةٍ أخرى عليَّ أنْ أبذلَ كلَّ الجهودِ للحفاظِ على ما تبقّى من صحّتِيَ التي تتهاوى تحتَ ضرباتِ وعودٍ زائفةٍ، أو هكذا بدتْ لِيَ، لا تحملُ في ثناياها إلا البؤسَ وسوءَ الطّالعِ. من وعدٍ بنشرِ الكتابِ في شهريْنِ على الأكثرِ إلى مدّةٍ مفتوحةٍ لكافّةِ أشكالِ المفاجآتِ التعيسةِ البائسةِ.

للاطمئنانِ على أحوالِ دارِ "فلاشو للنّشر" والقائمينَ عليها إداريّاً وتنفيذيّاً حاولتُ إجراءَ بعضِ المكالماتِ الهاتفيّةِ وعلى المحمولِ المكلِفِ. يجري هذا بعدَ أربعةِ أشهرٍ ونيّفٍ من تسليمِ مخطوطةِ "البطّيخُ الأصفرُ" والحصولِ على وعدٍ بنشرِها قبلَ أكثرَ من شهرٍ من الآنَ. الأسلوبُ "الحضاريُّ" المتّبعُ من جانبِ القائمينَ على دارِ النّشرِ والحالُ هذهِ هو عدمُ الردِّ على المكالماتِ التي تحملُ رقْمَ الدكتورِ موسىَ يعقوبٍ قاسمٍ مؤلّفِ مخطوطةِ "البطّيخُ الأصفرُ"، على الأخيرِ أنْ ينتظرَ ما أمكنَهُ!. نحنُ الآنَ علىَ أبوابِ معرضٍ دوليٍّ للكتابِ في بدايةِ شهرِ آبَ أغسطسِ عامَ ٢٠٠٨. بذلكَ يتمُّ خسرانُ فرصةٍ أخرى لعرضِ وتسويقِ الكتابِ ومحتوياتهِ. ستذهبُ فرصٌ أخرى في معارضَ أخرى للكتابِ أدراجَ الرياحِ. لا يوجدُ من ضاغطٍ على دارِ "فلاشو للنّشر" للاستعجالِ! في طرحِ الكتابِ إلى حيّزِ الوجودِ ودائرةِ تسليطِ الضّوءِ. لجأتُ إلى استشارةِ أصدقاءَ لِيَ بشأنِ المعضلةِ الواقعةِ؛ أمرٌ غيرُ عاديٍّ على الإطلاقِ بالنسبةِ لِيَ. الدكتورُ "حامدُ المتوكّلُ" من

قسم علم النّفسِ الاجتماعيِّ ويعملُ في ذلكَ المجالِ لفترةٍ تربو قليلاً على العقدِ من السّنينِ. لَهُ تجربةٌ بسيطةٌ سابقةٌ في موضوعِ النّشرِ مع دارِ نشرٍ أخذت منهُ الكثيرَ.

أنا: يا صديقِيَ الدكتورَ "المتوكّلَ"! أطلبُ منكَ المساعدةَ لتفسيرِ أمرٍ متكرّرِ الحدوثِ لِيَ ومعِيَ. يتلخّصُ الأمرُ هنا بالذّاتِ في أنّني أعطيتُ مخطوطةَ "البِطّيخُ الأصفرُ" لدارِ "فلاشو للنّشرِ". ها قد مضى أكثرُ من أربعةِ أشهرٍ ونصفِ الشهرِ لم تصدرْ فيها بل لا توجدُ بوادرُ مشجّعةٌ ناهيكَ عن أكيدةٍ على قربِ حدوثِ ذلكَ.

الدكتورُ "المتوكّلُ": كم لكَ نصيبٌ من الإصدارِ يا دكتورَ موسىً يعقوبَ قاسماً، المعروفَ بذكائهِ الحيويِّ بينَ أهلِ المنطقةِ المنكوبةِ فكَريّاً من حولِكَ!؟. لقد ملأتَ المكانَ هرْجاً ومرْجاً عن كتبٍ لكَ تصدرُ إلى الأسواقِ. بتنا نظنُّ أنَّ أحدَ المفكّرينَ اللامعينَ من مستوى أرسطو طاليس والفارابيِّ وجان جاك روسو وجان بول سارتر، وحتى العلامةِ الحديثِ زكي الكرزاني والبراغماتيِّ البرجوازيِّ اللامعِ أبي طلالِ الهربيجِ. لم نرَ من أمرِكَ إلا النّزرَ اليسيرَ غيرَ المعترَفِ بوجودهِ لا محليّاً ولا إقليميّاً ولا دوليّاً.

أنا: لِيَ ٢٠٠ من النّسخ أيْ ما يساوي العشرينَ بالمائةِ بعدَ دفع تكاليفِ الطّباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ، ويزيدُ. النّاشرُ هنا ليسَ أكثرَ من شيخِ قبيلةٍ صاحبِ عصاً غليظةٍ! يأمرُ فيُطاعُ. حدثَ هذا الوضعُ حتّى بعدَ مساومةٍ غيرِ عاديّةٍ من جانبِيَ.

الدكتورُ "المتوكّلُ": حرامٌ عليكَ يا هذا!. أنتَ تحصلُ فقط على ٢٠%ِ من الإصدارِ الأوّلِ وتقبلُ بذلكَ. وكيفَ ستصلُكَ الكتبُ الموضوعةُ المخصّصةُ لكَ يا هذا؟!.

أنا: لقد وعدَني النّاشرُ أنّهُ سيرسلُ الكتبَ تلكَ عن طريقِ وكالةِ ال(دي اتش إل DHL) السّريعةِ للشّحنِ إلى المكانِ وفي الزّمانِ الذي أرغبُ فيهِ. ربّما كانَ ذلكَ من شأنِ تكبيرِ القصّةِ حتّى لا يصدّقَ الكلامَ أحدٌ، أيُّ أحدٍ. وعَدَ ذلكَ في إحدى الرسائلِ الإلكترونيّةِ النّادرةِ أو شبهِ المعدومةِ بينِيَ وبينَهُ. حبّذا لو يرسلُ النّاشرُ الكتبَ على البريدِ المحمولِ على ظهورِ الحميرِ أو البغالِ أو الجمالِ! إذا ما عادَ أيٌّ منها للعملِ بعدَ أنْ وصلتْ أجورُ شركاتِ الشّحنِ أسعاراً خياليّةً.

الدّكتورُ "المتوكّلُ": ألا يوجدُ بينَكَ وبينَ دارِ النّشرِ تعاقدٌ رسميٌّ مشفوعٌ بالقسمِ ومعمَّدٌ بحضورٍ معتَبرٍ من قانونيّينَ وحكماءَ؟!.

أنا: كلا، لا يوجدُ أيُّ شيءٍ من هذا وتركنا الأمورَ تسيرُ بإرادةِ الخالقِ تعالى عزَّ وجلَّ وضميرِ النّاشرِ وطاقمِ عملهِ وإدارتهِ.

الدكتورُ "المتوكّلُ": ها قد عُرِفَ السّببُ الذي قد يُبطلُ العجبَ. سيقومُ النّاشرُ بتأخيرِ طباعةِ وإصدارِ العددِ الأوّلِ من الكتابِ إلى حينِ قربِ موعدِ إقامةِ معرضِ الكتابِ الدوليِّ في الدّولةِ التي تقيمُ فيها. ذلكَ تجنّباً لاضطرارهِ لإرسالِ حصّتِكَ من الكتبِ عبرَ البريدِ الذي عليهِ أنْ يدفعَ تكاليفَهُ. حينَها سيبعثُ الكتبَ مع وسيلةِ الشّحنِ والنّقلِ الرّخيصِ التي تأتي بالكتبِ المعروضةِ الأخرى في جميعِ الأحوالِ. ذلكَ ما يخفّضُ نسبةَ التكاليفِ على دارِ النّشرِ إلى لا شيءَ تقريباً. عليكَ أنْ تستعملَ عقلَكَ قليلاً يا هذا!.

أنا: "تِضربْ إخت هالحالة معاهم أولوه، على هايكْ تفسير!"، على حدِّ التعبيرِ المحليِّ البائسِ المنتشرِ في منطقةِ شرقِ البحرِ المتوسّطِ العربيّةِ. هل من أجلِ ذلكَ سيؤخّرُ الناشرُ الإصدارَ الذي قد يمتدُّ إلى أكثرَ من أربعةِ أشهرٍ أخرى!؟.

الدّكتورُ "المتوكّلُ": لديَّ تجاربُ سابقةٌ في النّشرِ مع دورِ أخرى للنّشرِ لكنْ قريبةٍ من دارِ "فلاشو للنّشرِ"، منها جغرافيّاً ومنها ثقافيّاً وعاداتٍ وتقاليدَ. لقد ظهرَ عندِيَ الكثيرُ منَ عوارضِ الأمراضِ في أكثرِ مناطقِ الجسمِ حيويّةً وحساسيّةً وغموضاً في آنٍ معاً، مثلَ الغددِ الصمّاءِ. لا تتحدّثْ معِيَ عن ضميرٍ ووعيٍ ومبادئَ عندَ الولوجِ في هكذا ظروفٍ. المحتاجُ الفقيرُ أو الضعيفُ قد يلجأُ مضطرّاً إلَى إعطاءِ وعودٍ لا يعنيها أو لا يقدرُ على الالتزامِ بها؛ هو فقط يريدُ أنْ ينجوَ من مأزقٍ أو وضعٍ مأزومٍ يقعُ فيهِ. تبدو لِيَ الآنَ مثلَ فأرٍ جائعٍ خرجَ في ظلامِ الليلِ الدّامسِ يبحثُ عن طعامٍ في وادٍ يعجُّ بالبوماتِ الجارحةِ الجائعةِ؛ "دول حياكلوك على بعضك أكْل" (هؤلاءِ سيأكلونَكَ كليّاً دونَ هوادةٍ!).

حاولتُ الاتصالَ مع دارِ "فلاشو للنّشرِ" بخصوصِ الحصولِ على مواعيدَ أكثرَ دقّةً بشأنِ الحصولِ على أيِّ شيءٍ ممكنٍ من جهةِ دارِ النّشرِ. في كلِّ اتصالٍ مكلفٍ عن طريقِ الهاتفِ النقّالِ كانَ الجوابُ أنَّ كلَّ الأمورِ محلولةٌ وسيتمُّ إرسالُ عيّنةٍ في البريدِ العاديِّ مكوّنةٍ من بضعِ نسخٍ من المخطوطةِ التي صدرتْ ودخلتْ الأسواقَ. لكنَّ مثلَ هذا الوعدِ لم يتحقّقْ وعلى الإطلاقِ. في آخرِ اتصالٍ قبلَ كتابةِ هذهِ الأسطرِ حصلتُ على وعدٍ بإرسالِ نسخةٍ أو اثنتيْنِ بالبريدِ العاديِّ. في الانتظارِ استغليّتُ سفرَ أحدِ الأصدقاءِ، السيّدُ "لطيفُ الغيثيِّ"، إلى بلدِ دارِ النّشرِ في رحلةٍ خاصّةٍ ورجوتُهُ الاتصالَ بدارِ النّشرِ عن كثبٍ ومحاولةِ تحرّي الوقائعِ على الأرضِ. سافرَ صديقِيَ قبلَ بضعةِ أيّامِ وفيما بعدُ أجريتُ اتّصالاً هاتفيّاً على المحمولِ لديهِ للتّأكيدِ على الأمرِ. وعدَ الصّديقُ بأنّهُ سيزورُ مقرَّ دارِ النّشرِ وسوفَ يوافيني بالحقائقِ المتاحةِ لهُ لاحقاً. حتّى الآنَ وبعدَ حواليْ الخمسةِ أشهرٍ من تسليمِ المخطوطةِ للنّشرِ يمكنُ القولُ أنَّ "الصّبرَ مفتاحُ الفرَجِ".

ملاحظةٌ: نصوصُ هذهِ المادّةِ كُتِبتْ في بدايةِ شهرِ أيلولِ سبتمبرِ (أو رمضانِ) عامَ ٢٠٠٨، أيْ بعدَ حواليْ خمسةِ أشهرٍ على تسليمِ المخطوطةِ بهدفِ النّشرِ. **فقطْ يُعتقَدُ!** أنَّ الكتابَ "البطيخُ الأصفرُ" قد خرجَ للتوِّ من المطبعةِ، أيْ صدرَ وخرجَ إلى حيّزِ الوجودِ وبدأَ يُوَزَّعُ. لم تصلْ معلوماتٌ كافيةٌ أكيدةٌ عن ذلكَ باستعمالِ طرقِ ووسائلِ الاتصالِ والتواصلِ المعروفةِ. لم تصلْ نسخةٌ واحدةٌ من الإصدارِ بالبريدِ العاديِّ الأرضيِّ أو الجويِّ. بخصوصِ الأمرِ لم تصلْ رسالةٌ بالبريدِ العاديِّ أو الإلكترونيِّ، ولا حتّى رسالةٌ قصيرةٌ عن طريقِ خدمةِ الرسائلِ القصيرةِ (خ.ر.ق. أيْ بالإنجليزيّةِ إس.إم.إس. SMS) في الهاتفِ المحمولِ. لم يردْ أيُّ اتصالٍ هاتفيٍّ على الهاتفِ الأرضيِّ ولم تُرسَلْ رسالةُ فاكسٍ على شكلِ تهنئةٍ على جهازِ الفاكسِ تعادلُ برقيّةً في ماضي الأيّامِ الخوالي. للاستعلامِ عن أيِّ شيءٍ بخصوصِ ذلكَ عليَّ أنْ أقومَ بذلكَ بنفسِيَ جسميّاً حضوريّاً أو من ينيبُ عنّيَ من أصدقائِيَ أو معارفِيَ!. وفعلاً جاءني الخبرُ اليقينُ عن طريقِ صديقِيَ "لطيفِ الغيثيِّ" الذي جلبَ لِيَ في متاعهِ المحمولِ جوّاً عدداً من نُسَخِ الإصدارِ الأوّلِ من مخطوطةِ "البطّيخُ الأصفرُ"، لكنْ وكالعادةِ في القولِ "تحتَ عنوانٍ آخَرَ!".

دارُ "الحمارُ للنشرِ"

أُحبُّ الحيواناتِ كثيراً وبشكلٍ خاصٍّ ما يمكنُها نقلُ أحمالٍ على ظهورِها كالحميرِ والبغالِ والجِمالِ وبدرجةٍ أقلَّ الخيولِ. لسببٍ أو لآخرَ أحبُّ الحيواناتِ التي تقومُ بأعمالِها ببطءٍ و"تأنٍّ وحرصٍ". أعتقدُ أنَّ السّببَ الأصلَ في ذلكَ يعودُ إلى تركيزِ والدِيَ الفلاحِ الفقيرِ على اقتناءِ الحميرِ دونَ الخيولِ والبغالِ في البيتِ لأسبابٍ ماليّةٍ وطبيعةٍ جسديّةٍ. عندَما كانَ الحمارُ يُستعملُ في العملِ في البيتِ والحقلِ والنّقلِ كانت الأرضُ والأشجارُ والمزروعاتُ والبيئةُ في أوجِ عنفوانِها ونضارتِها ونظافتِها. يعودُ ذلكَ إلى قدرةِ الحمارِ المميَّزةِ على الخوضِ في تفاصيلِ الدّروبِ والأراضي الوعرةِ وخلالَ الأشجارِ المتشابكةِ المتقاربةِ مقارنةً بالحصانِ والبغلِ والثّورِ، وفيما بعدُ بالجرّارِ الزراعيِّ. الحمارُ في كيانِيَ الفكريِّ شيءٌ كبيرٌ يوازي تقريباً تقديرَ الهندوسِ للبقرةِ والبدوِ العربِ للحصانِ الأصيلِ.

وُلدْتُ، وفيما بعدُ نشأتُ وترعرعتُ، في بيتٍ ضمَّ في أحدِ أركانهِ حماراً فتحتُ عينيَّ على رؤيتهِ وأسمَعَ أذنَيَّ صوتَهُ أحياناً كثيرةً. بشكلهِ وحركاتهِ ومنهجيّتهِ في الحياةِ دخلَ الحمارُ بلباقةٍ مميَّزةٍ إلى عقلِيَ الباطنيِّ واستقرّتْ صورتُهُ الوديعةُ هنالكَ طوالَ حياتِيَ. بلغتُ سنَّ العشرينِ من العمرِ وكانَ الحمارُ أقربَ الأصدقاءِ بل الأقرباءِ! لديَّ، بل ودونَ مبالغةٍ لدى عائلتِيَ الصغيرةِ المنكوبةِ طبقيّاً. عاشت عائلتِيَ الصغيرةُ في ظلِّ حالةٍ دائمةٍ من النّبذِ الطبقيِّ الاجتماعيِّ القبليِّ لم نجدْ فيها خيرَ عونٍ ماديٍّ فعليٍّ في كفاحِنا المريرِ سوى الحمارِ؛ أو هكذا سخّرَهُ اللهُ تعالى لنا ليكونَ، وأكرِمْ وأنعِمْ بالحكمةِ. الحمارُ لديَّ مثلُ وليِّ أمرٍ فعليٍّ حقيقيٍّ معلومٍ مجهولٍ أو مقنّعٍ بسببِ اعتمادِ الأسرةِ، الكبيرةِ في العددِ، شبهِ كُليٍّ عليهِ في أمورِ توفيرِ حياةٍ كريمةٍ شريفةٍ دونَ حاجةٍ للجنسِ البشريِّ المعروفِ بالطّمعِ والجشعِ والهمزِ واللّمزِ إذا ما أعطى إلا ما رحمَ ربُّكَ. لو كانَ بيدِيَ الأمرُ والقرارُ لأوصيتُ إلى جماهيرِ الشعبِ الكادحةِ لتهتفَ في كلِّ مناسبةٍ وطنيّةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ: عاشَ الحمارُ (الحقيقيُّ ذو الحوافرِ الأربعةِ!) في بلدِيَ، عاشَ عاشَ عاشَ.

تمجيداً للحمارِ قمتُ بتأليفِ مخطوطتيْنِ؛ الأولى على شكلِ مذكّراتٍ يحاولُ فيها حمارٌ، تعرّضَ للخَصْيِ صغيراً، يحاولُ إصلاحَ الخللِ في المنهجيّةِ السلوكيّةِ البشريّةِ من أدنى المستوياتِ إلى أعلاها. في الثانيةِ أسّستُ لدولةٍ من الحميرِ فيها تتجلّى أجملُ صورِ دولةِ المؤسّساتِ الحديثةِ. في الروايةِ الثانيةِ يلعبُ كلُّ حمارٍ في دولةِ الحميرِ دورَ الرئيسِ والوزيرِ والنائبِ والموظّفِ والعاملِ بأمانةٍ وإخلاصٍ، بامتيازٍ واضحٍ لا لُبسَ فيهِ. سُررتُ

كثيراً بهذا الذي اعتبرتُهُ إنجازاً نوعيّاً وطفقتُ أبحثُ عن دارِ نشرٍ تعيرُ بعضَ الاهتمامِ لهكذا قضايا وأفكار. الصعوبةُ موجودةٌ بشكلٍ يفوقُ التوقّعاتِ بسببِ حالةِ البؤسِ، التي تؤدّي حتماً إلى الإفلاسِ الماديِّ والمعنويِّ!، التي تغرقُ فيها دورُ النشرِ لأسبابٍ عديدةٍ أهمُّها سوءُ الإدارةِ والتوظيفِ والتعاملِ مع الواقعِ وغيرَ ذلكَ الكثيرُ. تحدّثتُ مع عددٍ من مندوبي دورِ النّشرِ والذينَ بدورهم أظهروا بعضَ الترحيبِ الممزوجِ بالتحسّبِ والشكِّ في المخطوطتيْنِ من ناحيةِ الرمزيَّةِ. الحمارُ في الفكرِ العربيِّ وحتّى الدوليِّ منبوذٌ وغبيٌّ وحقيرٌ مُستحقرٌ؛ حالةٌ بعيدةٌ كلَّ البعدِ عن الحقيقةِ والأمرِ الواقعِ. الحمارُ ذكيٌّ بامتيازٍ ومنهجيّتُهُ سهلةُ السيادةِ على الغيرِ ويتمتّعُ بصفاتٍ يمكنُها أنْ تجعَلَ منهُ بطلاً حقيقيّاً في ميدانِ الحياةِ، وحتى في السينما نجماً سينمائيّاً أو حتّى هوليووديّاً متميّزاً.

أثناءَ البحثِ المضني عن ناشرٍ مناسبٍ كانت هنالكَ علامةٌ منتصبةٌ في معرضٍ دوليٍّ للكتابِ كُتبَ عليها دارُ "الحمارُ للنّشرِ". وبما أنَّ تشكيلَ أحرفِ كلماتِ اللغةِ العربيّةِ، الذي يعطي اللغةَ العربيّةَ ميْزةً ونكهةً خاصّتيْنِ فريدتيْنِ من نوعيْهما، يغيبُ بشكلٍ شبهِ كاملٍ عن الكتابةِ في أيّامِنا هذهِ قد يكونُ العنوانُ أعلاهُ هو دارُ "الحَمّارُ للنّشرِ". على أيٍّ من الحالتيْنِ فإنَّ الحِمارَ والحَمّارَ الحقيقيّيْنِ يتمتّعانِ بنفسِ الدّرجةِ تقريباً من التقديرِ والاحترامِ لديَّ؛ لشيءٍ في نفسِيَ شخصيّاً وتكريماً لوالدِيَ الذي توفّيَ في البريّةِ بصحبةِ حمارٍ وقفَ إلى جانبِهِ في كفاحِهِ المريرِ حتّى مماتِهِ. بسرعةٍ جلبَت تلكَ الإشارةُ العنوانُ انتباهِيَ وأسرعتُ إلى البحثِ في جناحِ تلكَ الدّارِ في المعرضِ عمّا وصلَ إليهِ الحمارُ من تقدّمٍ وسمعةٍ وتقديرٍ من الآخرينَ جعَلَتْهُ يتبوّأُ عنواناً مميّزاً في دوائرِ الفكرِ العالَميّةِ. كانتِ الكتبُ المعروضَةُ من النوعِ الفلسفيِّ التحليليِّ الناقدِ وفي جلِّها مترجَمَةٌ من لغاتٍ وثقافاتٍ أخرى، الروسيّةِ والألمانيّةِ والفرنسيّةِ وقليلاً الإنجليزيّةِ. "هنالكَ في بعضِ الثّقافاتِ ما كانَ الحمارُ فيها نجماً لامعاً"؛ قلتُ لنفسِيَ في نفسِيَ!. لكنَّ صاحبَ دارِ النّشرِ كما يبدو استغلَّ سمعةَ بلَ شَرَفَ الحمارِ وصفاتِهِ النبيلةَ المتساميةَ لينقلَ ثقافاتٍ أخرى بطريقةٍ ساطعةٍ ساطيةٍ على هويّةِ وشخصيّةِ الآخرينَ. ذلكَ شأنُ بعضُ المثقّفينَ العربِ الذينَ هالَهم أو بَهرَهم ما وصلَ إليهِ الآخرونَ وأرادوا بسرعةٍ تسليطَ الضّوءِ عليهِ لكسبِ السّبقِ الفكريِّ والإعلاميِّ فيهِ. المعروفُ عن العربيِّ عاطفتُهُ الجيّاشةُ وحماسُهُ الحارُّ المندفعُ عندَما يكتشفُ أمراً عندَ الآخرينَ يريدُ أنْ يستغلَّهُ لمقارعةِ عقولِ الآخرينَ من حولهِ بشكلٍ يحدثُ ضجيجاً لا لزومَ لهُ في المكانِ من حولهِ!.

يديرُ جناحَ دارِ "الحمارُ للنّشرِ" شخصٌ جمعَ بينَ العملِ والفكرِ، أيْ استخدامُ البدنِ والعقلِ، أو هكذا بدا. بدا الوضعُ لذلكَ الشخصِ وكأنّهُ اقتبسَ من الحمارِ أو أخذَ عنهُ

إخلاصَهُ وتفانيهِ في العملِ إلى جانبِ الخامةِ العقليّةِ الموجودةِ أصلاً في كلِّ فردٍ في الجنسِ البشريِّ، كما يمكنُ الافتراضُ. إذنْ أو تبعاً لذلكَ استبشرتُ خيراً بمديرِ جناحِ المبيعاتِ للوهلةِ الأولى، والثانيةِ. قمتُ بالتقاطِ عدّةِ كتبٍ معروضةٍ تُعنى بالفكرِ والفلسفةِ وشئونِ الحياةِ والإلحادِ والماديّةِ والوجوديّةِ بشكلٍ سرياليٍّ تجريديٍّ؛ "كلُّ هذهِ كانتْ إخلاصاً لحالةِ ذلكَ الكائنِ البائسِ الميئوسِ من حالهِ!؟، الحمارُ ... إذن ماذا بقيَ لِيَ؟!"، تساءلتُ مع نفسِيَ. قلتُ في نفسِيَ "دونَ أنْ أدرِيَ لقد كنتُ محظوظاً في أنَّ مسقطَ رأسِيَ كانَ على مصطبةٍ قريباً من حافرَيْ حمارٍ يأوي بشموخٍ صامتٍ إلى الرّكنِ المجاورِ في البيتِ". ها هو الحمارُ هنا مكرّمٌ ممجّدٌ وعلى خيرِ ما يكونُ التكريمُ والتمجيدُ. لا مجالَ بعدَ اليومِ لأحدِهم يرفعُ صوتَهُ وعصاهُ على حمارٍ معيباً إيّاهُ بالغباءِ والبلادةِ، عدا عن ركوبهِ أو استعمالهِ لأغراضٍ غايةٍ في الخشونةِ.

من العلامةِ على صدرهِ التي تحملُ اسمَهُ سألتُ السيّدَ "مثالَ الخرنوبيَّ" عن إمكانيّةٍ للنشرِ في دارِ "الحمارُ للنّشرِ". عندَما استرسلنا قليلاً في الجلوسِ والحديثِ أخبرتُ السيّدَ "الخرنوبيَّ" أنّهُ لشدّةِ تمسّكِيَ بالدفاعِ عن الحميرِ لا أمانعُ في تحويلِ اسمِ عائلتِيَ إلى إحدى عائلاتِ الحميرِ المعروفةِ في موطنِيَ الأصلِ مثلَ "قرقورٍ وأخزمٍ وخمخومٍ وطنيخرٍ وخنفورٍ ...."؛ التركيزُ هنا على الحميرِ التي تمشي على أربعٍ فقط. محاولاً التركيزَ على أيِّ شيءٍ مما أقولُهُ!، استغربَ السيِّدُ "الخرنوبيُّ" الأمرَ إذْ ليسَ من بينِ الكتبِ المعروضةِ كتابٌ واحدٌ عن الحمارِ لا اسماً ولا معنىً ولا فكراً. "عن ماذا يتحدّثُ هذا الإنسانُ الغريبُ؟!"، ربّما سألَ السيِّدُ "الخرنوبيُّ" نفسَهُ. لكنّهُ استدركَ نفسَهُ وقالَ باستحياءٍ "نعمْ بإمكانِكَ فِعلُ ذلكَ"، أيْ نشرُ كتابٍ عن طريقِ دارِ "الحمارُ للنّشرِ". أضافَ السيّدُ "الخرنوبيُّ" أنَّ الطريقةَ الوحيدةَ هي بالاتصالِ المباشرِ بإدارةِ دارِ "الحمارُ للنشرِ" في المقرِّ الرئيسيِّ لها، في أحدِ مواطنِ الغربةِ والشّتاتِ. ثمَّ أشارَ السيّدُ "الخرنوبيُّ" وبشيءٍ من الإصرارِ أنّهُ بإمكانِيَ التقاطُ عنوانِ دارِ النّشرِ من الغلافِ الداخليِّ لأيٍّ من الكتبِ التي قمتُ بشرائِها للتوِّ من جناحِ دارِ النّشرِ في المعرضِ. وفعلاً نظرتُ فوجدتُ عنوانَ البريدِ الإلكترونيِّ وقلتُ في نفسِيَ أنَّ مشكلتَيْ الحماريْنِ الاثنيْنِ في روايتيَّ الاثنتيْنِ قد حُلّتا، الاثنتانِ معاً ودفعةً واحدةً. ما عليَّ إلا أنْ أرسلَ استفساراً في البريدِ الإلكترونيِّ إلى مقرِّ إدارةِ تلكَ الدّارِ يتبعُ ذلكَ إرسالُ النسختيْنِ فيما بعدُ، إلكترونيّاً كذلكَ. هنيئاً لِيَ بكما أيّها الحماران؛ "أَبوالزهو" الذي يحاولُ إصلاحَ الخللِ التعليميِّ والسلوكيِّ والمنهجيِّ في الفكرِ البشريِّ، و"بونْقَرَعْ" الذي يؤسّسُ لدولةِ المؤسّساتِ الحقيقيّةِ كما لو كانَ الرّجلَ المناسبَ في المكانِ المناسبِ.

بعدَ ذلكَ اللقاءِ مع مندوبِ المبيعاتِ بيوميْنِ تقريباً أرسلتُ رسالةً عبرَ شبكةِ الإنترنتْ شرحتُ فيها بإيجازٍ عمّا أريدُ نشرَهُ. في الرسالةِ طلبتُ الحصولَ على ردٍّ بالسّرعةِ الممكنةِ، بالسلبِ أوِ الإيجابِ!. ولَمّا لم يصلْنِ ردٌّ على رسالتِيَ الإلكترونيّةِ بعدَ ذلكَ بحواليْ العشرةِ أيّامِ أعدتُ الكرّةَ وكتبتُ رسالةً ثانيةً شرحتُ فيها الأحوالَ والمآربَ. انتظرتُ أسبوعاً آخرَ ولم يأتِني خبرٌ في ذلكَ. أيقنتُ لنفسِيَ أنَّ اسمَ الحمارِ على دارِ "الحمارُ للنّشرِ" كانَ منِ قبيلِ التمويهِ، أيْ استغلالاً لشخصِ وسمعةِ وشرفِ الحمارِ وليسَ لذلكَ علاقةٌ حقيقيّةٌ بما يجري في عالَمِ الحميرِ الشّريفةِ النظيفةِ المخلصةِ لعملِها وسمعتِها. بعدَ حواليْ أربعةِ أشهرٍ وفي معرضٍ آخرَ للكتابِ الدوليِّ التقيتُ بمندوبٍ آخرَ لدارِ "الحمارُ للنّشرِ"؛ اشتكيتُ لهُ الأمرَ بعدَ أنْ أخبرتُهُ بالقصّةِ. زعمَ المندوبُ الجديدُ أنَّ الرسالةَ ربّما تكونُ وصلتْ إلى العنوانِ الخطأِ أو الشخصِ غيرِ المناسبِ!. بوقاحةٍ وصفاقةٍ وصلفٍ!، لم يمانعْ مندوبُ مبيعاتِ دارِ "الحمارُ للنّشرِ" الجديدُ التجنّيَ على دقّةِ عملِ ورفعةِ مستوى أداءِ الشبكةِ الدوليّةِ للمعلوماتِ، الإنترنتْ. اقترحتُ على مندوبِ دارِ "الحمارُ للنّشرِ" تغييرَ اسمَ الدارِ إلى عنوانٍ أكثرَ لياقةً لها، مثلَ "الصعاليكُ للنّشرِ" أوَ "المتسلّقونَ لخدماتِ الطّباعةِ العامّةِ" أوِ "الجُرذانُ المنتفعةُ" أو "الجرادُ الأشقرُ للارتزاقِ" ... أو ما شابهَ ذلكَ من عناوينِ. عزَّ عليَّ كثيراً أنْ يستمرَّ صاحبُ الدّارِ في تبنّي صِفاتِ الحمارِ الشّكليّةِ وإلصاقِها اسميّاً بدارِ نشرِهِ ممّا يلحقُ الظّلمَ والجورَ والغبنَ بالغيرِ، سواءَ كانَ الغيرُ ممّن يمشونَ على أربعٍ أو اثنتيْنِ. من جانبٍ آخرَ لكنْ عمليٍّ قد تكونُ حلاقةُ ذقنِ ذلكَ النّاشرِ بمعجونِ ب٣ أمراً لازماً أو واجباً ضروريّاً لحملِهِ، وطاقمِ إدارتِهِ وعملِهِ ومبيعاتِهِ ولجانِ القرّاءِ لديهِ، على توخّي الدقّةِ في القولِ والعملِ في الحياةِ والتّعاملِ مع الآخرينَ باحترامِ أذواقِهم وشخصيّاتِهم وأفكارِهم.

دارُ "المعدّاوي للنّشرِ"

في العصرِ الحاليِّ، وبعدَ تجاربَ مريرةٍ لا يُستهانُ بها، يبدو البحثُ عن ناشرٍ صادقٍ أمينٍ واعٍ مدركٍ يفي بوعودهِ ويتقيّدُ بعهودهِ المقطوعةِ مثْلَ البحثِ عن إبرةٍ في كومةِ قشٍّ أيّامَ ذروةِ موسمِ الحصادِ كما يقولُ المثلُ الغربيُّ؛ أو هكذا يبدو الحالُ!. هذا كلامٌ قد لا يتمتّعُ بدرجةٍ مقبولةٍ من الأدبِ والذّوقِ في وصفِ الآخرينَ، قولاً أو همساً بينَ شخصيْنِ مجتمعيْنِ في مكانٍ منعزلٍ، عدا عن كتابتهِ في مخطوطةٍ واحتمالِ طباعتهِ ونشرهِ على الملأِ عبرَ العالَمِ. لَكنَّ ابتغاءَ قولِ الحقيقةِ يقتضي ذلكَ بهدفِ الإصلاحِ وتسليطِ الضّوءِ على وضعٍ كارثيٍّ لسوقِ الكتابِ برمّتهِ. إذا ما يستمرُّ هذا الوضعُ كما هو عليهِ الآنَ سوف يؤدّي إلى نتائجَ لا تُحمدُ عقباها على الثقافةِ واللغةِ والمبادئِ والمعتقداتِ والصحّةِ العامّةِ والسّلوكِ البشريِّ، لكافّةِ المشمولينَ في السّوقِ. هذهِ حقيقةٌ ليستْ مطلقةً ١٠٠%، لكنَّ أمورَ وشئونَ النشرِ وضعفَ السوقِ وفوضى العملِ والحياةِ وغيرَ ذلكَ جعلت من تسهيلِ وتنظيمِ عمليّةِ الكتابةِ والنشرِ والتوزيعِ من الصعوبةِ بمكانٍ بل تمثّلُ كابوساً يأتي بالويلِ والثّبورِ على كلِّ الأنفاسِ الفكريّةِ والعضويّةِ الجسديّةِ. في ذلكَ على المرءِ أنْ يتخيّلَ، مثلاً لا حصراً على الإطلاقِ، يتخيّلَ صاحبَ ومديرَ دارِ نشرٍ عريقةٍ أو متوسّطةٍ في العراقةِ أو عتيدةٍ لا يكلّفُ نفسَهُ بكتابةِ عقدٍ للنّشرِ يتمتّعُ بالحدِّ الأدنى المتدنّي من الواقعيّةِ والمنطقيّةِ والأمانةِ والعمليّةِ بينَ الدّارِ وبينَ الكاتبِ. تبعاً لذلكَ تظلُّ الأمورُ معلّقةً في الخيالِ والتوقّعاتِ والتحسّبِ وضربِ الأخماسِ بالأسداسِ. في معظمِ الأحيانِ هذهِ تخضعُ لمزاجِ النّاشرِ المجهولِ أو غيرِ المنظورِ مكانَ الإقامةِ والعملِ والسيرةِ الذاتيةِ وحتى السّوابقِ واللواحقِ، هو وطاقمُ عملهِ وإدارتهِ!. في خضمِّ هذا البؤسِ لا مفرَّ من القولِ "اللهمَّ نستغفرُكَ على إلا من رحمتَ منّا ومن هؤلاءِ، اللهمَّ ارحمنا من شرورِ أنفسِنا وسيّئاتِ ظنونِنا ونواياِنا وأقوالِنا وأعمالِنا!".

في سوقِ الكتابِ العربيِّ بالذّاتِ انحسرَ النشاطُ الفكريُّ الإبداعيُّ الإنتاجيُّ في ما يسمّى بأدبِ الروايةِ والمقالةِ والمذكّراتِ ومؤلَّفاتٍ قدامى الأسلافِ ودواوينِ الشّعرِ، وأخيراً وليسَ آخراً الترجمةِ. أضافت الترجمةُ خاصّةً الحرفيّةُ ثقلاً على ثقلٍ في ذهنيّةِ القارئِ العربيِّ الذي عليهِ أنْ يحلّلَ بيئتيْنِ فكريّتيْنِ قد تكونانِ متغايرتيْنِ إلى حدٍّ بعيدٍ، للوصولِ إلى بصيصٍ أو قَبَسٍ من الحقيقةِ. أخيراً وتحتَ وطأةِ الفراغِ الفكريِّ الجائرِ لجأتْ بعضُ دورِ النّشرِ حتّى المعروفةِ بثوريّةٍ معهودةٍ إلى الترجمةِ عنَ كتّابٍ إسرائيليّينَ. كانَ ذلكَ من بابِ "اعرفْ عدوَّكَ" في البدايةِ إلى أنْ تبنّى الكثيرونَ من القرّاءِ والكتّابِ والنّاشرينَ

العربِ النظريّةَ الصهيونيّةَ لوجودِ إسرائيلَ؛ نظريّةٌ قائمةٌ في الأساسِ على استثناءِ كلِّ الآخرينَ من حقِّ الحياةِ الحرّةِ الكريمةِ في الدّنيا ويومِ البعثِ في الآخرةِ. الآنَ هنالكَ معاهدُ فكريّةٌ ودراساتٌ إستراتيجيّةٌ ممّن تكادُ تخلوا إصداراتُها إلا من الموادِّ المترجَمةِ؛ أقوالاً مرتجلةً أو كتاباتٍ من حبرٍ على ورقٍ. على آفاقٍ أكثرَ اتّساعاً ما بدأَ من الترجمةِ من بابِ "اعرفْ عدوَّكَ" حوّلَ الكثيرينَ من طبقةِ "الإنتيليجنسيا أو المثقّفينَ" إلى أعداءَ لحالِهم وأصدقاءَ للعدوِّ الغاشمِ الغازي الطامعِ. يجري ذلكَ خاصّةً في زمنِ الجوعِ والفقرِ والكسادِ والإسرافِ في المصاريفِ الذي يسيطرُ على الحكوماتِ والشّعوبِ والأفرادِ بشكلٍ عارمٍ وخارجٍ عن السيطرةِ. في العالَمِ العربيِّ اليومَ، بيعُ الأراضي والخيراتِ والمقدّراتِ في جوفِ أرضِها لشركاتِ الخواجاتِ باتَ مشروعاً ومعمّداً بفتاوىً من أرفعِ الجهاتِ الدينيّةِ. هذا لا يعني بتاتاً وعلى الإطلاقِ معاداةَ الترجمةِ أو التنكّرَ لها؛ لا لا ... لا، حتّى ينقطعَ النّفسُ!. لكنَّ طريقةَ الترجمةِ التقليديّةِ ودونَ وجودِ بنيةٍ أساسيّةٍ فكريّةٍ أصليّةٍ أصيلةٍ تخلقُ تبعيّةً فكريّةً وثقافيّةً ولغويّةً واقتصاديّةً وسياسيّةً لدى الأجيالِ الصاعدةِ يكونُ الجهلُ المطبقُ فيها، ربّما، أكثرَ رحمةً وأقلَّ خسراناً.

أيُّ زائرٍ لمعرضِ كتابٍ عربيٍّ يتمتّعُ ذلكَ الزّائرُ بالحدِّ الأدنى من قدرةِ الربطِ بينَ الأمورِ والنشاطِ الذهنيِّ المقارنِ سرعانَ ما يُصابُ بخيبةِ أملٍ مخيفةٍ عندَ إنهاءِ أوّلِ جولةٍ لهُ في ذلكَ المعرضِ. تخلو رفوفُ أجنحةِ المعرضِ من أيِّ نشاطٍ أصيلٍ أصليٍّ في معظمِ فروعِ العلمِ والتقنيةِ والعلومِ التطبيقيّةِ والمهنيّةِ وحتّى الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ. حتّى كتابٌ يناقشُ الإسعافاتِ الأوّليّةَ لمصابٍ بوعكةٍ صحيّةٍ طارئةٍ أو حادثٍ فجائيٍّ عرَضيٍّ لم يستطعْ الأطبّاءُ والممرّضونَ وعمّالُ الصحّةِ العربُ تأليفَهُ، بلغةٍ أصليّةٍ أصيلةٍ نابعةٍ من تجاربَ قامَ بها أيٌّ من هؤلاءِ زُرافاتٍ ووحداناً ومؤسّساتٍ. على الأكثرِ فإنَّ كتابَ أو كُتيِّبَ الإسعافاتِ الأوّليّةِ ذاكَ سيكونُ مترجَماً من اللغاتِ الأخرى؛ حرفاً بحرفٍ ومفردةً بمفردةٍ ومصطلحاً بمصطلحٍ وجملةً بجملةٍ وصورةً بصورةٍ ورسماً توضيحيّاً برسمٍ توضيحيٍّ، وخطأً بخطإٍ!. أمرٌ شديدُ الإحراجِ والشّعورِ بالعيبِ المخجلِ المُخزي حقّاً. هذا في الوقتِ الذي يتقاضى فيه الأطبّاءُ العربُ أجوراً ويحصلونَ على امتيازاتٍ هي الأعلى، على الإطلاقِ في المجتمعِ. خجلٌ وإحراجٌ قد يؤدّيانِ بالبعضِ إلى اللطمِ بالأحذيةِ على الرؤوسِ والخدودِ والجباهِ والأنوفِ والأفواهِ لإطفاءِ لهيبِ الشعورِ بخيبةِ الأملِ والخزيِ المتأجّجِ. بعبارةٍ أخرى يُستعمَلُ الحذاءُ هنا مثلَ طفّايةِ خزيٍ بدلَ اللجوءِ إلى إطفائيّةِ الدفاعِ المدنيِّ في المدينةِ.

في أحدِ أجنحةِ معرضٍ دوليٍّ للكتابِ كانَ يقفُ شخصٌ يحملُ درجةَ الدكتوراه في علمِ الاجتماعِ من جامعةٍ أوروبيّةٍ. الدّكتورُ "ساهرُ القالوشيُّ" يحاولُ تسويقَ بعضِ كتبِ الأطفالِ المترجَمةِ، بالذّاتِ التي ترجمَها بنفسهِ بما تبقّى لديهِ من لغةٍ عربيّةٍ تتّسمُ بالركاكةِ والهزالِ. طيلةَ أيّامِ المعرضِ السبعةِ لم يستطعْ الدكتورُ "القالوشيُّ" بيعَ كتابٍ واحدٍ على حدِّ زعمهِ؛ وأغلبُ الظنِّ والتوقّعِ أنّهُ صادقٌ. كانَ الدكتورُ "القالوشيُّ" يقضي معظمَ وقتهِ في المعرضِ لاهياً بتعديلِ وضعِ نظّارةِ عينيهِ بصحبةِ طفلهِ الصغيرِ المدلّلِ، "ماثيوس القالوشيُّ". الطفلُ "ماثيوس" لا يتقنُ اللغةَ العربيّةَ ولو بمفردةٍ واحدةٍ واكتفى والداهُ بتعلّمِ لغةِ أمّهِ نطقاً وكتابةً وقراءةً واستعمالاً في الحياةِ. حتّى أنَّ الرجلَ الأبَ، أيْ الدكتورَ "القالوشيَّ"، نفسَهُ كانَ قد أغرقَ نفسَهُ في تعلّمِ اللغةِ الأجنبيّةِ وباتت لغتُهُ العربيّةُ ركيكةً أقربَ إلى لغةِ الأطفالِ غيرِ اليانعينَ بعدُ. الأمرُ طبيعيٌّ بعدَ أنْ بلغتْ جهودُ ونتائجُ إقصاءِ واجتثاثِ اللغةِ العربيّةِ من ضمائرِ الناطقينَ الأصليينَ بها، بلغتْ مرحلةً متقدّمةً. الآنَ أعلنت منظّمةُ اليونسكو، التابعةُ اسميّاً للأممِ المتحدةِ وعمليّاً لدوائرِ الأمنِ والثقافةِ والاستخباراتِ الغربيّةِ، أعلنتْ اللغةَ العربيّةَ لغةً غيرَ عالميّةٍ. حتّى المندوبونَ الدائمونَ للأقطارِ العربيّةِ في الأممِ المتحدةِ على كثرتِهم عدديّاً تحوّلوا إلى اللغاتِ الاستعماريّةِ لمخاطبةِ الآخرينَ في قضاياهم؛ ومن بابِ "اعرفْ عدوَّكَ" أو "تقرّبْ إلى صديقِكَ وحبيبِكَ"، ربّما. هنالكَ أربعةَ عشرَ بنداً تجعلُ لغةً ما غيرَ أهلةٍ لاستمرارِ بقائِها معترَفاً بها عالَميّاً؛ كلُّها تنطبقُ على ما وصلتْ إليهِ حالُ اللغةِ العربيّةِ المجيدةِ على أيدي أعدائِها وأبنائِها اليومَ. الدكتورُ "القالوشيُّ" والحالُ هذهِ قسَمَ عقلَهُ إلى جزأيْنِ، الجزءُ العربيُّ فيهِ الدكتورُ في وضعٍ غيرِ آمنٍ حاليّاً ومستقبَلاً والجزءُ الغربيُّ في وضعٍ أكثرَ أماناً ثقافيّاً وماديّاً ومعنويّاً!.

بسرعةٍ حدثَ انسجامٌ وتآلفٌ بينِيَ وبينَ الدكتورِ "القالوشيِّ" الذي ومنذُ البدايةِ اشتكينا لبعضٍ أمورَنا وتعاسةَ الأوضاعِ لدينا. أخبرتُهُ أنّني أبحثُ بيأسٍ مفرطٍ عن ناشرٍ أمينٍ صدوقٍ ودودٍ لطيفٍ، على غرارِ التاجرِ الأمينِ الصّدوقِ الذي وُعِدَ بالجنّةِ في الكتبِ المقدّسةِ؛ ناشرٌ أضعُ لدى دارِ النشرِ التي يقومُ عليها بعضَ "بيضاتِيَ" الفكريّةِ. فكّرَ الدكتورُ "القالوشيُّ" قليلاً وحكَّ رأسَهُ ودماغَهُ. "آآآ...هٍ! لديَّ شخصُ ناشرٌ جدُّ طيّبٍ، عقلاً وخُلُقاً وطيبةَ خاطرٍ وسرعةَ امتزاجٍ بالضّيفِ (حبّوبٌ)"؛ وَصَفَ الدكتورُ "القالوشيُّ" من ذهنهِ أحدَ النّاشرينَ. شعرتُ ببعضِ الوجلِ والهيبةِ من شخصٍ يتمتّعُ بمثلِ هذهِ الصّفاتِ دفعةً واحدةً. "لو سمحتَ قُدْنِ إلى مكانِ ذلكَ الشّخصِ على الفورِ، أريدُ أنْ أراهُ قبلَ أنْ يحدثَ شيءٌ أيُّ شيءٍ لِيَ"؛ عقّبتُ فوراً على أقوالهِ وشرحهِ. تركنا جناحَ دارِ نشرِ الدكتورِ "القالوشيِّ"، دارُ "هولزن اشميدِتْ للنّشرِ"، واتجهنا نحنُ الاثنانِ

بخطىً حثيثةٍ إلى الردهةِ الأخرى من المعرضِ حيثُ الجناحُ الآخرُ الذي من المتوقّع أنْ يربضَ ذلكَ الناشرُ الطيّبُ الثوريُّ الصّدوقُ الأمينُ. فعلاً ومسبقاً وعلى عَجَلٍ ومن أعماقِ عواطفِيَ وأحاسيسِيَ تمنّيتُ أنْ يُحشرَ ذلكَ النّاشرُ الصّدوقُ الأمينُ المفترَضُ في جنّةِ الخلدِ مع القدّيسينَ من جميعِ الأديانِ، بغضِّ النّظرِ عن مدى اعتقادهِ باللهِ عزَّ وجلَّ.

لم يكن ليحالفَنا الحظُّ في اللقاءِ بصاحبِ دارِ "المعدّاويِّ للنّشرِ"، السيّدِ "زاهرِ المخلاليِّ"، في جناحِ دارِ النشرِ التي يملكُها ويديرُها ويشرفُ بنفسهِ على أعمالِها؛ كما هيَ الحالُ في معظمِ المؤسّساتِ في العالَمِ العربيِّ. زعمَ مسئولُ المبيعاتِ في الجناحِ أنّهُ لو تقدّمْنا في الوقتِ أو الزّمنِ بخمسةِ دقائقَ أو يقلُّ لكانَ حصَلَت لنا فرصةُ التعرّفِ على ذلكَ الشخصِ الذي شهدَ لهُ مديرُ مبيعاتهِ، السيّدُ "فائقُ الطحّانُ"، كذلكَ بتلكَ الصّفاتِ التي سبقَ ذكرُها. زادني الأمرُ شغفاً، لا بل طفحتُ شغفاً، للّقاءِ ولو يوماً ما بذلكَ النّاشرِ الثوريِّ الصّدوقِ الأمينِ الودودِ اللطيفِ. حسبَ الوصفِ المضافِ فإنَّ السيّدَ "المخلاليَّ" ملاكٌ يمشي على الأرضِ هوناً ويحاولُ التلاقي مع النّاسِ، الجاهلِ والعالِمِ. سألنا مديرَ المبيعاتِ عن إمكانيّةِ إجراءِ أو عقدِ موعدٍ للّقاءِ بالسيّدِ "المخلاليِّ"!؟. أجابَ السيّدُ "الطحّانُ" أنَّ ذلكَ النّاشرَ لن يعودَ إلى المعرضِ إلا في اليومِ التالي وسيكونُ في المكانِ بعدَ الساعةِ الخامسةِ مساءاً. "لا مشكلةً في ذلكَ سأعودُ في اليومِ التالي حيثُ أقطنُ مدينةً تبعدُ عن المكانِ حواليْ ١٥٠ كيلومتراً"؛ أخبرتُ السيّدَ "الطحّانَ". أضفتُ للسيّدِ "الطحّانِ" الذي أصبحَ صديقاً ودوداً لِيَ أنّني سأعملُ حسابيَ على تخطّي حالةِ الاكتظاظِ المرعبِ في حركةِ سيرِ السيّاراتِ التي تغزو المكانَ، مثلَ الشياطينِ ذواتِ الألوانِ البرّاقةِ اللامعةِ وتسيرُ بعجلاتٍ خمسٍ!. بعدَ ذلكَ تجوّلتُ في جناحِ دارِ "المعدّاويِّ للنّشرِ" التي بدت لِيَ واعدةً مزدهرةً وبحجمِ مبيعاتٍ عالٍ نسبيّاً، لا بل ملفتٍ للنظرِ.

في اليومِ التالي وبعدَ مبيتِ ليلةٍ لا تخلو منِ التهيّجِ العقليِّ والعاطفيِّ سافرتُ إلى المدينةِ التي يُقامُ فيها معرضُ الكتابِ. وصلتُ بوّابةَ المعرضِ الرئيسيّةَ السّاعَةَ الخامسةَ بالضبطِ لأنّني شخصٌ من النوعِ الذي ينظرُ إلى الصدقِ في المواعيدِ بشيءٍ من القدسيّةِ الوقّادةِ أو المتوقّدةِ. فوراً توجّهتُ إلى جناحِ دارِ النشرِ، والتي في الطريقِ إليها استوقفني شخصٌ صديقٌ قديمٌ لم أرهُ منذُ مدّةٍ طويلةٍ. "بالأحضانِ والقبلاتِ تجمعُنا بشوقٍ من لهيبٍ" استمرَّ اللقاءُ قصيراً وعلى عَجَلٍ؛ لكنّني تمكّنتُ من الإفلاتِ من الموقفِ الذي كانَ من الممكنِ أنْ يأخذَ وقتاً أطولَ قد يمتدُّ بسهولةٍ إلى ساعةٍ. امتعضَ الصّديقُ قليلاً من تصرّفِيَ هذا وأغلبُ الظنِّ أنّهُ أُصيبَ بخيبةِ أملٍ منّي وشعرَ بأنّني غيرُ مهتمٍّ بشئونهِ وشخصهِ كما يجبُ أنْ يكونَ الحالُ بعدَ غيبةٍ طويلةٍ عن الأنظارِ. وصلتُ إلى جناحِ دارِ

"المعدّاويِّ للنّشر" في الخامسةِ وخمسِ دقائقَ وسألتُ السيّدَ "الطحّانَ" مديرَ المبيعاتِ عن الناشرِ، السيِّدِ "المخلاليِّ". لكنْ ومرّةً أخرى أظهرَ مديرُ المبيعاتِ خيبةَ أملٍ لأنّني "تأخّرتُ!" عن الموعدِ. قالَ إنَّ السيّدَ "المخلاليَّ" مضطرٌّ للسّفرِ على الطائرِ الميمونِ وأنّهُ قد غادرَ المكانَ للتّوِّ القريبِ جدّاً. وفعلاً من بعيدٍ أشارَ بيدِهِ إلى شخصٍ مُدبِرٍ، لكنّهُ بدا وكأنّهُ مقبلٌ بسببِ طبيعةِ جسمِهِ وشكلِ رأسِهِ إذا ما تمَّ النظرُ إليهِ من زوايا مختلفةٍ، خاصّةً من جهةِ الخلفِ. حدثَ نقاشٌ حادٌّ بينِيَ وبينَ مديرِ المبيعاتِ الذي تبرّأ من الموقفِ بقولِهِ "يا زلمةْ! أنا لا أعملُ سكرتيرةً لدى النّاشرِ، أنا فقط توقّعتُ أنْ يكونَ في المكانِ بعدَ السّاعةِ الخامسةِ لولا الظروفُ الطارئةُ التي حلّتْ بِهِ". قلتُ لهُ أنْ "لا عليكَ يا هذا؛ فقط أعطِني رقمَ هاتفِهِ المحمولِ في دولتِهِ وسوفَ أهاتفُهُ فيما بعدُ حولَ الموضوعِ".

أنا أعملُ على تأليفِ كتابٍ متعدّدِ القضايا بشكلٍ شديدِ التفرّعِ والتغايرِ. تجمعُ بينَ موضوعاتِ الكتابِ كافّةً وبشكلٍ تقريبيٍّ صفةٌ واحدةٌ. عنوانٌ واحدٌ تقريباً يمكنُ أنْ يلمَّ شملَ تلكَ الموضوعاتِ ألا وهو "غِربانٌ على موائدِ الضّباعِ". كتابُ "غِربانٌ على موائدِ الضّباعِ" يصفُ حالةَ الدولِ والشّعوبِ الناميةِ في ظلِّ السيطرةِ المطلقةِ للدولِ الصناعيّةِ، خاصّةً الاستعماريّةِ الاحتكاريّةِ منها. تشيرُ كافّةُ القضايا المطروحةُ في المخطوطةِ إلى استفحالِ حالةِ انعدامِ الوزنِ لدى معظمِ البشرِ في العالَمِ بشكلٍ يسارعُ الأمورَ ويذهبُ بها نحو الهاويةِ. اللغاتُ والثقافاتُ والحضاراتُ والمقدَّراتُ الطبيعيّةُ والبشريّةُ وغيرُها باتت في مهبِّ رياحِ الإهلاكِ والاستنزافِ دونَ هوادةٍ بسببِ سياساتِ الدولِ الصناعيّةِ الرعناءِ الأنانيّةِ والطّائشةِ الهوجاءِ. مثلاً، وعلى الإطلاقِ لا حصراً، فإنَّ امتحانَ "الطوفلِ TOEFL" يكربلُ ويغربلُ الطاقةَ الفكريّةَ البشريّةَ للشعوبِ الناميةِ ويحوّلُها لصالحِ خزائنِ الغربِ الثقافيّةِ والفكريّةِ والعلميّةِ الابتكاريّةِ الإنتاجيّةِ. بالمقابلِ تُحرَمُ الشعوبُ الناميةُ من نشاطِ عقولِ أبنائِها بشكلٍ يماثلُ قطْعَ رأسِ ضحيّةٍ أو شلَّ إمكانيّاتِ الأخيرِ العقليّةِ بالطّرقِ الجراحيّةِ. الكتابةُ في المواضيعِ المطروحةِ في الكتابِ سهلةٌ وطويلةٌ لكنْ مرهقةٌ للدماغِ والأعصابِ بسببِ هولِ وفداحةِ الأحوالِ. كنتُ بحاجةٍ إلى شهرٍ تقريباً لإنجازِ الكتابِ الذي توقّعتُ أنْ يتجاوزَ بعددِ صفحاتِهِ حاجزَ ال٤٠٠ صفحةً، أيْ حواليْ ١٦٠ ألفَ مفردةٍ. انتهيتُ من وضعِ اللمساتِ شبهِ الأخيرةِ حيثُ قمتُ بمحاولةِ تنقيحِ اللغةِ والأفكارِ المكتوبةِ للمرّةِ الرابعةِ؛ كلَّ مرّةٍ تأخذُ من الوقتِ حواليْ الشهرَ من العملِ المتواصلِ.

رفعتُ سمّاعةَ التلفونِ واتصلتُ بالرّقمِ الذي أعطاني إيّاهُ مديرُ المبيعاتِ، السيّدُ "الطحّانُ"، حينَ سألتُ عن مديرِ أو مالكِ دارِ النّشرِ، أو الاثنيْنِ معاً السيّدِ "المخلاليِّ". جرت المكالَمةُ بشكلٍ طبيعيٍّ وأخبرتُ النّاشرَ على الهاتفِ المحمولِ عن الكتابِ المشروعِ

وسألتُ عن احتمالِ طباعتهِ ونشرهِ في دارِ النشرِ لديهِ. السؤالُ المطروحُ على النّاشرِ كانَ "كيفَ الوصولُ بالكتابِ بأمانٍ إلى مكانٍ أو مقرِّ دارِ النّشرِ الرئيسيِّ؟!" بعبارةٍ أخرى "هل من الممكنِ إرسالُ الكتابِ بالبريدِ الإلكترونيِّ إلى جهةٍ مخوّلةٍ باستقبالهِ والتّعاملِ معهُ؟!". بعدَ شرحٍ شديدِ الإيجازِ على الهاتفِ سألني الناشرُ "المخلاليُّ" عن جنسيّتِيَ وعلى الفورِ أخبرتُهُ ببعضِ التحسّبِ. أضفتُ لهُ أنّني من النّوعِ الذي لا يبالي بجنسيّةٍ ولا انتماءٍ ولا مكانِ ولادةٍ ولا مسقطِ رأسٍ أو إقامةٍ مؤقّتةٍ أو دائمةٍ ولا قبيلةٍ ولا دفترِ قيدٍ، ما أنزلَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى بها جميعاً من سلطانٍ. الحدودُ الجغرافيّةُ في ذهنِيَ ما هي إلا قيودٌ استعماريّةٌ على حريّةِ الإنسانِ يجبُ الحدُّ من تأثيرِها وعدمُ المغالاةِ في التمسّكِ بها والتقوقعِ في ظلالِها إلى يومِ القيامةِ. فورَ معرفتهِ بجنسيّتِيَ قالَ أنّهُ يكلّمُني من السيّارةِ في حينهِ، وكما بدا الوضعُ مثلَ حدوثِ أزمةٍ مروريّةٍ حولَ منعطفٍ حادٍّ يحاولُ اجتيازَها بحدّةِ انتباهٍ. فهمتُ من حديثِ النّاشرِ "المخلاليِّ" أنَّ عليَّ أنْ أُنهِيَ المكالمةَ بالسرعةِ الممكنةِ؛ وفعلاً قمتُ بذلكَ دونَ الحصولِ على معلوماتٍ عن كيفيّةِ الوصولِ إليهِ. ثمَّ قمتُ بالتخاطبِ الهاتفيِّ مع مديرِ المبيعاتِ السيّدِ "الطحّانِ" والذي كانَ مصرّاً عليَّ أنْ أحاولَ الاتصالَ بالدارِ عن طريقِ البريدِ الإلكترونيِّ والموقعِ الإلكترونيِّ على الشبكةِ الدوليّةِ للمعلوماتِ، الإنترنتْ.

في خانةِ "ابحثْ Search**" وضعتُ اسمَ دارِ "المعدّاويِّ للنّشرِ" في المربّعِ ونقرتُ على زرِّ "ابحثْ". فعلاً هنالكَ موقعٌ إلكترونيٌّ لدارِ النشرِ كبيرٌ على الإنترنت. بسرعةٍ بحثتُ عن "مربّعِ المراسلةِ" وإذا بهِ يضعُ أمامِيَ مساحةً معتَبَرةً لكتابةِ رسالةٍ. على الفورِ كتبتُ رسالةً تفيدُ بأنَّ لديَّ كتاباً أحاولُ نشرَهُ لدى دارِ نشرِهم الغرّاءِ، يا جماعةُ ساعدوني في الوصولِ إليكُم!. حسبَ الوصفِ السّابقِ لدارِ "المعدّاويِّ للنّشرِ" وصاحبِها توقّعتُ الاستجابةَ لرسالتِيَ بسرعةٍ قياسيّةٍ، ساعةً أو بعضَ ساعةٍ يوماً أو بعضَ يومٍ، أو حتى أسبوعاً أو بعضَ أسبوعٍ. صبرتُ عشرةَ أيّامٍ وانتظرتُ ولم يأتِني ردٌّ. أعدتُ الكرّةَ وكتبتُ وأرسلتُ رسالةً إلكترونيَّةً ثانيةً إلى نفسِ الموقعِ. صبرتُ ليالٍ أربعٍ وخمسٍ ولا أزالُ بعدَ حوالَيْ الشهرِ، والشّهريْنِ ....، إلى الآنَ ولم يصلني جوابٌ. توقّعتُ أنَّ الوصولَ إلى دارِ نشرِ السيّدِ "المخلاليِّ" قد تؤدّي إلى حدوثِ تشابهٍ مع قصّةِ محاولةِ ذلكَ الثعلبِ الوصولَ إلى عنقودِ أو قُطُفِ العنبِ الناضجِ. خشيتُ الفشلَ وأنْ أصفَ فيما بعدُ دارَ "المعدّاويِّ للنّشرِ" تلكَ بالحصرمِ على غرارِ ما حدثَ مع صديقِنا الثعلبِ الشقيِّ في قصّةِ "كليلةَ ودمنةَ".**

خاطبتُ نفسِيَ عدّةَ مرّاتٍ متسائلاً في أكثرِ الأماكنِ ازدحاماً مرورياً وعلى حدةٍ؛ "كيفَ يستمرُّ الحالُ هكذا معِيَ من البلاهةِ والبلادةِ الذهنيةِ بحيثُ كلّما وصَفَ لِيَ أحدُهم شيئاً اندفعتُ عليهِ بكلِّ المعلوماتِ والأخبارِ لديَّ كما لو كانَ ذلكَ الشخصُ "عمّو أو خالو أو بابا أو ماما أو الأختُ الكبرى أو الأخُ الأكبرُ؟!"". هنالكَ طرقٌ أكثرُ لياقةً وتطوّراً ويُسراً من هكذا حالٍ من الجري المتواصلِ اللاهثِ الباحثِ عن ناشرٍ ودارِ نشرٍ ذاتِ مستوىً يليقُ بمواصفاتِيَ الفريدةَ من نوعِها. قد يكونُ ذلكَ الشّخصُ النّاشَرُ "الضحيّةُ" لديهِ أعمالٌ مهمّةٌ وخصوصيّاتٌ لا يليقُ بحضرتهِ التعاملُ إلا مع مستوياتٍ من الصعبِ على أمثالِيَ الوصولُ إليها. بشيءٍ من المرارةِ وخيبةِ الأملِ والشعورِ الدائمِ بالفشلِ وسوءِ الطّالعِ انكفأتُ على نفسِيَ أحاولُ التقاطَ أنفاسِيَ باحثاً عن دارِ نشرٍ جديدةٍ، بناشرٍ ذي ثقةٍ ومودّةٍ ولطفٍ وربّما بحالٍ مريحٍ مع دوائرِ الأمنِ والرقابةِ وسلطاتِها الواسعةِ على الرقابِ. إلى حينٍ قد يطولُ بعيداً أغلقتُ بابَ التعاملِ مع ملفِّ دارِ "المعدّاويِّ للنّشرِ" تلكَ.

دارُ "برينسكو للنّشرِ"

أثناءَ كتابةِ نصوصِ هذا الكتابِ التي تحملُ في ثناياها ما يثيرُ الذعرَ ويبعثُ على اليأسِ والقنوطِ من حالِ الكتابةِ والطباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ حدثَ ما يدعو إلى تغييرِ هذا التوجّهِ. في ليلِ العربِ الحالكِ المظلمِ حاليّاً لم يزلْ هنالكَ بصيصُ أملٍ في تجسيدِ بعضِ الوعي، لدى البعضِ. يعتمدُ هذا الوعيُ على الضميرِ والأمانةِ والصّبرِ والشّجاعةِ والجرأةِ في التّعاطي مع الأمورِ، في خضمِّ هذا الواقعِ المأساويِّ المدلهمِّ المحيطِ بالعربِ والمسلمينَ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ. بالصّدفةِ وعندَ تصفّحِيَ اليوميِّ العاديِّ للفضائيّاتِ العاملةِ على السّاحةِ إذْ بمقابلةٍ مع صاحبِ ومديرِ دارِ نشرٍ للكتبِ عتيدةٍ. بدا الدكتورُ "فوزي الخطّابُ" في ذلكَ اللقاءِ ملتزماً آملاً واعداً متواضعاً وعلى ربّهِ تعالى متوكّلاً. بسرعةٍ لفتَ ذلكَ انتباهِيَ وقلتُ في نفسِيَ "ها قد عثرنا أخيراً على الإبرةِ في كومةِ القشِّ الكبيرةِ من على بيادرِ صيفِ الحصّادينِ!". على الفورِ أودعتُ اسمَ وعنوانَ دارِ "برينسكو للنّشرِ" إلى حضنِ أو ذاكرةِ صديقتِيَ المعهودةِ، شبكةِ الإنترنتْ لنقلِ وتبادلِ المعلوماتِ.

حقيقةً، كنتُ قد انتهيتُ تقريباً من التّلاهي بكتابةِ نصوصٍ بشكلٍ عشوائيٍّ عن جملةٍ أو حزمةٍ من القضايا التي تهمُّ الشعوبَ العربيّةَ والإسلاميّةَ ودولَ العالَمِ الثالثِ والكتلَ البشريّةَ المغبونةَ في جلِّ أمورِها وشئونِها عبرَ العالَمِ. جلُّ القضايا المطروحةُ تؤدّي في النّهايةِ إلى مأزقٍ تقعُ فيهِ الكتلُ البشريّةُ الضعيفةُ والمستضعفةُ فيها تشعرُ الأخيرةُ أنّها

في حالةٍ مطبقةٍ من التبعيّةِ الكريهةِ البغيضةِ المقيتةِ، خاصّةً لدى الذينَ يتمتّعونَ بالحدِّ الأدنى من قوّةِ الألبابِ. أكثرُ من ٩٠% من الكتلِ البشريّةِ عبرَ العالَمِ مرّتْ بظروفٍ عانتْ فيها ظلمَ وجورَ أقليّةٍ من البشرِ تجمّعتْ لديها الرساميلُ والسلطاتُ السياسيّةُ والإداريّةُ بشكلٍ أقربَ إلى الإقطاعيّةِ الزراعيّةِ والصناعيّةِ والتجاريّةِ والسّياسيّةِ والإداريّةِ والتنظيميّةِ، في العهودِ البائدةِ الغابرةِ. العالَمُ بأكملهِ تقريباً يسيرُ من سيّئٍ إلى أسوأَ في ظلِّ النّظامِ الرأسماليِّ وإعطاءِ السّوقِ الحرِّ حريّةَ التصرّفِ برقابِ الأفرادِ والشعوبِ والأممِ والحضاراتِ. هنالكَ ٦٤ قضيّةً (بعددِ مربّعاتِ رقعةِ لعبةِ الشّطرنجِ) طُرحت في الكتابِ، فيها الشعوبُ الضعيفةُ خاسرةٌ لا محالةَ؛ بلْ الشعوبُ الضعيفةُ في حالةِ "كيش ملكْ Check Mate" حسبَ تعبيراتِ لاعبي الشطرنجِ المحترفينَ والهواةِ. خسارةٌ كبيرةٌ في اللغاتِ والثّقافاتِ والحضاراتِ والهويّاتِ والاقتصادِ والطّاقاتِ البشريّةِ لصالحِ تنميةِ رساميلِ الدّولِ الصّناعيّةِ ومنْ والاها من أقليّاتٍ ضيّقةٍ جدّاً في الدولِ الناميةِ والكتلِ البشريّةِ المغبونةِ عبرَ كلِّ العالَمِ. لم تجنِ الكتلُ البشريّةُ من دورانِها في فلكِ الأسيادِ من الدّولِ الصناعيّةِ سوى مظاهرَ هوليووديّةٍ خادعةٍ تأتيها من خلالِ الشّاشاتِ الصغيرةِ والكبيرةِ ووسائلِ الإعلامِ التقليديّةِ والحديثةِ.

وضعتُ اسمَ دارِ "برينسكو للنّشرِ" في الشّبكةِ الدوليّةِ للمعلوماتِ وكنتُ في حالةِ يأسٍ مُطبقةٍ من النّشرِ في جلِّ دورِ النّشرِ التي طرقتُ أبوابَها، وبالذّاتِ من دارَيْ "الفخامةُ للنّشرِ" و"الأفندمُ للنّشرِ". أضناني وأنهكني الدفعُ النّقديُّ سلفاً لدورِ النّشرِ يتبعُها بطءٌ وشحٌّ وروتينٌ مذلٌّ قاتلٌ للروحِ والجسدِ والحياةِ المريحةِ، في آنٍ معاً. ما أنْ نقرتُ فأرَ الحاسوبِ على زرِّ "ابحثْ" حتّى خرجتْ عليَّ معلوماتٌ عن دارِ "برينسكو للنّشرِ" فيها واحدٌ يدعو إلى التعليقِ وإبداءِ الرأيِ والمشورةِ أو الانتقادِ. بعثتُ رسالةً إلكترونيّةً إلى مديرِ الدّارِ، الدّكتورُ "الخطّابُ"، أخبرتُهُ فيها عن نيّتِيَ في النّشرِ لديهِ. لم أكنْ أتوقّعُ ردّاً، لا سريعاً أو بطيئاً، أسوةً بما حدثَ معِيَ من قبلُ في محاولاتٍ سابقةٍ مشابهةٍ. بعدَ حواليْ ثلاثةِ أيّامٍ فقط فوجئتُ برسالةِ ردٍّ إلكترونيّةٍ يخبرُني فيها الدّكتورُ "الخطّابُ" عن إمكانيّةِ دراسةِ طَلبِيَ بشأنِ نشرِ مخطوطةٍ بعنوانِ "غربانٌ على موائدِ الضّباعِ"، أو "أيتامٌ على مآدبِ اللئامِ" التي تخصُّ أكثرَ من ٩٠% من الكتلِ البشريّةِ على سطحِ كوكبِ الأرضِ؛ حاليّاً تذهبُ جهودُ تلكَ الكتلِ البشريّةِ لصالحِ مجموعةٍ ضيّقةٍ جدّاً من الشّركاتِ السياسيّةِ والماليّةِ والاقتصاديّةِ الجشعةِ. أشارَ صاحبُ دارِ "برينسكو للنّشرِ" أنّهُ لا يستطيعُ فعلَ أيِّ شيءٍ يختصُّ بالنّشرِ دونَ رؤيةِ محتوياتِ المخطوطةِ.

على الفورِ أرسلتُ المخطوطةَ بالبريدِ الإلكترونيِّ والتي واجهتْ صعوباتٍ إلكترونيّةً بسببِ عدمِ انتظامِ عملِ "المضادِّ للفيروساتِ"، وانتظرتُ الردَّ لوصولِها سالمةً. بعدَ حواليْ الأسبوعِ وصلني ردٌّ أنَّ المخطوطةَ، "أيتامٌ على مآدبِ اللئامِ"، وصلتْ وأنَّ دارَ النّشرِ بصددِ دراستِها والتنسيقِ المحتملِ للبتِّ في إصدارِها بالسّرعةِ الممكنةِ. كانت الرّدودُ سريعةً نسبيّاً وواعدةً ولكلِّ رسالةٍ يأتيني ردٌّ سريعٌ، نسبيّاً بل حقيقةً. "وضعتُ يديَ في الماءِ الباردِ"، كما يقولُ المثلُ الشّاميُّ العامُّ، إذْ أنّهُ أخيراً هنالكَ مصدرٌ يمكنُ الوثوقُ إليهِ والاعتمادُ على كلامهِ وتصرّفاتهِ ومنهجيّتهِ دونَ أيّةِ معرفةٍ عن كثبٍ بهِ. قلتُ في نفسِيَ وللملأِ من حولِيَ "يا زلمةً! ويا زولاً! ويا راجلاً! ويا حريماً! ويا جماعةً! لا يزالُ في الدّنيا خيرٌ"، في هذا الخضمِّ البائسِ المحدقِ بِيَ من أصحابِ دورِ النّشرِ منذُ بضعِ سنينٍ ونيّفٍ!. استبشرَ الأصحابُ والمقرّبونَ والمعارفُ والأصدقاءُ خيراً بعدَ أنْ ملأتُ النّقاشَاتِ معهم تشاؤماً من حالِ الأوضاعِ التي وصلتُ إليها مع دورِ النّشرِ. حتّى أنَّ قسماً منهم بدأَ يقولُ لِيَ إنَّ العيوبَ والمثالبَ التي أتحدّثُ عنها هي ليستْ حقيقةً في دورِ النّشرِ بل العيبُ في الكاتبِ أو المؤلِّفِ. أضافَ هؤلاءِ أنّهُ من غيرِ المعقولِ أنَّ كلَّ دورِ النّشرِ على باطلٍ وأنا وحيداً على حقٍّ، إذا ما أخذنا بعينِ الاعتبارِ النَّفَسَ الديمقراطيَّ السّائدَ في التوجّهِ الفكريِّ الحاليِّ الذي يعتمدُ التصويتَ المرتكزَ في نتائجهِ على النسبةِ العدديّةِ. ضَرَبَ أحدُ الأصدقاءِ المقرّبينَ، مازحاً ومكبوتاً في آنٍ معاً، ضربَ مثلاً يتلخّصُ سردُهُ في أنَّ رئيسَيْ وزراءَ سابقَيْنِ لدولتهِ وكانا من "المثليّينَ Queers, homosexuals" اشتكيا لبعضِهما من قلّةِ توفّرِ عددِ الشّاذّينَ "اللواطيينَ" القادرينَ على إشباعِ رغبتَيْ رئيسَيْ الوزراءِ هذينِ بشكلٍ فعّالٍ، كما كانَ يحدثُ سابقاً. لكنَّ أحدَ رئيسَيْ الوزراءِ استدركَ نفسَهُ وأخبرَ الآخرَ قائلاً أنَّ العيبَ ليسَ بِ"اللواطيينَ" الأشاوسِ! في السّوقِ. العيبُ يكمنُ في رئيسَيْ الوزراءِ المسنّيْنِ اللذيْنِ لم تعدْ لهما شعبيّةٌ كافيةٌ في سوقِ اللواطِ أو الدّعارةِ.

مضى أسبوعٌ آخرُ حينَ تلقّيتُ رسالةً من النّاشرِ الدكتورِ "الخطّابِ" بالبريدِ الإلكترونيِّ تصفُ لِيَ الأوضاعَ العامّةَ والشّروطَ للنّشرِ، إضافةً إلى مقدارِ الرّسومِ المقترحةِ للإعانةِ في طباعةِ ونشرِ وتوزيعِ المخطوطةِ. بعدَ حواليْ الأسبوعِ أرسلتُ جزءاً لا بأسَ بهِ من الرّسومِ ومعها استعدادٌ خطّيٌّ بقبولِ أيّةِ مقترحاتٍ أو تعديلاتٍ أو إضافاتٍ أو حذفٍ لمعلوماتٍ وأفكارٍ وطروحاتٍ تؤدّي في النهايةِ إلى تيسيرِ وتسهيلِ وتسريعِ أمورِ النّشرِ. في آخرِ رسالةٍ بينِيَ وبينَ صاحبِ دارِ "برينسكو للنّشرِ" كانَ هنالكَ توقّعٌ بأنَّ الانتهاءَ من فرزِ ودراسةِ شئونِ المخطوطةِ "غِربانٌ على موائدِ الضّباعِ" لن يستغرقَ أكثرَ من أربعةِ أشهرٍ. المخطوطةُ قد تكونُ مفيدةً في مجالاتِ اللغةِ والثّقافةِ والوعيِ العامِّ وإصلاحِ

الأحوالِ وذاتِ البينِ بطريقةٍ مبسّطةٍ تبتعدُ كثيراً عنِ جوِّ التهويلِ والتصعيبِ اللغويِّ والغرقِ في أوحالِ الخزعبلاتِ. مبدئيّاً وواقعيّاً وحقيقةً أنا منبهرٌ بأداءِ دارِ "برينسكو للنّشرِ"، ومستبشرٌ بها خيراً. حقيقةً هذا هو الحدُّ الأدنى على الأقلِّ مما يحتاجُهُ الكاتبُ أو المؤلِّفُ. مواعيدُ محدَّدةٌ مع هامشِ خطأٍ في دقّةِ التقديرِ، سلباً أو إيجاباً. ذلكَ ما يجعلُ المشمولينَ الرئيسيينَ في عمليّةِ التأليفِ والطّباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ ينامونَ ليلاً هادئاً، فيهِ عقولُهم وأجسادُهم في أمسِّ الحاجةِ إلى الهدوءِ والطّمأنينةِ لديمومةِ الاستمرارِ في أعمالِهم وتفكيرِهم. لا أعتقدُ أنّني سأقولُ "حُصرُماً" عن "عنقودِ عنبٍ" دارِ "برينسكو للنّشرِ" إذا لم أستطعْ القفزَ عالياً بما فيهِ الكفايةُ للوصولِ إليهِ. بعدَ حواليْ الأسبوعِ من تسلّمِ مبلغِ الرسومِ المقترحةِ وصلني خطابٌ إلكترونيٌّ يقولُ إنّهُ تسلّمَ المبلغَ المرسَلَ وأنَّ أمورَ النّشرِ تجري على قدمٍ وساقٍ وبأيدٍ أمينةٍ. أضافَ الدّكتورُ "الخطّابُ" أنَّ الانتهاءَ من تنسيقِ الكتابِ وإخراجِهِ وطباعتِهِ وبدءِ توزيعِهِ قد يستغرقُ بضعةَ أشهرٍ على الأكثرِ.

لم تمضِ ثمانيةُ أسابيعَ تقريباً على تسليمِ المخطوطةِ للطباعةِ والنّشرِ حتّى صدرتْ إلى السّوقِ بانتظارِ من يهتمُّ باقتنائِها، تحتَ عنوانِ آخرَ! (مرّةً أخرى كالعادةِ في طرحِ كافّةِ الأفكارِ والقضايا هنا). على الرغمِ من الدقّةِ في المواعيدِ والحرصِ على الردِّ بأسلوبٍ عصريٍّ وتقليديٍّ معاً إلا أنّهُ لا يوجدُ تعاقدٌ رسميٌّ ومنذُ البدايةِ يحفظُ حقوقَ الطّرفيْنِ في النّشرِ رسميّاً فيما لو طرأتْ أمورٌ تستدعي الرجوعَ إلى هيئةٍ قانونيّةٍ تبتُّ في مثلِ هكذا قضايا. على أرضِ الواقعِ لا يوجدُ ما يستدعي الإلحاحَ على إصدارِ أو كتابةِ تعاقدٍ خطّيٍّ حيثُ مستوى المبيعاتِ والنّشرِ أقربَ إلى الحضيضِ من الجهةِ السّفلى. مرّةً أخرى وليستْ أخيرةً فالكتابُ العربيُّ يفقدُ بريقَهُ وأهميّتَهُ تحتَ أقدامِ وفي بنطلوناتِ وأزياءِ شبابِ العولمةِ "الهوليووديّةِ الإنترنتيّةِ" المستعرةِ في أذهانِ وكياناتِ الشبابِ الصاعدِ وآبائِهم وأمّهاتِهم. إذا ما كانت المعلوماتُ تأتي هؤلاءِ بكبسةِ زرٍّ في حاسوبٍ محمولٍ عن أمرٍ في أقصى بقاعِ الكونِ المنظورِ فكيفَ لذلكَ الكائنِ "المُعولَمِ بالعافيةِ" أنْ يهتمَّ بتصفّحِ كتابٍ باللغةِ العربيّةِ الفصحى أو حتّى اقتنائهِ في بيتهِ!؟. باتَ على المؤلِّفِ أو الكاتبِ العربيِّ أنْ يضعَ أفكارَهُ في مدوَّناتٍ يمرُّ عليها الشّبابُ والشّيوخُ أثناءَ التهامِهم شطائرَ الهمبرجرِ (Hamburger**) والبيرجركنج (**Burger King**) وحلوى الدنكن دونتس (** Dunkin Donuts**) وبوظةِ باسكن روبنز (**Baskin Robins**) وغيرَ ذلكَ من مُنتجاتِ شركاتِ عولمةٍ! مهضومةٍ جاهزةٍ للامتصاصِ في الدّماغِ وجهازِ الهضمِ، لكنّها تثيرُ أزماتٍ في أذهانِ "المحافِظِينَ التقليديّينَ". بعبارةٍ أخرى تذهبُ جهودُ الفكرِ وسهرُ الليالي والرّسومُ المدفوعةُ وموجاتُ القلقِ والتحسّبِ تحتَ أقدامِ أبٍ أو أمٍّ تحضُّ أبناءَها الصغارَ والكبارَ على النّهلِ من مصادرِ العولمةِ الحديثةِ دونَ النّظرِ إلى الخلفِ أو الجوانبِ. على حدِّ تعبيرِ**

إحدى الأمّهاتِ المولعاتِ بمدِّ العولمةِ الجارفِ عن حالِ الشعوبِ الناميةِ "يصطفلو"؛ تعبيرُ يأسٍ يعني ليذهبْ هؤلاءِ مع الريحِ بشكلٍ أكثرَ دقّةٍ.

محاولةٌ للإسهابِ في شرحِ الأمورِ

تنقسمُ دورُ النّشرِ إلى عدّةِ أقسامٍ من حيثُ العمرِ والمستوى المرموقِ وهي بشكلٍ رئيسيٍّ العريقةُ والمتوسّطةُ في العمرِ والحديثةُ العتيدةُ النّاشئةُ. مثلَ أيِّ جسمٍ في الوجودِ يخضعُ لقانونِ تقدّمِ العمرِ عليهِ، كذلكَ تسيرُ الأمورُ بالنسبةِ لدورِ النّشرِ. بالذّاتِ تحتفظُ دورُ النّشرِ بميّزاتٍ تعتمدُ على الخبراتِ في التعاملِ مع الكتّابِ والمؤلِّفينَ والسّوقِ والسلطةِ الحاكمةِ. مثلاً إذا ما زارَ أحدُهم معرضاً للكتابِ معتبَراً سيجدُ ذلكَ التبايُنَ واضحاً من جهةِ نوعيّةِ وأشكالِ وألوانِ الكتبِ المعروضةِ ومساحاتِ عُروضٍ وطرقِ ترتيبِ الأجنحةِ وأساليبِ اختيارِ مندوبي المبيعاتِ. بسببِ هذا إلى جانبِ عواملَ أخرى، قد تكونُ الأخيرةُ خفيّةً أكثرَ حسماً من المُعلَنَةِ الملحوظةِ، تسجّلُ بعضُ دورِ النّشرِ مبيعاتٍ تختلفُ من دارٍ لأخرى. الحالُ بالنّسبةِ لدورِ النّشرِ يعكسُ ما يجري في الشّارعِ المتعلّمِ والقارئِ أيِّ المستقبِلِ للكتابِ بالإضافةِ إلى حالِ مديري ومالكي أو أصحابِ دورِ النّشرِ بذاتِها. إذا ما أرادَ أحدُهم وضْعَ النّقاطِ على الحروفِ وتسميةِ الأسماءِ بمسمّياتِها ليجدَ أَنَّ حالةَ البؤسِ والفوضى والتخلّفِ العامّةِ في الشّارعِ تنعكسُ على حالِ المعروضِ من كتبٍ للقراءةِ. خلاصةُ القولِ فإنَّ ما تصلُ إليهِ كتلةٌ بشَريّةٌ من مستوىً في مجالِ الفكرِ والإبداعِ والإنتاجِ والاختراعِ والاكتشافِ والتقدّمِ يظهرُ كمحصّلةٍ نهائيّةٍ في معرضِ الكتابِ. لذلكَ على حالِ الدّولِ والشّعوبِ النّاميةِ يجبُ أَنْ تبكيَ البواكي عندَ زيارةِ نخبةٍ من الأخيرةِ لمعرضِ كتابٍ يخصُّها بشيءٍ.

بسببِ تقاعسِ وتخاذلِ المتعلّمِ العربيِّ عن إضافةِ مادّةٍ علميّةٍ تقنيةٍ وفكريّةٍ تطبيقيّةٍ أصليّةٍ إلى اللغةِ العربيّةِ المجيدةِ باتتْ الأخيرةُ في وضعٍ لا تُحسَدُ عليهِ. اللغةُ العربيّةُ الفصحى ممنوعٌ عليها اليومَ الظهورُ في عشراتِ التّخصّصاتِ الرئيسيّةِ والفرعيّةِ والمهمّةِ والثّانويّةِ. هذا التقاعسُ والتخاذلُ والإهمالُ التلقائيُّ والمتعمّدُ يؤدّي في النهايةِ إلى استفحالِ حالةٍ من الركودِ والكسادِ والتآكلِ والتعفّنِ والإفلاسِ الفكريِّ والمعنويِّ والماديِّ في الفكرِ العربيِّ. ذلكَ من أحدِ العواملِ الرئيسيّةِ في اضمحلالِ اللغةِ العربيّةِ ممّا حملَ منظّمةَ اليونِسكو، وإرضاءً لرغباتِ الدولِ والهيئاتِ الاستعماريّةِ التقليديّةِ، حملَها إلى إعلانِ اللغةِ العربيّةِ لغةً ميّتةً أو مستثْنَيَةً من الاعتبارِ على أنّها إحدى اللغاتِ العالَميّةِ

المعتمَدةِ. ربّما! لهذهِ المنظّمةِ التابعةِ مباشرةً أو ضمناً لهيكليّةٍ إمبرياليّةٍ استعماريّةٍ، لها الحقُّ في ذلكَ بعدَ أنْ تخلّى أهلُ اللغةِ العربيّةِ أنفسُهم عن تطويرِها والاعتناءِ بها حقَّ قدرِها. النّاشرُ العربيُّ هذهِ الأيّامَ لا يجدُ أمامَهُ غيرَ مادّةٍ مستهلَكَةٍ متكرّرةٍ عبرَ العصورِ والأزمانِ، ليتعاملَ معها وينشرَها. لكنَّ ذلكَ النّاشرَ بدورِهِ أضافَ على الوضعِ البائسِ، تعْساً على بؤْسٍ.

استطراداً وخوضاً قليلاً في شئونِ اللغةِ العربيّةِ ومحاولةِ منظّمةِ اليونِسكو القفزَ عن حقيقةِ وجودِها تاريخيّاً وواقعاً عمليّاً فإنَّ هنالكَ ١٤ بنداً تعملُ على إلغاءِ اللغةِ من دائرةِ الاعتبارِ. من هذهِ البنودِ عددُ الناطقينَ بتلكَ اللغةِ حيثُ عددُ الناطقينَ باللغةِ العربيّةِ الفصحى يقتربُ من الصفرِ في المائةِ. أنا شخصيّاً أعرفُ ما لا يزيدُ عن عددِ أصابعِ اليديْنِ ممّن يتكلّمونَ اللغةَ العربيّةَ الفصحى بشكلٍ ارتجاليٍّ دونَ ارتكابِ أخطاءَ فاحشةٍ. من هؤلاءِ روسيّانِ وبريطانيٌّ وعضوٌ في مجلسِ النوّابِ الفلسطينيِّ (إبراهيم أبو النّجا) والرئيسُ المصريُّ حسني مباركٌ أثناءَ إلقاءِ الأخيرِ خطبةً رسميّةً فقط، هنالكَ كاتبٌ ومفكّرٌ وإعلاميٌّ جزائريٌّ يعملُ في قناةِ "العالَمُ" التي تبثُّ من العاصمةِ الإيرانيّةِ طهرانَ (يحيى أبو زكريّا)، وإعلاميّونَ آخرونَ قليلو العددِ. مندوبو دولِ مشروعِ سايكس-بيكو في الأممِ المتحدةِ والجامعةِ العربيّةِ تحوّلوا في إلقاءِ خطاباتِهم إلى اللغاتِ الأجنبيّةِ الأخرى واللهجاتِ المحكيّةِ في الشّوارعِ، بعدَ أنْ تخلّوا بشكلٍ شبهِ كليٍّ عن عاداتِهم وتقاليدِهم وأزيائِهم العربيّةِ.

بندٌ آخرُ في سِبحةِ الـ١٤ بنداً في تصغيرِ اللغةِ العربيّةِ هو، وعوْداً على بدءٍ، الإنتاجُ والابتكارُ والاختراعُ والإبداعُ العربيُّ في مختلفِ الاتجاهاتِ يلامسُ مستوى الصّفرِ من الجهةِ السفلى!. ما شاءَ اللهُ! على الأطبّاءِ والبيطريّينَ وأطبّاءِ الأسنانِ والمهندسينَ والعلماءِ وأساتذةِ المدارسِ الخاصّةِ والجامعاتِ والمفكّرينَ العربِ العصريّينَ الذينَ يمجّدونَ اللغاتِ الأخرى على حسابِ لغتِهم الأمِّ!. (إلى ما سبقَ وغيرِهِ تجبُ إضافةُ عبارةِ "إلا من رحمَ سبحانَهُ وتعالى من قلّةٍ منهم!"، بسببِ اقتراحٍ من أحدِ الزملاءِ الحريصينَ على شأنِ ومستقبلِ اللغةِ العربيّةِ) هؤلاءِ يتركونَ اللغةَ العربيّةَ تذوي وتذبلُ وتتعفّنُ ويأكلُها الصّدأُ والتآكلُ ولا تجدُ من يعتني بأمرِها. هنالكَ بندٌ ثالثٌ تثيرُهُ الهيئاتُ الدوليّةُ المحمومةُ فكريّاً ويختصُّ بطبيعةِ اللغةِ نفسِها كلغةٍ شرقيّةٍ مثلَ خاصيّةِ علاماتِ تشكيلِ الأحرفِ والكلماتِ التي لا نظيرَ لها في لغاتِ العالَمِ الأخرى. كثافةُ النّقاطِ على الحروفِ عاليةٌ؛ أحرفٌ بثلاثةِ نقاطٍ (ثاءٌ، شينٌ) وأخرى بنقطَتيْنِ وأخيراً (تاءٌ، قافٌ، ياءٌ) وأحرفٌ بنقطةٍ واحدةٍ من أعلى وأسفلٍ. وثمّةَ بندٌ رابعٌ يختصُّ بلفظِ ما يزيدُ عن عشرةِ أحرفٍ من

النّوع "الحلقيّ" أو الذي يُنطَقُ من الحلقِ أو يُضخَّمُ باللسانِ. من الصعبِ على الشعوبِ الناطقةِ بلغاتٍ من أصلٍ لاتينيٍّ نُطْقُ هذهِ الأحرفِ (العينُ والغينُ والصّادُ والضّادُ والرّاءُ والطّاءُ والظّاءُ والثّاءُ والذّالُ والحاءُ والخاءُ والقافُ). وهنالكَ بنودٌ أخرى لا مجالَ لذكرِها هنا عدا عن التوسّعِ والإسهابِ في الشرحِ فيها. تختصُّ هذهِ الأخيرةُ بحالةِ الجمودِ والابتعادِ عن التّحديثِ الذي على كلِّ شيءٍ أنْ يخضعَ لهُ إذا ما أرادَ الاستمرارَ في البقاءِ حيّاً وسهلاً في أذهانِ الأجيالِ الصّاعدةِ. في خطوةٍ شبهِ نهائيّةٍ للقضاءِ المبرمِ على لغةِ الضّادِ أقدمت جلُّ الدّولِ العربيّةِ على إحلالِ اللغاتِ الأجنبيّةِ محلَّ اللغةِ العربيَّةِ في مناهجِ التعليمِ بدءاً بحضانةِ الأطفالِ في رياضِ الأطفالِ حتّى آخرِ مستوىً جامعيٍّ متقدِّمٍ. الآنَ تتولّى شركاتُ الغزوِ الثّقافيِّ الأجنبيّةُ والمحليّةُ التربويّةُ والتعليميّةُ والتثقيفيّةُ مهمّةَ استبدالِ اللغةِ العربيّةِ المجيدةِ بلغاتٍ استعماريّةٍ معاديةٍ أصلاً واستمراراً!. من يحاولُ أنْ يتكلّمَ اللغةَ العربيّةَ الفصحى من حَمَلَةِ الشّهاداتِ الجامعيّةِ العليا يأتي من بابِ استنساخِ الطريقةِ ذاتِها وبشكلٍ ركيكٍ من اللغاتِ الأجنبيّةِ.

الهدفُ النهائيُّ لأيّةِ مؤسّسةٍ في الوقتِ الحاليِّ هو كسبُ السّوقِ. بعدَ الانتهاءِ من الإنتاجِ الفكريِّ لا يبقى أمامَ دارِ النّشرِ سوى عرضِ الكتابِ أو المخطوطةِ أو المؤلَّفِ. مثلُهُ مثلَ أيّةِ سلعةٍ أخرى يسري قانونُ الزّمنِ على الكتابِ؛ مثلَما يسري على البنْدورةِ (الطّماطمِ) والبطّيخِ والشمّامِ والخيارِ والأرزِّ والعدسِ والخضارِ والفواكهِ الأخرى واللحومِ. لا يوجدُ في الفكرِ البشريِّ ما هو مقدّسٌ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، خاصّةً في عصرٍ تتآكلُ فيهِ معاني الكلماتِ والأفكارِ حالَ خروجِها من أفواهِ ورؤوسِ مؤلِّفيها. في سياقٍ مع هذهِ الحالِ يجبُ أنْ يتمَّ عرضُ الكتابِ بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ قبلَ أنْ يهاجمَ الصّدأُ والعفنُ تلكَ الأفكارَ. في هذا السّياقِ ما أنْ تظهرَ بعضُ الكتبِ إلى السّوقِ حتّى تتهاوى أفكارُها تحتَ ضرباتِ النقّادِ المحترفينَ ومن جهةِ القرّاءِ المتربّصينَ، خاصّةً من جنسِ الأذكياءِ الشقيّينَ. سوقُ الكتابِ العربيِّ بالإضافةِ إلى ضعفِ المادّةِ المعروضةِ وانحسارِها في اتجاهاتٍ ضيّقةٍ محدودةٍ لهُ خواصٌّ "فريدةٌ من نوعِها"، يتفرّدُ بها عن غيرِهِ في أسواقِ الكتبِ الأخرى. هذهِ الخواصُّ من الصّعبِ والغرابةِ التطرّقُ لها على شكلِ مادّةٍ مكتوبةٍ سهلةِ التّناولِ للقراءِ. على الفضوليِّ أو المستطلعِ أنْ يزورَ السّوقَ ويرى بأمِّ عينيهِ الحالَ التي وصلَ إليها ذلكَ الكتابُ.

لا يوجدُ سعرٌ محدّدٌ سلفاً للكتابِ العربيِّ. الذي قامَ بتحديدِ سعرِ كتابٍ مقدّماً فعلَ ذلكَ تقليداً لما يراهُ في سوقِ الكتابِ في الثقافاتِ الأخرى، وبالذّاتِ في الثّقافةِ الغربيّةِ التي قطعت شوطاً كبيراً من ناحيةِ الإدارةِ والتنظيمِ والتنفيذِ. الكتابُ الغربيُّ يحتفظُ بسعرِهِ و"ماءِ

وجههِ" قبلَ وأثناءَ وبعدَ انتهاءِ عرضهِ وإلى حدٍّ كبيرٍ نسبيّاً. الكتابُ الذي قد يفقدُ بريقَهُ اليومَ في عرضٍ ما أمامَهُ أملٌ كبيرٌ ومجالٌ واسعٌ أنْ يستعيدَهُ في أقربِ فرصةٍ ممكنةٍ. ذلكَ على عكسِ الكتابِ العربيِّ الذي لا سعراً محدّداً لهُ ويعتمدُ في مبيعاتهِ على الحالةِ النّفسيّةِ والمعنويّةِ والمادّيّةِ للبائعِ والمشتري بشكلٍ ملفتٍ للنّظرِ. ذلكَ يجري حتّى مع الكتبِ التي تمَّ تسعيرُها على الغلافِ أو داخلَهُ، بتقديرٍ وخطٍّ يدِ مندوبِ المبيعاتِ. سرعانَ ما تتهاوى تلكَ التّسعيرةُ أو تتغيّرُ إذا ما اكتشفَ مندوبُ المبيعاتِ أنَّ الشّاري لهُ معرفةٌ مسبَقَةٌ بسعرِ الكتابِ. بعبارةٍ أخرى هنا يحتاجُ أمرُ البيعِ إلى بعضِ الضّميرِ في التعاملِ مع الزّبائنِ المغفّلينَ في جلِّهم والأذكياءِ في قلّةٍ منهم، هذا بالنسبةِ للقدرةِ على المساومةِ الحقيقيّةِ لهم. لذلكَ وتحتَ شعارِ "ارحموا المغفّلينَ والأغبياءَ" على الجهاتِ الرسميّةِ والخاصّةِ المهتمّةِ التدخّلُ بشكلٍ أو بآخرَ لحمايةِ حقوقِ الجميعِ من البائعينَ والشّارينَ، وأنْ يضيقَ الخناقُ على فكرةِ الاستغلالِ والابتزازِ المباشرِ وغيرِ المباشرِ والذكيِّ والغبيِّ.

في معارضِ ومكتباتِ بيعِ الكتبِ العربيّةِ يكادُ يغيبُ مندوبُ المبيعاتِ ذو الوجهِ العارفِ جيّداً بما يعرضُهُ للبيعِ. في جلِّ الأحيانِ يجلسُ العارضُ للكتبِ بفكرهِ وخيالهِ في وادٍ ومادّةُ الكتبِ المعروضةُ في وادٍ آخرَ بعيدٍ. كانَ من الأجدرِ على إداراتِ دورِ النّشرِ تعيينُ مندوبي مبيعاتٍ يعرفونَ أكثرَ من غيرهم ما تحتويهِ الكتبُ المعروضةُ كي يسهلَ عليهم تسويقُها بشكلٍ أكثرَ أمانةً. لذلكَ تسودُ حالةٌ غيرُ مستحبّةٍ فيها تظهرُ صورةٌ لزائرٍ لمعرضِ الكتبِ يسألُ عن كتبٍ لاقتنائها. كلّما سألَ الزّائرُ مندوبَ المبيعاتِ عن كتابٍ أجابَهُ الأخيرُ بأنَّ ذلكَ الكتابَ جيّدٌ أو جيّدٌ جدّاً أو حتّى ممتازٌ. لكنْ ممتازٌ من ناحيةِ ماذا ولأيِّ سببٍ؟!، ذلكَ ما يجهلُهُ مندوبُ المبيعاتِ بشكلٍ معيبٍ. كانَ من الأجدرِ على دورِ النشرِ والتّوزيعِ والبيعِ أنْ تحسنَ اختيارَ مندوبي مبيعاتِها من نوعِ العارفينَ بل والشّغوفينَ بمعرفةِ ما يجري في كتبِهم المعروضةِ، ولو بشكلٍ موجزٍ لكنْ مفيدٍ. في ذلكَ تحصلُ حوادثُ منها أنَّ قارئاً للقصصِ أرادَ أنْ يداعبَ فكرَ مندوبِ مبيعاتٍ في جناحِ معرضٍ للكتابِ. سألَ الزّائرُ مندوبَ المبيعاتِ عن قصصٍ ورواياتِ الكاتبةِ القصصيةِ والشّاعرةِ! "غادة السمّان" ظنّاً من الأوّلِ أنَّ الثّاني هو سيّدُ العارفينَ بقصصِ ورواياتِ "غادة السمّان". أُصيبَ الزّائرُ بخيبةِ أملٍ قويّةٍ حينَ اكتشفَ أنَّ مندوبَ المبيعاتِ لا يعرفُ عن "غادة السمّان" سوى أنّها كاتبةٌ مرموقةٌ شهيرةٌ بل أشهرُ من نارٍ على جبلٍ، أوصافٌ معسولةٌ رخيصةٌ لإغراءِ وإثارةِ خجلِ وحَرَجِ الزوّارِ لشراءِ الكتبِ. يضيفُ مندوبُ المبيعاتِ، الذي لا يصلحُ في أغلبِ الأحيانِ لأنْ يكونَ أكثرَ من بائعِ خضارٍ محليّةٍ، أنّهُ جديرٌ بذلكَ الزّائرِ أنْ يشتريَ قدْرَ الاستطاعةِ كلَّ ما أنتجتهُ "غادة السّمّان". "ولو! يا زلمةَ ماذا لو عرفتَ بعضَ الشّيءِ عن مؤلّفٍ واحدٍ تعرضُهُ تخبرني بهِ لكي تساعدَني

على تقريرِ أحسنَ ما يمكنُ التعرّفُ عليهِ؟!"؛ أضافَ وأنهى ذلكَ الزّائرُ كلامَهُ مع مندوبِ المبيعاتِ دونَ أنْ يشتريَ الأخيرُ كتاباً واحداً من ذلكَ العارضِ.

هنالكَ بعضُ دورِ النّشرِ العربيّةِ من قفزَت من قعرِ البئرِ في النشرِ التقليديِّ للكتبِ الورقيّةِ العاديّةِ إلى استعمالِ ما يمكنُ أنْ تُطلقَ عليها المكتبةَ الإلكترونيّةَ. أدواتُ المكتبةِ الإلكترونيّةِ هو الحاسوبُ ولوحةُ المفاتيحِ والشريطُ المغناطيسيُّ الإلكترونيُّ والقرصُ المدمَجُ العاديُّ والضوئيُّ وملحقاتُها الصغيرةُ والكبيرةُ السمعيّةُ والبصريّةُ والأدواتُ الكبيرةُ الحافظةُ للمعلوماتِ (فلاشر أو USB) والسمّاعةُ والشّاشةُ وأدواتُ تحريكِ فأرِ الحاسوبِ أو اللمسِ. ذلكَ امتدادٌ للتطوّرِ الحاصلِ في دورِ النّشرِ العالميّةِ حيثُ اليومَ يمكنُ لشخصٍ اقتناءُ عددٍ من الكتبِ التي كانت كبيرةً فيما مضى على قرصٍ مدمَجٍ واحدٍ أو حتّى "فلاشَر" صغيرِ الحجمِ قادرٍ على حملِ عشراتِ الكتبِ التي ما أنْ تدخلَ في ذاكرةِ الحاسوبِ حتّى تظهرَ أمامَ القارئِ بشكلٍ مريحٍ يبهجُ النّفسَ. ذلكَ ما يضربُ في الجذورِ والأعماقِ سوقَ دورِ النّشرِ التقليديّةِ ويزيدُ منْ هولِ الكسادِ على الكتابِ الموضوعِ عادةً بينَ غلافَيْنِ. في هذا السّياقِ كذلكَ فإنَّ شبكةَ العنكبوتِ الدوليةِ زادتْ من وهَنِ شبكةِ الكتابِ التقليديّةِ بما تحتويهِ من مدوّناتٍ قادرةٍ على استيعابِ الإنتاجِ الفكريِّ لكلِّ من على الأرضِ فيما لو أصبحَ البشرُ جميعاً كتّاباً في الأدبِ والشعرِ والفنونِ والفكرِ والفلسفةِ والعلومِ والتقنيةِ. حقّاً إنَّ ما يجري في سوقِ دورِ النّشرِ ما يدعو إلى الذّهولِ وربّما الذّعرِ والخوفِ من الارتباكِ والفوضى، البنّاءةِ ربّما!. المسئولُ الأوّلُ والأخيرُ عن ورودِ هذا الزّخمِ الهائلِ المبهرِ هم الجالسونَ المتحكّمونَ في صناعةِ القرارِ في العواصمِ العالَميّةِ التقليديّةِ المحدودةِ جدّاً في العددِ. خلاصةُ القولِ ومن هذهِ الناحيةِ بالذّاتِ فإنّهُ على سوقِ الكتابةِ والكتابِ التقليديِّ الدوليِّ عموماً، والعربيِّ خصوصاً، فلتبكِ الباكياتُ والباكينَ.

حتّى إذا ما جاءَ دورُ أحدِهم ليتعرّفَ على إمكانيّةِ نشرِ بعضِ مؤلَّفاتهِ على دارٍ للنّشرِ من خلالِ مندوبٍ لها، في أغلبِ الأحيانِ قد يكونُ المديرَ أو النّاشرُ نفسُهُ. أغلبُ الظنِّ أنّهُ سيتمُّ استقبالُ ذلكَ الرّجاءِ بإيجابيّةٍ من أجلِ كسبِ زبونٍ في جناحِ المعرضِ من جهةٍ والاستفادةِ الممكنةِ منهُ آنيّاً استقبالاً لا يخلو من المهنيَّةِ! ومن مؤلّفاتهِ فيما يتبعُ مستقبَلاً. وهنا لا بدَّ من ذكرِ نوعيْنِ تقريباً من دورِ النّشرِ، الخاصّةِ والرسميّةِ ومنها ما يجمعُ بينَ الاثنيْنِ شكليّاً وطريقةَ تصرّفٍ وعملٍ. دورُ النّشرِ الخاصّةُ تتمتّعُ بسرعةِ الاستجابةِ والحماسِ الظّاهرِ في حينِ أنَّ دورَ النّشرِ الرسميّةَ تمتازُ بطريقةِ استقبالٍ وتعاملٍ أقربَ إلى طريقةِ ما يمكنُ أنْ تُعرفَ بِ"البغالِ الهرمةِ" منها إلى استجابةٍ سريعةٍ

متوخَّيَةٍ. في كلتا الحالتيْنِ يُستحسَنُ الولوجُ والخروجُ من الموضوعِ أو الورطةِ بخفّةٍ ولباقةٍ ورشاقةٍ، إذا ما استطاعَ المرءُ إلى ذلكَ سبيلاً. هنالكَ عاملٌ مهمٌّ يحدّدُ منهجيّةَ التعاملِ لاحقاً ألا وهو تاريخُ أو سمعةُ ذلكَ الكاتبِ، بالإضافةِ إلى المادّةِ التي يقدّمُها للنّشرِ.

السّؤالُ المطروحُ بشكلٍ فوريٍّ على المؤلِّفِ هو "هل ألّفتَ من كتبٍ من قبلُ؟ أيْ ما هو رصيدُكَ في السّوقِ؟". سؤالٌ معقولٌ لكنَّ تفاصيلَ الخوضِ فيهِ تفتحُ الأبوابَ أمامَ التفرّعاتِ غيرِ المريحةِ. أولى تلكَ التفرّعاتِ هي أنَّ الكاتبَ الجديدَ غيرُ مرحّبٍ بهِ كثيراً. هذا في حينِ أنَّ كثيراً من الكتّابِ الجددِ من يحملونَ مادّةً فكريّةً فيها قدْرٌ كبيرٌ من الإبداعِ الخلّاقِ يفتقدُهُ الكثيرونَ من كبارِ الكتّابِ في السنِّ والخبرةِ. الكثيرونَ من الكتّابِ الجددِ في الثّقافاتِ الأخرى يحقّقونَ شهرةً ومبيعاتٍ أعلى من أوّلِ كتابٍ لهم يُعرضُ في السّوقِ، وفي أغلبِ الأحوالِ بعدَ أنْ يتقدّمَ بهم العمرُ طويلاً. لكنَّ حالةَ الإفلاسِ الماديِّ الماليِّ في دورِ النّشرِ ربّما بحاجةٍ إلى تدخّلِ أساطينِ الفكرِ البشريِّ منذُ العصورِ السحيقةِ في القِدمِ إلى يومِنا هذا. بالذّاتِ على دورِ النّشرِ العودةُ إلى مؤلّفاتِ "كونفوشيوس" و"أرسطو وأفلاطون" مروراً بعصرِ التألّقِ الإسلاميِّ والنهضةِ الأوروبيةِ وانتهاءً بكتّابِ وشعراءِ الثوراتِ الفرنسيّةِ والروسيّةِ والكتّابِ والشعراءِ الحديثينَ؛ الأخيرونَ من مستوى أحمدِ شوقيٍّ والبردّونيِّ ونزارِ قبّانيٍّ ومحمودِ درويشٍ والجواهريِّ ومظفّرِ النوّابِ. هؤلاءِ وغيرُهم هم الكتّابُ والشّعراءُ "المختارونَ"، على غرارِ "شعبُ اللهِ المختارِ"، بالنسبةِ لأصحابِ دورِ النّشرِ والقائمينَ عليها والعاملينَ فيها. بعبارةٍ أخرى هنالكَ تعصّبٌ فكريٌّ مشابهٌ لِ"قبليٍّ" يرقى إلى مستوى "الفاشيّةِ الفكريّةِ" (التعصّبُ الفكريُّ لما يسمّى بكبارِ الكتّابِ والأدباءِ والشعراءِ وربّما "العمدةِ" السياسيينَ بهذا الشكلِ أو ذاكَ)، وهنا قد يصدقُ التعبيرُ بشكلٍ قويٍّ. ذلكَ ما يطمسُ عنصرَ التجديدِ والتغييرِ والإبداعِ لدى قطاعٍ واسعٍ من كتلةٍ بشريّةٍ كبيرةٍ من الممكنِ أنْ تشكّلَ ماعوناً لا يشحُّ ولا ينضبُ لسوقِ الكتابِ والفكرِ العربيّيْنِ.

على سبيلِ الأمثلةِ لا الحصرَ هنالكَ دارُ "طورابا للنشر" التي تتخصّصُ في إعادةِ طباعةِ ونشرِ الكتبِ الكلاسيكيّةِ الأصليّةِ العربيّةِ والمترجَمَةِ. الكتبُ فيها كبيرةُ الحجمِ ولها غلافٌ عادةً ما يكونُ أبيضاً أو مائلاً إلى اللونِ الأبيضِ يظهرُ عليهِ عنوانٌ ديكوريٌّ لامعٌ بارزٌ للفتِ الأنظارِ لهُ وجلبِ القرّاءِ لشرائهِ. الوضعُ في دارِ "طورابا للنّشرِ" يوحي بالجدّيّةِ الفكريّةِ العميقةِ فيها النّاشرُ يركّزُ جهودَهُ على الإنتاجِ الفكريِّ المؤثّرِ في عقولِ القرّاءِ لفترةٍ طويلةٍ، قدْرَ الاستطاعةِ. توسعُ تلكَ الكتبُ المواضيعَ المطروحةَ تحليلاً جدليّاً

ومنطقيّاً يستفيدُ منهُ الدّارسونَ والباحثونَ القدامى والجددُ، على قلّتِهم. لا تحتوي دارُ "طورابا للنّشرِ" مادّةً علميّةً نظريّةً أو تطبيقيّةً أو تقنيّةً حيثُ الإمكانيّاتُ العربيّةُ في تلكَ المجالاتِ من الشحِّ بمكانٍ، إلى درجةِ العدمِ. تحاولُ هذهِ الدارُ الاستحواذَ على إنتاجِ المفكّرينَ العربِ من الطبقةِ العليا، في جلّهم تلقّوا تعليماً متقدّماً في الجامعاتِ الأجنبيّةِ التي أصبحت غايةً نهائيّةً لمعظمِ الدّارسينَ العربِ في العصرِ الحديثِ. هنالكَ مجالٌ واسعٌ للترجمةِ حيثُ العقلُ العربيُّ مغرمٌ بالترجمةِ خاصّةً من لغاتٍ أو ثقافاتٍ غربيّةٍ، لما يُعرفونَ بكبارِ المفكّرينَ والفلاسفةِ من الصنفِ اللبراليِّ؛ نظريّاً وعمليّاً النشرُ في دارِ "طورابا للنّشرِ" محجوزٌ لكبارِ هؤلاءِ المبدعينَ. من يلجأُ إلى دارِ "طورابا للنّشرِ" إعجاباً أو طمعاً في سمعةٍ مرموقةٍ عليهِ أنْ يعانيَ إلى حدٍّ لا بأسَ بهِ.

دارُ "زوزبغالٌ للنشرِ" عنوانٌ لامعٌ في عالمِ الفكرِ. من بعيدٍ يبدو الوضعُ في هذهِ الدّارِ كما لو أنَّ الأمورَ غايةً في الجدّيّةِ والحرصِ على العملِ الشّاقِّ فكريّاً! وعمليّاً. لكنّهُ قدْ يحملُ في طيّاتهِ كذلكَ معنى العقمِ كالذي يتميّزُ بهِ البغلُ بسببِ عدمِ قدرةِ الأخيرِ على إقامةِ علاقاتٍ جنسيّةٍ خصبةٍ أو منتجةٍ. لكنْ من معروضاتِ وإدارةِ مبيعاتِ دارِ "زوزبغالٌ للنّشرِ" فهي تجمعُ بينَ التّشدّدِ في الأمورِ وأخذِها حتّى النهايةِ وبينَ الوقوفِ في المكانِ بشكلٍ عنيدٍ إلى أجلٍ غيرِ مسمّىً. تعرضُ دارُ "زوزبغالٌ للنّشرِ" إنتاجاً لمفكّرينَ قدامى وجددٍ من ذوي الفكرِ المتطرّفِ اجتماعيّاً وفكريّاً وفلسفيّاً، في معظمهِ يعتمدُ على إذكاءِ روحِ الجدليّةِ التقليديّةِ. الطرقُ السّابقةُ أعلاهُ في التفكيرِ والإبداعِ والخيالِ عفا عنها الزّمنُ وتخطّاها المنطقُ العلميُّ الحديثُ بعدَ التقدّمِ في الاكتشافاتِ التي تحدّدُ هويّةَ المادّةِ من معرفةِ دقائقِها الأساسيّةِ، مثلَ الإلكتروناتِ والبروتوناتِ والنيوتروناتِ وحتّى مكوّناتِ الأخيرتيْنِ من "الكواركاتِ Les Quarks". كتابٌ علميٌّ واحدٌ عن نظريّةِ المادّةِ الأساسيّةِ كافٍ لأنْ يودِيَ بجلِّ الكتبِ القديمةِ أو التقليديّةِ التي لا تزالُ دارُ "زوزبغالٌ للنّشرِ" تزدهرُ في تجارتِها بها. في دارَيْ "طورابا وزوزبغالُ للنّشرِ" أفكارُ فلاسفةٍ من مثلِ فريدريك نيتشيه ونيكولا دانتي وغيرهما لا تزالُ تثيرُ زوابعَ فكريّةً في عقولِ المراهقينَ فكريّاً. بعبارةٍ أخرى إذا لم يوقنْ الكاتبُ الوجوديُّ العصريُّ بحقيقةٍ مفادُها أنَّ ٩٩.٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩% من المادّةِ المنظورةِ هو فراغٌ تسبحُ فيها جسيماتٌ دقيقةٌ جدّاً جدّاً .... جدّاً وحتّى ينقطعَ النّفَسُ، فإنَّ ذلكَ الكاتبُ يقتربُ في منهجيّتهِ الفكريّةِ إلى الإكثارِ من تناولِ الخزعبلاتِ.

أخيراً وليسَ آخراً نعرضُ لداريْنِ للنشرِ هما الوحيدتانِ لكلٍّ من دولتيْنِ عربيّتيْنِ. الأولى للدّولةِ الأولى تهتمُّ بإعادةِ توزيعِ الكتبِ القديمةِ دينيّاً وفكريّاً وتراثيّاً، فقط وفقط لا غيرُ،

والثانيةُ تركّزُ على قضايا وشئونِ الدولةِ الأخرى الثقافيّةِ الوطنيّةِ. تمتازُ الكتبُ القديمةُ في التراثِ والدينِ بقدرةٍ غيرِ عاديّةٍ على تحقيقِ مبيعاتٍ وانتشارٍ حيثُ القارئُ العربيُّ يتميّزُ بتمسّكهِ بدينِهِ ومبادئهِ الساميةِ وبتراثٍ وفكرٍ ومنهجيّةِ الآباءِ والأجدادِ. كتبُ السّيرةِ وبالرّغمِ من حالةِ الهجرانِ في المناهجِ التعليميّةِ العربيّةِ إلا أنّها تتمتّعُ بشعبيّةٍ مُعتبَرةٍ لدى طيفٍ واسعٍ من الزوّارِ والقرّاءِ. أخذتْ بعضُ دورِ النّشرِ "السّلفيّةِ" على عاتقِها إعطاءِ حسوماتٍ عاليةٍ على المبيعاتِ، ومن دورِ النّشرِ هذهِ من يمنحُ أمّهاتِ الكتبِ في الفكرِ والعقيدةِ تلكَ للرّاغبينَ دونَ مقابلٍ في نهاياتِ فعاليّاتِ المعارضِ.

بمجملِ الأمورِ فإنَّ الكتبَ العربيّةَ تعاني "المللَ وطولَ الانتظارِ" قبلَ أنْ تجدَ من يُقبِلُ عليها بشهيّةٍ وجديّةٍ وعزمٍ وإرادةٍ قويّةٍ لشرائِها. الكتبُ العربيّةُ الشعبيّةُ الآنَ تركّزُ على الآدابِ والفنونِ بطرقٍ كلاسيكيّةٍ تقليديّةٍ، تكادُ تخلو من المعاني والمصطلحاتِ والأبعادِ والآفاقِ الحديثةِ. يعودُ ذلكَ إلى حالةِ ابتعادِ المفكّرِ والمتعلّمِ العربيِّ والنأيِ بنفسهِ عن إنتاجِ حديثٍ باللغةِ العربيّةِ تقدِمُ عليهِ الأجيالُ العربيّةُ الصّاعدةُ أو القادمةُ. الأدبُ والشعرُ والفنُّ العربيُّ الحديثُ، والغنيُّ بالأفكارِ والمعاني المزدهِرةِ الجديدةِ، بأنواعهِ غائبٌ أو مغيَّبٌ عن أيِّ نشاطٍ عصريٍّ. في هذا السبيلِ وذاكَ يجبُ القيامُ بحركةٍ أو ثورةٍ أو عمليّةٍ تصحيحيّةٍ كبيرةٍ شاملةٍ كاملةٍ متكاملةٍ تعيدُ للّغةِ والثّقافةِ العربيّتيْنِ مكانتَيْهما اللائقتيْنِ.

تسويقُ وتوزيعُ الكتابِ العربيِّ

على قسوتِها ومرارتِها وسوادِ لياليها وسوءِ طالعِ أيّامِها تظلُّ عمليّاتُ الكتابةِ والطباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ أقلَّ تعساً من حالةِ تسويقِ الكتابِ العربيِّ، أيْ توزيعُ الأخيرِ بهدفِ الكسبِ أو جني أرباحٍ أو التعويضِ عن خسائرَ وأتعابٍ وتضحياتٍ. حالةُ تسويقِ الكتابِ العربيِّ من التعاسةِ بمكانٍ كافيةٍ لأنْ تودي بالحوافزِ والأعمالِ والخطواتِ الأولى اللازمةِ لعمليّةِ إخراجِ مادّةٍ مطبوعةٍ للجمهورِ. تبدأُ عمليّةُ التعسِ أو حتّى النحسِ في التسويقِ من اليومِ الأوّلِ حينَ يقرّرُ الناشرُ تسليمَ مهمّةِ توزيعِ وتسويقِ الجزءِ المختصِّ من الكتبِ بالكاتبِ أو المؤلِّفِ للأخيرِ. لا ترغبُ دورُ النّشرِ في تبنّي توزيعِ الكتبِ الصّادرةِ وإذا ما حدثَ ذلكَ فعلى المؤلِّفِ أنْ لا "يفتحَ بطنَهُ ولو قليلاً"، كما يقولُ التعبيرُ الشعبيُّ، في ذلكَ الاتجاهِ. على المؤلِّفِ أنْ يواجهَ الأمورَ بشكلٍ قد لا يكونُ قد توقّعَهُ من قبلُ في الولوجِ في عمليّةِ تأليفِ كتابٍ عربيٍّ. في الحالةِ لديَّ كانَت حصّتِيَ تتراوحُ في المقدارِ أو النسبةِ بينَ

الخُمسِ والرّبعِ. هذا لا يشملُ عمليةَ شحنِ الكتبِ بالبريدِ البحريِّ أو البريِّ، عدا عن الجويِّ أو البريدِ السّريعِ!. منذُ اليومِ الأوّلِ لاستلامِ جزءٍ من الإصدارِ عليَّ ككاتبٍ أو مؤلِّفٍ أنْ يقومَ وعلى حسابهِ بالخطواتِ التي تلي لاستنفادِ كافّةِ النسخِ بالسرعةِ الممكنةِ. سوقُ الكتابِ عندَ المؤلِّفِ يضمُّ الأقاربَ والأصدقاءَ والأصحابَ والزملاءَ وما يتبعُ هؤلاءِ من نظراءَ مشابهينَ في شجرةٍ أو سلسلةٍ منهم قد تطولُ أحياناً قليلةً وتقصرُ كثيراً فيما تبقّى.

بسببِ الظروفِ الميدانيّةِ والنفسيّةِ والاجتماعيّةِ لا يمكنُ الوثوقُ بأقوالِ ووعودِ دورِ النّشرِ، إلا ما رحمَ تعالى!. الأزماتُ الاقتصاديّةُ والماليّةُ الخانقةُ والأحوالُ العامّةُ وغيرُها تحولُ دونَ حدوثِ توزيعٍ عادلٍ أو يحظى بالحدِّ الأدنى من القناعةِ والرّضا. الثقافةُ العامّةُ والترتيبُ والتنظيمُ من السّوءِ والفوضى والانتهازيّةِ بمكانٍ. لا تستبشرْ خيراً أيّها الكاتبُ عندَ إعطاءِ رقمِ لحسابٍ مفتوحٍ لديكَ في مصرفٍ ماليٍّ. بالدّرجةِ الأولى سوقُ الكتابِ ضعيفٌ إنْ لم يكُنْ ميّتاً ينتظرُ من يحييهِ أو يركلُهُ! جانباً؛ حتّى لو ازدهرَ سوقُ الكتابِ لسببٍ أو لآخرَ لا يوجدُ في الظروفِ الحاليّةِ ضمانٌ على حصولِ الكاتبِ على حقّهِ بشكلٍ عادلٍ. لا توجدُ آليةٌ ثابتةٌ يوثقُ بها عن المبيعاتِ والإصداراتِ، عدداً وكميّةً، والسوقِ في حينهِ ولاحقاً. من الممكنِ أنْ يعلنَ ناشرٌ أنّهُ طبعَ ١٠٠٠ نسخةً مثلاً يأخذُ تكاليفَ طبعٍ ورسوماً عليها في حينِ أنّهُ قد يكونُ طبعَ ٥٠٠ أو ٣٠٠ نسخةً مثلاً!؛ كيفَ يمكنُ التحقّقُ من ذلكَ من لدنِّ الكاتبِ المغفّلِ أو المستغفَلِ؟!. العالَمُ العربيُّ يعيشُ تقسيماتِ سايكس-بيكو ثقافيّاً واجتماعيّاً ونفسيّاً وسلوكيّاً، فرديّاً وجماعيّاً ومؤسّساتيّاً وليس فقط ديموغرافيّاً سياسيّاً؛ كلُّ ناشرٍ تقريباً في دولةٍ سايكس-بيكويّةٍ يتصرّفُ وكأنّهُ في كوكبٍ آخرَ مستقلٍّ. ثقافةُ الكذبِ والضحكِ على اللحى والذّقونِ مستعرةٌ بشكلٍ واضحٍ في التعاملِ بينَ مكوّناتِ عمليّةِ النشرِ ولا توجدُ طريقةٌ أو إستراتيجيّةٌ مشترَكةٌ مُحكمَةٌ للسيطرةِ عليها أو الحدِّ منها إلى المستوى المعقولِ أو المقبولِ. هذهِ وتلكَ مسئولياتٌ جماعيّةٌ لوزاراتِ التربيةِ والتعليمِ والثقافةِ والعدلِ وجماعاتِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ وحتّى الداخليّةِ والأمنِ، وبالذاتِ من الشرطةِ الاجتماعيّةِ أو المجتمعيّةِ.

تجربتِيَ الخاصّةُ بتوزيعِ وتسويقِ الأجزاءِ من إصداراتِ الكتبِ لِيَ لا تسرُّ أحداً ولا تحفظُ ماءَ وجهٍ أو كرامةٍ. بطبيعتِها هذهِ التجربةُ تحدُّ من حوافزِ وطموحاتِ الشخصِ باتجاهِ الكتابةِ والتأليفِ إنْ لم تشبعْهُ يأساً ومللاً وخسارةَ ماءِ وجهٍ وضعفَ ثقةٍ في الظّهورِ بينَ الأهلِ والأصحابِ والزّملاءِ. من جرّاءِ ذلكَ لا عجبَ أنْ يتنكّرَ الكاتبُ لنعمةِ موهبةِ الكتابةِ ويلعنَ التجاربَ القاسيةَ التي مرَّ ويمرُّ بها التي تجعلُهُ مضطرّاً للتعبيرِ عنها وتسويقِها

لجمهورٍ يعرضُ عنها باللينِ والإكراهِ والقناعةِ والرضا والغبنِ. في النهايةِ يمكنُ تلخيصُ حالِ "تسويقِ وتوزيعِ" الكتابِ لديَّ بالنقاطِ التاليةِ:

ً١. معظمُ المبيعاتِ عن طريقِ الكاتبِ إنْ تتمُّ تجري سرّاً وبشكلٍ بينيٍّ مع الصّديقِ أو الصّاحبِ أو الزميلِ أو المعرفةِ الذي (أو التي) يشتري (أو تشتري). كلُّ بلدٍ عربيٍّ لهُ قوانينُ مطبوعاتٍ على الكاتبِ مراعاتُها بالحصولِ على ترخيصٍ خاصٍّ ببيعِ أو توزيعِ أو تسويقِ ذلكَ الكتابِ. ذلكَ ما قد يستغرقُ وقتاً لقراءةِ النصِّ وتقريرِ الحكمِ من قِبَلِ لجانٍ مختصّةٍ ليسَ بالسّهلِ على الكاتبِ الانتظارُ حتى الحصولِ عليها. قد تمضي عدّةُ أشهرٍ قبلَ أنْ تجودَ الوزارةُ المكلّفةُ بالتدقيقِ والتحقّقِ من أنَّ المخطوطةَ لا تشكّلُ خطراً على الأمنِ الوطنيِّ والقوميِّ والروحيِّ والإنسانيِّ، وأمنِ السلطةِ الحاكمةِ قبلَ هذا وذاكَ. في سباقٍ مع الزّمنِ يجري "تسويقُ" ١٠٠-٢٠٠ نسخةٍ من الإصدارِ في معظمِها (أو بالأحرى كلِّها) تذهبُ هدايا للأصحابِ أو الأصدقاءِ دونَ مقابلٍ. جلُّ الهدايا في ذلكَ الاتجاهِ هي من نوعِ الإكراهِ "اللطيفِ أو بالمخاجلةِ" عليها أو الترجّي لقبولِها، والعياذةُ باللهِ تعالى في وضعٍ كهذا!.

ً٢. المؤسّساتُ التعليميّةُ والتثقيفيّةُ والاجتماعيّةُ العربيّةُ، إلا ما رحمَ تعالى من قلّةٍ في وضعٍ بائسٍ!، من التّعسِ بمكانٍ بحيثُ من الصعوبةِ الكبيرةِ التقدّمُ إليها بنسخٍ من كتابٍ صادرٍ باللغةِ العربيّةِ يحملُهُ مؤلِّفُهُ. تشملُ هذهِ المؤسّساتُ الجامعاتِ والمعاهدَ التعليميّةَ والإستراتيجيّةَ والنوادي الاجتماعيّةَ والثقافيّةَ والمدارسَ العليا والمكتباتِ الخاصّةَ. جلُّ هؤلاءِ يشكونَ للمؤلِّفِ "المتسوّلِ المنهَكِ ماليّاً وجسديّاً وعقليّاً!"، يشكونَ شحَّ مصادرِ التمويلِ إلى درجةِ الإفلاسِ أو قريباً منها. هؤلاءِ مستعدّونَ لقبولِ نسخٍ من الكتابِ على شكلِ هدايا مقابلَ وعودٍ أغلبُ الظنِّ أنَها زائفةٌ كاذبةٌ، عن عمدٍ وترصّدٍ وسبقِ إصرارٍ، في الحصولِ على نسخٍ إضافيّةٍ مقابلَ ثمنٍ مستقبَلاً؛ إذا ما أقرّتْ لجنةٌ موكّلةٌ بالبتِّ في أمورٍ كهذهِ. أغلبُ المؤسّساتِ التعليميّةِ العربيّةِ الآنَ وضعت نفسَها في حضنِ العولمةِ الثقافيّةِ والاجتماعيّةِ والشكليّةِ وحتّى العضويّةِ الفسيولوجيّةِ، وركبتْ موجةَ الخواجاتِ بشكلٍ يتعرّقُ لهُ جبينُ "الملتزمينَ" بالثوابتِ والأصولِ والمبادئِ والأهدافِ الساميةِ النبيلةِ. من الغرابةِ بمكانِ الظّهورُ على تلكَ المؤسّساتِ بمخطوطةٍ باللغةِ العربيّةِ، عدا عن الفصحى المنقّطةِ المشكّلةِ حروفِها والمهذّبةِ. يتقاضى القومُ فيضاً من معاشاتٍ أعماهُم عن الاهتمامِ بثقافاتِهم ولغاتِهم وشئونِ وشجونِ أبناءِ جلدتِهم.

ً٣. مُجملُ "مبيعاتِيَ" من كلِّ إصدارٍ لا تساوي جزءاً بسيطاً جدّاً من الرسومِ المدفوعةِ فقط لدورِ النّشرِ على الطباعةِ والنشْرِ والتوزيعِ. الأتعابُ الجسديّةُ والمعنويّةُ والنفسيّةُ

وضياعُ ماءُ الوجهِ والكرامةِ والعمرِ بلا هوادةٍ سدىً لا تأتي بأيِّ حسبانٍ. كيفَ لا يكونُ الأمرُ غيرَ ذلكَ والمتعلّمونَ العربُ يتبنّونَ فكرَ ومنتجاتِ غيرهم كما لو لم يكنْ أمرُ الكتابةِ بالعربيّةِ لا يعنيهم بشيءٍ، وطنيّاً وقوميّاً وإنسانيّاً واجتماعيّاً وحتى قبليّاً وروابطَ أسْريّةً. في الصّددِ الأخيرِ فإنّهُ وبنفسِيَ لم أتمكّنْ من إقناعِ أقاربَ لِيَ بالدّمِ من الدرجاتِ الأولى والثانيةِ والثالثةِ من اقتناءِ نسخةٍ واحدةٍ، ومنهم مَن أتى في بعضِ هذهِ الكتبِ ذِكْرٌ لحالٍ مرّوا بهِ بشكلٍ مباشرٍ أو دارَ حادثٌ في المكانِ حولَهم في بيئتِهم. وإذا ما عَرَفَ أو أتى لعلمِ بعضِ الأصدقاءِ والمقرّبينَ أنّني بحاجةٍ ماسّةٍ إلى دعمٍ من مبيعاتِ كتابٍ أو كتبٍ لِيَ حتّى يتنكّرَ للصداقةِ والصحبةِ والمعرفةِ ويصبحَ مثلَ الذي "لا صدّقَ ولا صلّى ولكنْ كذّبَ وتولّى"، والعياذةُ باللهِ تعالى من الموقفِ والتشبيهِ.

٤ً. الحالةُ الماديّةُ لأكثرَ من ٨٠% من القرّاءِ العربِ لا تبشّرُ بخيرٍ للكتّابِ والمؤلّفينَ؛ أخذتْ المصاريفُ الأخرى منهم كلَّ مأخذٍ تقريباً. كجزءٍ من شعوبٍ قائمةٍ في وجودِها وكينونتِها على الاستهلاكِ والتبعيّةِ والمعوناتِ الخارجيّةِ شبهِ المطلقةِ تجدُ أموالُهم طرقَها سالكةً إلى منافذَ مستنفِدَةٍ للجيوبِ على شكلِ ابتياعِ سيّارةٍ من وكالةِ استيرادِ سيّاراتٍ وقطعِ غيارٍ وصيانةِ الأخيرةِ؛ وذلكَ مثلاً لا حصراً وعلى الإطلاقِ. هنالكَ فواتيرُ استهلاكيّةٌ ومصروفاتٌ في جلّها تذهبُ للشركاتِ التي باتت تسيطرُ على أنفاسِ رئاتِ البشرِ ودقّاتِ أو نبضاتِ قلوبِهم. بعدَ هذا الاستنزافِ للمواردِ والطاقاتِ، مَنْ مِنْ هؤلاءِ بقيَ لَديهِ متّسعٌ من الوقتِ أو المكانِ أو الجهدِ لشراءِ واقتناءِ كتابٍ باللغةِ العربيّةِ لا يأتي بأيٍّ جديدٍ سوى تعدادِ النكباتِ وإظهارِ التظلّمِ واستجداءِ الحزنِ والأسى والتعاطفِ مَعَ المؤلّفِ من جهةِ القارئِ؟!. لم يبقَ للكتّابِ والمؤلّفينَ والشعراءِ والمؤرّخينَ والاجتماعيينَ والعلماءِ! العربِ إلا اللطمُ على الوجوهِ والبكاءُ والنواحُ والعويلُ على مستقبلٍ قاتمٍ معتمٍ وقعوا فيهِ، عن نيّةٍ وسبقِ إصرارٍ أو عن إكراهٍ.

٥ً. المسئولونَ العربُ باعوا، أو اضطرّوا لبيعٍ!، الأوطانَ والمقدّراتِ والشعوبَ والثّقافاتِ والعقائدَ للأجنبيِّ مقابلَ البقاءِ في مناصبِهم الكرتونيّةِ الورقيّةِ والتي ذهبَ عنها اللونُ والطعمُ والرائحةُ المحبّذانِ والمحبّذةُ، على التوالي. تُركتْ الأمورُ تجري مثلَ الأغنامِ دونَ راعٍ. انعكسَ ذلكَ بشكلٍ جدٌّ سلبيٍّ على حالِ الكتابِ العربيِّ وجودتهِ ومبيعاتهِ وريعهِ. اليومَ، ومثلاً لا حصراً، تأخذُ البورصاتُ والأسواقُ الماليّةُ والثراءُ السريعُ جلَّ اهتمامِ الطبقةِ المفكّرةِ والمثقّفةِ والعاملةِ. على المؤلّفِ الحالمِ والحالُ هذهِ أنْ يقومَ بكلِّ شيءٍ "من طقطقٍ! ... إلى ... سلامُ عليكمُ" في سبيلِ وضعِ مادّةٍ فكريّةٍ ولو بأيِّ مستوى جودةٍ

إلى السّوقِ مقابلَ ما دونَ أيِّ حدٍّ أدنى من الريعِ؛ ذلكَ وضعٌ جهاديٌّ "انتحاريٌّ" من الطرازِ الأوّلِ.

٦. إلا من عددٍ محدودٍ من الكتبِ وصلني عن طريقِ أصحابٍ لِيَ سافروا إلى أمكنةِ دورِ النّشرِ، فالنّاشرونَ عزفوا عن إرسالِ أيّةِ نسخةٍ بالبريدِ الأرضيِّ أو البحريِّ أو الجويِّ أو بالبريدِ السريعِ؛ للوسيلتيْنِ الأخيرتيْنِ لا مفرَّ من كتابةِ ها ها ها ها ها ها ..... للاثنتيْنِ معاً لكنْ ليسَ على حدٍّ سواءَ. ذلكَ تجنّباً لتحمّلِ تكاليفِ البريدِ التي قد تزيدُ ميزانيّاتِهم إرهاقاً وإنهاكاً. طفقتُ أبحثُ على بيوتِ الأصدقاءِ والمعارفِ والأصحابِ وهواتفِهم المحمولةِ أتوسّلُ عوناً لجلبِ عدّةِ نُسخٍ من إصداراتِ كتبٍ لِيَ هنا وهناكَ. هؤلاءِ الأصحابُ وأقاربُهم ومعارفُهم لا يجلبونَ شيئاً دونَ مقابلٍ، ماديّاً ومعنويّاً ونفسيّاً ومسلكيّاً، وإن بدا الأمرُ كذلكَ. عليَّ أنْ أدفعَ ثمناً مقابلَ ذلكَ وبأشكالٍ مختلفةٍ تفوقُ في معظمِها تقديراً أجورَ نقلِ البريدِ بأسرعِ الوسائلِ والطرقِ الممكنةِ مثلَ الدي إيتش إل (dhl) والإمبوست (emposte) والأرامكس (aramex) وغيرِها من شركاتٍ شديدةِ البطشِ بالمستفيدِ منها في أجورِ النقلِ. ما أنْ أتى معرضٌ للكتابِ دوليٌّ يُقامُ في المكانِ القريبِ حتّى ووجهتُ بسيلٍ من كتبِ الإصداراتِ المتأخّرةِ لا قبلَ لِيَ بحملِها وتسويقِها ولا حتّى توزيعِها وإعطائِها على شكلِ هدايا. بنفسِيَ فإنّني أخجلُ من بيعِ أيِّ كتابٍ صادرٍ لِيَ لصديقٍ أو صاحبٍ أو معرفةٍ، أو من يمتُّ لهؤلاءِ الأخيرينَ بصلةٍ. ما البالُ إذا ما كانت هنالكَ عدّةُ مئاتٍ من النّسخِ (أكثرُ من ٦٠٠ نسخةٍ) تتراكمُ عليَّ في سعيِ النّاشرينَ للتخلّصِ من مسئوليّةٍ تخصُّ الريعَ المخصّصَ للكاتبِ المؤلِّفِ من كتابٍ أتى على الأخضرِ واليابسِ في حياةِ الكاتبِ لتأليفِهِ. في ذلكَ على النّاشرينَ أنْ يخجلوا من عارٍ على ذقونِهم وجباهِهم وعلى الدّمِ الذي يجري في عروقِهم!؛ كما لو كانَ العربُ ينقصُهم "عمدةً أو مختاراً أو شيخَ عائلَةٍ أو قبيلةٍ ...."!.

ما سبقَ أعلاهُ وكثيرٌ مما لم يُذكَرْ يعطي فكرةً بسيطةً عن الحالِ في سوقِ التأليفِ والطباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ والتسويقِ للكتابِ العربيِّ. في الماضي كانَ الذي يكتبُ مؤلَّفاً يحفظُ ذكرَهُ لأجيالٍ قادمةٍ قد تستمرُّ مئاتِ السّنينِ. اليومَ صارَ إنتاجُ الكتبِ عبئاً ثقيلاً على ظهرِ الكاتبِ ومثلبةً يحملُها في وجههِ المصفرِّ الضعيفِ القاطبِ العابسِ. من أجلِ هذا وكثيرٍ من ذاكَ وما خفيَ إلى جانبِ التفاصيلِ الشيطانيّةِ وجبَ على كلِّ عربيٍّ واعٍ أو مسئولٍ أو مدركٍ أو مفكّرٍ أنْ يدليَ بدلوهِ لحلِّ معضلةٍ إنْ تستمرَّ، لا سمحَ اللهُ، فلْنَقرأْ الفاتحةَ على قبرِ لغةِ وثقافَةِ "أمّةِ اقرأْ".

في ظلِّ ظروفٍ ومعطياتٍ في سوقِ بيعِ الكتابِ ومن أجلِ الاستمرارِ الممكنِ في عمليّةِ التأليفِ والنشرِ والتوزيعِ لا بدَّ من اللجوءِ إلى الاقتراضِ أو الحصولِ على دعمٍ من ميسوري الأحوالِ الماليّةِ. يواجهُ الكاتبُ وضعاً لا يُحسَدُ عليهِ إذا ما اضطرَّ إلى الاقتراضِ أو الدّعمِ أو حتّى الرفضِ والاعتذارِ من قبلِ الداعمينَ المحتَمَلينَ. إذا ما اضطرَّ الكاتبُ "المبدعُ المبتكرُ" للاستدانةِ فذلكَ ما يزيدُ الثقلَ على كاهلهِ، وإذا ما حصلَ على دعمٍ أغلبُ الظنِّ أنّهُ لن يخلوَ من "تحميلِ الجميلِ" والشعورِ بالدّونيّةِ أمامَ الداعمينَ في حضورِهم وغيابِهم وحياتِهم وما بعدَ مماتِهم. أكثرُ الأوضاعِ تفاؤلاً على قسوتِها! هو عدمُ الحصولِ على دعمٍ من ميسورٍ أو اقتراضٍ من أفرادٍ أو مؤسّساتٍ ماليّةٍ. حينَها يضطرُّ الكاتبُ إلى التخفيفِ من إنتاجهِ أو اللجوءِ إلى دورِ نشرٍ ميسورةِ الحالِ ذائعةِ الصيتِ تقبلُ بتكفّلِ المصروفاتِ على الطباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ والتسويقِ مقابلَ نسبةٍ في الريعِ أقلَّ من العادي.

هنالكَ تجربةٌ فريدةٌ من نوعِها يخوضُ فيها الكاتبُ أو المؤلِّفُ أعرضُ لبعضِها هنا، وهذهِ تخصّني بصورةٍ مباشرةٍ جرّبتُها بنفسِيَ. أحدُ ميسوري الحالِ تطوّعَ في "لحظةِ ضعفٍ!" للتبرّعِ بتغطيةِ تكاليفِ جزءٍ من مخطوطةٍ متوسطةِ الحجمِ، من حجمِ حواليْ ٦٠ ألفَ كلمةٍ. لم يكنْ الوضعُ مريحاً لهُ حيثُ بدا وكأنّهُ يساورُهُ الشكُّ أنَّ المبلغَ المدفوعَ للدّعمِ قد يكونُ ذهبَ لجهاتٍ أو غاياتٍ أخرى غيرِ المعلنِ عنها أو المزعومةِ، وربّما غيرِ شريفةٍ نظيفةٍ. والحالُ هذهِ على الكاتبِ الشريفِ النظيفِ أنْ يعملَ على إعادةِ المبلغِ المدفوعِ أعلاهُ، على الأقلِّ، بالسرعةِ الممكنةِ أو تقديمَ خدمةٍ بديلةٍ عنهُ. حالةٌ أخرى فيها أقدمتْ امرأةٌ ميسورةُ الحالِ ماليّاً على التبرّعِ بشراءِ عشرينَ نسخةً وتوزيعِها على زملائِها ومعارفِها. الأمرُ غايةٌ في الإحراجِ إذا ما تصوّرنا أنَّ الكتابَ لن يُشترى للحاجةِ إليهِ وبهدفِ القراءةِ ونشرِ الفكرِ بالدرجةِ الأولى والأساسيةِ. هنالكَ حالاتٌ قليلةٌ أخرى فيها أموالُ دعمٍ استُجدِيَتْ ووعودٌ بها أُعطيتْ ثمَّ نُكِثتْ وآمالٌ عليها عُقِدَتْ ثمَّ فيها بُدّدتْ أو خُيّبتْ وذقونٌ أُظهِرتْ ثمَّ "علي النّاشفِ" حُلِقتْ وأسئلةٌ شخصيّةٌ كثيرةٌ جارحةٌ محرجةٌ سُئلتْ، ونوايا الظّنونُ فيها أُحسِنَتْ ثمَّ أُسيئتْ. ثمّةَ أحوالٌ استُجلِبَ فيها أشخاصٌ "مُعتبَرونَ" مختصّونَ لدحضِ ادعاءاتٍ زُعِمَتْ!. الوصولُ إلى أعتابِ أو أسوارِ قصورِ الأثرياءِ مذلٌّ مرعبٌ وفيهِ الكثيرُ من الخسرانِ مادّةً ومعنىً وسيرَ أمورِ حياةٍ، بشكلٍ عامٍّ إلى جانبِ الشياطينِ المختبئةِ في التفاصيلِ الدقيقةِ والمتوسّطةِ في الحجمِ والتشعيباتِ. خلاصةُ القولِ الفصلِ أنَّ دعماً مؤكّداً مشرّفاً من الطبقةِ العليا يخلو من الظّنونِ والأوهامِ و"تحميلِ الجمايلِ" والابتزازِ! النفسيِّ والمعنويِّ وحتّى "المبدئيِّ" (نسبةً إلى مبادئَ) هو من بابِ الغرقِ والاستغراقِ في أحلامِ اليقظةِ.

الحالةُ النفسيّةُ والصحيّةُ والفكريّةُ والسّلوكيّةُ والعقائديّةُ

(من علاماتِ المؤمنِ باللهِ تعالى الصّبرُ على بلواهُ)

أمامَ فقدانِ الكتابِ العربيِّ بريقَهُ وقيمتَهُ الفكريّةَ باتَ وضعُ الكتّابِ العربِ من النوعِ الذي لا يُحسدونَ عليهِ بتاتاً. حتّى من يُحسبونَ روّاداً في الفكرِ والكتابةِ والشعرِ المعاصرِ خبتْ نجومُهم وطفقوا يبحثونَ في المكانِ عن أبوابٍ أخرى علَّهم يكسبونَ بعضَ العيشِ والصّيتِ والسّمعةِ. من الكتّابِ من يتمتّعُ بمعرفةِ لغةٍ أخرى إمّا استعانَ بالأخيرةِ أو هاجرَ كليّاً إلى بلادِ الناطقينَ أصلاً بها. من المؤلِّفينَ من لجأَ إلى البعضِ ليترجمَ لهُ إنتاجَهُ الفكريَّ مقابلَ تقاسُمِ الرّيعِ المحتملِ لهُ فيما بينيْهما. لكنَّ الترجمةَ والإنتاجَ بلغةٍ أخرى غيرِ الأصليّةِ للكاتبِ يُفقدانِ العملَ الكثيرَ من الأصالةِ اللغويّةِ والفكريّةِ، فيها تبدو المقطوعاتُ المترجَمةُ أكثرَ ركاكةً من اللغةِ الأصليّةِ. هذا إلى جانبِ حرمانِ الكاتبِ من بيئتهِ الأصليّةِ وحرمانِ بيئتهِ منهُ. ما العملُ؟! مُغرياتُ المؤلِّفينَ والكتّابِ من القرّاءِ الأجانبِ عبرَ العالَمِ تدفعُ الكثيرينَ لبذلِ المزيدِ من الجهودِ للوصولِ إلى أهدافٍ قد تبدو للبعضِ أنّها عالميّةٌ. يتبعُ ذلكَ دفعُ تكاليفَ نفسيّةٍ ومعنويّةٍ وماديّةٍ بهدفِ التعويضِ عن الضّياعِ الناجمِ عن اندثارِ لغةٍ وثقافةٍ وحضارةٍ، أو على وشكٍ. ليسَ من بابِ التّشاؤمِ، وتكرارِ دقِّ ناقوسِ (جرسِ) الخطرِ، لكنْ تجنّباً للتفاؤلِ غيرِ الواقعيِّ المؤدّي إلى النومِ السّاكتِ على كارثةٍ فإنَّ وضعَ اللغةِ العربيّةِ في أجهزةِ وأروقةِ التعليمِ العربيّةِ وأذهانِ وعقولِ المتعلّمينَ لا يبشّرُ بأيِّ خيرٍ.

جلُّ الكتّابِ والمؤلِّفينَ العربِ لا يعتمدونَ في تحصيلِ قوتِ يومِهم أو توفيرِ مدّخراتِهم على سوقِ الكتابةِ والكتابِ العربيّيْنِ. تتمُّ تجزئةُ إصداراتِ الكتبِ عددياً بالعشراتِ والمئاتِ من النُّسخِ وقد يحتاجُ الإصدارُ الواحدُ لعدّةِ سنينٍ قبلَ نفادهِ من السّوقِ. يُفضَّلُ أنْ تكونَ القصّةُ أو الرّوايةُ أو كتابُ التراثِ أو ديوانُ الأشعارِ، وهذهِ جلُّ ما تبقّى من مجالاتِ الكتابةِ بالعربيّةِ، يفضَّلُ أنْ تكونَ من النوعِ القصيرِ في النصِّ والسّردِ. في الإصدارِ يبذلُ النّاشرُ جهداً لا بأسَ بهِ لجعلِ التكاليفِ تلامسُ الحدَّ الأدنى المتدنّي. يكونُ الاقتصادُ في النفقةِ على حسابِ إخراجِ الكتابِ ونوعيّةِ الطباعةِ والحبرِ والورقِ المستعمليْنِ والغلافِ والرسومِ على الغلافِ وغيرِ ذلكَ. إضافةً إلى ذلكَ فإنَّ أجورَ شحنِ "حصّةِ المؤلِّفِ" من الإصدارِ تقعُ على عاتقِ الأخيرِ في انتظارهِ بفارغِ الصّبرِ ليرى إنتاجَهُ متجسّداً على شكلِ

كتابٍ بينَ غلافيْنِ، يقومُ بتصفّحهِ وحيداً أمامَ ما يتوفّرُ من الملأ من حولهِ. هذا مع الأخذِ بعينِ الاعتبارِ أنَّ المؤلِّفَ خاصّةً حديثَ العهدِ بالكتابةِ هو الذي يدفعُ القسمَ الأكبرَ من التّكاليفِ التي تشملُ الطباعةَ والنّشرَ والتوزيعَ وتكاليفَ شحنِ الجزءِ الخاصِّ بهِ في البريدِ. ومن النّاشرينَ من إذا ما حصلَ على رسومِ البريدِ لكنّهُ يقرّرُ تأجيلَ الشّحنِ إلى وقتٍ آخرَ ريثما تتوفّرُ وسيلةٌ أو طريقةٌ لنقلِ تلكَ الكتبِ إلى عنوانِ المؤلِّفِ، كأنْ يزورَ الكاتبُ أو المؤلِّفُ بنفسهِ مقرَّ دارِ النّشرِ في مدينةِ النّاشرِ أو يرسلَ من ينيبُ عنهُ في ذلكَ شخصيّاً!. "عينُ الحاسدِ تُبلى بالعمى" على طرقِ الاقتصادِ في النفقةِ التي يتّبعُها هؤلاءِ النّاشرونَ من طبقةِ "البخلاءِ النصّابينَ". في استمرارِ التّعاملِ مع هؤلاءِ على المؤلِّفِ أنْ يحرصَ على النّقاطِ الحيويّةِ الأساسيّةِ في الجسمِ التي تتركّزُ في مواقعِها في مناطقِ القلبِ والكبدِ والدّماغِ والغدّةِ الدرقيّةِ والبروستاتا والقولونِ .... إلخُ إلخُ إلخُ.

حاليّاً على المؤلِّفِ بالدّرجةِ الأولى والثّانيةِ ... ودارِ النّشرِ بالدرجةِ الأخيرةِ ربّما! العملُ سويّةً لتوزيعِ وبيعِ ما أمكنَ من أجلِ التعويضِ على التكاليفِ والخسائرِ وتحقيقِ بعضِ الربحِ والفائدةِ، إذا ما أمكنَهم ذلكَ. بعضُ دورِ النّشرِ تخصّصُ نسبةً مئويّةً من عددِ نُسَخِ الإصدارِ للمؤلِّفِ، على الأخيرِ أنْ يقومَ بنفسهِ بتسويقِها وجني ما يمكنُهُ من جيوبِ أقاربهِ وأصدقائهِ ومعارفهِ ومن يقدرُ على الاتصالِ بهم، (يصطفلْ! على حدِّ تعبيرِ زوجةِ أحدِ النّاشرينَ في هذا السّياقِ). عادةً والحالُ هذهِ ما يقومُ المؤلِّفُ مضطرّاً بتوزيعِ عصارةِ فكرهِ وعملِ قلبهِ وكبدهِ وأعصابهِ للّذينَ يستأهلونَ على قلّتِهم بل ندرتِهم، والذينَ لا يستأهلونَ على كثرتِهم وزيادةِ رعونتِهم. بعبارةٍ أخرى يذهبُ الكاتبُ وفكرُهُ وعملُهُ مثلَ "وليمةٍ رخيصةٍ لخفافيشِ الظّلامِ الدّامسِ" من حولِ الكاتبِ. النّاشرُ والحالُ هذهِ يجلسُ مثلَ "شيخِ قبيلةٍ أو عمدةٍ مختارٍ يداعبُ غليونَهُ!" في العصورِ البائدةِ بعدَ أنْ أمّنَ كلَّ! تكاليفِ إصدارِ الكتابِ من جيبِ الكاتبِ وضَمِنَ التوزيعَ من حسابِ عملِ وجهدِ و"خرابِ بيتِ الكاتبِ". بعضُ النّاشرينَ يلجئونَ إلى بيعِ جزءٍ من حصّةِ دارِ النّشرِ للكاتبِ المؤلِّفِ نفسهِ الذي أيْ الأخيرُ يحاولُ كلَّ جهدٍ مخلصٍ لديهِ لتسويقِ كتابهِ. يجري ذلكَ مع حسمٍ "خاصٍّ!" من جهةِ دورِ النّشرِ إكراماً "لسوادِ عيونِ" المؤلِّفِ الكاتبِ.

في ظلِّ هكذا معطياتٍ وحيثيّاتٍ وتفاصيلَ لا قِبَلَ إلا للشّياطينِ، ربّما، بتحمّلِها باتَ على المؤلِّفِ أنْ يستخلصَ كلَّ شيءٍ من عصارةِ فكرهِ وإبداعهِ لإثباتِ نفسهِ أمامَ القارئِ والنّاشرِ وعبثيّةِ السّوقِ. في هذا الطريقِ المقفرِ بفظاظةٍ على المؤلِّفِ أنْ يواجهَ الحقيقةَ المرّةَ بعينيهِ وقلبهِ ومناعةِ دمهِ وعصارةِ مرارةِ كبدهِ وجهازِ بنكرياسهِ وأجزاءَ أخرى مهمّةٍ في الجسدِ، وأخيراً لكنْ ليسَ آخراً بما يتمتّعُ بهِ من معتقداتٍ وأفكارٍ ساميةٍ نبيلةٍ.

هنا يمكنُ المرورُ على ما سبقَ من أزماتٍ وكوارثَ تأتي على تلكَ الأجزاءِ من الجسمِ ببعضِ الشّرحِ غيرِ المتخصّصِ طبيّاً بها.

١. القلبُ والأعصابُ المتحكّمةُ بتنظيمِ عملهِ هي أولى ضحايا عمليّةِ الكتابةِ والنّشرِ والتوزيعِ، بمجملِها مضنيةٌ مكلفةٌ وغيرُ مربحةٍ بشكلٍ عبثيٍّ. القلبُ معرّضٌ للصّدماتِ منذُ اليومِ الأوّلِ للكتابةِ وحتّى الانتهاءِ من بيعِ آخرِ نسخةٍ من الإصدارِ تليها همومُ الإصدارِ الثاني، إنْ يحدثْ الأخيرُ! تصلُ الصّدْماتُ على القلبِ ذروةً لها عندَ كلِّ منعطفٍ حادٍّ في الكتابةِ والنّشرِ والتوزيعِ وحفظِ حقوقِ المؤلِّفِ أو الكاتبِ شبهِ المهدورةِ على الدّوامِ لمصلحةِ دورِ النّشرِ. لا يتردّدُ بعضُ الناشرينَ من العملِ "كعرّابينَ" يحاولونَ جنيَ كلَّ شيءٍ ممكنٍ لجيوبِهم ما استطاعوا إلى ذلكَ سبيلاً. كلمةُ "بعضُ" هنا لا تهدفُ قطعاً إلى التقليلِ من عددِ أو نسبةِ "العرّابينَ" بقدْرِ ما تحاولُ فقط إثارةَ التفاؤلِ في نفوسِ من يهمُّهم الأمرُ! أو تجنّباً لاعتراضاتٍ، المرءُ العاديُّ بغنىً عن الخوضِ فيها. يتصلُ بأداءِ عملِ القلبِ والدّورةِ الدمويّةِ احتمالُ حصولِ اضطرابٍ وجلطاتٍ وسكتاتٍ قلبيّةٍ ونوباتٍ عصبيّةٍ خفيفةٍ وحادّةٍ.

٢. الكبدُ هو الجهازُ الثّاني أو التّالي سريعُ التأثّرِ بما يجري. يكونُ ذلكَ عن طريقِ الشّعورِ في كثيرٍ من الأحيانِ ببعضِ الغثيانِ والألمِ والبرودِ في المنطقةِ المحيطةِ بالكبدِ. إذا ما تكرّرت خيبةُ الأملِ والصّدماتُ على الكاتبِ، الذي أيْ الأخيرُ يحاولُ جهدَهُ أنْ يستقرَّ بهِ الأمرُ ويهدأَ ما أمكنَ لكيْ يتفرّغَ للكتابةِ والإبداعِ، فإنَّ عملَ الكبدِ سيتأثّرُ سلباً لا محالةَ بشكلٍ ملحوظٍ. يضطربُ عملُ الكبدِ وتبدأُ بعضُ الآلامِ الناجمةُ مثلاً عن جفافٍ في الغشاءِ المحيطِ بالكبدِ تطرقُ الأبوابَ. ما على المؤلِّفِ إلا أنْ يبدأَ بطرقِ أبوابِ الأطبّاءِ الذينَ أيْ الأخيرونَ، خاصّةً من هواةِ الثّراءِ السّريعِ من جيوبِ المرضى المنكوبينَ، ينتظرونَ رؤيةَ ما وصلَ إليهِ حالُ جيبِ ذلكَ الكاتبِ الضّحيّةِ الذي أغرتهُ الشهرةُ النّاجمةُ عن تأليفِ كتابٍ. إذا ما بدأَ كاتبٌ باتّباعِ إرشاداتِ ونصائحِ طبيبٍ "تجاريٍّ" فإنَّ أغلبَ الظنِّ أنَّ ذلكَ المؤلِّفَ سيدمنُ على المعالجاتِ الطبيّةِ لاحقاً؛ "كورساتُ" أدويةٍ أو مضادّاتٍ حيويّةٍ متلاحقةٌ ستجعلُ الجسمَ يتعوّدُ على تناولِ الأدويةِ ولا يستغني عنها إطلاقاً. سيصرفُ الكاتبُ جهدَهُ ووقتَهُ ومالَهُ المدّخرَ لاستعادةِ ما أمكنَ لهُ من عافيتهِ عن طريقِ التهامِ الأدويةِ الكيماويّةِ بما لها من مضاعفاتٍ جانبيّةٍ على المدى القريبِ والبعيدِ!.

٣. جهازُ البنكرياسِ الموكَّلُ بتزويدِ الدّمِ بهرمونِ الأنسولينِ المسيطرِ أو المتحكِّمِ بنسبةِ السكّرِ في الدّمِ هو الهدفُ الآخرُ للصّدماتِ والأخبارِ القادمةَ عن أحوالِ النّشرِ والتوزيعِ و"ريعِ" المبيعاتِ. إصابةُ المؤلِّفينَ والمفكّرينَ الأكاديميينَ بمرضِ السكّريِّ أمرٌ عاديٌّ

ومتوقَّعٌ ومقبولٌ، وربّما يعتبَرُ علامةً مميّزةً! أو فارقةً لغزارةِ الفكرِ والقلقِ والتحسّبِ لما هو أسوأُ قادمٌ، كلُّها في آنٍ معاً. من أجلِ ذلكَ يُرى الكثيرونَ من الكتّابِ ممن يركّزونَ في تناولِ أطعمتِهم بانتقائيّةٍ واضحةٍ على الخضارِ والفواكهِ والشوربةِ والأغذيةِ سهلةِ الهضمِ الخاليةِ ما أمكنَ من السّكّرِ، ما أمكنَ لميزانيّاتِهم من تحمّلهِ.

٤. خفوتُ النّظرِ والحاجةُ إلى أدواتٍ مساعدةٍ لتعزيزِ البصرِ هي من منتجاتِ عمليّةِ التأليفِ والإنتاجِ الفكريِّ المضنيةِ. هنالكَ عدّةُ عواملَ تؤدّي إلى إضعافِ البصرِ لدى المؤلِّفِ مثلَ تأثُّرِ النّظرِ بالقلقِ والتحسّبِ مما يؤدّي إلى التأثيرِ على شبكةِ الأعصابِ الحسّاسةِ للضوءِ المرئيِّ بالإضافةِ إلى تأثيرِ الإصابةِ المحتمَلةِ بمرضِ السكريِّ على قوّةِ النّظرِ. "بالإضافةِ إلى إضعافِ قوّةِ نموِّ الشّعرِ المؤدّيةِ للصلعِ والشيبِ على الرأسِ!"، المبكّرَيْنِ، فإنَّ على الكثيرينَ من المؤلِّفينَ استعمالَ النّظاراتِ الطبيّةِ ذاتِ العدساتِ المميَّزةِ بقوّةِ التكبيرِ.

٥. مرضُ هشاشةِ العظامِ ناجمٌ عن النقصِ في فيتامينِ "دي" وتنظيمِ تركيزهِ في الدّمِ. هذا الفيتامينُ يتكوّنُ كذلكَ بفضلِ التعرّضِ المنتظمِ لأشعةِ الشّمسِ والتي أيْ الشّمسُ تعزُّ على الكثيرينَ من الكتّابِ بسببِ عملِهم شبهِ الدّائمِ في الظلِّ. اضطرارُ الكتّابِ للبقاءِ في أماكنِ الظلِّ، توخّياً للانتهاءِ من كتابةِ فصولِ كتابٍ يريدونَ إصدارَهُ في أقربِ وقتٍ ممكنٍ، يحرمُهم من التمتّعِ بالشّمسِ وفوائدِها الجمّةِ للعظامِ والجلدِ وأجزاءِ وأعضاءِ وأجهزةِ الجسمِ الأخرى. لو كانت الحقوقُ مُصانةً والأمورُ تسيرُ بسلاسةٍ وحسنِ سيرٍ لأمكنَ لذلكَ الكاتبِ تخصيصُ بعضِ الوقتِ ليرى ضوءَ الشّمسِ الذي يساعدُ كثيراً في تعزيزِ مكانةِ فيتامينِ "دي" في الدّمِ ويبقي الجلدَ في حالةِ نضارةٍ وحيويّةٍ مطلوبتيْنِ. تُلحقُ بهذا الجزءِ من الأمراضِ الإصاباتُ في العمودِ الفقريِّ ومفاصلِ الهيكلِ العظميِّ وما قد ينتجُ عنِ ذلكَ من انزلاقاتٍ غضروفيّةٍ وجفافٍ وتآكلٍ في الأغشيةِ و"الحشواتِ" بينَ فقراتِ الظّهرِ والمفاصلِ العظميّةِ الأخرى. في ذلكَ تكثُرُ آلامُ الظّهرِ في الجزءِ العلويِّ قربَ الرّقبةِ والسفليِّ قريباً من العُصْعُصِ.

٦. أمراضُ الصّرعِ والخرفِ وانهيارِ الأعصابِ وتآكلِ خلايا الذّاكرةِ وانكماشِ قدرةِ أطرافِ الأعصابِ على الإحساسِ؛ هذهِ جميعاً تصيبُ أيَّ شيءٍ يختصُّ بعملِ الأعصابِ. يذهبُ الأمرُ بالسّوءِ حينَ يصبحُ المصابُ مثلَ جسمٍ غيرِ قادرٍ على التحكّمِ بحركةِ اللسانِ ويعاني من الاضطرابِ في أعمالِ الأطرافِ من أيدي وأرجلٍ، بما في الأخيرةِ من أصابعَ فيها الدّورةُ الدّمويّةُ ضعيفةٌ. مع استمرارِ ضغطِ الهمومِ والأفكارِ والشّجونِ خاصّةً وقتَ الحاجةِ إلى النّومِ والراحةِ تسوءُ حالةُ الأعصابِ إلى درجةٍ ملحوظةٍ، ملحوظةٍ حتى لدى

العامّةِ أو الدّهماءِ من حولِ الكاتبِ. من المؤلِّفينَ من تبدأُ ظاهرةُ الخرَفِ وضعفِ الذّاكرةِ ونقصِ التّركيزِ تطرقُ بابَهُ في العشرينِ الأواخرِ من سنينِ حياتهِ. في هذا السّياقِ يمكنُ القولُ أنّهُ إذا ما شعرَ بعضُ النّاشرينَ أنَّ كاتباً حريصاً على إنجاحِ عملهِ يأتي إليهم فإنّهم سيتصرّفونَ مثلَ "أطفالٍ هرمينَ مدلّلينَ" في أحضانِ وكيانِ ذلكَ الكاتبِ صاحبِ "الحظِّ الحَسَنِ" في التّعاملِ معهم.

٧. أمراضُ الزّلالِ أو ترسيبِ الدّمِ "الأحمر" في الأجزاءِ السفليّةِ من الجسمِ منتشرةٌ لدى المؤلِّفينَ وبدرجاتٍ متفاوتةٍ. يعودُ ذلكَ إلى كثرةِ جلوسِهم على الأرائكِ أو الكراسي أو مستلقينَ في الأسرّةِ أو أمامَ طاولاتٍ يصرفونَ جلَّ أوقاتِهم في محاولةِ قولبةِ أفكارهِم بطريقةٍ ترضي النّاشرينَ والقرّاءَ، ما استطاعوا إلى ذلكَ سبيلاً. في ذلكَ ينسى بل يهملُ الكاتبُ أو المؤلِّفُ نفسَهُ وصحّتَهُ طويلاً يفيقُ على الأمرِ متأخّراً، وفي كثيرٍ من الأحيانِ بعدَ فواتِ الأوانِ بشكلٍ نهائيٍّ! يساعدُ العملُ البدنيُّ والتمارينُ الرياضيّةُ المنتظمةُ في تخفيفِ حدّةِ هذهِ الأمراضِ؛ أعمالٌ تعزُّ كثيراً في حياةِ الكثيرينَ من المؤلّفينَ.

٨. الجلطاتُ والسّكتةُ والاضطرابُ في أعمالِ الأجزاءِ الحيويّةِ والحسّاسةِ من الجسمِ شائعةٌ ومنتشرةٌ في أوساطِ المؤلِّفينَ والكتّابِ. في ذلكَ فالأجزاءُ التي يتركّزُ عليها الضغطُ العصبيُّ والنفسيُّ والمعنويُّ هي المناطقُ أو النقاطُ المرشّحةُ للإصابةِ. حتّى القولونُ أو الأمعاءُ الغليظةُ كاملةً بدورها تتأثّرُ بشكلٍ واضحٍ بسببِ حالاتِ اضطرابِ وعسرِ الهضمِ التي يمرُّ بها المؤلِّفُ. نقصُ السّوائلِ وضعفُ القدرةِ على تنظيمِ توزيعِها في الجسمِ يؤدّي إلى حدوثِ حالاتِ جفافٍ قد تتطوّرُ إلى أمراضٍ مستعصيةٍ في الأغشيةِ الرقيقةِ المحيطةِ بالدّماغِ والقلبِ والكبدِ والكلى والطّحالِ.

٩. الأسنانُ واللثةُ والحلقُ والفمُ هي من المتأثّراتِ بشكلٍ واضحٍ من عمليّةِ التأليفِ والكتابةِ والطّباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ والتسويقِ. كثيرونَ هم الكتّابُ الذينَ دخلَ تسويسُ الأسنانِ إلى "أجزائِهم القاضمةِ" وبدأَ ينخرُ فيها أمامَ ناظرِهم في المرايا التي يستعملونَها صباحاً مساءاً ولم يستطيعوا فعلَ شيءٍ في الوقتِ المناسبِ؛ ربّما بانتظارِ "حوالةٍ" ماليّةٍ من ناشرٍ على مبيعاتِ كتابٍ أو كتبٍ لهم. رَكَنَ هؤلاءِ إلى الطرقِ التقليديّةِ والوصفاتِ البلديّةِ في محاولةِ تسكينِ الآلامِ ومقاومةِ انتشارِ التّسويسِ إلى أضراسٍ أخرى، ركنوا إليها على زيارةِ طبيبِ أسنانٍ من النّوعِ العصريِّ الذي يقيسُ عملَهُ بالميْكرونِ (واحدٌ بالألفِ من المليمترِ). كثيرونَ هم المؤلِّفونَ والكتّابُ الذينَ نمتْ لثّةُ أسنانِهم فوقَ أسنانٍ ضعيفةٍ أو تعرّضتْ الأخيرةُ للقضمِ والإتلافِ من سوسةٍ شرسةٍ أتتْهم ضيفةً! قبيحةً على حينِ غرّةٍ واستقرّتْ في أسنانِهم ولثّتِهم وأفواهِهم. وكثيرونَ هم

المؤلِّفونَ والكتّابُ من ذوي روائحِ الأفواهِ غيرِ المستحبّةِ والذينَ من بابِ الحيطةِ يجبُ الاحتفاظُ بمسافةٍ عازلةٍ فاصلةٍ بينَهم وبينَ أقربِ النّاسِ إليهم؛ كانَ اللهُ تعالى في عونِ زوجاتِهم، أو أزواجِهنَّ، ما لم يُكثِرْ هؤلاءِ من تناولِ مزيلاتِ روائحِ الأفواهِ وأنواعٍ مبتكَرَةٍ من العلكةِ ومعاجينِ الأسنانِ ومحاليلِ المضمضةِ المضادّةِ لأنَشطةِ ميكروباتِ اللثّةِ.

١٠. الضعفُ الجنسيُّ أمرٌ عاديٌّ لدى الكتّابِ والمؤلِّفينَ بشكلٍ عامٍّ. يزيدُ الأمرُ سوءاً بسببِ أهوالِ الامتعاضِ وصدماتِ الكتابةِ والنّشرِ في سوقِ كتابٍ متهالكٍ بسببِ الضعفِ والفسادِ والفوضى والتخلّفِ المزري شكلاً وفكراً ومصيراً!. يعودُ أمرُ الضعفِ وحتّى العجزِ الجنسيِّ هذا إلى عدمِ إعطاءِ كافّةِ أجزاءِ الجسمِ الأخرى الأهميّةَ والعنايةَ المطلوبتيْنِ، وتركيزِ جلِّ الجهدِ على عملِ وإنجازاتِ الدّماغِ الذي لا يجدي كثيراً في هذا الاتجاهِ. القوّةُ الجنسيّةُ لا تعتمدُ فقط على حجمِ وشكلِ الأعضاءِ التناسليّةِ ولكنّها تعملُ ضمنَ منظومةِ الجسمِ بشكلٍ كليٍّ كاملٍ متكاملٍ، إذا ما اضطربَ عضوٌ أو مجموعةٌ كبيرةٌ من الأعضاءِ أصبحَ النّشاطُ الجنسيُّ المطلوبُ في خبرِ "كانَ وليسَ" واسمِ "ليتَ ولعلَّ". لا تنفعُ المنشّطاتُ الجنسيّةُ الكيماويّةُ والميكانيكيّةُ كثيراً. كثيراً ما تشكوا زوجاتُ الكتّابِ والمؤلّفينَ المحترفينَ ضعفَ الحالةِ الجنسيّةِ لدى أزواجهنَّ علناً وفي الخفاءِ، ومنهنَّ من يلجأنَ إلى أساليبَ وطرقٍ أخرى شريفةٍ وغيرِ شريفةٍ للتعاملِ مع الواقعِ المريرِ لبعولِهنَّ!. الأمرُ ذاتُهُ بالنّسبةِ للكاتباتِ والمؤلِّفاتِ اللواتي يذوقُ أزواجُهنَّ مرارةَ كفاحِ زوجاتِهم للوصولِ بأنفسِهنَّ إلى مراتبَ متقدّمةٍ من المجدِ!؛ ذلكَ على حسابِ نضارةِ وجوهِهنَّ وشعرِهنَّ وأنشطتِهنَّ الجنسيّةِ ذواتِ العلاقةِ.

١١. الأمراضُ النفسيّةُ، الاكتئابُ النّفسيُّ مثلاً بأنواعهِ الحادّةِ والمتوسّطةِ والخفيفةِ، والسلوكيّةُ لها نصيبٌ لا بأسَ بهِ في حياةِ المشمولينَ بعمليّةِ التأليفِ المضنيةِ وما يتبعُ ذلكَ من أعمالٍ وإجراءاتٍ تختصُّ بالنّشرِ والتوزيعِ والتسويقِ. المؤلِّفُ عادةً ما يكونُ من أكثرِ فئاتِ البشرِ انعزالاً عن المجتمعِ، تفرّغاً للعملِ والتأليفِ أو ضعفَ قدرةٍ على مجاراةِ المجتمعِ من حولِهِ. لهذا السّببِ تنتشرُ ظاهرةُ التخلّفِ الاجتماعيِّ عندَ الكتّابِ بالمقارنةِ مع غيرِهم من فئاتِ المجتمعِ. تتبعُ ذلكَ مجموعةٌ من السّلوكِ النّشازِ تُفسَّرُ أحياناً بأنّها علامةُ ذكاءٍ وعبقريّةٍ بسببِ إنتاجِ ذلكَ الشخصِ المكتوبِ مقارنةً مع غيرهِ الذينَ لا يكتبونَ أو لا يقدرونَ على الكتابةِ. في مجالِ الأمراضِ النفسيّةِ والاجتماعيّةِ يُرى الكثيرونَ من الكتّابِ من سريعي ردودِ الأفعالِ العصبيّةِ الحانقةِ ويتّسمونَ بنقصِ القدرةِ على تركيزِ ردِّ الفعلِ المناسبِ في الوقتِ المناسبِ. العلاقاتُ الاجتماعيّةُ مع المحيطِ هي

أولى ضحايا عمليّةِ الكتابةِ والتأليفِ والنّشرِ يضطرُّ فيها الكاتبُ إلى اللجوءِ الاجتماعيِّ إلى عددٍ قليلٍ من الأصحابِ المنتقينَ بشكلٍ واضحٍ؛ وأخيراً على نفسهِ قد ينعزلُ عن بقيّةِ العالَمِ. يزيدُ الأمرُ سوءاً على هكذا حالٍ عندَ الكاتِبِ في حالِ مجالِ عملٍ وسوقٍ ضعيفٍ وفوضويٍّ تسيطرُ على مكوّناتهِ الأساسيّةِ ثقافةُ الكذبِ والفسادِ والنقصِ الخطيرِ في الذّوقِ والإتيكيتِ والعلاقاتِ العامّةِ النبيلةِ.

١٢. معنويّاتُ الكاتبِ تتأثّرُ بشكلٍ واضحٍ مهما يحاولُ ذلكَ الكاتبُ إخفاءَها. يعودُ ذلكَ إلى حالةِ الصّعودِ والهبوطِ في المعنويّاتِ، الاكتئابِ المعنويِّ مثلاً بأنواعهِ الحادّةِ والمتوسّطةِ والخفيفةِ، على مدارِ السّاعةِ طوالَ العمرِ. الأفكارُ والأخبارُ والأنباءُ والمعلوماتُ المتواردةُ إلى الكاتبِ، قسمٌ منها يرفعُ المعنويّاتِ والقسمُ الأكبرُ يميلُ إلى خفضِها. ذلكَ ما يُضعِفُ الاستقرارَ المعنويَّ ويؤثّرُ سلباً على بقيّةِ العواطفِ والأحاسيسِ خاصّةً عندَ من يتمتّعونَ بإحساسٍ مرهَفٍ اتجاهَ القضايا العامّةِ المطروحةِ.

١٣. الحالةُ العقائديّةُ والمبادئُ الفكريّةُ خاصّةً السّاميةُ النبيلةُ التي يحملُها الكاتبُ تتأثّرُ بشكلٍ واضحٍ، إيجاباً في أحيانٍ قليلةٍ وسلباً في أحيانٍ أخرى. التعاملُ مع دورِ نشرٍ لا تتمتّعُ بالحدِّ الأدنى من المصداقيّةِ والمعقوليّةِ والمنطقيّةِ والأمانةِ في التعاملِ **"يُخرِجُ المرءَ عن دينهِ"**، كما يقولُ المثلُ الشعبيُّ البائسُ، كلَّ يومٍ عشراتِ المرّاتِ. كثيرونَ هم الكتّابُ الذينَ ذهبوا إلى حدِّ التمرّدِ والتنكّرِ لمجتمعاتِهم وعقائدِهم وأديانِهم بسببِ حالةِ **"البؤسِ والظّفرِ!"** التي وقعوا فيها لعهودٍ طويلةٍ، وظنّوا أنَّ خيرَ طريقٍ للخلاصِ من الأوضاعِ المزريةِ هو التمرّدُ والسبُّ والشّتمُ والقدحُ والذّمُّ واللّعنُ على كلِّ ما يمتُّ لتلكَ المعتقَداتِ بصلةٍ. قسمٌ من هؤلاءِ الذي تمكّنَ من الذّهابِ إلى مجتمعاتٍ أخرى احتضنتهم الأخيرةُ وأكرمتهم لمؤلّفاتِهم في **"الزندقةِ!"** الفكريّةِ والاجتماعيّةِ والدينيّةِ؛ ثمَّ عادَ البعضُ منهم إلى رشدِهم بعدَ أنْ توفّرَ لديهم بعضُ العيشِ الكريمِ. مِن هؤلاءِ **"المرتدّينَ سابقاً!"** مَن أوصوا بدفنِهم في فناءِ معابدَ أوصوا ببنائِها من ريعِ مؤلّفاتِهم في بلادِ المهجرِ؛ تقبّلَهم اللهُ تعالى بواسعِ بابِ توبتهِ ومغفرتهِ ورحمتهِ.

هنالكَ أمراضٌ ومعيقاتٌ أخرى لا مجالَ لذكرِها في هذا النصِّ وتحتاجُ إلى طبيبٍ مختصٍّ لكلٍّ منها لاستفاضةِ الكتابةِ الدقيقةِ فيها، ومن نوعٍ لكلِّ حادثٍ حديثٌ ولكلِّ تفاصيلَ شياطينُها. ما سردُ الأمراضِ وأعراضِها أعلاهُ إلا لمحاولةِ تجنّبِها أو العملِ على تقليصِ تبعاتِها إلى الحدِّ الأدنى المستطاعِ. قطعاً لا سعيَ هنا لتنفيرِ الكتّابِ والمثقّفينَ والمتعلّمينَ والمحترفينَ والهواةِ من عمليّةِ التأليفِ والنّشرِ والتوزيعِ المضنيةِ بامتيازٍ؛ عكسُ ذلكَ

هو الصّحيحُ تماماً. من أجلِ ذلكَ على المؤلِّفِ أو الكاتبِ أنْ لا يبالغَ في التهويلِ من الأمورِ وأنْ يسعى لأنْ تسيرَ حياتُهُ على أسهلِ وأفضلِ ما يُرامُ ويُستطاعُ.

١. بالنسبةِ للأمراضِ العضويّةِ الجسديّةِ يُنصحُ الكاتبُ، المحترفُ خاصّةً، بتخصيصِ جزءٍ لا بأسَ بهِ من يومهِ (أو يومِها) للقيامِ بأعمالٍ ميكانيكيّةٍ يدويّةٍ بدنيّةٍ تتطلّبُ بذلَ مجهودٍ يؤدّي إلى إسالةِ ما أمكنَ من عرقِ الجسمِ والشّوائبِ الضّارّةِ فيهِ. من ضمنِ تلكَ التمارينِ القيامُ بتمارينَ رياضيّةٍ لا مانعَ أنْ تكونَ شاقّةً مثلَ السباحةِ والمشيِ والجري لمسافاتٍ طويلةٍ أو رفعِ الأثقالِ وتمارينَ أخرى حسبَ حالةِ الكاتبِ الصحيّةِ والنفسيّةِ والمعنويّةِ والعقليّةِ.

٢. بالنّسبةِ للأمراضِ النفسيّةِ والمعنويّةِ والسلوكيّةِ والاجتماعيّةِ يمكنُ تجنّبُها إذا ما أيقنَ المؤلِّفُ أو الكاتبُ أنّهُ بمؤلَّفاتهِ "لن يخرقَ الأرضَ ولن يبلغَ الجبالَ طولاً". كلُّ المادّةِ الفكريّةِ لدى المؤلِّفِ ما هي إلا مكرّرةٌ في جلِّها مع إعادةِ قولبةٍ من جهةِ الكاتبِ حظيَ الأخيرُ بالقدرةِ على فعلِها كتابةً، ربّما من قوّةٍ من الغيبِ! في التّعاملِ مع دورِ النّشرِ العربيّةِ ما هي إلا حالةٌ طارئةٌ لكنْ مستعصيةٌ على المجتمعِ العربيِّ بسببِ الظروفِ غيرِ العاديّةِ وغيرِ الحضاريّةِ التي يمرُّ بها العربُ عموماً. من المتوقّعِ أنْ تزولَ تلكَ الحالةُ الاستثنائيّةُ طويلةُ العمرِ في حالِ عادَ المسئولونَ والمتعلّمونَ العربُ إلى رشدِهم وأصالتِهم وأضحوا يستعملونَ لغتَهم في إنتاجِهم الفكريِّ والعلميِّ والتقنيِّ المنشودِ أو المأمولِ.

٣. بالنسبةِ لتأثيرِ الكسادِ والفقرِ والضحالةِ الماديّةِ والمعنويّةِ والكذبِ والفسادِ على الإيمانِ بالمبادئِ والعقائدِ فإنَّ كلَّ معاناةِ الكاتبِ أو المؤلِّفِ طوالَ حياتهِ لا تعادلُ معاناةَ النبيِّ محمّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ، وبعضِ صحابتهِ، حينَ كانوا يضْطرّونَ لقطعِ مئاتِ الكيلومتراتِ في عمقِ الصحراءِ الحارّةِ الجافّةِ بحثاً عن ملجأٍ آمنٍ. كذلكَ لا تساوي معاناةُ كاتبٍ كسراً بسيطاً من معاناةِ النبيِّ أيّوبٍ عليهِ السلامُ في أيّامٍ معدوداتٍ في التّعاملِ مع جلاوزةِ بني قومهِ. لا يصلُ مستوى المعاناةِ وشدّةِ الإحراجِ حالَةَ النبيِّ لوطٍ عليهِ السلامُ عندَما جاءَ إليهِ نفرٌ ذكورٌ متسلّطونَ من بني قومهِ يساومونَهُ على ممارسةَ اللواطِ مع ضيفيْهِ من جنسِ الملائكةِ؛ حينها توسّلَ النبيُّ لوطٌ عليهِ السلامُ إلى هؤلاءِ اللواطيينَ والبَغائيّينَ الفُحْشِ واضطُرَّ لتقديمِ بناتهِ إليهم لحمايةِ ضيوفهِ. هنالكَ عشراتُ ومئاتُ القصصِ من السّيرةِ على الكاتبِ الاطّلاعُ عليها ما أمكنَهُ لمساعدتهِ في الحفاظِ على سلامةِ فكرهِ بمعتقدهِ السّامي النبيلِ، وأنْ لا يلجأَ إلى مناصرةِ أفعالِ الرذائلِ وطرقِ الأرذالِ أو الأوغادِ في كسبِ العيشِ.

٤. حتّى إذا ما أرادَ الكاتبُ أو المؤلِّفُ "الشّريفُ النّظيفُ" الحفاظَ على حالةٍ معنويّةٍ ونفسيّةٍ وصحيّةٍ ممتازةٍ ما عليهِ إلا أنْ ينسى أنَّ هنالكَ فساداً مستشرياً ونصّابينَ ولصوصاً وانتهازيّينَ وباحثينَ عن مغفّلينَ أو قابلينَ للاستغفالِ في المكانِ. عليهِ أنْ لا يضعَ في الحسبانِ الكثيرَ من المعوّقاتِ والأوهامِ والحسبانِ السيّئِ وأفعالِ الوسواسِ الخنّاسِ؛ "دعْ الأقدارَ تجري بما تشاءُ وداوِني بالتي كانت الدّاءُ".

الموضوعاتُ والصّعوباتُ أعلاهُ يمكنُ حلُّ الجزءِ الأكبرِ منها عندَ التّعاملِ مع ناشرٍ واعٍ يتمتّعُ بقدْرٍ كافٍ من المصداقيّةِ والذّوقِ العامِّ والحرصِ على نجاحِ العملِ في السّوقِ وراحةِ الآخرينَ. أمرٌ صعبُ الوصولِ إليهِ خاصّةً في المراحلِ والسّنينَ الأولى من الكتابةِ، قبلَ أنْ تضربَ "المقالبُ" دماغَ وأعصابَ الكاتبِ وتغرُزَ "الخوازيقُ" أنحاءَ جسمِ الكاتبِ خاصّةً من جهةِ الدّماغِ والقلبِ والأعصابِ. هذا معَ ضرورةِ التوصّلِ إلى عقدِ اتفاقٍ مدروسٍ جيّداً منذُ البدايةِ يحفظُ حقوقَ وكرامةَ وماءَ وجهِ كافّةِ الأطرافِ؛ تعاقدٌ تمَّ التصديقُ عليهِ واعتمادُهُ من جهةٍ رسميّةٍ أو قانونيّةٍ وطنيّةٍ مسئولةٍ واعيةٍ. عدا ذلكَ فإنَّ الأطرافَ أنفسَها يجبُ أنْ تلجأَ إلى جهاتٍ قانونيّةٍ واجتماعيّةٍ حكيمةٍ أو واعيةٍ للتوصّلِ إلى هكذا اتفاقٍ يلغي احتمالاتِ اللعبِ بالأمورِ لصالحِ هذا الطّرفِ أو ذاكَ، على الأغلبِ أنْ تكونَ من جهةِ النّاشرِ لصالحهِ.

الفقرُ الكافرُ

لا يختلفُ اثنانِ في هذا العالَمِ أنَّ الإنسانَ يحبُّ المالَ حبّاً جمّاً. حبُّ المالِ قد يدفعُ الكثيرَ من البشرِ إلى ارتكابِ كافّةِ أنواعِ الرذائلِ والخطايا وحتّى الموبقاتِ في سبيلِ التخلّصِ من وضعٍ مزرٍ ناجمٍ عن الشحِّ في مقدارِ الميزانيّةِ الماليّةِ لهُ. في العصرِ الحاليِّ حيثُ النظامُ الرأسماليُّ البائسُ فكراً وتطبيقاً وتنفيذاً، وما يصاحبُهُ من سوقٍ حرٍّ، يجعلُ الإنسانَ عبداً ذليلاً أمامَ شيءٍ اسمُهُ العملةُ أو المالُ. حقيقةً وتطبيقاً وخاصّةً في المجتمعاتِ الموصوفةِ بالنّاميةِ حلَّ الدولارُ واليورو والينُّ، وظلالُ هذهِ العملاتِ من أخرى محليّةٍ، حلَّ محلَّ عبادةِ الخالقِ والتمسّكِ بالمعاني الساميةِ والأخلاقِ والسلوكيّاتِ النبيلةِ في تعاملِ البشرِ فيما بينَها. أقلُّ من ١.٥% من البشرِ عبرَ العالَمِ يمتلكونَ الثروةَ الطبيعيّةَ لكوكبِ الأرضِ بشكلٍ عمليٍّ واقعيٍّ لكنْ فاحشٍ. ما تبقّى من البشرِ يهيمونَ على وجوهِهم صباحَ مساءَ يحاولونَ التقاطَ لقمةِ العيشِ من بقايا بُحاثِ طاولاتِ الأغنياءِ الذينَ يسيطرونَ على المرافقِ الحيويّةِ الهامّةِ عبرَ بلداتِ العالَمِ. لذلكَ فالويلُ كلُّ الويلِ لمن وُلدَ وعاشَ وماتَ

فقيراً وعلى رأسهِ تدوّي كلّ حينٍ أخبارٌ وشائعاتٌ عن بروزِ نجمٍ أو بالأحرى وحشٍ ماليٍّ بهذا الشّكلِ أو ذاكَ؛ ذلكَ الوحشُ الماليُّ على شكلِ مالكِ شركةٍ أو مشروعٍ ينهبُ الفقراءَ والضعفاءَ والعمّالَ والموظّفينَ من ذوي الدّخلِ المحدودِ نهباً.

إلا من تمكّنَ من دورِ النّشرِ من تأمينِ نفسهِ بمصدرٍ ماليٍّ مساعدٍ أو بديلٍ، غزيرٍ نوعاً ما، فإنَّ جلَّ الأحوالِ الماليّةِ لا تبشّرُ بأيِّ خيرٍ. هذا ما يزعمُ بهِ على الأقلِّ أصحابُ دورِ النّشرِ والقائمونَ عليها من إداريينَ وبائعينَ ومندوبينَ ميدانيينَ. بسببِ ضعفِ مردودِ سوقِ الكتابِ انعكسَ ذلكَ على سلوكِ وتصرّفاتِ وأعمالِ وأشكالِ وذقونِ ولُحى كلِّ من لهُ علاقةٌ بدورِ النّشرِ، النّاشرونَ والكتّابُ والإداريّونَ ومندوبو المبيعاتِ والقرّاءِ. كثيرةٌ هي دورُ النّشرِ التي يعملُ فيها النّاشرُ كمديرٍ ومؤلّفٍ ومندوبِ مبيعاتٍ ومنسّقٍ للمطبوعاتِ الصّادرةِ ومحاسبٍ على صندوقِ المبيعاتِ. يساعدُ النّاشرَ في ذلكَ أحدُ أفرادِ أسرتهِ المقرّبينَ أو أقاربهِ من أولادِ عمّهِ أو خالهِ أو أخيهِ أو أختهِ. العصبيّةُ القبليّةُ تنعكسُ وتظهرُ في حالِ دورِ النّشرِ ربّما أكثرَ من نظيرتِها في مضاربِ الباديةِ نفسِها. أولاً وأخيراً هذهِ طبيعةُ المجتمعِ العربيِّ الذي يقطنُ المدينةَ والقريةَ ومضربَ الباديةِ، الاختلافُ في الحدّةِ قد يختبأُ وراءَ الشكلِ ونوعيّةِ الأزياءِ والملابسِ. ليسَ كلُّ من لبسَ بنطلوناً وقميصاً أصبحَ أوروبيّاً في الفكرِ يتخلّى عن الوجهِ السيّئ للعصبيّةِ القبليّةِ القائمةِ على التحيّزِ الأعمى للقرابةِ في الدّمِ. مثلاً لا حصراً، مندوبو المبيعاتِ في أكثرِ دورِ النّشرِ هم من المقرّبينَ للنّاشرِ يعاونُهم في ذلكَ قليلٌ من الأصدقاءِ المختارينَ بعنايةٍ كي يقوموا بنفسِ دَوْرِ الابنِ والحفيدِ والأخِ الصغيرِ. بسببِ التخلّفِ التربويِّ والتعليميِّ وازدهارِ ثقافةِ الكذبِ في المجتمعِ بشكلٍ مأساويٍّ فالثّقةُ المتبادلةُ بينَ صاحبِ دارِ النّشرِ والموظّفينَ تظلُّ تعاني!.

عندَ زيارةِ معرضٍ محليٍّ أو إقليميٍّ أو دوليٍّ للكتابِ، ولا أعرفُ حقيقةً لماذا يُطلَقُ لقبُ "دوليٌّ" على بعضِ المعارضِ الدوريّةِ المقامةِ!، من المألوفِ والملاحَظِ أنْ يُرى أحدُ مندوبي المبيعاتِ يشكي للرائحِ والقادمِ الهمومَ الماليّةَ لدارِ النّشرِ. يدعمُ ذلكَ المندوبُ أقوالَهُ تلكَ الحالُ البائسُ الذي يظهرُ فيهِ، لباساً وشكلاً وقواماً ونبرةَ صوتٍ يائسةً للمالِ جائعةً متعطّشةً. بينَ الحينِ والآخرِ يتلاهى المندوبُ بكوبٍ من الشاي أو القهوةِ السريعةِ محاولاً إطفاءَ حالةِ المللِ والجوعِ!. حتّى إذا ما حظِيَ مندوبُ المبيعاتِ بفرصةٍ للذّهابِ لتناولِ الطعامِ على حسابِ أحدِ الأغنياءِ الكرماءِ في المنطقةِ والجوارِ لتُحسَبَ من المناسباتِ الكريمةِ في رحلتهِ. كثيرةٌ هي أجنحةُ دورِ النّشرِ في معارضِ الكتبِ من لم تستطعْ تحصيلَ الحدِّ الأدنى من المبيعاتِ الذي يسمحُ لها بدفعِ رسومِ استئجارِ ذلكَ

الجناحِ في المعرضِ من بلديّاتِ المدنِ المستضيفةِ للمعارضِ. كثيرونَ هم أطقمُ المبيعاتِ الذينَ يقلقونَ بشكلٍ دائمٍ على استطاعتِهم تحصيلَ الأموالِ الكافيةِ لدفعِ تذاكرِ السّفرِ وأجورِ شحنِ الكتبِ؛ الأخيرةُ باستعمالِ الوسائلِ التقليديّةِ البطيئةِ الرخيصةِ، عدا عن السّريعةِ المكلفةِ. لكنْ يبقى هنالكَ عددٌ من دورِ النّشرِ العريقةِ أو النّاجحةِ ماليّاً من تستطيعُ تدبّرَ الأمورِ بهذهِ الطريقةِ أو تلكَ، وتقريباً لا خوفٌ ولا قلقٌ عليهم. من طرقِ الحصولِ على دعمٍ ماليٍّ نقديٍّ يدخلُ استجداءُ أو استعطافُ أو حتى إغراءُ أحدِ أثرياءِ القومِ بالتكرّمِ، خاصّةً من المسئولينَ المولهينَ بالظّهورِ الكريمِ أمامَ كاميراتِ أو عدساتِ التصويرِ. قدَ لا يأخذُ الأمرُ من ذلكَ الثريِّ المحظوظِ في الحياةِ أكثرَ من إلغاءِ حفلةِ طعامٍ خاصّةٍ، عدا عن حفلةِ عرسٍ أو ختانِ مولودٍ ذكرٍ!، لهُ من نوعِ العشاءِ السّاهرِ لحلِّ مشكلةِ عشراتِ دورِ النّشرِ التي يتلظّى القائمونَ عليها والموظّفونَ فيها بنارِ المللِ والضّجرِ وشحِّ ريعِ المبيعاتِ إلى درجةٍ قريبةٍ من الانعدامِ.

هذا الوضعُ الذي يمكنُ وصفُهُ بالمزري يستدعي التفكيرَ بهِ مليّاً خاصّةً من جهةِ القائمينَ على شئونِ الدّولةِ والثّقافةِ والإعلامِ والتعليمِ والسياسةِ وغيرِهم. ما الذي أوصلَ أمورَ الطباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ إلى هكذا مستوىً لا يليقُ بحضارةٍ عريقةٍ وأمّةٍ مجيدةٍ ذاتِ تاريخٍ ناصعٍ أبيضَ هي في الحقيقةِ أمٌّ ومهدُ الحضاراتِ على مرِّ الزّمنِ والتاريخ؟!. حقيقةً، هذهِ المشاكلُ لا تُحلُّ فقط بضخِّ كميّاتٍ من المالِ من جيبِ أو أحدِ حساباتِ أرصدةِ أحدِ الأثرياءِ إلى دارٍ للنّشرِ أو مجموعةٍ منها. في هذا السّياقِ فثريٌّ واحدٌ على قلّةِ عددِ الأثرياءِ وندرتِهم النّسبيّةِ قادرٌ على قلبِ طاولةِ الفقرِ إلى غنىً لكنْ بشكلٍ مؤقّتٍ قد يزيدُ الوضعَ سوءاً بعدَ حينٍ قصيرٍ من تبديدِ! ذلكَ الجزءِ من المالِ في شئونِ الطّباعةِ والنّشرِ. في ذلكَ يشبهُ الوضعُ محاولةَ التعاملِ مع مصابٍ بمرضٍ عضالٍ عن طريقِ تدليكِ الأطرافِ أو تناولِ المسكّناتِ أو الإصغاءِ لطمأنةِ أهلِ الخبرةِ في علمِ النّفسِ. الأمرُ يحتاجُ إلى خطّةٍ منهجيّةٍ مبرمَجةٍ كاملةٍ متكاملةٍ يشتركُ فيها عددٌ من الجهاتِ والمسئولينَ والمؤسّساتِ والفعّاليّاتِ ....

وضعُ الثّقافةِ والعلومِ العربيّةِ من الأساسِ غيرُ مريح لأنَّ الكتابَ العربيَّ فقدَ أهميّتَهُ وقوّتَهُ وبريقَهُ ولمعانَهُ بعدَ مئاتِ السّنينِ من التخلّفِ والسّباتِ تمَّ تتويجُها! أخيراً بهجمةٍ ثقافيّةٍ استعماريّةٍ شرسةٍ لا ترحمُ في طمسِ الثّقافاتِ والحضاراتِ إلاً ولا ذمّةً. الهجمةُ الثّقافيّةُ الحديثةُ أدّتْ إلى حرمانِ الفكرِ العربيِّ من رؤوسهِ ومفكّريهِ ومخترعيهِ ومبتكريهِ ومبدعيهِ، حتّى ممن تجاوزوا الآنَ مرحلةَ الثانويّةِ العامّةِ؛ الطريقُ باتَ سالكاً نحوَ المراحلِ الإعداديّةِ والابتدائيّةِ ورياضِ الأطفالِ. اليومَ يندرُ وجودُ بيتٍ عربيٍّ أو

أسرةٍ عربيّةٍ تخلو من عضوٍ بارزٍ متعلّمٍ فيها يقودُها نحوَ "الرّضوخ" بشكلٍ سلميٍّ طوعيٍّ كاملٍ للغزوِ الثّقافيِّ. اليومَ من النّدرَةِ بمكانٍ رؤيةُ كتابٍ ناطقٍ بالعربيّةِ في بيوتِ الأُسرِ العربيّةِ يطلُّ من بينِ عددٍ كبيرٍ من الكتبِ النّاطقةِ بلغاتٍ أجنبيّةٍ، أو مترجَمةٍ عنها، في جلِّها استعماريٌّ بشكلٍ تقليديٍّ أو حديثٍ. تشتدُّ حمّى التباهي بينَ خرّيجي المدارسِ الثّانويّةِ بأيّةِ دولةٍ أجنبيّةٍ، الآنَ بالذّاتِ تتبعُ اللسانَ الأنجلو-سكسونيَّ في النطقِ، يلاحقونَ تعليمَهم العالي فيها. ما أنْ يعودَ هؤلاءِ الخرّيجونَ الجامعيّونَ لاحقاً إلى أوطانِهم الأصليّةِ حتّى يبدؤوا بِ"تشليح" تلكَ الأوطانِ من إرثِها الثّقافيِّ والعلميِّ! واللغويِّ مقابلَ أجورٍ عاليةٍ نسبيّاً يتقاضونَها من حسابِ تلكَ المجتمعاتِ البائسةِ أصلاً في مجالِ التنميةِ. مقابلَ ذلكَ لا يقدّمونَ الحدَّ الأدنى المتدنّي، المقتربَ من الصّفرِ المطلقِ، من التنميةِ لا ثقافيّاً ولا لغويّاً ولا ماليّاً. إضافةً إلى ذلكَ يصبحُ هؤلاءِ، الأمريكيّونَ والكنديّونَ والأستراليّونَ والبريطانيّونَ والبورتوريكيّونَ بالجنسيّةِ أو بالتبنّي أو بالتّأثّرِ الثّقافيِّ، خطراً ساحقاً على كلِّ ما سبقَ. لا يأبهُ! هؤلاءِ الحظَّ من شأنِ لغاتِهم وثقافاتِهم وهويّاتِهم الأصليّةِ بشكلٍ فاعلٍ ومنهجيٍّ منظّمٍ منقطعِ النّظيرِ ويمتصّونَ أموالَ تلكَ المجتمعاتِ ويحوّلونَها إلى أرصدةٍ مفتوحةٍ لهم في المؤسّساتِ الماليّةِ الأجنبيّةِ. ميدانيّاً وعلى حسابهِ الخاصِّ يصبحُ كلُّ خرّيجٍ عنصراً ميدانيّاً مندوباً لبوقِ دعايةٍ وإعلامٍ ولغةٍ وثقافةٍ وعلى التّوالي لِ، صوتِ أمريكا (VoA) وصوتِ كندا (VoC) وصوتِ أستراليا (AuBC) وصوتِ بريطانيا (BBC) وصوتِ بورتوريكو (PBC!)، على شكلِ ببّغاءَ أو حتّى بُلبلٍ نسبيٍّ على من حولَهُ. بذلكَ يصبحُ التّوظيفُ والاستثمارُ في التعليمِ الأجنبيِّ أكثرَ فداحةً ومهزلةً، في آنٍ معاً، من "تجارةِ جُحا بالبيضِ"؛ كانَ جُحا يبيعُ البيضَ بسعرٍ أرخصَ مما يشتريهِ بهِ. حاليّاً وبفضلِ هذهِ النزعةِ الثّقافيّةِ، المرتكزةِ أصلاً على نزوةٍ فكريّةٍ اجتماعيّةٍ جامحةٍ!، انتقلَ الغزوُ الثقافيُّ إلى المراحلِ النهائيّةِ ليستقرَّ في أجنّةِ الأرحامِ والعقولِ الباطنيّةِ للأطفالِ الرضّعِ وتلامذةِ المدارسِ في سنٍّ مبكّرةٍ.

ومن بابِ التأكيدِ على استفحالِ ظاهرةِ ضعفِ المردودِ والتمويلِ لدورِ النّشرِ لا بدَّ من القيامِ بدراسةٍ عامّةٍ شاملةٍ ما أمكنَ للوقوفِ على حقيقةِ تلكَ الأوضاعِ. أوضاعٌ ماليّةٌ من السّوءِ تجعلُ القائمينَ على دورِ النّشرِ في حالةٍ مزريةٍ تنعكسُ على الكتّابِ والقرّاءِ والمجتمعِ والثّقافةِ والحضارةِ والوجهِ الحسنِ للحياةِ. بالإضافةِ إلى الحلولِ الجذريّةِ الهادفةِ إلى إعادةِ أمجادِ الثّقافةِ العربيّةِ فإنّهُ يجبُ تشكيلُ خليّةٍ أو خلايا أزماتٍ مؤقّتةٍ تساهمُ في وضعِ الأمورِ في نصابِها بشكلٍ يحفظُ ماءَ الوجهِ للجميعِ. غيرُ معقولٍ ولا مشرِّفٍ ولا حضاريٍّ أنَّ ناشراً مثقّفاً معتبَراً لا يحصلُ طيلةَ فترةِ وقوفِهِ في عملهِ على ما يكفي لشراءِ شطيرةٍ (ساندويتشٍ) أو فنجانٍ من الشّايِ أو كوبٍ من القهوةِ السّريعةِ

يساعدُ في إلهائهِ عن شراءِ وجبةٍ غذائيّةٍ كاملةٍ متكاملةٍ. غيرُ معقولٍ! ذلكَ المنظرُ في نهايةِ فعاليّاتِ معرضٍ دوليٍّ للكتابِ أنْ يُرى مندوبُ مبيعاتٍ من النوعِ القارئِ الملتزمِ الحريصِ على الكتابِ والثّقافةِ، تراهُ يلتهمُ بأسنانهِ شطيرةً ويدخّنُ سيجارةً بيدٍ وباليدِ الأخرى يحملُ حقيبةً تطلُّ منها بعضُ الكتبِ التي لم يتمكّنْ من تسويقِها طيلةَ أيّامِ المعرضِ. على أعينِ وأسماعِ الملأِ من حولهِ يشكو ذلكَ الشخصُ، المُلتَهِمُ للشّطيرةِ بنهمٍ وشرهٍ واضحيْنِ للعيانِ، شحَّ البيعِ وقلّةَ المبيعاتِ وبشكلٍ يندى لهُ جبينُ من يراهُ أو يسمعُ أنّاتِ نبرةِ صوتهِ!. السّؤالُ الذي يطرحُ نفسَهُ في أذهانِ من يرى مثلَ هذا الموقفِ هو ما الذي يمكنُ أنْ يفعلَهُ هذا المندوبُ، والنّاشرُ ربّما، لتأمينِ لقمةِ عيشٍ هنيئةٍ كريمةٍ لهُ ولمن يعيلُ؟!.

انعكاسُ الأوضاعِ الماليّةِ المزريةِ لدورِ النّشرِ على حالِ التأليفِ والكتابةِ واضحٌ ومتوقّعٌ بشكلٍ سلبيٍّ. أجيالُ الكتّابِ والمؤلّفينَ الصّاعدةُ تُفاجَأُ بقائمةٍ من المطالبِ من القائمينَ على دورِ النّشرِ في جلِّها ماليّةٌ أو ذاتُ أساسٍ ومنشأٍ ماليٍّ. معظمُ الكتّابِ الجددِ لا تتوفّرُ لديهم مصادرُ ماليّةٌ كافيةٌ لاستمرارِهم على قيدِ العيشِ بالحدِّ الأدنى من التغذيةِ والعنايةِ بالصحّةِ والأسنانِ واللباسِ والتنقّلِ ذهاباً وإياباً إلى مكانِ العملِ والإقامةِ؛ لهم ولمن قد يعيلونَ. بعدَ فترةٍ طويلةٍ من العملِ الفكريِّ المضني على مخطوطةٍ يُواجَهُ الكاتبُ بطلبٍ أو فاتورةٍ لا قدرةَ لهُ على دفعِها كاملةً أو حتّى بجزءٍ منها. قد تضطرُّهُ الحالةُ هذهِ إلى الانكفاءِ وراءَ أشعارهِ وكتاباتهِ ومؤلّفاتهِ ينتظرُ يوماً تتحسّنُ فيهِ الأوضاعُ الماليّةُ لديهِ من تعبهِ وعرقِ جبينهِ كيْ يدفعَ تكاليفَ الطّباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ والتسويقِ!. النّاشرُ والحالُ هذهِ يريدُ أنْ يكسبَ من الكاتبِ، ومن المبيعاتِ والشهرةِ فيما بعدُ، دونَ أنْ يبذلَ الجهدَ المطلوبَ أو الحدَّ الأدنى منهُ؛ عملُ النّاشرِ هنا يكونُ أقربَ إلى سلوكِ صاحبِ بقّالةٍ أو حانوتٍ أو متجرٍ لبيعِ الكتبِ!.

على ما سبقَ أعلاهُ وعلى سبيلِ المثالِ وإطلاقاً لا للحصرِ فإنَّ السيّدَ "حليمَ الدَّرْشَ" لهُ ديوانٌ شعريٌّ يُسْحِرُ بأسلوبهِ وواقعيّتهِ القارئَ والسامعَ لهُ بامتيازٍ؛ ديوانُ شعرٍ بعنوانِ "ذكرياتُ حاملٍ على حدودِ سايكس-بيكو". هذا الدّيوانُ الشّعريُّ يصفُ حالةَ أسرةٍ عربيّةٍ تقطّعتْ بها السّبلُ وتعارضتْ مع قوانينِ الإقامةِ المحليّةِ الإقليميّةِ وأصبحَت مضطرّةً للعيشِ في المنطقةِ العازلةِ بينَ دولتيْنِ شقيقتيْنِ جارتيْنِ يحكمُهما نظامانِ "سايكس-بيكويّانِ" بامتيازٍ. أحدُ المشاهدِ الشعريّةِ المؤثّرةِ لكنْ العاديّةِ المتوقّعةِ اضطرارُ المرأةِ الحاملِ لوضعِ حملِها في العراءِ الباردِ الجافِّ أمامَ أنظارِ مجموعةٍ من ضبّاطٍ وجنودٍ وشرطةِ أمنِ الحدودِ الأشاوسِ البواسلِ من ذوي البُنْياتِ الجسديّةِ القويّةِ المدجّجينَ

بالسلاح. حبّذا لو يقرأُ ديوانَ الشّعرِ هذا، "ذكرياتُ حاملٍ على حدودِ سايكس-بيكو"، يقرؤُهُ كلُّ المواطنينَ والجنودِ والضبّاطِ والمسئولينَ العربُ. السيّدُ "الدّرْشُ" متواضعُ الأحوالِ ماديّاً ولا يستطيعُ دفعَ المبلغِ المطلوبِ لنشرِ ديوانهِ الشعريِّ ولو في دارِ نشرٍ متواضعةِ الحالِ. منذُ عدّةِ سنينٍ تقفُ أشعارُ السيّدِ "الدّرْشِ" حبيسةَ دفترِ الملاحظاتِ بخطِّ يدهِ بسببِ عدمِ امتلاكهِ حاسوباً ينقلُ الأشعارَ من طورِ خطِّ اليدِ إلى طورِ الكتابةِ المطبعيّةِ. نصحَ أحدُ الأصدقاءِ لهُ السيّدَ "الدّرْشَ" بترجمةِ أشعارهِ إلى لغةٍ أجنبيّةٍ، بالذّاتِ إنجليزيّةٍ-فرنسيّةٍ من نفسِ الثقافةِ الأصلِ لسايكس وبيكو على التوالي، تلمعُ في أحدِ المجتمعاتِ التي تنظرُ بشموخٍ إلى الفكرِ والثّقافةِ وضعفِ حالِ الكتّابِ الفقراءِ الماديّةِ. حينها ستضطرُّ بعضُ دورِ النّشرِ العربيّةِ إلى ترجمةِ تلكَ الأشعارِ أو الذّهابِ مباشرةً إلى المصدرِ الأصليِّ لها باللغةِ العربيّةِ؛ أيْ سيطرقونَ بابَ بيتِ الشّاعرِ "الدّرشِ" المتواضعِ في الحيِّ الشعبيِّ إذا ما بقيَ الأخيرُ على قيدِ الحياةِ يتنفّسُ!.

الحالةُ الماليّةُ المزريةُ هكذا لدورِ النّشرِ تفتحُ البابَ على مصراعيهِ للكثيرِ من الاحتمالاتِ في مقدّمتِها الفسادُ والرّشوةُ والعملُ لصالحِ أعداءِ الشّعبِ والأمّةِ والقضايا المصيريّةِ؛ الأخيرةُ بدأتْ تزدادُ عدداً وتتوسّعُ مساحةً فكريّةً وشعبيّةً عاماً بعدَ عامٍ. في وجهٍ آخرَ من المعاناةِ ذي أهميّةٍ تقتصرُ إمكانيّةُ النّشرِ على طبقةٍ من القادرينَ ماليّاً والذينَ منهم كثيرونَ ممن يتميّزونَ بضحالةِ التجربةِ والمعاناةِ والكفاحِ في فكرهم، وتلكَ مادّةٌ وغذاءٌ أساسيٌّ أو وقودٌ وطاقةٌ لفكرٍ مبدعٍ خلاقٍ حتى في الشئونَ التقنيةِ والعلميّةِ. كذلكَ تظهرُ هذهِ الحالةُ حتّى عندَ كتّابٍ مرموقينَ ممّن يتمُّ النّشرُ لهم بناءاً على سمعةٍ أو شهرةٍ سابقةٍ لهم. الكثيرونَ من المتعلّمينَ حتّى من مراحلَ تعليميّةٍ متقدّمةٍ يقدّمونَ فكراً ضحلاً بسببِ ركونِهم إلى أنَّ ما يكتبونَ سيُنشَرُ نظراً لحصولِ دورِ النّشرِ على رسومٍ ماليّةٍ مسبقةٍ، أو نتيجةَ تحسّبٍ بتحقيقِ مبيعاتٍ معتبَرةٍ بناءاً على سمعَةِ الكاتبِ وعنوانهِ المهنيِّ مثلَ دكتورٍ أو أستاذٍ أو كاتبٍ أو شاعرٍ مرموقٍ. على حالةِ العملِ لصالحِ أطرافٍ من نوعِ الخصومِ والأعداءِ، ومثلاً لا حصراً!، فالشّاعرُ "ربيعُ بونيسُ" معروفٌ بكتاباتهِ "الميكافيليّةِ" المعاديةِ للسّاميّةِ الإسلاميّةِ، وليسَ اليهوديّةِ أو المسيحيّةِ أو البوذيّةِ!. كما يبدو يريدُ الشّاعرُ "بونيسُ" الحصولَ على جائزةِ نوبل في الآدابِ بالعافيةِ رغماً عن مشاعرِ مئاتِ ملايينِ البشرِ السّاميّةِ النبيلةِ. حصلَ الشّاعرُ "بونيسُ" على رصيدٍ كافٍ في أمخاخِ القرّاءِ الثّوريينَ والفضوليّينَ بحيثُ ما أنْ يظهرَ اسمُهُ على غلافِ كتابٍ على شكلِ مؤلِّفٍ، أو على الكتابِ معلِّقٍ، حتّى تبدأَ أجسادُ القرّاءِ تهرشُ أصحابَها بضرورةِ ابتياعِ نسخةٍ من ذلكَ الكتابِ. ذلكَ في سباقٍ مع الوقتِ للاطّلاعِ على آخرِ ما وصلت إليهِ أفكارُ الشّاعرِ "بونيس" قبلَ أنْ ينتهيَ وقتُ العرضِ. لذلكَ في حياةِ الشّاعرِ "بونيسِ" وبعدَ وفاتهِ، بعدَ عمرٍ طويلٍ، يتوقّعُ النّاشرُ تحقيقَ المزيدِ من المبيعاتِ لأعمالهِ والأرباحَ.

بسببِ استفحالِ الأزمةِ الماليّةِ فإنَّ ذلكَ ينعكسُ بالضّرورةِ والتّأكيدِ على وضعِ اللغةِ والثّقافةِ وتطويرهما وتحديثِهما. كثيرةٌ هي دورُ النّشرِ التي تلجأُ إلى طباعةِ وإعادةِ طباعةِ مؤلّفاتٍ سابقةٍ ناجحةٍ من جهةِ المبيعاتِ تساهمُ بشكلٍ وبآخرَ في الرّكودِ الفكريِّ والتبعيّةِ للسّابقينَ على حسابِ الحاليّينَ الآنَ واللاحقينَ فيما بعدُ. في الكثيرِ من دورِ النّشرِ تنتشرُ "السلفيّةُ" الفكريّةُ القائمةُ على أفكارِ اجتماعيّةٍ وفلسفيّةٍ وأسطوريّةٍ لاهوتيّةٍ بائدةٍ ويسودُ التمسّكُ بها بحذافيرها بينَ القرّاءِ. لا يعني ذلكَ على الإطلاقِ الحطَّ من قيمةِ الكتبِ القديمةِ، على العكسِ من ذلكَ فهنالكَ الكتبُ القديمةُ من أمّهاتِ الفكرِ والفلسفةِ والاختراعِ والأصالةِ لا يمكنُ للنّوابغِ والمبتكرينَ والمبدعينَ الهربُ من دراستِها والاستفادةِ منها. لكنَّ الأمرَ يتّخذُ طابعاً سيّئاً عندَما تتقوقعُ العقولُ و"تتشرنخُ" القدْراتُ العقليّةُ حولَ موادَّ دسمةٍ كانت فيما مضى من الأزمانِ الغابرةِ. ذلكَ ما يلغي فكرةَ التّجديدِ في الفكرِ بشكلٍ بائسٍ لا يؤدّي إلا إلى مزيدٍ من التخلّفِ ودعواتِ العودةِ إلى الماضي والمرابطَةِ في نفسِ المكانِ والزّمانِ. المتعلّمُ والقارئُ العربيّانِ اليومَ ينقسمانِ بشكلٍ واضحٍ بينَ أنصارِ الثّقافاتِ واللغاتِ الأجنبيّةِ على قلّتِهم المتزايدةِ وبينَ دعاةِ السّلفيّةِ الفكريّةِ والأصالةِ في الفكرِ والإبداعِ على كثرتِهم المتناقصةِ. ذلكَ ناجمٌ حقيقةً عن فشلِ السّلفيينَ الفكريّينَ في إحرازِ تقدّمٍ مقبولٍ في مختلفِ المجالاتِ مما حدا بالأجيالِ إلى محاولةِ الهربِ من هذا الفراغِ الواقعِ المريرِ والقفزِ إلى أحضانِ الغزوِ الثّقافيِّ والتلاهي بمنجزاتِ الأخيرِ. بعبارةٍ أخرى يريدُ هؤلاءِ ركوبَ موجةِ الغزوِ الثّقافيِّ أو الرّقصَ مع الجانبِ النّاجحِ في الحياةِ بغضِّ النظرِ عن أصلِهِ ومصدرِهِ؛ لا-مبالاةٌ بالواقعِ والمصيرِ ما بعدَها لا- مبالاةٌ.

لا يحتاجُ الأمرُ إلى كبيرِ جهدٍ وعناءٍ لوضعِ حلٍّ آنيٍّ مؤقّتٍ للأزمةِ الماليّةِ لجلِّ دورِ النّشرِ. على المسئولينَ في الدّولِ والوزاراتِ خاصّةً الثّقافةِ والإعلامِ والتعليمِ والبحثِ العلميِّ ومراكزِ الأبحاثِ والدّراساتِ أنْ يوجّهوا بعضَ الميزانيّاتِ المخصّصةِ لاتجاهاتٍ أخرى باتجاهِ الشأنِ الثّقافيِّ وبالذّاتِ في عالَمِ نشرِ وتوزيعِ الكتبِ. مثلاً مصروفاتُ الدّفاعِ خاصّةً المختصّةُ بمراقبةِ حدودِ سايكس-بيكو، سيّئةِ الصّيتِ، والدّفاعِ المستميتِ عنها تفوقُ كلَّ التصوّراتِ. ماذا لو تمَّ تخصيصُ مصروفاتِ يومٍ أو أسبوعٍ واحدٍ في سبيلِ دعمِ جهودِ دورِ النّشرِ ومساعدتِها على الوقوفِ على أقدامِها بغضِّ النّظرِ عن الحالِ المزريةِ التي وصلتْ إليها إداريّاً وتنظيميّاً وتنفيذيّاً. بالرّغمِ من أنّني كشخصٍ أعتبرُ نفسِيَ متعلّماً وكاتباً ومؤلّفاً ذقتُ الأمرّيْنِ على أيدي دورِ النّشرِ إلا أنّني أبحثُ عن طريقةٍ لمساعدةِ هؤلاءِ الذينَ من المفترَضِ بهم أنّهم يقومونَ بواجبٍ وطنيٍّ وقوميٍّ وثقافيٍّ تعليميٍّ وإنسانيٍّ. على هذا الدّعمِ أنْ يأتيَ بعدَ دراسةٍ مستفيضةٍ للأحوالِ تشملُ الكثيرَ من النواحي الأكاديميّةِ والثّقافيّةِ والسياسيّةِ والاجتماعيّةِ والنفسيّةِ والسلوكيّةِ. دعمٌ من شأنهِ

أنْ ينهضَ حقيقةً بمستوى الكتابِ العربيِّ تأليفاً وطباعةً ونشراً وتوزيعاً وتسويقاً؛ دعمٌ من شأنهِ أنْ يريحَ الجميعَ من مشاكلِ ونزواتِ الجميعِ، قدْرَ المُستطاعِ.

أقوالٌ ووصايا ونصائحُ

يمكنُ إيجازُ وصفِ عمليّةِ التأليفِ والطّباعةِ والنّشرِ والتوزيعِ التي مررتُ بها بالمريرةِ القاسيةِ على الحياةِ والعواطفِ والأحاسيسِ وجلِّ أعضاءِ الجسمِ خاصّةً الحيويّةِ الأساسيّةِ منها. الأعضاءُ المشمولةُ باحتمالِ الإصابةِ أو الإعاقةِ أو العطبِ أو التأثّرِ السلبيِّ هي القلبُ والدماغُ والكبدُ والكِلى والطّحالُ والمفاصلُ والدّمُ وأوعيةُ الدورةِ الدمويّةِ، وأخيراً وليسَ آخراً القدرةُ الجنسيّةُ والهيكلُ العظميُّ. أكثرُ من ١٠.٠٠٠ ساعةَ عملٍ موزّعةً على أكثرَ من خمسةِ سنواتٍ في واقعٍ مأساويٍّ مستمرٍّ تمَّ هدرُها دونَ مقابلٍ ماديٍّ. من ضمنِ أحداثِ هذا الواقعِ المأساويِّ النموذجيّةِ هجومُ العلوجِ على بغدادَ واحتلالِ العراقِ عامَ ٢٠٠٣، وما تبعَ ذلكَ من محاولاتِ ضربِ العروبةِ والإسلامِ وتمزيقِهما شرَّ ممزّقٍ. جلُّ الأوقاتِ المهدورةِ في العملِ تقعُ بينَ الساعةِ الثالثةِ والثامنةِ صباحاً. في هكذا أعمالٍ "حرّةٍ" لا يوجدُ أيُّ حسابٍ لعطلاتِ أعيادٍ ونهاياتِ أسابيعَ وما تُعرفُ بمناسباتٍ شخصيّةٍ ووطنيّةٍ وقوميّةٍ وعالَميّةٍ. هذا إضافةً إلى ما يقاربُ العشرةَ آلافِ دولاراً، بالاستدانةِ، دُفِعتْ على شكلِ رسومٍ مطلوبةٍ، زعْماً!؛ لا أعرفُ على الإطلاقِ المصداقيّةَ في أمانةِ التصرّفِ بها بعدَ دفعِها لأصحابِ دورِ النّشرِ.

بعدَ تأليفِ أكثرَ من ثمانيةٍ من الكتبِ على شكلِ رواياتٍ وقصصٍ ومذكّراتٍ وخطاباتٍ وضَعتُ فيها عصارةَ دماغِيَ وقلبِيَ وكبدِيَ وجهدِيَ لم أستطعْ تأمينَ ما يعادلُ وجبةَ طعامٍ واحدةٍ كنتيجةٍ لتلكَ التضحيةِ. لم أستطعْ تسديدَ "سِنْتٍ أو فلسٍ" واحدٍ من الدّيونِ المستحقّةِ عليَّ أنا الدّكتورُ في العلومِ وأبلغُ من العمرِ ما يناهزُ الخمسةَ والخمسينَ عاماً، أيّامَ كتابةِ هذهِ المخطوطةِ المسمّاةِ "سرابٌ في كأسِ التّفاؤلِ" أو "زراعةٌ على صخورِ جلاميدٍ" أو ما يعادلُ ذلكَ العنوانَ من تسمياتٍ. لديَّ خبرةٌ في النشاطِ الأكاديميِّ والمعرفيِّ والبحثيِّ شَمِلَ مناطقَ ديموغرافيّةً (جغرافيّةً بشريّةً) مختلفةً من العالَمِ على مدى العمرِ وحرصٌ على اللغةِ والثقافةِ العربيّتيْنِ كقطعتيْنِ عزيزتيْنِ في أكثرِ أجهزَةِ الجسمِ حساسيّةً مثلَ الدماغِ والقلبِ والكبدِ وغيرِها. لكنّني أريدُ في هذا الفصلِ من الكتابِ أنْ أعطيَ من تجربتِيَ لمَن قد يستفيدُ منها على شكلِ مقترَحاتٍ ووصايا ونصائحَ وتجاربَ وحِكَمٍ

وخبراتٍ، دونَ مقابلَ وعلى طبقٍ من ذهبٍ، إذا ما يجوزُ القولُ لكنْ لا يسمحُ الحالُ والعملُ والتّنفيذُ!.

كلُّ مشروعٍ يقومُ بهِ الإنسانُ مهما كانَ صغيراً تكتيكيّاً أو إستراتيجيّاً طويلَ الأمدِ يحتاجُ إلى دراسةٍ وتخطيطٍ وتنظيمٍ وترتيبٍ ومتابعةٍ حريصةٍ وضميرٍ حيٍّ يعملُ. على المرءِ أنْ يُعمِلَ العقلَ كثيراً وطويلاً لإنجاحِ ذلكَ المشروعِ وضمانِ حسنِ سيرهِ ودوامِ نفعهِ. لا يكفي فقط التواكلُ على قوىً خفيّةٍ أو ماديّةٍ معلومةٍ ظاهرةٍ والغلوُّ في التمنّياتِ للإبقاءِ على المشروعِ في حالةٍ مقبولةٍ لدى العامّةِ. على أصحابِ ومديري تلكَ المشاريعِ أنْ يحسنوا اختيارَ كلِّ شيءٍ يمتُّ بصلةٍ إلى النجاحِ أو الازدهارِ المتوخّى والسّمعةِ الطّيّبةِ. بالنسبةِ لدورِ النّشرِ فالأمرُ يكتسبُ طابعاً استثنائيّاً نظراً لحساسيّةِ وحرجِ الشئونِ التي أخيراً تلاقي طريقَها مكتوبةً إلى السّوقِ وتستقرُّ هنالكَ لفترةٍ قد تطولُ أو تقصرُ. الكتابُ بما يحويهِ من معلوماتٍ قد يصلُ إلى جلِّ طبقاتِ المجتمعِ بطريقةٍ سهلةٍ، من نادلٍ في مقهىً ريفيٍّ منعزلٍ بفرقتهِ الموسيقيّةِ ومطربيهِ ومطرباتهِ، إلى أعلى سلطةٍ رسميّةٍ في الدّولةِ بما فيها وحولَها من أصحابِ مقاماتٍ مرفّعةٍ مشرّفةٍ مُزَكّيَةٍ أو جديرةٍ حقّاً بشغلِ مناصبِها. على كافّةِ أطرافِ عمليّةِ النّشرِ الممثّلينَ بالكتّابِ والنّاشرينَ والموزّعينَ أنْ يتوخّوا الحذرَ أكثرَ من غيرِهم في إيصالِ غذاءٍ فكريٍّ من هذا النّوعِ أو ذاكَ للجميعِ.

اليومَ يعيشُ العالَمُ عصرَ الحريّةِ والانفتاحِ وتدفّقِ الأفكارِ والمعلوماتِ ومحاولاتِ كسرِ الحدودِ النفسيّةِ والمعنويّةِ والماديّةِ والجغرافيّةِ السّابقةِ، في سبيلِ الوصولِ بالفكرِ البشريِّ إلى أقصى بقاعِ الكونِ. زادَ الإنتاجُ الفكريُّ المكتوبُ والمقروءُ والمسموعُ ووصلَ من حيثُ الكميّةِ والنوعيّةِ إلى درجةٍ غيرِ مسبوقةٍ. هنالكَ سيلٌ من الكتّابِ الجددِ الذينَ تتراوحُ فيهم المستوياتُ بينَ الكلاسيكيينَ والعاديّينَ الوسطِ والعصريّينَ، وبما يمكنُ للصنفِ الأخيرِ أنْ يتراوحَ فيما يحتويهِ بين عباقرةٍ وجهابذةٍ مرموقينَ إلى ما دونَ المستوى المتوخّى. كلَّ يومٍ هنالكَ إنتاجٌ فكريٌّ يفوقُ في الكميّةِ، والنوعيّةِ، اليومَ الذي سبقَهُ. تحتوي شبكةُ المعلوماتِ الدوليّةُ الإنترنتْ على أكوامٍ ضخمةٍ من المعلوماتِ اليوميّةِ القابلةِ للانسيابِ في مختلَفِ الاتجاهاتِ بسرعاتٍ مختلفةٍ وتتعاظمُ يوماً بعدَ يومٍ مقتربةً من سرعةِ الضّوءِ. لا مكانَ على الإطلاقِ للانكماشِ والتباهي بعظيمِ الإنجازِ وحولَ الكاتبِ أو المؤلّفِ يتدفّقُ سيلٌ من الكتبِ الورقيّةِ والإلكترونيّةِ والمدوّناتِ التي قد تصلُ في أحجامِها إلى مستوياتٍ قد لا تخطرُ ببالِ الكثيرينَ. في كثرةِ المادّةِ المكتوبةِ يمكنُ القولُ أنّهُ لو تحوّلتْ كلُّ مادّةِ الكونِ إلى أقراصٍ مدمَجةٍ عاليةِ الكثافةِ جدّاً لنفدتْ مادّةُ الأقراصِ المدمَجةِ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ اللهِ تعالى ولو جاؤوا بمثلِ تلكَ المادّةِ أكواناً

أخرى. تلكَ إحدى معجزاتِ اللهِ تعالى في خلقِ اللغاتِ على اختلافِ أصولِها والنّاطقينَ بها. إضافةً لذلكَ ومع توافدِ المادّةِ الفكريّةِ بكثافةٍ عاليةٍ على غرفِ نومِ البشرِ فإنَّ بإمكانِ كلِّ فردٍ أنْ يصبحَ كاتباً أو مؤلِّفاً ناجحاً إلى حدٍّ بعيدٍ أو متوسّطٍ أو قليلٍ أو فاشلاً؛ في الصّنفِ الأخيرِ من الكتّابِ، ما المشكلةُ في ذلكَ؟!! (Whocares?!!).

تبعاً لما سبقَ ذكرُهُ أعلاهُ وغيرهِ الكثيرِ يعاني الكتابُ الورقيُّ بشكلٍ عامٍّ والعربيُّ بشكلٍ خاصٍّ تبعاتِ الثوراتِ المتواصلةِ التي تحلُّ بالمعلوماتِ ونقلِها وتطويرِ تخزينِها كلَّ يوم. مضى زمانُ الكتابةِ بخطِّ اليدِ؛ العالَمُ على وشكِ الانتهاءِ من عهدِ الكتابةِ باستعمالِ لوحةِ الحروفِ المطوّرةِ عن الكتابةِ السومريّةِ العراقيّةِ والهيروغليفيّةِ المصريّةِ، القديمةِ لكلٍّ منهما، والانتقالِ إلى الكتابةِ عن طريقِ لمسِ شاشةِ الحاسوبِ بالإصبعِ أو بقلمٍ خاصٍّ. بالذّاتِ فالمجتمعُ والدولةُ والثقافةُ والحضارةُ العربيّةُ تُؤخذُ على حينِ غرّةٍ كلَّ يومٍ يحلُّ على البشريّةِ. لم يُهيِّئْ المتعلّمونَ العربُ الأمّةَ للمواكبةِ العمليّةِ لأيِّ شيءٍ تقريباً في كافّةِ المجالاتِ تقريباً، وبقيتْ الأمّةُ في حكمِ المستهلِكِ المستقبِلِ المستوعِبِ بشكلٍ مطلقٍ تقريباً. بعبارةٍ أخرى أصبحَ المفكّرُ والكاتِبُ والعالِمُ العربيُّ في حالةِ انعدامِ وزنٍ أو تأثيرٍ أو وجودٍ في كلِّ شيءٍ مهما كانَ صغيراً أو كبيراً. الآنَ تقفُ اللغةُ والثقافةُ والحضارةُ العربيّةُ أمامَ مصيرٍ أو مآلٍ يشابهُ بشكلٍ كبيرٍ ما آلت إليهِ الأمورُ لدى نظيراتٍ منقرضةٍ في الأزمنةِ القديمةِ والمتوسّطةِ والحديثةِ. مطلوبٌ من كلِّ مواطنٍ عربيٍّ، كلٌّ في موقعِ ومدى إمكانيّاتهِ ومسئوليّاتهِ، أنْ يساهمَ بشكلٍ إيجابيٍّ في سبيلِ رفعِ مستوى الإنتاجِ العربيِّ باللغةِ العربيّةِ في كلِّ الاتجاهاتِ. وإذا ما أردنا وضْعَ النّقاطِ على الحروفِ وتسميةَ الأمورِ بمسمّياتِها حتّى نقولَ أنَّ على الأطبّاءِ والمهندسينَ والعلماءِ والتقنيّينَ والمفكّرينَ واللاهوتيينَ والوجوديّينَ والمهنيّينَ والحرْفيّينَ والأميّينَ "المقتّعينَ" أنْ ينصهروا في بوتقةٍ واحدةٍ تؤدّي في النهايةِ إلى انبثاقِ فجرٍ جديدٍ على اللغةِ والثقافةِ العربيّتيْنِ. فجرٌ يصنعُ للعربِ مجداً يليقُ بتاريخِهم وحضارتِهم وطموحاتِهم وجدِّهم واجتهادِهم ومثابرتِهم وحرصِهم على تبوّئِ مكانةٍ مرموقةٍ في الحياةِ والتّاريخِ.

عودةً إلى دورِ النّشرِ بالذّاتِ فمنَ المتوقّعِ أنَّ كلَّ دارِ نشرٍ بحاجةٍ إلى وجودِ دائرةِ علاقاتٍ عامّةٍ نشطةٍ فيها سكرتيرٌ أو سكرتيرةٌ على الأقلِّ تردُّ في الوقتِ المناسبِ على كلِّ الرسائلِ والأسئلةِ ذاتِ الصّلةِ. من المؤسفِ والعيبِ على ذقونِ مسئولينَ في دارِ نشرٍ حديثةٍ لا يتمتّعونَ بالحدِّ الأدنى من الإتيكيتِ والذّوقِ لا يحضُّهم على الرّدِّ بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ على كافّةِ الاستعلاماتِ المطروحةِ. لا يعي هؤلاءِ قيمةَ استعمالِ الإنترنتْ والهاتفِ الأرضيِّ والمحمولِ والفاكسِ والبريدِ العاديِّ، البريِّ والجويِّ، للردِّ على الرّسائلِ

والاستعلاماتِ. يزيدُ الطينَ وحْلاً عندَما نقولُ أنَّ دورَ نشرٍ تطلبُ رسوماً عاليةً، للتشرّفِ! من نشرِ كتابٍ لديها، لا تبعثُ لذلكَ الكاتبِ برسالةٍ تخبرُهُ عن وصولِ ذلكَ المبلغِ الماليِّ؛ مع ضرورةِ وضعِ جملةٍ أو عبارةٍ فيها يشكرُ مديرُ دارِ النّشرِ ذلكَ الكاتبَ. الكاتبُ قد يكونُ في وضعٍ لاَ يُحسدُ عليهِ ماليّاً إنْ لم يكنْ يشحذُ أو يستعطي وبملابسَ رثّةٍ وحذاءٍ بالٍ ممزّقٍ. يزيدُ الأمورَ مقتاً عندَما يلحُّ الكاتبُ على النّاشرِ بضرورةِ إبلاغِ الأوّلِ للثّاني بوصولِ المبلغِ ولا يعطي الثّاني للأمرِ انتباهاً يُذكَرُ، إنْ لَمْ يكنْ قطعيّاً. ما سبقَ هو من بابِ ضربِ الأمثالِ لا الحصرَ في فوضى ولا-مبالاةِ دورِ النّشرِ المقيتةِ، فالمثالبُ الأخرى تكادُ لا تُحصى ولا تُعدُّ حسبَ المقاييسِ والمعاييرِ التقليديّةِ والحديثةِ في النقدِ ومحاولةِ تصحيحِ الأمورِ باتجاهِ الأحسنِ.

المعاناةُ والمكابَدةُ والمُقاساةُ مع دورِ النّشرِ، ودائماً القولُ بشكلٍ عامٍّ!، ما يؤدّي بالمرءِ إلى توجيهِ طلبٍ إلى الجهاتِ المسئولةِ في السلطةِ الحاكمةِ لضرورةِ توخّي الحذرِ في منحِ التراخيصِ لدورِ النّشرِ. على السّلطةِ الرسميّةِ "الرّشيدةِ" أنْ لا تعطِيَ أو تمنحَ ترخيصاً بفتحِ دارِ نشرٍ إلا بعدَ إجراءِ فحصٍ عامٍّ وشاملٍ لمقدّمِ طلبِ افتتاحِ دارِ النّشرِ، صاحبِها ومديرِها بشكلٍ رئيسيٍّ. يجبُ أنْ يشملَ الفحصُ الكثيرَ من الأوجهِ الفكريّةِ والشخصيّةِ والسّلوكيّةِ ومستوى الحرصِ على الآخرينَ والذّوقِ في التّعاملِ مع البشرِ، وغيرَ ذلكَ الكثيرُ. لا يكفي الحصولُ على مالٍ كافٍ! وشهادةٍ جامعيّةٍ متقدّمةٍ لاعتبارِ حاملِ تلكَ الشّهادةِ كمن دخلَ بيتَ أبي سفيانَ، فهو آمنٌ (مع إضافةِ عبارةِ "حاشى للتّشبيهِ!" في هذا السّياقِ). من المعروفِ للجميعِ الآنَ أنَّ الكثيرَ من الشّهاداتِ الجامعيّةِ العليا، خاصّةً الممنوحةِ في الدّولِ الناميةِ، لا تَحملُ شرفاً كافياً للاعتبارِ المتدنّي المستوى. مع التوسّعِ في استخدامِ الشّهاداتِ الجامعيّةِ لكسبِ الرزقِ بطرقٍ تفتقرُ إلى الأصالةِ والذّوقِ والشّهامةِ واحترامِ حقوقِ الآخرينَ، باتَ البحثُ عن طريقةٍ لاختيارِ الشخصِ المناسبِ في المكانِ المناسبِ أمراً ملحّاً. بعدَ ذلكَ يجبُ أنْ لا يقفَ الأمرُ عندَ الترخيصِ أو حملِ رخصةٍ لا تعني الكثيرَ عمليّاً، بل يجبُ استحداثُ آليّةٍ لمراقبةِ دورِ النّشرِ للالتزامِ بالمعاييرِ والمستوياتِ المقبولةِ أو حتّى تأمينِ الحدِّ الأدنى منها. من ضمنِ تلكَ المعاييرِ الوضوحُ والشفافيّةُ في التعاملِ وتجسيدُ الأمورِ على شكلِ بنودٍ في قوالبَ لغويّةٍ مكتوبةٍ على الورقِ، بعنايةٍ وبعدَ دراسةٍ مستفيضةٍ، على شكلِ عقودٍ لا مكانَ أو منفذَ لأيِّ طرفٍ من اللعبِ بذيلِهِ حيالَها.

لا يكفي أبداً وصولُ دارِ النّشرِ إلى سمعةٍ جماهيريّةٍ أو شعبيّةٍ عارمةٍ لإعفائِها والتّساهلِ والتّسامحِ معها إذا ما اخترقتْ حقوقَ النشرِ وقواعدَ الذوقِ واللياقةِ العامّةِ. على العكسِ

من ذلكَ يجبُ أنْ يُعامَلَ المسئولُ بكثيرٍ من الصّرامةِ على شكوىً ضدَّهُ قد تأتي من مصدرٍ عانى الأمرّيْنِ على يديْ النّاشرِ ولسانهِ ومن يعملُ تحتَ إدارتهِ. وبسببِ التسهيلاتِ الهائلةِ في مجالِ الاتصالِ والتواصلِ والرّدِّ على المراسلاتِ تتضاعفُ المسئوليّةُ على مرتكبي الخروقِ والأخطاءِ المتعمّدةِ والنّاجمةِ عن الكسلِ والإهمالِ واللا-مسئوليّةِ في التعاملِ مع الآخرينَ. في ذلكَ تظهرُ أهميّةُ وجودِ قبضةٍ شرطيٍّ قد لا يتجاوزُ في مستواهُ الفكريِّ والعلميِّ والسلوكيِّ "كلباً شرطيّاً" مدرّباً على القيامِ بوظيفةٍ شكليّةٍ تخلو من ضرورةِ التمتّعِ بأيّةِ أحاسيسَ إنسانيّةٍ، عدا عن فكريّةٍ متقدّمةٍ ولو قليلاً. وإذا ما كانَ لا بدَّ من اقتراحٍ لإصلاحِ مواقفَ هوجاءَ كالتي تقعُ فيها بعضُ دورِ النّشرِ فإنَّ على الدولةِ أنْ تنظّمَ دورةً مهنيّةً دوريّةً فيها يُطلبُ من النّاشرينَ وأطقمِ عملِهم الانتظامُ فيها واجتيازُ الدورةِ بمستوى نجاحٍ مقبولٍ. هذا مع استمرارِ تتبّعِ سيرِ عملِ وسلوكِ تلكَ المؤسّساتِ التي من المفترضِ أنّها وصلتْ إلى مستوىً مرموقٍ في الفكرِ والسّلوكِ العامِّ!.

بناءاً على خبراتٍ سابقةٍ وحاليّةٍ متواصلةٍ فإنَّ هنالكَ اقتراحاتٍ يمكنُ للشخصِ الكاتبِ اتّباعُها عندَ الولوجِ في عمليّةِ الطباعةِ والنّشرِ لدى دارِ نشرٍ. هنالكَ وصايا ورجاءاتٍ ونداءاتٍ وتوصياتٍ ومقترحاتٍ وأفكارٍ لأصحابِ العلاقةِ والشّأنِ بهذا الشّكلِ أو ذاكَ للتدخّلِ والمشاركةِ ما أمكنَ لتصحيحِ الأمورِ ووضعِها في نصابِها المريحِ.

١. على الكاتبِ أو المؤلِّفِ أنْ لا يدخلَ في متاهةِ عدمِ معرفةِ تاريخِ حياةِ النّاشرِ الشخصّيةِ أو السّلوكيّةِ المختصّةِ بالنّشرِ. قد! لا يأخذُ الأمرُ وقتاً كثيراً لمعرفةِ ذلكَ حينَ يسألُ الكاتبُ النّاشرَ عن قدرةِ الأخيرِ على التقيّدِ بمواعيدَ وكلامٍ يصدرُ عنهُ مكتوباً مقروءاً بوضوحٍ أو شفويّاً مسموعاً، بوضوحٍ كذلكَ. على الكاتبِ أنْ لا يستحيَ من قولِ الحقِّ والجهرِ بهِ ولا يخشى في ذلكَ لومةَ لائمٍ.

٢. يُفضَّلُ من الكاتبِ أنْ لا يُهرولَ باتجاهِ ناشرٍ، أو لا يُظهرَ لهُ ذلكَ على الأقلّ. تلكَ إنْ تحصلْ بشكلٍ تلقائيٍّ تُعتبَرُ نقطةَ ضعفٍ تدعو النّاشرَ لفرضِ شروطِ الأخيرِ ونزواتهِ خاصّةً الماليّةِ فيما بعدُ، والتلاعبِ في توقيتِ الطّباعةِ والنّشرِ وعمليّةِ التّوزيعِ والتّسويقِ للكتابِ. يُفضَّلُ أنْ تكونَ لدى المؤلِّفِ أو الكاتبِ عدّةُ خياراتٍ في دورِ النّشرِ يختارُ فيما بعدُ أقربَها إلى تحقيقِ مصلحتهِ!. هذهِ ميّزةٌ للسّوقِ الحرِّ إنْ تُستعمَلْ من طرفٍ واحدٍ يذهبُ الطّرفُ الآخرُ إلى جحيمِ المعاناةِ. هذا بالرغمِ من أنّني شخصيّاً لا أقبلُ أو أرتاحُ أبداً للتعاملِ مع أكثرِ من دارٍ للنّشرِ في آنٍ واحدٍ، إلا أنَّ الواقعَ يختلفُ كثيراً عن المثاليّاتِ والأخلاقيّاتِ وحسنِ السّلوكِ والنّوايا الشّريفةِ العفيفةِ.

٣. عندَ تسليمِ مخطوطةٍ للنّشرِ على الكاتبِ أنْ يحصلَ على إشعارٍ أو إيصالٍ خاصٍّ بذلكَ. هذا إضافةً إلى وثيقةٍ مكتوبةٍ وموقّعةٍ من دارِ النّشرِ تفيدُ أنّهُ سيتمُّ التّعاملُ مع المخطوطةِ وفقَ جدولٍ زمنيٍّ متّفقٍ عليهِ يرضي الطّرفيْنِ. لا يُنصحُ أبداً بالرّكونِ إلى وعودٍ كلاميّةٍ أغلبُ الأحوالِ أنّها جوفاءُ فارغةٌ حتّى مع الذينَ يتشدّقونَ بكونِهم مبدئيّينَ أو أصوليّينَ (يسيرونَ حسبَ المبادئِ والأصولِ النبيلةِ!) بهذا الشكلِ أو ذاكَ. "لا يغرّنّكَ أشكالُ لحى القومِ بل انظرْ إلى قلوبِهم وأدمغتِهم وما تفعلُهُ أيديهم"، وبشكلٍ شبهِ كاملٍ أو مطلَقٍ. لا غرابةَ في أصوليٍّ وصوليٍّ يستخدمُ الأصولَ للوصولِ، كليّاً أو جزئيّاً. في الوقتِ ذاتهِ على المرءِ أنْ لا يكونَ "بارانويْداً" (paranoid) أيْ لديهِ عقدةُ الاضطهادِ من الآخرينَ؛ أخيراً لا تزالُ الإبرةُ موجودةً في كومةِ القشِّ على بيادرِ الحصادِ في فصلِ صيفِ موسمِ غلالٍ!.

٤. يُفضَّلُ أنْ يكونَ لدى الكاتبِ محامٍ ناجحٌ حريصٌ مواظبٌ. في حالِ الحاجةِ إلى ذلكَ المحامي عليهِ أنْ يوصلَ القضيّةَ إلى المستوى المطلوبِ وبالسّرعةِ الممكنةِ. لو يُقامُ حكمُ القانونِ والنّظامِ مرّةً واحدةً، أو عدّةَ مرّاتٍ على الأكثرِ، فإنَّ ذلكَ سيشكّلُ عاملَ ردعٍ كافٍ لحملِ الآخرينَ على احترامِ أنفسِهم في التعاملِ مع الآخرينَ بمصداقيّةٍ وشفافيّةٍ كافيتيْنِ؛ ولكانَت انتهتْ حالةُ الفوضى والعبثيّةِ التي آلتْ إليها الأوضاعُ مع دورِ النّشرِ.

٥. امتداداً للحالةِ في البندِ الرابعِ فإنّهُ إذا ما انزلقْتَ أيّها الكاتبُ في وضعٍ غيرِ مريحٍ مع دارِ نشرٍ فلا تتردّدْ في اتخاذِ الخطواتِ القانونيّةِ للانتهاءِ من إنجازِ نشرِ عملِكَ في الوقتِ المحدّدِ. قد يكونُ الأمرُ سهلاً ميسّراً إذا ما كانت دارُ النشرِ تقعُ في ما يُعرفُ مجازاً بالوطنِ الصغيرِ نفسهِ. لكنْ إذا ما كانتْ دارُ النّشرِ تتواجدُ عبرَ الحدودِ فالقوانينُ تختلفُ والأوضاعُ قد تميلُ بسرعةٍ إلى التّعقيدِ بسببِ العواملِ الوطنيّةِ أو الإقليميّةِ المهينةِ في أغلبِ الأحوالِ.

٦. يُستحسَنُ التواصلُ الدّائمُ ما أمكنَ مع دارِ النّشرِ وأنْ يتمَّ دفعُ الرّسومِ المفروضةِ على دفعاتٍ حسبَ الإنجازاتِ المؤكّدةِ الموثّقةِ. مع التقدّمِ في تقنياتِ الاتصالِ والمواصلاتِ وجبَ الحصولُ بشكلٍ دوريٍّ على معلوماتٍ بشأنِ آخرِ ما وصلتْ إليهِ الأمورُ. بالنّسبةِ ليَ كانتْ كلُّ الأمورِ "تسيرُ على البركَةِ وحسنِ الظنِّ والنّوايا وطيبِ الضميرِ"، وذلكَ ما جعلني أخسرُ جهودَ أكثرِ من خمسِ سنواتٍ إضافةً إلى عشراتِ آلافِ الدّولاراتِ دونَ الحصولِ على مردودٍ لتغطيةِ رسومِ وتكاليفِ الطباعةِ والنّشرِ أو جزءٍ بسيطٍ منها. في هذا السّياقِ لا أريدُ التطرّقَ إلى ذِكْرِ عدمِ الحصولِ على ثمنِ وجبةِ طعامٍ متواضعةٍ أو ما يعرفُ بالتعبيرِ الشّعبيِّ العامِّ "ألْحَسُ أو ألْعَقُ إصبعِيَ" منها.

٧ً. حالةُ مبيعاتِ الكتبِ في سوقِ الكتابِ العربيِّ بشكلٍ عامٍّ لا تبعثُ أبداً على التّفاؤلِ، أو هكذا يزعمُ جلُّ النّاشرينَ. ذلكَ ما يقتلُ ماليّاً روحَ الفكرِ والإبداعِ والابتكارِ والإنتاجِ لدى الكتّابِ والنّاشرينَ العربِ، أو حتّى العروبيينَ! حلَّ الحرفُ اللاتينيُّ محلَّ العربيِّ في عقولِ وقلوبِ الأجيالِ. حدثَ ذلكَ بالرغمِ من الطّبيعةِ والنزعةِ الاستعماريّةِ التي يتّسمُ بها "الحرفُ اللاتينيُّ وأهلُهُ" إزاءَ الثقافاتِ والحضاراتِ الأخرى وفي ذاكراتِ الأجيالِ. إذا ما أرادَ العربُ تصحيحَ هذا الوضعِ المزري عليهم القيامُ بثورةٍ ثقافيّةٍ فكريّةٍ علميّةٍ تقنيّةٍ صناعيّةٍ زراعيةٍ تجاريّةٍ باللغةِ العربيّةِ المجيدةِ، فقطْ وفقطْ لا غيرَ. على العربِ وقفُ الانزلاقِ الخطيرِ بأطفالِهم وأجيالِهم نحو براثنِ ما تُسمّى بالعولَمةِ الثقافيّةِ الحديثةِ، بالطّريقةِ هذهِ، التي حوّلتْ الأطفالَ والأجيالَ العربيّةَ إلى ببّغاواتٍ ناطقةٍ بلغاتٍ غيرِ العربيّةِ.

٨ً. يُنصَحُ أنْ لا يُحاولَ الكاتبُ الجديدُ، خاصّةً الأمينُ المتأثّرُ بثقافةٍ متقدّمةٍ مدنيّاً وربّما حضاريّاً، لا يحاولَ جاهداً وعلى حسابهِ! تصحيحَ عقليّةِ النّاشرِ أو أصحابِ دورِ النّشرِ والقائمينَ على شئونِها والعاملينَ فيها. على ذلكَ الكاتبِ أنْ لا يهبطَ بمستوى كرامتهِ ورفعةِ قدرهِ وعزّةِ نفسهِ إلى مستوياتٍ قد تعودُ عليهِ بالاكتئابِ النفسيِّ والمعنويِّ الحادِّ المزمنِ، هو في غنىً عنهُ. قد يحدثُ ذلكَ من جهةِ الكاتبِ عن طريقِ البتِّ بتوخّي تطبيقِ الدقّةِ في المواعيدِ ودفعِ مصاريفِ الطباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ في الوقتِ والمكانِ المناسبيْنِ وللشّخصِ الذي يُعتقَدُ للوهلةِ الأولى أنّهُ مناسبٌ. أغلبُ الظنونِ والاحتمالاتِ أنَّ ذلكَ لن يجدِيَ نفعاً، وسيزيدُ الحالُ خسراناً فوقَ خسارةٍ عندَ ذلكَ الكاتبِ "الصّالحِ الإصلاحيِّ!". سيخسرُ الكاتبُ الضحيّةُ أموالَهُ وجهودَهُ وحتّى ثقةَ النّاشرِ بهِ ويعتبرُها الأخيرُ أنّهُ تمكّنَ من الضحكِ بذكاءٍ وفطنةٍ على لحيةِ أو ذقنِ ذلكَ الكاتبِ المغفّلِ، أو الذي "على نيّاتهِ". إلا ما رحمَ اللهُ تعالى من أقليّةٍ إلا أنَّ هذهِ ظاهرةٌ عامّةٌ مستفحلةٌ وجزءٌ لا يتجزّأُ من ثقافةِ الكذبِ التي تستعرُ في المجتمعِ ولم تضعْ الأجهزةُ المختلفةُ في الدّولةِ حدّاً لها بمختلفِ الطرقِ. المثلُ الغربيُّ الذي يقولُ "لا تستطيعُ تعليمَ الكلبِ الهرمِ تكتيكاتٍ جديدةً" ينطبقُ على حالِ هؤلاءِ النّاشرينَ. يزيدُ الأمرُ عبثيّةً وضياعَ جهدٍ ومالٍ ووقتٍ وخرابَ بيتٍ في حالِ تكاثرتْ أعدادُ الكلابِ الهرمةِ في المكانِ وبشكلٍ ميئوسٍ منهُ، ماليّاً ومعنويّاً وفكريّاً. الحلُّ الحضاريُّ الأمثلُ للكلابِ الهرمةِ هو العزلُ في مكانٍ آمنٍ، لها من غيرِها ولغيرِها منها، حتّى نهايةِ حياتِها.

٩ً. يُنصحُ الكُتّابُ العربُ بتوخّي نشرِ مؤلّفاتِهم في "أوطانِهم الأولى"، حسبَ التعبيرِ الرسميِّ البائسِ المتكرّرِ في المهرجاناتِ الخطابيّةِ ومراسمِ الاستقبالِ والترحيبِ الرسميّةِ

والشعبيّةِ. إذا ما تعذّرَ النّشرُ في دارِ وطنيّةٍ "أولى" يُنصَحُ التوجّهُ إلى دارِ نشرٍ في بلادِ الخواجاتِ حيثُ القوانينُ هناكَ متطوِّرةٌ وتحمي الجميعَ من مكرِ الجميعِ. ذلكَ ما يستثني كذلكَ الغبنَ النّاجمَ عن الدعمِ القبليِّ والمجتمعيِّ الضيّقِ الأفقِ والوطنيِّ الشوفينيِّ الأحمقِ ونُصرةِ السلطةِ الوطنيّةِ والحزبِ الحاكمِ إذا ما حدثَ سوءُ فهمٍ بينَ النّاشرِ والمؤلّفِ، كلٌّ منهما ينطلقُ من مفاهيمَ وبيئاتِ ما يُعرفُ بِ"وطنهِ الأوّلِ". بالرّغمِ من أنَّ ذلكَ يتعارضُ جملةً وتفصيلاً مع روحِ وضميرِ ونزعةِ الكاتبِ، أنا الدّكتورُ موسى يعقوبٌ قاسمٌ، إلا أنَّ ظروفَ النّشرِ عبرَ الأقطارِ العربيّةِ مزريةٌ لدرجةٍ تدعو إلى الإقليميّةِ البغيضةِ على الخوضِ في تفاصيلَ شديدةِ الوطءِ على القلبِ والدّماغِ والأعصابِ والوجودِ والضّميرِ البشريِّ الإنسانيِّ والدينيِّ النبيلِ. حينَها يتمُّ حفظُ الحقوقِ بدرجةٍ متقدّمةٍ مقارنةً مع نفسِ الوضعِ مع دولةٍ أو نظامِ "سايكس-بيكويٍّ" آخرَ. لا حاجةَ لتوظيفِ قانونيينَ عربٍ أو دوليينَ أو عناصرَ من شرطةِ الإنتربولِ للبتِّ في قضايا ذاتِ طابعٍ إقليميٍّ وطنيٍّ بحتٍ. مثلاً لا حصراً إذا ما امتنعَ ناشرٌ عن الردِّ على مكالماتٍ هاتفيّةٍ أو مراسلاتٍ إلكترونيّةٍ مهمّةٍ تخصُّ نشرَ كتابٍ فإنَّ ذلكَ يمكنُ أنْ يُعتبَرَ خرقاً قانونيّاً يُعاقَبُ عليهِ في وطنهِ الأوّلِ؛ ذلكَ بدعوى التسبّبِ في حدوثِ حالاتٍ نفسيّةٍ ومعنويّةٍ وماديّةٍ غيرِ عاديّةٍ من الضّروريِّ أنْ يُعاقِبَ عليها القانونُ. والحالُ هذهِ على النّاشرِ أنْ يدفعَ ثَمناً لتصرّفهِ ويكونَ عبرةً للآخرينَ، ناشرينَ وكتّاباً وحتّى مواطنينَ عاديّينَ. إذا ما كانَ لديْكَ أيّها النّاشرُ عنواناً تلفونياً أو بريديّاً أو إنترنتّيّاً إلكترونيّاً عليكَ أنْ تحترمَ نفسَكَ والذّوقَ العامَ وشرفَ اقتناءِ ابتكارٍ أو اختراعٍ عصريٍّ بشريٍّ إنسانيٍّ في مجالِ التواصلِ والاتصالاتِ، وإلا وجبَ على السلطاتِ حرمانُ ذلكَ الناشرِ من استعمالِ تلكَ الخدمةِ.

١٠. بالرغمِ من كونِها جسماً مشلولاً وامتداداً طبيعيّاً تلقائيّاً لمشروعِ "سايكس-بيكو" في تقسيمِ المنطقةِ إلى دويلاتٍ وأنظمةٍ متنازعةٍ حتّى آخرِ نفَسٍ، إلاّ أنَّ جامعةَ الدولِ العربيّةِ قادرةٌ على القيامِ بدورٍ ما ولو بمستوىً متواضعٍ خجولٍ على شكلِ إسداءِ نصائحَ من أخٍ كبيرٍ ناصحٍ!. أنَا شخصيّاً من أشدِّ المعترضينَ على طريقةِ إيجادِ وتطوّرِ عملِ الجامعةِ العربيّةِ، جملةً وتفصيلاً. لكنْ ومن بابِ الجدلِ "البيزنطيِّ" العقيمِ! الذي لا يؤدّي إلى أيّةِ نتيجةٍ؛ ماذا لو نصحتْ الجامعةُ العربيّةُ، وبأيّةِ طريقةٍ متوفّرةٍ لديها، نصحتْ دورَ النّشرِ عموماً بضرورةِ تنظيمِ وترتيبِ وتهذيبِ شئونِها؟!. ذلكَ بدلَ البتِّ العقيمِ في قضايا هي أصلاً خارجةٌ ومُسْتثْنيَةٌ عن نطاقِ عملِها وقدرتِها مثلَ التعاملِ مع الملفّاتِ الفلسطينيّةِ (وحتّى الغزّاويّةِ ولا حتّى مشكلةُ معبرِ مدينةِ رفحٍ) واللبنانيّةِ والصّوماليّةِ والصحراءِ الغربيّةِ والكويتيّةِ والعراقيّةِ وغيرِها. يمكنُ توجيهُ جهودِ النّصحِ والإرشادِ والأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكرِ إلى عشراتِ ومئاتِ دورِ النّشرِ لإصلاحِ الأنفسِ

وذاتِ البيْنِ والعلاقاتِ مع الآخرينَ. وإذا ما اقتضى الأمرُ من الممكنِ وضعُ قانونٍ أساسيٍّ يعملُ كمعيارٍ أو إطارٍ عامٍّ نبيلٍ متماسكٍ يجمعُ بينَ منهجيّاتِ دورِ النّشرِ في التعاملِ مع شئونِ الطّباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ والتسويقِ؛ معيارٌ مدروسٌ جيّداً ومن مختلفِ الجوانبِ يحفظُ حقوقَ الجميعِ من نزواتِ الجميعِ وأنفسِ الجميعِ الأمّارةِ بالسّوءِ بامتيازٍ. غيرُ معقولٍ أنْ تبقى أجهزةُ جامعةِ الدّولِ العربيّةِ مشلولةً حتّى في قضايا من الممكنِ لها الدّخولُ إليها ولو خلسةً بعيداً عن أنظارِ أجهزةِ الاستخباراتِ المحليّةِ والإمبرياليّةِ الدوليّةِ!.

١١. يُنصحُ الكاتبُ أو المؤلِّفُ الفقيرُ أنْ لا يلجأَ إلى أحدِ الأثرياءِ أو ميسوري الأحوالِ الماليّةِ للتّعويضِ عمّا خسرَهُ أو يخسرُهُ بسببِ التعاملِ مع دورِ النّشرِ وسوقِ الكتابِ. سيخسرُ ذلكَ الكاتبُ ماءَ وجههِ إذا ما رفضَ أحدُ هؤلاءِ الأثرياءِ القادرينَ إعطاءَ الكاتبِ المتوسّلِ، أو "المتسوّلِ المستعطي"، دعماً قد يكونُ في أمسِّ الحاجةِ الحيويّةِ إليهِ. ستكونُ الخسارةُ النفسيّةُ والمعنويّةُ أكبرَ في حالِ حصلَ الكاتبُ على عونٍ أغلبُ الظنِّ على شكلِ صدقةٍ يسعى الثريُّ لاستغلالِها للوصولِ بنفسهِ، ولو واهماً متوهّماً، إلى مكانةٍ روحيّةٍ متساميةٍ بعضَ الشّيءِ!. سوفَ يؤدّي ذلكَ إلى اضمحلالِ القدرةِ على الكتابةِ والعطاءِ بحماسٍ واندفاعٍ وتجربةٍ وتحفيزٍ والرّكونِ إلى دعمٍ آخرَ من الثريِّ نفسهِ أو ثريٍّ آخرَ مشابهٍ. في ذلكَ يلجأُ بعضُ الدّاعمينَ إلى تقديمِ العونِ باسمِ "فاعلِ خيرٍ مجهولٍ" بغيةَ تعظيمِ أجرِ الصّدقةِ، لكنَّ اللهَ تعالى أعلمُ بالأحوالِ وهو خيرُ وكيلٍ موكّلٍ بهم في حينهِ وبعدَ ذلكَ بزمنٍ قد يطولُ أو يقصرُ. بشكلٍ عامٍّ ربّما الموتُ والبطونُ فارغةٌ خاويةٌ خيرٌ بكثيرٍ من الحصولِ على "معونةٍ صدقةٍ" بهذا الشكلِ. هذا مع العلمِ أنَّ معظمَ الأثرياءِ والميسورينَ الكبارِ في البلادِ حصلوا على تلكَ الثّروةِ وأودعوا القسمَ الأكبرَ منها في بلادِ الخواجاتِ بطرقٍ غيرِ مشرِّفةٍ حقيقةً أو مباركَةٍ، لكنْ مشروعةٍ حسبَ القوانينِ المعمولِ بها. بصريحِ العبارةِ فإنَّ الكثيرَ من الأثرياءِ وصلوا إلى ما وصلوا إليهِ عن طريقِ استنزافِ الطّاقاتِ الوطنيّةِ والبشريّةِ والماليّةِ للآخرينَ في البلادِ. الأمثلةُ على ذلكَ كثيرةٌ، عن طريقِ كونِهم عملاءَ أو سماسرةٍ لشركاتِ السيّاراتِ بأنواعِها (مرسيدس وبي إم دبليو وتويوتا ومازدا وشيروكي ..... إلخٌ إلخٌ إلخٌ) أو بيعِ أراضٍ وعقاراتٍ وغيرَ ذلكَ بطرقٍ تحتالُ على القانونِ والشرعِ والمبادئِ والأعرافِ الوطنيّةِ والقوميّةِ والإنسانيّةِ النبيلةِ والشّرفِ العامِّ. لذلكَ "لا أعتقدُ!" أنَّ اللهَ تباركَ وتعالى سوفَ يباركُ هكذا "صدقاتٍ" في جيبِ الكاتبِ أو المؤلِّفِ سواءَ أتتْ من معلومٍ علناً أو سرّاً من "فاعلِ خيرٍ مجهولٍ"، يحاولُ الاحتيالَ على أعلى سلطةٍ في الكونِ!.

١٢َ. في الشّئونِ الصحيّةِ هنالكَ في السّوقِ لا يزالُ بعضُ الأطبّاءِ النبيلينَ الخيّرينَ ممن قد يتطوّعونَ لمساعدةِ المنكوبينَ صحيّاً ونفسيّاً ومعنويّاً وطبابةَ أسنانٍ ولثّةٍ. في حالتِيَ، وعلى سبيلِ المثالِ لا الحصرَ، فإنَّ الدكتورَ "رفعت" الأخصّائيَّ في الطبِّ الباطنيِّ، بالذّاتِ أمراضِ القلبِ، قدّمَ لي عرضاً مفتوحاً دونَ مقابلٍ في حالِ احتجتُ إلى استشارةٍ طبيّةٍ لهُ أو وصفةٍ طبيّةٍ تأتي عن طريقهِ. في مجالِ طبِّ الأسنانِ يعطيني الدكتورُ "فخرُ الدّينِ" حسماً خاصّاً في التعاملِ مع حالاتِ أسنانِيَ قد يصلُ أحياناً إلى أكثرَ من ٥٠% من الفاتورةِ التي تحلّقُ عالياً أغلبَ الأحيانِ. في مجالِ الطبِّ النّفسيِّ والمعنويِّ تكفّلَ الدّكتورُ "المرادي" في علمِ النّفسِ بعملِ ما بوسعهِ كيْ لا تظلَّ الحالةُ النفسيّةُ والمعنويّةُ لديَّ تسيرُ باتجاهِ الحضيضِ بشكلٍ شبهِ متواصلٍ. لم يزلْ في أتونِ النّظامِ الرأسماليِّ الطبقيِّ البائسِ والسّوقِ الحرِّ المتوحّشِ من يتمتّعونَ بإحساسٍ مزيجٍ بينَ الذوقيِّ الشخصيِّ والوطنيِّ والدينيِّ الروحيِّ والإنسانيِّ النبيلِ.

معجون ب٣ (باء ٣ وليس بي ٣) لحلاقة ذقون الكذابين

(قويُّ المفعولِ طويلُ استدامةِ الأثرِ)

قبلَ حواليْ العامِ ونصفِ العامِ من الآنَ اقترحَ السيّدُ "هاني النحّاسُ" استعمالَ معجونِ ب٣ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ (م.ب.ح.ذ.ك. مُبَحْذَكٌ أو المُبَحْذَكُ، كلمةٌ مُبتكَرةٌ أو ماركةٌ تجاريّةٌ متوقّعةٌ!) من جنسيْ الذّكورِ والإناثِ. اقترحَ السيّدُ "النحّاسُ" ذلكَ بعدَ أنْ أخبرتُهُ بمجموعةِ الكوارثِ والويلاتِ التي يواجهُها كاتبٌ أو مؤلِّفٌ حديثُ العهدِ بالتّأليفِ وعاداتِ المجتمع عندَ الولوجِ في سوقِ الكتابِ كلاعبٍ رئيسيٍّ. يعملُ السيّدُ "النحّاسُ" مديراً في قسمِ النّظافةِ والتنظيفِ العامّةِ في بلديّةِ المدينةِ ومنذُ ما يربو على العشرةِ سنينٍ. بالرّغمِ من طبيعةِ عملِ السيّدِ "النحّاسِ" في البلديّةِ إلا أنّهُ حاصلٌ على شهادةِ البكالوريوسِ في علمِ التغذيةِ ولديهِ خلفيّةٌ طبيّةٌ بدائيّةٌ لكنْ لا بأسَ بمستواها. حالةُ السيّدِ "النحّاسِ" تنتشرُ بل تزدهرُ! في مجتمعٍ تستشري فيه البطالةُ، الظّاهرةُ والمقنّعةُ، وتسودُ فيهِ ظاهرةُ الفسادِ وسوءِ توزيعِ المناصبِ والمراكزِ التي تتلخّصُ في "توظيفِ الشخصِ المناسبِ في المكانِ غيرِ المناسبِ". بدوريَ سألتُ السيّدَ "النحّاسَ" عن ماهيّةِ هذا المعجونِ "السّحريِّ الابتكارِ" الذي من شأنهِ أنْ يخفّفَ من الغلواءِ باتجاهِ الكذبِ قولاً وفعلاً وفكراً، وعلى مستوى الأفرادِ والجماعاتِ صغيرِها وكبيرِها!؟. لا بل يمكنُ أنْ

يساعدَ معجونُ بٌ٣ في إعادةِ قولبةِ تفكيرِ الفردِ الكاذبِ وإصلاحهِ دفعةً واحدةً؛ خاصّةً إذا ما تمّتْ الحلاقةُ لذقنِ الكاذبِ في الهواءِ الطلقِ وأمامَ جمهرةٍ من المحتشدينَ، الجمهرةُ إمّا بالصدفةِ أو لغرضِ المشاهدةِ. أجابَ السيّدُ "النحّاسُ" أنَّ المكوّناتِ الأساسيّةَ تتكوّنُ من ثلاثةِ أجزاءَ:

ٌ١. المكوِّنُ الأوّلُ هو الجزءُ الصّلبُ أو المائعُ قليلاً وهو خُلاصةُ مادّةٍ خليطٍ بينَ مصادرَ كربوهيدراتيّةٍ وبروتينيّةٍ وفيتاميناتٍ ودسمٍ بنسبٍ مئويّةٍ متفاوتةٍ لكلٍّ منها. يُستخلَصُ هذا المكوّنُ بطرقٍ خاصّةٍ لكنْ يمكنُ توفيرُهُ بسهولةٍ فائقةٍ من المصادرِ التقليديّةِ. في الوقتِ ذاتهِ يمكنُ التلاعبُ في مقاديرِ تلكَ المكوّناتِ بناءاً على ظروفٍ ميدانيّةٍ أو حسبَ مواصفاتٍ مسبقةٍ يتمُّ التحكّمُ بها. النسبةُ المئويّةُ لهذا المكوِّنِ تزيدُ قليلاً عن الثمانينَ بالمائةِ (٨٠%ِ) من الكميّةِ الكليّةِ لمعجونِ ب.٣

ِ٢. المكوِّنُ الثّاني هو السائلُ المذيبُ وهو عصارةٌ مستخلصةٌ من الموادِّ السابقةِ في البندِ الأوّلِ مذابةٍ في الماءِ وبنسبٍ تتراوحُ. النسبةُ المئويّةُ لهذا المكوِّنِ تقلُّ قليلاً عن ٢٠% وتتوفّرُ فيهِ موادُّ حافظةٌ حمضيّةٌ أو قاعديّةٌ معقّمةٌ تعملُ بفاعليّةٍ قويّةٍ على الحدِّ من الأنشطةِ الميكروبيّةِ الدقيقةِ.

ٌ٣. المكوِّنُ الثالثُ وهو الجزءُ المليِّنُ للذقنِ المرشّحةِ للحلاقةِ ولا تزيدُ نسبتُهُ المئويّةُ عن ١.٠%ِ. بالرّغمِ من قلّةِ كميّتهِ النسبيّةِ في معجونِ بٍ٣ إلا أنّهُ فعّالٌ بامتيازٍ في عمليّةِ التليينِ خاصّةً لذوي البشرةِ الجلديّةِ السّميكةِ (التمساحيّةِ!) والدّمِ والظلِّ الثّقيلَيْنِ. يمكنُ بل يُنصَحُ باستعمالِ جزءٍ من هذا المركّبِ خارجَ عمليّةِ حلاقةِ الذّقنِ، وبالذّاتِ قَبلَ بدءِ وضعِ المعجونِ بكاملهِ على ذقنِ الكذّابِ. بدورهِ سيسهّلُ هذا المكوِّنُ عمليّةَ حلاقةِ الذّقنِ، خاصّةً إذا ما كانت الموسى المستعمَلةُ غيرَ حادّةٍ بما فيهِ الكفايةُ على ذوي اللحى والذقونِ الكثّةِ الحليقةِ.

تُمكنُ إضافةُ معجونِ بٍ٣ إلى سلّةِ محتوياتِ بعضِ صالوناتِ الحلاقةِ، للذكورِ والإناثِ على حدةٍ والمختلَطةَ بينَ الجنسيْنِ، من سوائلِ صابونٍ وشامبو وبودرةٍ وعطورٍ خاصّةٍ بعدَ الحلاقةِ. لكنَّ خصوصيّةَ هذا المعجونِ والذّقونِ المرشّحةِ للحلاقةِ بهِ تفترضُ التعاملَ مع الوضعِ باحترافٍ ومهنيّةٍ خاصّيْنِ، لا بل تلغي الحاجةَ لاستعمالِ السّوائلِ والمعاجينِ الأخرى وبشكلٍ كليٍّ تقريباً. فعليّاً أو عمليّاً! يُفضَّلُ أنْ يكونَ هنالكَ جناحٌ خاصٌّ في الصّالونِ يوضعُ فيهِ الكذّابُ ويتولّى أمرَ حلاقةِ ذقنهِ بمعجونِ بٍ٣ طاقمٌ خاصٌّ مدرّبٌ خصّيصاً للتّعاملِ مع هذهِ الحالةِ. يُفضّلُ أنْ يكونَ ذلكَ الطّاقمُ قد خضعَ أو أُخضِعَ لدورةٍ

مهْنيّةٍ في ذلكَ المجالِ، ثمَّ عَمِلَ في البلديّةِ واكتسبَ نتيجةً لذلكَ خبرةً مقبولةً أو حتّى جيّدةً في مجالِ حلاقةِ الذّقونِ باستعمالِ معجونِ بٍ٣. يُمكنُ تخصيصُ صالةٍ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ فيها توضعُ أعدادٌ من الكراسي والأجهزةِ والموادِّ الأخرى الضروريّةِ لإتمامِ عمليّةِ الحلاقةِ. يُعتقدُ أنَّ الكذّابَ لن يعودَ إلى الكذبِ بعدَ الحلاقةِ الأولى وربّما الثانيةِ أو الثالثةِ، على الأكثرِ. لكنْ من الكذّابينَ على وشكِ التّقاعدِ من مهنةٍ تحتاجُ إلى تميّزٍ في ممارسةِ الكذبِ قد يحتاجُ إلى عددٍ أكبرَ من جلساتِ حلاقةِ الذّقنِ قبلَ أنْ يحسَّ على نَفسِهِ ويعودَ إلى رشدِهِ ويهجرَ الكذبَ نهائيّاً. حينها قد يوجِبُ الوضعُ اتّباعَ طرقٍ أخرى لمساعدةِ ذلكَ الكذّابِ على هجْرِ الكذبِ ما أمكنَهُ ذلكَ.

إسهاباً إضافيّاً في شرحِ طبيعةِ وتركيبِ وطرقِ تخزينِ معجونِ بٍ٣ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ يمكنُ منها جميعاً الوصولُ إلى تكوينِ فكرةٍ أكثرَ وضوحاً عن سرِّ أمرِ هذا المعجونِ. هنالكَ عدّةُ طرقٍ لتخزينِ معجونِ بٍ٣ يمكنُ إيجازُها بالآتي:

١. التخزينُ في الأواني البلاستيكيّةِ والفخاريّةِ والخشبيّةِ والزجاجيّةِ والمعدنيّةِ، الكبيرةِ نوعاً ما، على أنْ تكونَ قابلةً للغلقِ بشكلٍ مُحكَمٍ أسوةً بالموادِّ سريعةِ التّلفِ أو التعفّنِ أو الجفافِ.

٢. "البزّازاتُ" أو الأواني الأنبوبيّةُ الليّنةُ التقليديّةُ للمراهمِ والمعاجينِ الطبيّةِ والأنواعِ الأخرى من المعاجينِ المستعملَةِ لمختلفِ المآربِ والأغراضِ والأهدافِ. قد يأخذُ "البزّازُ" أشكالاً وأحجاماً مختلفةً بحسبِ طريقةِ وطبيعةِ العاملِ الذي يقومُ باستعمالِهِ والظّروفِ التي يُستعمَلُ فيها.

٣. الأواني الزجاجيّةُ والبلّوريّةُ الخاصّةُ حيثُ هنالكَ نوعٌ أو شكلٌ خاصٌّ من معجونِ بٍ٣ قابلٌ للتبخيرِ أو التطايرِ بفعلِ الضغطِ، أيْ تكوينُ أبخرةٍ تُسلَّطُ باتجاهِ ذقنِ الكذّابِ من فتحةٍ في أعلى أوَ عندَ طرفِ الإناءِ. هذا النّوعُ أو الشّكلُ من معجونِ بٍ٣ خاصٌّ بالكذّابينَ من ذوي الرّتبِ الإداريّةِ والاجتماعيّةِ العاليةِ أو الألقابِ العالَميّةِ من مثلِ (VIPS).

٤. إذا ما زادَ عددُ الكذّابينَ في المجتمع فوقَ الحدودِ العاديّةِ ونطاقِ السّيطرةِ على الأوضاعِ قد يستدعي الأمرُ صناعةَ مواعينَ كبيرةٍ أو حتّى ضخمةٍ لاستيعابِ الكميّةِ المطلوبةِ من معجونِ بٍ٣. تُخصَّصُ أمكنةٌ مناسبةٌ لوضعِ المواعينِ في صالوناتِ الحلاقةِ مع توفيرِ أنابيبِ توصيلٍ (توصيلاتٍ) خاصّةٍ ومضخّاتِ زيادةِ الضغطِ، مناسبةٍ وقابلةٍ للتحكّمِ بالضّغطِ فيها.

هنالكَ أشكالٌ وأنواعٌ أخرى من المواعينِ وتعتمدُ على خبراتِ وأذواقِ العاملينَ في صالوناتِ حلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ وبناءاً على اقتراحاتِهم. لا يوجدُ متّسعٌ كبيرٌ من الوقتِ ومقدارِ الجهدِ هنا للتطرّقِ إلى هذهِ الأشكالِ، عدا عن البتِّ فيها وشرحِ تفاصيلِها.

كما ذُكرَ سابقاً فإنَّ معجونَ بٍ٣ السحريِّ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ (مُبَخْذَكٌ أو المُبَخْذَكُ، بالفرنسيّةِ Le Mobahzak**، وبالإنجليزيّةِ** The Mobahthac**، بالألمانيّةِ** Der Mobadak**، بالعبريّةِ هَمُبَهزاك ...) لا يعرفُ التمييزَ. قد يكونُ التمييزُ هنا ضدَّ الذكورِ أو الإناثِ أو بناءاً على الأعمارِ والأجناسِ والأعراقِ والمذاهبِ والأديانِ والحالاتِ النّفسيّةِ والمعنويّةِ والمستوياتِ الماليّةِ والاجتماعيّةِ والتّعليميّةِ. لذلكَ ومع التهافتِ المتصاعدِ على إنشاءِ الشركاتِ الصناعيّةِ والتجاريّةِ، والإثراءِ السّريعِ عن طريقِها، فإنَّ معجونَ بٍ٣ قابلٌ للاستثمارِ فيهِ والنّزولِ إلى السّوقِ الحرِّ بشكلٍ خياليٍّ وواقعيٍّ في آنٍ معاً. هذا مع الأخذِ بعينِ الاعتبارِ التزايدِ المستمرِّ في أعدادِ الكذّابينَ في الجوارِ والضاحيةِ والبلدةِ والمدينةِ والإقليمِ والدولةِ والقارّةِ وعبرَ العالَمِ، بفعلِ انتشارِ أشكالِ وأساليبِ تشجيعِ الكذبِ باستخدامِ وسائلِ الدعايةِ والإعلامِ. لو أنّهُ كلّما كذبَ شخصٌ مئةَ مرّةً يضطرُّ لحلاقةِ ذقنهِ مرّةً واحدةً باستعمالِ معجونِ بٍ٣ فإنَّ ذلكَ سيشكّلُ مصدراً للرزقِ مهمّاً لأعدادٍ متزايدةٍ من أصحابِ الصالوناتِ. بعبارةٍ أخرى سيساهمُ استعمالُ معجونِ بٍ٣ في حلِّ مشكلةِ البطالةِ في الدّولِ والمجتمعاتِ الرأسماليّةِ والسّوقِ الحرِّ بالإضافةِ إلى التقليلِ من أعدادِ الكذّابينَ، ما أمكنَ لمعجونِ بٍ٣ العجيبِ أنْ يفعلَ. روحيّاً دينيّاً فإنَّ مساعدةَ أو حضَّ أو إجبارَ كذّابٍ على هجرِ منهجيّتهِ وسيرتهِ في الكذبِ ستضيفُ إلى حسناتِ العاملينَ في مجالِ مكافحةِ الكذبِ في المجتمعِ. في المجتمعاتِ التي لا تزالُ تعتبرُ الكذبَ رذيلةً فإنَّ ذلكَ سيدفعُ بأعدادٍ متزايدةٍ ممّا يُعرَفونَ بالمبدئيّينَ أو الأصوليّينَ للانخراطِ في هذهِ المهنةِ التي قد تُضْحي سوبر-شريفةً بامتيازٍ؛ بالأخصِّ في المراحلِ الضروريّةِ والحاسمةِ في إصلاحِ المجتمعاتِ التي أتتْ عليها ثقافَةُ الكذبِ بالويلاتِ والثّبورِ.**

يمكنُ لمعجونِ بٍ٣ أنْ يكتسبَ شهرةً إعلاميّةً دوليّةً واسعةً. ذلكَ ما يزيدُ من ريعِ ودخلِ الأفرادِ والجماعاتِ والدّولِ التي تتوسّعُ في صناعتهِ وتطويرهِ واستعمالهِ. يتمُّ ذلكَ عن طريقِ تطبيقِ حلاقةِ الذّقنِ باستعمالِ معجونِ بٍ٣ على مجموعةٍ من نجومِ الكذبِ العالميّينَ من أمثالِ السيّدِ "جورج بوش الابنِ" وطاقمِ إدارتهِ الثابتِ تقريباً. ومن نجومِ الكذبِ الآخرينَ المرشّحينَ لحلاقةِ ذقونِهم بمعجونِ بٍ٣ السيّدُ "ريتشاردُ باطلرُ" رئيسُ جماعاتِ التفتيشِ على أسلحةِ الدّمارِ الشّاملِ في العراقِ؛ كاذبٌ محترفٌ بامتيازٍ على مدى عقدٍ من السّنينِ تقريباً. لو تمّت حلاقةُ ذقونِ هؤلاءِ باستعمالِ معجونِ بٍ٣ ربّما لارتاحتْ

البشريّةُ من مآسٍ وأهوالٍ وحروبٍ سابقةٍ وحاليّةٍ، وقادمةٍ قد تأتي على عمومِ البشريّةِ بالويلاتِ والثبورِ. هنالكَ نجومُ كذبٍ آخرونَ في السياسةِ والمالِ والأعمالِ وأعمالِ المؤسّساتِ والشركاتِ ممّنْ ما لم يُستعملُ معجونُ بٍ٣ لحلاقةِ ذقونِهم سيحوّلونَ كوكبَ الأرضِ إلى قاعٍ صفصفٍ صحراويٍّ تذروهُ رياحُ الفسادِ والبؤسِ والتخلّفِ. بفضلِ هؤلاءِ وهؤلاءِ أصبحتْ رذيلةُ الكذبِ والمقالبِ والضّحكِ على اللحى والذّقونِ أمراً غايةً في الطبيعيِّ والعاديِّ والسّهلِ. لهذا السّببِ قد تحتاجُ البشريّةُ إلى كميّاتٍ كبيرةٍ من معجونِ بٍ٣ لإعادةِ أمورِ الوعيِ البشريِّ الإنسانيِّ إلى نصابِها الصحيحِ.

يمكنُ للشخصِ الكذّابِ أنْ يحصلَ على حسمٍ خاصٍّ مثلَ ١٠% مثلاً على عددِ الكذباتِ التي بسببِها عليهِ أنْ يحلقَ ذقنَهُ في صالونِ حلاقةٍ بهِ قسمٌ خاصٌّ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ. ينالُ الكذّابُ ذلكَ الحسمَ إذا ما ثبتَ أنّهُ أظهرَ تجاوباً مع استعمالِ معجونِ بٍ٣ كأنْ تكونَ أعدادُ كذباتهِ في تناقصٍ واضحٍ. في ذلكَ على كلِّ شخصٍ أنْ يحملَ بطاقةً خاصّةً مثلَ دفترِ قيدٍ فيهِ تُسجَّلُ أعدادُ الكذباتِ وبعضُ الإيجازِ في الشّرحِ عن كلٍّ منها. ثمّةَ هنالكَ ظروفٌ خاصّةٌ وميدانيّةٌ إذا ما توفّرتْ تُمكّنُ الكذّابَ من الإعفاءِ من استعمالِ معجونِ بٍ٣ على ذقنهِ وشاربيهِ ولحيتهِ ووجنتيهِ. من هذه الظّروفِ الخاصّةِ حالةُ الإفلاسِ أو شحِّ المصادرِ الماليّةِ من النّوعِ الحارقِ للأنفاسِ الذي قد يعاني الكاذبُ منها. من المستحسنِ أنْ لا يتمَّ "كسْرُ عيونٍ" و"تصفيرُ جباهِ" المحتاجينَ وتثبيطُ معنويّاتِهم إضافةً إلى، أو فوقَ، ما حلَّ بحالِهم نتيجةَ فقرِهم أو حتّى إفلاسِهم الماليِّ. لكنَّ هذا التّسهيلَ أو الامتيازَ لا يعفي على الدّوامِ من استعمالِ معجونِ بٍ٣ حتّى مع المفلسينَ سرّاً، وعلناً على رؤوسِ الأشهادِ.

من خبرتِيَ المتواضعةِ! في الحياةِ عموماً والكتابةِ والتأليفِ والنّشرِ خصوصاً فإنَّ قسماً لا بأسَ بهِ من دورِ النّشرِ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى حلاقةِ ذقونِ أصحابِها والعاملينَ فيها باستعمالِ (المُبَحْذَكِ)، معجونَ بٍ٣ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ. هذا مع جمِّ الاحترامِ والتبجيلِ لعددٍ، لا بأسَ بهِ كذلكَ، من النّاشرينَ الذينَ لا يُفضّلُ حتّى ذكرُ سيرةِ معجونَ بٍ٣ في حضرتِهم، وعلى الإطلاقِ. إذا ما ثبتَ أنَّ هنالكَ كاذباً بشأنِ ما باتَ على الأجهزةِ المختصّةِ مراقبةُ الوضعِ وتقصّي الحقائقِ والبدءِ بِ"فتح ملَفٍّ" لهُ وتسجيلِ أعدادِ المرّاتِ التي يكذبُ فيها ذلكَ النّاشرُ أو من ينيبُ عنهُ، وحجمِ وعمقِ وفحشِ تأثيرِ كلِّ كذبةٍ. في حالِ تجاوزَ عددُ الكذباتِ حدّاً معيّناً وحسبَ نوعِ الكذبةِ وجبَ توجيهُ النّاشرِ أو من يحلُّ محلَّهُ إلى أقربِ صالونِ حلاقةٍ بهِ جناحٌ خاصٌّ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ. في هذا السّياقِ يمكنُ أنْ يتمَّ اختيارُ أقربَ صالونِ حلاقةٍ إلى عنوانِ أو مكانِ نادٍ أو ملتقىً أيْ "كونسورتيوم" أو تجمّعٍ للنّاشرينَ أو فرعٍ للأخيرِ، في الاتجاهاتِ والمواقعِ المحليّةِ والإقليميّةِ والدوليّةِ. في هذا السّياقِ يمكنُ أنْ يُطلَبَ من صاحبِ صالونِ الحلاقةِ التقليديِّ

ذاكَ افتتاحُ جزءٍ خاصٍّ لحلاقةِ ذقونِ الكذّابينَ من النّاشرينَ وأطقمِ مساعديهم ومندوبيهم، وبأسعارٍ تناسبُ المقامَ والأوضاعَ الماليّةَ!.

هنالكَ أنواعٌ رئيسيّةٌ من الكذبِ التي عادةً ما يقترفُها بعضُ النّاشرينَ من ذوي الخلفيّاتِ التربويّةِ والفكريّةِ والأوضاعِ البائسةِ وتتلخّصُ بالآتيةِ:

١. العقودُ المتّفَقُ عليها بشأنِ الطباعةِ والنّشرِ والتّوزيعِ. ما لم يكنْ هنالكَ عِقدٌ قانونيٌّ صريحٌ صارمٌ واضحٌ مفصّلٌ مُلزِمٌ بين النّاشرِ والمؤلّفِ فإنَّ هنالكَ آفاقاً واسعةً فيها النّاشرُ يسرحُ ويمرحُ ويبطشُ في الكذبِ والدّجلِ على هواهُ. يحدثُ ذلكَ كما لو لم يكنْ في العالَمِ شيءٌ اسمُهُ ضميرٌ أو ذوقٌ أو تربيةٌ أو تهذيبٌ أو تعليمٌ أو دينٌ أو مذهبٌ أو قانونٌ أو رقابةٌ أو سلطةٌ، أو حتّى في الأعالي ربٌّ يُعبَدُ.

٢. الكذبُ بشأنِ المبيعاتِ وريعِ الكتبِ الموزّعةِ وعددِ نُسخِ الإصداراتِ المتواليةِ والأسعارِ والأجورِ. هنالكَ ميدانٌ واسعٌ لدى النّاشرِ ومن يعملُ في معيّتهِ بعلمٍ أو بغيرِ علمٍ لاقترافِ أمّهاتِ الكذباتِ بهذا الشّكلِ أو ذاكَ. لو أنَّ كلَّ عشرةِ كذباتٍ تلقّى فيها الكذّابُ حلاقةَ ذقنٍ مرّةً واحدةً باستعمالِ معجونِ ب٣ ودافعاً عليها رسوماً مناسبةً لصالونِ الحلاقةِ فإنَّ ذلكَ سيردعُهُ ويردعُ الكثيرينَ من أمثالهِ من التّمادي في الكذبِ بشكلٍ أرعنٍ.

٣. المواعيدُ والعهودُ المقطوعةُ مصدرٌ لا بأسَ بهِ من الكذبِ المؤدّي بصاحبهِ إلى حلاقةِ ذقنٍ مناسبةٍ باستعمالِ معجونِ ب٣ خاصّةً من النوعِ الأخيرِ الذي يتشكّلُ من أبخرةٍ مضغوطةٍ يتمُّ توجيهُها بتقنيةٍ مناسبةٍ نحو ذقنِ الكذّابِ. أكثرُ المواعيدِ المنكوثةِ هي بشأنِ توقيتِ الإصداراتِ والتي قد تتأخّرُ وتمتدُّ إلى عدّةِ شهورٍ وربّما سنينٍ ما لم يقمْ المؤلّفُ بعملٍ شبهِ المستحيلِ للإفلاتِ بجلدهِ بمؤلّفٍ حصلَ على وعدٍ بنشرهِ في هامشٍ زمنيٍّ محدّدٍ.

٤. الكذبُ بشأنِ الظّروفِ النفسيّةِ والصحيّةِ والمعنويّةِ والاجتماعيّةِ والسّياسيّةِ التي تحولُ دونَ التصرّفِ الملائمِ المناسبِ حيالَ قضايا الطباعةِ والنّشرِ والرسومِ والمواعيدِ والوعودِ المقطوعةِ. في ذلكَ فإنّهُ إذا ما كانت لدى النّاشرِ مشكلةٌ مع نفسهِ صحيّاً أو معنويّاً أو زوجتهِ أو أحدِ أولادهِ أو جيرانهِ أو أقرانهِ أو موظّفيهِ أو لجانِ القرّاءِ! فإنَّ ذلكَ ليسَ من شأنِ الكاتبِ أو المؤلّفِ، بتاتاً وعلى الإطلاقِ. إذا ما أعلنَ ناشرٌ عن نفسهِ ناشراً يجبُ عليهِ أنْ يتمتّعَ بدرجةٍ جدُّ مقبولةٍ من التصرّفِ حيالَ الآخرينَ كناشرٍ، بغضِّ النّظرِ عن حالتهِ العامّةِ أو إذا ما كانَ يحاولُ تأمينَ مصدرِ رزقٍ آخرَ أو حلَّ مشكلةٍ قد تكونُ مستعصيةً أزليّةً على ذلكَ النّاشرِ.

ّ٥. هنالكَ متفرّقاتٌ أخرى في الكذبِ مثلَ الظّهورِ على وسائلِ الإعلام بشكلٍ يوحي أنَّ ذلكَ الشّخصَ على الشّاشةِ من النّوعِ الأمينِ الحريصِ على الثقافةِ والعلمِ والأجيالِ والكتّابِ والمفكّرينَ، وكأنّهُ لم يرتكبْ كذباتٍ ترقى بسهولةٍ إلى مستوى الجرائمِ وربّما الموبقاتِ. وثمّةَ كذباتٌ من مثلِ أنَّ ضغطَ العملِ وازدحامَ الدَّوْرِ في النّشرِ عملَ على تأخيرِ صدورِ المخطوطةِ لأشهرٍ عديدةٍ بعدَ الوعدِ المقطوعِ.

لكنْ وعلى الطّرفِ النّقيضِ تماماً فإنّهُ يمكنُ! القولُ أنَّ كلَّ ما قيلَ سابقاً وأعلاهُ بشأنِ الكذبِ والتركيزِ على حالِ دورِ النّشرِ والنّاشرينَ هو من قبيلِ التجنّي الأحمقِ والخيالِ المقيتِ الأرعنِ الغبيِّ، الذي لا لزومَ لَهُ على الإطلاقِ. إضافةً إلى ذلكَ فإنَّ هنالكَ الكثيرينَ من النّاشرينَ ممنْ لا يعونَ هذهِ النقاطِ والتفاصيلِ بهذا الشكلِ أو ذاكَ، بسببِ طبيعةِ وتسلسلِ تكوينِهم النّفسيِّ والفكريِّ والمعنويِّ والعضويِّ. ربّما هذهِ طبيعةُ الحياةِ والظروفِ والمجتمعِ، ودونَ تلكَ المنهجيّةِ سوفَ يموتُ هؤلاءِ جوعاً وفقراً ومهانةً أمامَ أنظارِ الآخرينَ وفي ضمائرِهم الميّتةِ. كيفَ لهؤلاءِ أنْ يشبّوا عن طوقٍ فيهِ ثقافةُ الكذبِ في مجتمعٍ وحياةٍ لم تعدْ رذيلةً؟!؛ أجهزةُ التربيةِ والتعليمِ لا تصرفُ وقتاً يُذكرُ لتنشئةِ أجيالٍ تعي مأساةَ انتشارِ ثقافةِ الكذبِ على نطاقٍ واسعٍ!. الكبارُ يكذبونَ على الصغارِ والعكسُ بالعكسِ، والتجّارُ يكذبونَ على المستهلكينَ والعكسُ بالعكسِ، والأقوياءُ يكذبونَ على الضّعفاءِ والعكسُ بالعكسِ، وماذا لو يكذبُ النّاشرونَ على الكتّابِ والمؤلّفينَ ودائماً العكسُ بالعكسِ يُذكَرُ؟!.

في نقطةٍ نهائيّةٍ لكنْ قد تكونُ من نوعِ الضّربةِ القاضيةِ القاتلةِ النهائيّةِ (KO أيْ Knock Out**) هو أنّكَ أنتَ يا مسيو! موسىَ القادمَ من صُلبِ "يعقوبِ قاسم" ومن رحمِ السيّدةِ "حلوةِ محمّدٍ" (الوالدانِ غيرُ معروفَيْ النسبةِ العائليّةِ الأكيدةِ لدى الكاتبِ قبلَ الجدِّ الأوّلِ لكلٍّ منهما!) من النّوعِ الذي لا يمكنُ التعاملُ معهُ لا شكليّاً ولا أكاديميّاً فكريّاً، لا أنتَ ولا مؤلّفاتُكَ ولا أفكارُكَ البائسةُ اليائسةُ التي عفا عنها الزّمنُ وتخطّاها المنطقُ؟!. هؤلاءِ النّاشرونَ كغيرِهم من بني البشرِ أذكياءُ وانتقائيّونَ عمليّونَ براغماتيّونَ يختارونَ ما يناسبُهم قدْرَ الاستطاعةِ ويتركونَ ما تبقّوْنَ يتلظّونَ بنيرانِ غبائِهم وحمقِهم الطائشِ وصفاقتِهم البائسةِ. في هذا السياقِ عُدْ إلى رشدِكَ يا هذا الغبيَّ الأحمقَ!، ولتجعلْ هذا "المؤلَّفَ" بعنوانهِ من النوعِ الانتقاميِّ المفتري الأحمقِ (سرابٌ في كأسِ التّفاؤُلِ) أو (زراعةٌ فوقَ صخورِ جلاميدٍ) آخرَ عملٍ لكَ في مجالِ الكتابةِ والنّشرِ والتوزيعِ والتّسويقِ. فكرةُ الدّخولِ إلى سوقِ الكتابِ لأمثالِكَ ضربٌ من الخيالِ الفكريِّ غيرِ الواقعيِّ. بإمكانِكَ أنْ تظلَّ تكتبُ لكنْ اكتبْ فقط لنفسِكَ ولمنْ قد يشدُّ على يدِكَ، لسببٍ أوَ لآخرَ. ذلكَ قبلَ أنْ يأتِيَ عليكَ يومٌ يجبرُكَ من تتهمُهم بالكذبِ والاحتيالِ والنّصبِ على استعمالِ معجونِ ب٣**

على ذقنِكَ لوحدِكَ، وربّما معكَ عائلتُكَ ومن قد يلفُّ لفَّكَ أو يدورُ في فَلَكِكَ!؟. ربّما سيرجمُكَ الجميعُ وسيقولونَ بملءِ أفواهِهم ومن غيظِ قلوبِهم "اللهمَّ لا عدوانَ إلا على الظّالِمينَ"!.